بكالوريوس
إعدام
ع عمرو البدالي

رواية
بكالوريوس إعدام

عمرو البدالي

وَالعَدل في الأَرض يُبكي الجنَّ لَو سَمِعوا
بِهِ وَيستَضحكُ الأَموات لَو نَظَروا

فَالسّجنُ وَالمَوتُ لِلجانينَ إِن صَغرُوا
وَالمَجدُ وَالفَخر وَالإِثراء إِن كبرُوا

فَسارق الزَّهرِ مَذمومٌ وَمُحتَقَرٌ
وَسارِقُ الحَقل يُدعى الباسِلُ الخطِرُ

وَقاتلُ الجسمِ مَقتولٌ بِفعلَتِهِ
وَقاتلُ الرُّوحِ لا تَدري بِهِ البَشَرُ

جبران خليل جبران

استغرقتُ عامين لأحصل على بكالوريوس إعدام، وعليك أن تعلم

شئتَ أم أبيت أنه واقعنا المرير الذي حاولتُ إخفاءه بين سطور روايتي بكل ما لديَّ من قوة، ومع ذلك تبقى الصورة النهائية

مُنتهي القبح..لا مكان هنا للمدينة الفاضلة.. لا مكان هنا لأفلاطون. مرحبًا بكم في

مدينة الرَّزيلة.. مدينة القبح.. مدينة الواقع.

وأخيرًا، لا أتحمَّل أدنى مسئولية إن تشابَهت إحدى شخصيات روايتي مع شخصية جنابك، فأنت فقط من تتحمَّل تلك المسئولية.

عمرو البدالي

رملٌ مُغرِق

(يومًا ما – صحراء شاسعة)

خرجتُ لاهثًا وراء ظمئي للحياة كأخر شعاع ضوءٍ أرسلتُه الشمس فلم يجد سبيلًا لَشّق ظُلمة الليل الساكنة داخلي، وعاد يجرُّ أذيال خيبته للسماء..أبحثُ حولي عن طوق للنجاة أملًا في الخروج من بحر التِّيه فلا أجدُ..أُجرجِرُ قدميَّ مُحاولًا الهرب سُدًى؛ فتغمس أكثر برمال مُلتهبة يغلي لها عقلي وذهني المضطربين..

نظرتُ حولي لأرى صحراء شاسعة لا نهاية لها..الشمس تنتصف السماء فوق رأسي..لا أعلمُ هل ما أراه حقيقة أم خيالًا يستعدُّ لقتلي..كمَنْ غاصَ بموجاتٍ هائلةٍ تتقاذفُه دون أدنى مقاومة..لا أدرك حتى متى بدأ ذلك وكيف؟ ولكنني الآن بكابوسٍ مُتكرِّر يعتصر قلبي دومًا.

أنا البائسُ التائه بتلك الحياة..أنا زعيم الحزانى..أنا نادر أمجد عبد الغني رشوان النصراوي..شاب في منتصف الثلاثينيات من عمره ..ولكني أشعرُ أنني بنهايته..أرى روحي تصرخ راغبةً بالرحيل وجسدي يأبى..يسجنها داخله للأبد رافضًا خروجها..صراعٌ يُمزِّقني..

الشمس تتوسَّط السماء بأشعتها الحارقة دون ساترٍ بيني وبينها وكأنها تُحدِّثُني وجهًا لوجه

-ذاك ما جنتُه يداك..تلك هي عُقوبتك..التِّيه.

لَمْ أقوَ على النظر إليها..أشعتها تجلدُني بقسوة يحترق لها جلدي..العرق يتصبَّب مُخضِّبًا تلك الرمال الساخنة..كثبان الرمال أُصارِعُها كيلا تلتهمني كوحشٍ كاسرٍ يوشك بالقضاء علىّ..

-الغَوث..الغوث..هل من أحد هنا؟

صوتي الرافض للتِّية يصرخ عاليًا..يتحدى عقلي المدرك للنهاية..صحراء مقفرة..شمس محرقة..رمال متحركة..حتمًا الموت هو النهاية..

صرخ صوتي مجددًا:

-الغوث الغوث..هل مِن منقذ؟

تَبًّا لصوتي الغبي! تَبًّا لقلبي المستتر خلفه! من أين أتى بهذا الأمل الزائف؟ تلك هي القلوب تتعلق بالحياة حتى النهاية..حتى بعد موتي قد ينتقل لجسد آخر ينبض فيه بالحياة الخادعة..علامَ تنبض أيها القلب وأنت تعلم أنني ميت لا محالة..كُفّ الآن بكرامتك ولا تنكسر..لماذا تذل نفسك وتذلني لتلك الحياة؟ فلنهرب معًا لمكان آخر..

-الغَوْث الغوث..هل مِن مُجيبٍ؟

لا فائدة..عليَّ انتظار الموت وحدي.. أُهروِلُ كالمجنون بين تِلال من الرمال المتحركة، قدمايَ يُحرِّكُهما قلبي بحثًا عن النجاة..بينما صمتَ عقلي وكأنه ماتَ إكلينكيًّا رافضًا الذُّلَ والهوان..

ما هذا الذي أرى؟ شيء لا يُصدِّقُه عاقِل..انتصبَ عقلي واقفًا مذهولًا..انتصرَ قلبي بمعركته الأخيرة..هناك مَنْ يُجيب؟ هناك مَنْ يُنقذ؟ هناك أحدٌ هنا؟

وقعت عيناي على أشجار كثيفة على مدى البصر..أشجار عالية كنبتٍ شيطانيٍّ وسط الصحراء..حدَّثني عقلي حينها:

-حتمًا هناك ماء..حتمًا هناك حياة.

هُرعتُ سريعًا أشقُّ طريقًا للحياة....اقتربت أكثر وأكثر، وإذا بي أنظر مدينة هائلة مُتسعة..تحوطها الأشجار من كلّ جانبٍ..نهر كبير يمرُّ بجوارها تتدفَّقُ به المياة العذبة..شربتُ وشربت وشربت وكأنها الشربة الأخيرة بالحياة..تدفَّقت الدماءُ بعروقي مرةً أخرى وصرخَ قلبي فرحًا بالحياة..نظرتُ لأرى أين أنا..سور كبير يُحيط بتلك المدينة المرتفعة كجبلٍ عالٍ وسط الصحراء..أعلام مختلفة الألوان تُرفرف على مدى البصر..لكني لا أرى أحدًا..لمن تلك المدينة؟ وأين أنا؟ اقتربت من بابٍ ضخمٍ لاحظتُه بوسط السور يبدو أنه الممر الوحيد لداخل تلك المدينة العجيبة..مدينة وسط الصحراء تحوطها الأشجار مِنْ كُلّ جانبٍ، ونهرٌ عذب لا ترى أوله ولا نهايته يمدُّها بالحياة..

باب ضخم لم أرَ مثله بحياتي..خشبُه أحمر اللون..به شيء يخطف عينيَّ..مددتُ يدي لأتحسَّسَه فإذا به ياقوت أحمر..لم أدرِ أهو حقيقي أم لا؟ ولكنه بديع المنظر يُبهر الناظرين..الباب تحفة فنية رائعة..فتحتُ الباب بحذرٍ شديدٍ..صريره يصمُّ أذنيَّ، ويتردد حولي كصدى صوتٍ يخلع القلب خوفًا لما يخفيه وراءه..

جحظتْ عيناي لما أرى..مدينة خيالية بديعة..قصور على مدى البصر عالية لا ترى نهايتها..قصور تتلألأ وسط النهار بلون أصفر كالذهب....اقتربتُ من أحدها غير مُصدقٍ لما تراه عيناي..باب آخر مثل باب المدينة مُرصَّع بالياقوت الأحمر..فتحته ودخلت..

وكأنني بجنة الله على الأرض..كل شيء هنا صُنِعَ من الذهب والياقوت والفضة..حتى الأشجار تغلفها صفائح من ذهب..وكأنني عثرت على كنز الدنيا بتلك الحياة..كمن يدخل الجنة..سخرتُ من قلبي الساذج حينها..فأنا آخر مَنْ تُسوِّل له نفسه دخولَ الجنة..وأول من يدخل جهنم..قد يكون ما أراه وهمًا.. فليس كل ما تُعايشُه حقيقةً، وليس كل حقيقة تتحمَّل معايشتها ولو اطلعتَ على كتاب حياتك ستنتهي، ولن تعرف نهايتك إلا إذا كنتَ أنتَ إبليس ذاته حينها ستُقذف بالجحيم لا محالة ليس بنهاية المطاف فقط ولكن من الوهلة الأولى لولادتك..وكنتُ أنا كذلك..بل أنا خائف من كوني إبليس بذاته وأُصبتُ بفقدانٍ للذاكرة..مَن يدري؟ مَنْ يؤكِّد ومَنْ ينفي؟ كل شيء جائز بهذه الحياة..كلُّ شيء مكتوبٌ بمقادير قبل ولادتك..أشعر أنني ملعون بعدد الآهات الصارخة هربًا من الجحيم منذ فجر التاريخ.

نظرتُ حولي..قُصورٌ على مدى البصر..أزقَّة صغيرة تُظلِّلها الأشجار وتحوطها الأنهار الجارية، يجري ماؤها بقنواتٍ من فِضَّة كل قناة منها أشدُّ بياضًا من الشمس..

ناديتُ بأعلى صوتي:

-هل مِنْ أحدٍ هنا؟ هل مِنْ مُجيبٍ؟

لا أحد..لا أسمع سوى صوتي..جنة فارغة من أهلها..رهبة شديدة تتملَّكني..أعلمُ أنني بالمكان الخطأ..أشعر بنيران تقتربُ فجأة وتلتهمُني مُعلنةً دُخولي جهنم وبئس المصير..تبًّا لذلك الكابوس! ألن ينتهي؟ ناديتُ مرةً أخرى بحذرٍ:

--هل مِنْ أحدٍ هنا؟ هل مِنْ مُجيبٍ؟

صمتٌ مُطبِق..لا صوت إلا صوت المياه المنسابة بتلك القنوات الفضية البيضاء..أشعرُ بالجوع الشديد..مددتُ يدي لشجرة تفاح قريبة..نظرتُ إلى ثمرتها خائفًا..كل الشجر حولي على مدى البصر من النوع نفسه..شجر تفَّاح..تذكرتُ تلك القصة التي حكتها لي أمي في صِغري..قصة الخروج من الجنة..نظرتُ إلى ثمرة التفاح وابتسمتُ ساخرًا:

-أنا لستُ نبيًّا.

قضمتُ قضمةً منها بشراهةٍ شديدة..طعمٌ لا مثيل له..غِبتُ في سكراتها..مَرَّ شريط حياتي أمام عينيَّ..شريط عذاباتي..أشعرُ بوجعٍ شديد ينتابُ قلبي..أستمعُ إلى دقاتِه المُتعالية الصارخة..

أنا الظالم المحروم..أنا الطاغي..النادر بكل شيء بالحياة..نادر أمجد رشوان.. للظلم وجوهٌ لا تنضبُ..والحقُّ مخلوقٌ أبكم تجذبه قُيودُ الظالمين قسرًا؛ فاعلم: إن أتتك أُمَّةٌ استشرى الظلم بين أوصالها واتخذت الكِبر عقيدةً وعِلمًا، يتهافت طالبوه على حفظه فهلاكها آتٍ لا محالة ، فالظلم مَهلَكةُ الشعوب قبل حُكامها، فأولئك الناهلون مِن بحر بطشهم صمتًا هم الصارخون كذبًا بالعدل والهناء.
آفة الشعوب أفَّاقوها.. آفة الشعوب الخرس..وأنا الأفَّاق الأعظم..

الأرض تهتزُّ من تحتي..صرختُ عاليًا:

-الغوث الغوث..الغوث الغوث..الغوث الغوث!

ما مِنْ مُجيبٍ..ما مِنْ مُنقذٍ..لا أحد هنا..انشقت الأرض وغاصت قدمايَ رغمًا عني برمالها..سقط التفاح على الأرض ليترك الأشجار خاوية..كأعجازِ نخلٍ خَرِبَة..عدد هائل من التفاح يغوص بالرمال حولي..بغمضة عين تحوَّلت الجنة للعنة، أُحاوِلُ جاهدًا الهروب منها..وأنا لا أدري أين أذهب..أأعود للصحراء المميتة..أم أبقى هنا وحدي أواجه مصيري؟ تبًّا لي! لا مجال للاختيار..سبق السيف العزل..أغوصُ بالرمال أكثر وأكثر..تشدُّني أحشاؤها لأسفل بقوة شديدة وكأنها مُتشوِّقة لالتهامي..

صرختُ لأخر مرة:

-الغوث الغوث..الغوث الغوث.

صرختُ وأنا أتساءل: متى ينتهي هذا الكابوس المؤلم؟ هل من سبيلٍ للخروج من هنا؟ هل من سبيلٍ لإنهاء كل شيء؟ إلى متى سأظلُّ مُعذَّبًا هكذا؟ إلى متى سأظلُّ غارقًا؟ اللعنة! الرمال تضمني أكثر وأكثر بأحضانها القاسية..أشعر بضلوعي تتكسر..تلك هي النهاية..الموت..مهما تختلف الأسباب..الموت هو الموت حتى وإن كان غَرَقًا برمالٍ متحركة .

هارِبٌ من الذات

(٣٠٠٠ عام قبل الميلاد -- المملكة)

-ملك بلادنا المُعظَّم..الملك "سيسنار الرابع"

تحية طيبة وبعد

اتِّباعًا لأوامر جلالتكم بنشر الأمن والأمان بكل أرجاء المملكة، وإيمانًا منا بدورنا جميعًا في الحفاظ على مملكتنا الحبيبة ووطننا العظيم أعَدْنَا هيكلة العسس الملكي، وأعَدْنا توزيعه بكل دقة بجميع الأنحاء، وبإحدى الليالي وقبل شروق الشمس بساعة واحدة عثرنا على امرأة في العقد الثالث من عُمرها فوق إحدى السُّفن المُبحِرة من بلاد بعيدة ممتلئة بأضواء لم نرَ مثلها من قبل وليس عليها سواها، وجدناها مُقيَّدة اليدين والقدمين بسلاسل وجنازير حديدية سميكة داخل قفص حديدي كبير بالسفينة.

وبالتحقيق معها لم تنبس ببنت شفة، وطلبت مُقابلة جلالتك مُصرَّة على ذلك لأمر خطير رفضت الإفصاح عنه، وتبعًا لأوامر سيادتكم نُرسلها لكم بحراسة خاصة كما طلبتم ولكَ منا فائق الاحترام والتقدير.

خادمكم الأمين

رئيس العسس الملكي

الرب.. الملك.. الوطن

حالة من الغموض تحيط بتلك الفتاة الرافضة للنطق بأي كلمة منذ أكثر من شهر سوى:

-أرغبُ بمقابلة الملك لأمر خطير.

لم تنطق سواها.. اخترقت سفينتُها شطآن تلك المملكة المُعظَّمة..قضت بين قضبان سجنهم أصعب لياليها رافضة البوح بسرها الدفين بين ضلوعها..حاولَ رئيس العسس الملكي ورجاله معها مرارًا وتكرارًا ولكن كل محاولاتهم باءت بالفشل، فلم يجد مَفرًّا من إبلاغ جلالة الملك المُعظَّم ليطلب مقابلتها على عَجَلٍ.

شدَّت الفتاةُ رحالها مُكبَّلة بالقيود أعلى عربة العسس الملكي التي يجرُّها خمسة خيول بصحبة وفد أمني مُنتقًى بعناية لتدقَّ طريقها وسط الدروب المختلفة للمدينة الجديدة حيث الملك وحاشيته.. سَفَرٌ قد يستغرق قُرابة عشر ليالٍ بين المدينتين..مملكة واحدة تجمع مدينتين إحداهما عتيقة منحوتة وسط الجبال المُطلَّة على البحر الأبيض المتوسط يعيش بها أغلب سكان هذه المملكة البعيدة..تقع مدينتهم تلك على طريق تجارة بحري وبري تمرُّ عليهم القوافل برحالهم وسفنهم المُحمَّلة بالبضائع المختلفة وقد تتوقَّف لديهم عدة أيام للبيع والشراء فكانت ملتقًى دائمًا للتُّجار من كل أنحاء الأرض حينها..ومع ذلك شعبها فقير تستر أجسادهم قليلٌ من الأقمشة المهترئة.. راضون بالقليل، لقد اعتادوا ذلك منذ القدم..لم يَرِثوا الفقر فقط بل كان الذل والخنوع ميراثهما الأكبر..اعتادوا الصمت والخضوع لحكامهم، والرضا بالفُتات إن وُجِدَ....مَرَّ العسس بعربتهم أمام القصر الملكي القديم ببداية الرحلة..نظرت له الفتاة بعينين تملؤها الدموع وكأنها تعرفه جيدًا..يعوق رؤيتها فقط ذلك الثَّرى المُتصاعد الهائج من أقدام خيولهم، ولكنها رأته.. أبصرتْهُ جيدًا..قصرٌ خاوٍ مهجور منذ فترة ليست بعيدة بعد تلك الحادثة الشهيرة بالمملكة..حادثة يعرفها الجميع ويرفضون البوح بها ولو حتى لأنفسهم..يرتعبون لذِكْرِها..

كان ملكهم السابق يعيش معهم على أراضي تلك المدينة..حَكَمَهم أكثر من ثلاثمائة عام..أمدَّهم الله بأعمار كبيرة وبَسْطة في الجسم، ذاك كان حالهم وحال معظم سكان الأرض بتلك الفترة الزمنية قبل ميلاد المسيح بأكثر من ثلاثة آلاف عام.. أصغرهم مات على أربعمائة عام..
وكذلك حكامهم أكلوا حقوقهم قلما تجد ملكًا عادلًا بذلك الزمان.. قلما تجِدُ مَن اتَّخذ العدل عقيدة ومنهجًا.. الإنسان بطبعه ظالِم، غرور، إلا مَن رَحِمَ ربي، حينما تُهيَّأ له الفرصةُ يتجبَّر.. يطغى.. وقد يُهيِّئ له عقلُه أكثر من ذلك.. فيصرخ بكُلِّ خِسةٍ:

-أنا ربُّكم.. أنا إلهُكُم الأعلى.. أخلقُ وأُحيي وأُميتُ.

فيركع له سائر مَنْ يُطعِم.. ليس عن اقتناع.. لا.. رغبة في العيش بسلام.. ذاك هو حال الإنسان بكل زمان.. وتمرُّ قرون وقرون والحال هو الحال.. وكأن الله أمدَّهم في طغيانهم قرونًا من الزمان يعمهون..

كان مَلِكُهم السابق من ذلك النوع.. وقفَ يومًا يخطبُ بهم مُلقيًا بوجوههم عقيدتهم الجديدة الجبرية:

-أنا ربُّكم الأعلى.. أنا الله.

ذُهِلت العقول وبُهِتت الأذهان وخرست الألسنة.. فلم يستطع أحد الوقوف أمامه إلا أخوه..وبعض العاقلين قليلي الحيلة ممن يملكون بعضًا من الرفض الخفي المُستتِر.. خَرَّ الجميع ساجدين له رغبةً في لقمة العيش..حطَّم أصنامهم ومعابدهم ونحتَ صَنَمَهم الجديد ليكون بكل بيت من بيوتهم..صَنَمُ الملك المُعظَّم.. ربهم الجديد.. من أصعب الأزمان التي تمرُّ على الشعوب تلك التي تُحصد فيها أرواحهم وتُبقرهم بطونهم ومن معهم وهم على قيد الحياة..حاول البعض الاعتراض على استحياء بالخفاء.. اجتماعات بستر الليل.. رغبة جامحة للتغيير.. ولكن هيهات.. شعب يسوقه الذُّل والهوان..لا نتيجة إلا الصمت المخزي.. الخرس..سرعان ما تكشَّف متمردوه..حتي أخوه فضَّل الصمت والتجاهُل بعد أيام لما رآه من خنوع لشعبٍ لا أمل فيه.. وبدأت أحلُك الفترات بحُكمه..فرضَ عليهم الضرائب المختلفة والباهظة..اعتقلَ الكثيرين ممن اعترضَ على ظُلمه وجبروته..بل قتلَ أغلبهم دون رحمة وألقاهم في غياهب النسيان.. ملكٌ جبارٌ عنيد..ذاعَ صِيته بالأرض كلها..امتلكَ جيشًا من أقوى جيوش الأرض رفعه إلى قمة عروشهم..شعب عاش ومات بالفقر والذُّل والهوان..وملك دانت له الدنيا بما فيها، وكلما قارَبت نيران الثورة على الاشتعال داخلهم الخوف يَئِدُها بمَهدِها دومًا..حتى بعد تلك الحادثة يخافون حتى من مجرد ذِكره أو النطق باسمه..يتوقعون عودته بأي لحظة.. الطاغية الأعظم..كابوس مرعب غادر مدينتهم ..متجهًا لمدينته الجديدة التي استغرق بنيانها مئتي عام .. ليحكم الأرض بأسرِها منها..لم ينسَ قط المرة الأولى التي جمع فيها كل أعوانه ورجاله بالقصر القديم..كانت أسعد ليلة بحياته..اعتدلَ حينها على عرشِه المُرصَّع بالذهب والياقوت ونظر إلى أعوانه والحُلم يُداعِبُه.

- انطلقوا إلى أطيب فلاةٍ في الأرض، وأوسعوها، فابنوا لي مدينةً من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت ولؤلؤ. اجمعوها من كل بلاد الدنيا..فإن لي حكمًا عليها والجميع سيُطيعني..واجعلوا تحت عقود تلك المدينة أعمدة من زبرجد وبأعاليها قصورًا وفوق القصور غرفًا مبنية من الذهب والفضة، واغرسوا تحت تلك القصور في أزقَّتها وشوارعها أصناف الأشجار المختلفة والثمار، و أجروا تحتها الأنهار في قنواتٍ من الذهب والفضة والنُّضار، فإني قرأتُ في الكتب القديمة والأسفار صفة الجنة في الآخرة والعُقبى، وأنا أحبُّ أن أجعل لي مثلها في الدنيا.. نَفِّذوا أمري في الحال.. أنا ربكم الأعلى.

وكانت جنة الله على الأرض..مدينة الأحلام..ولكنه لم يَهْنَأْ بها؛ ففي تلك الليلة أعلن الرحيل.. خرج مع حاشيته مُتجهًا لتلك الجنة، تاركًا أخاه "سيسنار الرابع" خلفًا له بالقصر القديم واليًا على مدينته القديمة، ولكنه ضَلَّ الطريق..هبَّت ريح صرصر عاتية سبع ليالٍ قلبت الدنيا واختفى المَلِكُ وحاشيته..شُقَّت الأرض وابتلعتهم، فلم يصلوا ولم يعودوا..خرج أخوه في رحلة طويلة للبحث عنه فلم يجد أي أثر له ولا لحاشيته. اختفى أثرُهم تمامًا..لغز كبير يحيط بهم وباختفائهم..بايَعه أهل المدينة بعدها خلفًا لأخيه الغائب..جلسَ على عرش البلاد فجأةً دون سابق إنذار..وهو الذي لم يطمع به لحظةً..كان يعلم أن أخاه الأكبر يعشق كرسيه ولن يترك عرشه مُطلقًا.. انتقلَ المُلك إليه وارثًا كلَ شيءٍ..وانتقل إلى لمدينة الجديدة..جنة أخيه التي لم

يدخلها..تركَ القصر القديم تزورُه الرِّياح مهجورًا بعد أن كان مَرْكزًا لحكم الأرض وما عليها..ولكن أسيسيرُ "سيسنار الرابع" على خُطى أخيه نفسها..أم أن له رأيًا آخر؟

وَقَفَ المَلِك "سيسنار الرابع" بشُرفة قصره العالي بالمدينة الساحرة..الجنة التي طالما حلم بها سِرًّا ولكن منعه خوفه من أخيه الغائب أن يبوح بحُلمه لأحد..وها هي الآن مِلكَه بمفرده..يتحكَّم بجنانها وطيبها..

كان اللقاء الأول بوفود من شعب المملكة..أعداد مهولة ملأت ساحة قصره المرتفع بمدخل المدينة الجديدة..طلبَ لقاءهم بنفسه..جحظت عيون الناظرين مِن هَوْلِ ما رأوا..فمهما استمعوا من قبل عن سِحْرِ تلك المدينة وروعتها لن يصدقوا ما يرونه بأعينهم الآن. نادى مُنادٍ فيهم بصوت هَزَّ وجدانهم..

-يُتوَّج الآن الأمير "سيسنار الرابع" مَلِكًا على البلاد وسط فرحة عارمة من أبناء المملكة الحالمين بالحرية منذ زمن بعيد داعين الله أن يُحقِّق أمانيهم تحت قيادة مَلِكهم الجديد "سيسنار الرابع".

احتشدَ الجميعُ يُهلِّلون لملكهم الجديد:

-يعيشُ الملك "سيسنار الرابع"..يعيش الملك "سيسنار الرابع".

-أشكُركم..أشكُركم.

أشار إليهم فصمتوا مُنصتين:

-أعلمُ أنكم عانيتم كثيرًا..تجرَّعتم الذُّل والهوان على مرأًى ومسمعٍ مني..وأعِدُكم بتغيير شامل بكل شيء..أَعِدُكم بالعدل والقسط بينكم..

-يعيش الملك "سيسنار الرابع"..يعيش الملك "سيسنار الرابع".

-تلك هي جنتكم..لا أملكُ فيها شيئًا إلا بكم ولكم..ما حدثَ أمام عينيَّ لأخي ومَلِكِكُم السابق هو عِظة..رسالة من السماء لتخبرني بحكمةٍ غائبة عن أرضنا لعقود من الزمن.. العدل..هو شرع الرَّب في الأرض..اعدلوا تفوزوا.

-يعيش الملك "سيسنار الرابع"..يعيش الملك "سيسنار الرابع".

-أخبرُكم بأولى قراراتي الملكية.

فتح الملك مرسومًا مَلكيًّا كان بجواره وقرأه أمام الجميع:

-قرار ملكي رقم واحد،

قررتُ أنا الملك "سيسنار الرابع" نَقْلَ شعب المملكة من المدينة القديمة إلى مدينة الحكم

بعد توزيع القصور والحدائق وكل شِبرٍ بتلك المدينة الجديدة على شعب المملكة مِلْكًا لهم جميعًا.

هَلَّلَ الجميع غير مصدقين ما يستمعون إليه..سيتملكون تلك الجنة الهائلة..آذانهم لا تُصدِّق وقلوبهم ترجف فرحًا بما يعايشونه.. مَلِكٌ عادل رَغِبَ في تطبيق قانون الرب منذ أيامه الأولى لجلوسه على العرش..هتفوا له بأعلى أصواتهم لترجَّ أنحاء جنَّتهم الجديدة:

-يعيش الملك "سيسنار الرابع"..يعيش الملك "سيسنار الرابع".

ابتسمَ لهم المَلِكُ وهو يعلم كمَّ المصائب التي ستواجهه لتنفيذ ذلك..فمانعو العدل والأفَّاقون وسارقو قوت الشعب سيواجهونه بكل ما لديهم من قوة، ولكنه اتَّخذ قراره مُستعدًّا لمجابهة الجميع لتحقيق العدل على أرض الله والمساواة على جنته..

كان "سيسنار الرابع" مؤمنًا بوجود الله بالسماء العليا، واطَّلع على كتب عتيقة تحكي قصة الخلق وطوفان نوح مِن بعده.. كان يعلم الإثم الكبير الغارق فيه قومه وشعب مملكته وأخفى في نفسه دعوتهم للحق لحين أن ينتقلوا للعيش هنا بالمدينة الجديدة، وقتها فقط يستطيع إقناعهم بوحدانية الله، وينزع من نفوسهم الشِّرك المُترسِّب عقودًا طويلة.

أصدرَ أوامره لتنسيق نقل الشعب للمملكة الجديدة تِباعًا بالسنوات القادمة حتى آخر رجل يُقفل بعده بابُ مدينتهم القديمة وسط الصخور والجبال الشاهدة على فَقْرِهم وذُلِّهم بالعهد الماضي..والآن لتشهد تلك الجنة على عدله وقِسطِه بين شعب مملكته الجديدة..

وصلت الفتاة برحالها على باب المدينة..فُتحت على مصراعيها لترى الجنة بعينيها دون تأثر.. هناك حزن دفين بين جنباتها.

وقفتْ بين يدي الملك بعدما أشار إلى لحرس بفَكِّ وثاقها..نظرَ إليها مُنبهرًا بجمالها مُخفيًا ذلك..إنها بالتأكيد ليست عربيةً، ملامحها ولون عينيها يُنبئان بذلك..لم يجذبها ما تحويه تلك القاعة المبهرة داخل القصر، ولا ذلك العرش المُرصَّع بالياقوت والزبرجد الجالس عليه الملك ولا رداؤه اللامع المصنوع من جلود الثعابين وتاجه المُرصَّع باللؤلؤ والمرجان.. ولا تلك المرايا المصنوع منها الحوائط بأكملها..

-اتركونا بمفردنا.

قالها للحراس فانصرفوا سريعًا مؤدين التحية الملكية لجلالته.

دبَّت قدميه على الأرض مُقتربًا منها..مع صوت خرير المياه تجري تحتهما..فالقصر بأجمعه بُني أعلى نهر من المياه والشُّعب المرجانية الساكن فيها أنواع من الأسماك المختلفة..مدينة عجيبة وسط الصحراء تسحر مَنْ يراها..إلا هي..لم تتأثر مُطلقًا بأي شيء تراه..لا ترى بعينيها سوى الحزن والألم..

-مَنْ أنتِ؟

قالها ناظرًا بعينيها الجميلتين..لم تُجِبه وكأنه سؤال بلا إجابة.

-هل لديكِ أيُّ معلوماتٍ عن أخي المختفي..لماذا لا تنطقين؟

-ستصدقني؟ إذا نطقتُ ستصدقني؟

-نعم سأصدقك..ألححتِ بمقابلتي لأمر خطير..تحدثي وقولي كل شيء بداخلك واعلمي جيدًا أنني لن أؤذيك أبدًا.

-أنا رسولٌ مِن المستقبل.

-ماذا؟

-رسول مِن المستقبل.

نَظَرَ إليها وصمتَ لحظاتٍ يفكر في معنًى مناسب لما تفوَّهت به..

-لا أفهم ما ترمين إليه.

-ولن تفهم..هذه هي الدنيا.

-ما الذي أتى بك إلى هنا؟ وما تلك السفينة المُبحرة؟ ومِن أين أتت؟

-ستواجه متاعب كبيرة بعد قرارك هذا.

-أي قرار؟

-نَقْل الشعب إلى هنا.

-إذًا أنتِ هنا لتهديدي، أليس كذلك؟ أنتِ رسول الأعداء..رسول الظلم والقهر.

-أنت تعلم جيدًا أن أخاك استعان بملوك الأرض ليبني تلك المدينة وما بها من ذهبٍ وزبرجد وياقوت سيطالبونك به عاجلًا أم آجلًا..

-إنها ملكي الآن..وعلى أرضي..وشعبي أولى بها.

-لن تستطيع.

-سأستطيع.

-سينتقمون منك أشدَّ انتقام.

--وأنا على استعداد للحرب..قولي لهم ذلك..أنا على استعداد للدفاع عن الحق والعدل.

-أقولُ لمَن؟

-لمَن أرسلَك إلى هنا.

-قلتُ لك إنني رسول المستقبل.

-ما معنى ذلك؟

-جئتُ لك مسافرة عبر الأزمان.

ضحك "سيسنار الرابع" كثيرًا قبل أن يتمالَك ضحكاته وينظر إليها ساخرًا:

-ومِن أيِّ زمنٍ أنتِ؟ زمن طوفان نوح..أم زمن أبينا آدم؟

-لا، زمن لم يأتِ بعد..خمسة آلاف عام من الآن.

-هل مَسَّك الجنون يا فتاة؟

-شهرزاد..نادِني بشهرزاد.

-انطقي فورًا، ماذا تريدين؟ ومَن أرسلَك إلى هنا لقد أوشك صبري على النفاد.

..اقتربت منه ونظرت بعينيه كثيرًا في صمتٍ:

-أعلمُ أنك لن تصدقني؛ ولذلك سأعطيك برهانًا على صِدقي. سيدخُل الآن حارسٌ من حراسك يُخبرك بالعثور على خمسة رجال حاولوا التسلُّل للقصر ومعهم سيوف يخفونها تحت ملابسهم بُغيةَ قتلك.

دخَلَ حينها أحدُ حراس الملك سريعًا مُرتبكًا:

-مولاي الملك فلتأذن لي.

-تحدَّث

-عثرنا منذ قليل على خمسة رجال حاولوا التسلُّل للقصر ومعهم سيوف يخفونها تحت ملابسهم.

نظر الملك إلى شهرزاد بحيرةٍ وغضبٍ ممتزجين.

-أرسلهم إلى السجن فورًا وأخبرني بنتائج التحقيق معهم.

خرَج الحارس وجلسَ الملكُ على عرشِه الكبير ناظرًا إليها مُبتسمًا مُحاوِلًا السيطرة على غضبِه:

-إنهم شركاؤك، أليس هكذا؟

-كنتُ أُدرِكُ أنك ستتهمني بذلك.

-لن أصبِرَ عليكِ أكثر من ذلك.

-أنا الوحيدة بتلك الدنيا العالمة بنهايتك..أين ستموت؟ وكيف؟ وما يخبئُه لك المستقبل.

-كذب..مَنْ أنتِ؟

-شهرزاد..رسول المستقبل..ألم تحفظ بعد؟

-يا حراس.

قالها بعصبية شديدة

-انتظرْ..واستمعْ إلى قصتي وبعدها لك حرية الاختيار..كذب أم حقيقة لن أُجبِرك على شيء ولكن استمع لي أولًا.

-أيُّ قصةٍ؟

-هروب الذات.

-ماذا؟

-فلنتفق.. ستستمع لقصتي للنهاية.. ولا تسأل عن شيء.. مَنْ أنا؟ ما علاقتي بتلك القصة؟ وما علاقتك أنت بكل ذلك؟ لا تسأل حتى أنتهي وستفهم حينها كل شيء

نَظَرَ إليها كثيرًا قبل أن يُصدِرَ قراره.

-كلي أذانٌ مُصغية

-لا تقاطعني حتى النهاية.

-ذلك أمر؟

--رجاء

اقتربت منه مبتسمة..لتقصَّ قِصتها الوحيدة..بليلة اكتملَ فيها القمر بالسماء..قصة بها مستقبل الأزمان..رأتها بعد ٥٠٠٠ عام..وحدها فقط تعرف نهايتها..تعرف بطلها الوحيد..

استمع لها "سيسنار الرابع" بتركيزٍ شديد.

-بلغني أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد ..أنه بعد خمسة آلاف عام..انقلب كل شيء لأسوأ الدرجات..تاهَ العدل عبر الأزمان..تبدَّلت المقاعد والأدوار..الخير والشر..العدل والظلم..الحق والبُهتان..ضباب كثيف لا يرى فيه الولدان..تبدَّل الإنسان..أغرقته دوامات الحياة..وفي غفلةٍ من الزمان..تواترت ثورةٌ على الأبواب..وصرخت الأوجاعُ بصدور الصامتين..وأوشك أنينُهم بين الضلوع هربًا بحثًا عن الحق والعدل دون جدوى بأي زمان.. فتفجَّرت بحورُ الدماء

أنهارا.. خضَّبت أرجُلَ الظالمين المُتجبِّرين..تتصارَعُ الأزمان وتتبدَّل الوجوه والأذهان ولا فائدة.

حينها انفجرَ البركان فخرج من جوف الألم جبارًا عنيدًا..نادر أمجد رشوان..سقط في بئر من الذنوب والخطايا التي لا تُغتفر..وقف بسيفه أمام نفسه.. فانشق نصفين..هربَ من ذاته الخطية..غرق في دوامته اللعينة وكتمت أنفاسه السقيمة وخرج كالمجنون بالطرقات يصرخ..بأعلى الآهات..هاربًا من سنين عجاف..هاربًا من وحشٍ كاسرٍ يسكن عقله....هاربًا من ذاته والألم يعتصرها.. هاربًا من الأيام.

فُتِحَ السِّتار

(الألفية الثالثة بعد الميلاد -٢٠١٦-الساعة الثانية بعد منتصف الليل)

مسرح روماني بديع الطراز..سقفه مكشوف ومقاعده رخامية مُرقَّمة بحروف وأرقام..لا ترى نهايتُه وكأنه يسع البشر بأكملهم..أعمدة رخامية بكل مكان وممرات بين المقاعد من أعلاه لأسفله..تتوسطه ساحةُ العرض البيضوية الشاسعة الاتساع..تشتمَّ بجوانبه رائحة ذكية كالمسك..

كشاف من الضوء الأحمر يتحرك بكل مكان يُربِكُ العينين..ممتزجًا بضوء القمر العالي بالسماء..جلست شهرزاد خلفه بمقعد جانبي مرتفع تحركه باستمتاع شديد.. ابتسامتها الساحرة تملأُ وجهها..كان بجوارها الملك "سيسنار الرابع" صامتًا وعلى وجهه علامات الضيق والتعجب..همست له:

-لن أستطيع سرد قصتي تلك وأنتَ هكذا.

-أنا أسمعُكِ جيدًا.

-لا..أريدُك أن تسمع لي..استماعًا وليس مجرد سمع.

-وما الفرق؟

-قلبك.. قصتي لا بد أن تنفذ إلى قلبك أولًا ثم لعقلك ولا تتوقف عند أذنيك، فلا تحرز جدواها المرغوبة.

-وما جدواها إذًا؟

-لا تتعجل..قلتُ لك من قبل لا تسأل، ولا تقاطعني للنهاية.

-وأنا قلتُ لك كلي آذان مصغية.

-أمتأكدٌ من ذلك؟

-كُفِّي عن اللهو بهذا الضوء.

قالها بعصبية..ابتسمت ونظرت بعينيه:

-هذه هي البداية.

-بداية قصتك؟

-انظر هناك.

ثبَّتت كشافها بمكان ما..ظهر مجموعة من الأشخاص الثابتين وكأنهم أصنام لا تتحرك.. رآهم "سيسنار" مُتعجبًا.

-مَنْ هؤلاء؟

-أبطال قِصتي.

قالتها وهي تمسك بيديه وتجذبه للأسفل ناحيتهم:

-تعالَ..تعالَ لا تخفْ..هذا هو مسرحي..شاهد على حكايتي لنهايتها. أعلمُ أنك تتعجب لوجودك هنا..فلتعدَّه مكانًا خياليًا اقتادتك أقدارك لمقابلتي به، تعالَ..تعالَ لا تخف.

-أنا لا أخاف..هؤلاء أصنام، أليس كذلك؟

-لا..قلتُ لك أبطال قصتي..أناسٌ من بني آدم.

كانوا مجموعة من الشباب والفتيات ورجلًا في السبعين من عُمره، وقفوا بشكلٍ ثابت وكأنهم أصنامٌ بلا روح..مرتدين بدلًا أنيقة سوداء اللون وفساتين سهرة تتلألأ..مرت شهرزاد بينهم ومعها الملك مُمعنًا النظر بهم جميعًا..جذبه مظهرهم وزيُّهم العجيب بالنسبة له..

-كُلٌّ منهم ضِلع مهمٌّ بتلك القصة..كُلٌّ منهم يحمل هدفًا..لا يغرنك رؤيتهم هكذا بعد قليل ستدبُّ فيهم الروح بمجرد نطقي بكلمة البداية.

-سئمتُ أحاجيك أيتها المرأة.

-صبرًا أيها الملك..لعلَّ قِصتي تحمل حلًّا..لعلها المَنجاة.

-النجاة مِمَّ؟

-أيها الملك الشجاع..أنت تشعر بالخطر..شيء ما يخفيه صدرُك يُلحُّ عليك بتصديقي والاستماع لي وإلا لأمرتَ بقطع رأسي دون تردُّد منذ البداية..

-إذن هيَّا فلتبدئي..ولا تختبري صبري أكثر من ذلك.

-هكذا وقبل أن يكتمل العدد ويظهر بطل قصتي!

-أهو مِن هؤلاء؟

-لا..فلتستعدّ الآن..اربط أحزمة خيالك فنحن الآن على مشارف الإقلاع لأرض المستقبل.

صرختْ بصوتٍ عالٍ كمخرج يعلن بداية عرضها المسرحي المُثير:

-أطفئوا الأنوار.. وليُفتح السِّتار..ولتبدأ قِصتي في الحال.

قُرعت دقاتُ مسرحها المستقبلي ليستعدَّ أبطال حكايتها للظهور التدريجي..أُطفئت الأضواء وبقيت بؤرة واحدة تبحث عن بطلها الأول بسردها العشوائي..وفُتِحَ السِّتار على زمن بعيد..الألفية الثالثة بعد الميلاد وبالتحديد عام ٢٠١٦ الحادي عشر من ديسمبر الساعة الثانية بعد منتصف الليل..اختفى المسرح تمامًا بكل ما فيه وكأنه سراب وهمي..خيال ملك تغتصبه امرأة من المستقبل..تتحكَّم بما يراه...تتداعى لقطات عديدة أمام عينيه بسرعة خاطفة..وكأنه شريط سينمائي يرجع للوراء ليشاهده مِن بدايته وفجأة يتوقَّف عند إحدى اللقطات بالبداية..

طريق زراعي هادئ..ليل شتوي ساكن، وكأن العالم بأسره يغفو بسبات عميق..الجميع نيام..سحاب ركامي طبقي مُحتقن بالسماء ينذر بليلةٍ شديدة المطر..ضباب يتزايد..ريح كالزمهرير تبحث عن بيت تهاجمه لتحصل على أسير جديد لبرودتها فلا تجد، فالبيوت مغلقة الأبواب بإحكام شديد وينبعث من داخلها مصادر للدفء تُصارِعها طوال تلك الليلة.

حارس بالخمسين من عمره يُدعى عبد التواب جلس أمام شعلة من النيران المُشتعلة بعيدان من الخشب..براد من الشاي الثقيل بمنتصف النيران..فَرَكَ يديه مُحاوِلًا التماسُك وسط ليلته العصيبة ليُنهي حراسته لذلك الحقل الكبير الواقع بالقُرب من الطريق الزراعي بالصباح الباكر مع أول ضوء للشمس، ويخلد للنوم بمنزله القريب..نقيق الضفادع تحاوطه وتخترق ذلك السكون المُخيِّم حوله بكل مكان. وكأنها تتسابق نحو أذنيه المعتادتين صوتَها منذ الليلة الأولى له بهذا المكان قبل أكثر من عشرين عامًا فور نزوحه من الصعيد هاربًا من صراعات دامية بقريته ثأرًا للغير هربًا من دوامة لا تنتهي.. لينتهي به المطاف وحيدًا طريدًا يحرس ذلك الحقل الكائن بالطريق الزراعي. عاش بمفرده لم يتزوج خوفًا من إرث الدم وتَبِعاته لعله يُقتل يومًا ما ويحمل أولاده دماءه برقابهم ..فضَّل العزلة بعيدًا..أدار مذياعًا صغيرًا بجواره ليخرج منه صوت السيدة أم كلثوم:

-يا سلام على الدنيا وحلاوتها في عين العشاق

يا سلام يا سلام على حلاوتها يا سلام يا سلام

-الله الله الله.

همس بها عبد التواب مستمتعًا بصوتها الحنون..لطالما اعتاد الاستماع إليها بوحدته الليلية..كانت تُهوِّن عليه حراسته دائمًا..تغنَّى معها بصوته الأجش..

رأى عبد التواب على مدى بصره سيارة يشقُّ نورها ظُلمة الطريق على الرغم من الضباب المانع للرؤية..ولكنه لاحَظَها جيدًا، تلك هي مهام وظيفته..عيناه حادتان كالصقر..لفت انتباهه

توقُّفها بذلك المكان فترةً..فاقترب منها حَذِرًا..سيارة فارهة أحدث موديل يُفتحُ بابُها وتخرج منها فتاةٌ رائعة الجمال، أنيقة، مثيرة بملابسها شِبه العارية..يبدو أنها عائدة من حفل ما أو ما شَابَه ذلك..هيئتها وملابسها تنبئ بذلك..نظر لساقيها العاريتين المُغريتين.. سرق عينيه ذلك الضوء الساطع ليس من سيارتها فقط بل من رجليها اللامعتين الشَّهيَّتين.. صعد بنظره لأعلى مسحورًا بجمالها الأخَّاذ.. مُعاينًا تلك الأسلحة الفتاكة الهازمة للبرد اللعين المحاوط له..تساءل: كيف لها الانتصار على برودة الجو بذلك الزي بينما هو تكفَّن بملابسه كاملة وما زال يشعرُ بالبرودة القاسية؟!

تلك الفتاة تُدعى سلمى عبد الفتاح..أشعلت سيجارتها بحرفيةٍ شديدة..نَظَرَ إليها عبد التواب وبادرَ بسؤالها:

-خير يا سيدتي.. أي خدمة؟

تحركت ناحيته مُبتعدةً عن سيارتها قليلًا..يبدو الارتباك في عينيها على الرغم من محاولتها إخفاءه..

- أبدًا..سيارتي فقط تحتاج بعض الماء لأتمكَّن من الرؤية، والضباب كثيف هذه الليلة كما ترى

-أوامرك مُجابَة سيدتي الجميلة ..دقيقة واحدة أحضر لك بعض الماء.

-أشكرك.

سارعَ عبد التواب مُهرولًا لجلب صفيحة من الماء..وقفت سلمى مُرتعدةً تنظر حولها وعيناها ممتلئتان بالخوف والتوتر..لحظات من الترقُّب والسكون القاتل..قبل أن تتخذ قرارها بالرحيل متجهة ناحية سيارتها.

-لا سأنصرف ..لم يكن عليَّ مطاوعته.

ركبت سيارتها سريعًا..أدارت مُحرِّكها استعدادًا للرحيل..ظهر حينها ما لا تتوقَّعه.هناك شخص ما تراه بمرآة سيارتها يجلس بالكرسي الخلفي..رأته بغتةً وكاد قلبها يتوقف..نظرت خلفها مرعوبة..شخص مرعب ذو لحية كثيفة غير مرتبة..شعره أشعث طويل وملابسه مهترئة متسخة وكأنه لم يستحم عامًا كاملًا..كأولئك المجاذيب المنتشرين بالشوارع يشحذون ويأكلون وينامون بمكانهم..صرخت سلمى ولكنه باغتها بيده المتسخة وكتم أنفاسها سريعًا:

-صه..لا تخافي..لا تخافي.

أنا نادر..نااااااادر.

كان ذلك الشخص هو أنا..نادر أمجد رشوان..البطل المُحتقَر..بطل من دم..ليكتمل المشهد..الأخير.. وكأن بقعة الضوء استقرت أخيرًا عمَّن تبحث عنه.. وامتعض الجمهور اعتراضًا علي بطله المُرتَقب..تائه.أجرب ملعون....هارب من ذاتي وقد أبحثُ أحيانًا أخرى عنها لأسحقها..كَرٌّ وفَرٌّ مُتبادَل داخل ساحات كياني.. أهناك مَن يشتريها.. ذاتٌ مجانية لمن

يرغب؟ هلموا يا فاقدي الذاكرة.. ذاتٌ جَرِبَة لا يبتغيها صاحبُها يبيعها بأبخس الأثمان.. مجانًا.. هل مِنْ مُشترٍ؟ مخبول من يشتريكِ.. ذات خَرِبَة.. ملعون مَن يُجاورها.. ملعون أنا.. نادر أمجد رشوان.

نظرت إليَّ سلمى مُتعجبةً:

-نادر؟ ماذا جرى لك؟

ظهر حينها عبد التواب حاملًا صفيحة من الماء مُقتربًا..نظرتُ إليها بحدة:

-انطلقي سريعًا وسأخبرك بكل شيء.

انطلقت سلمى سريعًا وسط تعجُّب عبد التواب:

- الماء يا سيدتي؟ الماء يا جميلة الجميلات؟ والضباب؟

اختفت سيارتها وسط الضباب الكثيف..التهمتها أبخرته المتناثرة.. وكأنها تشقُّ طريقًا للمجهول لا تدري مُنتهاه.

-أُنصِتُ لكَ..هيا.. أخبرني ماذا يحدث؟ وما سببُ اختفائك طيلة ستة أشهر مضت؟

كنتُ أنظر إلى الطريق بتركيزٍ شديدٍ غير مبالٍ بحديثها:

- بعد خمسين مترًا سترين طريقًا صغيرًا على اليمين.. انحرفي تجاهه.

-لم يكن عليَّ المجيء ومقابلتك..حقًّا أنا مُخطئة.

ظَهَرَ الطريق الجانبي المرصود..مدقٌّ بين الزراعات يكفي عربةً واحدة..ظلام دامس اخترقته بإضاءة سيارتها الأمامية.. يتملَّكها الرُّعب والندم على تلبيتها لطلبه بمقابلتها..بيت صغير على اليسار به إضاءة خافتة نابعة من داخله..نوافذه مفتوحة يتلاعب بها الهواء ويخبطها مرارًا وتكرارًا..تحاوطه حشائش غير مهذبة بكل مكان وكأنها أرض زراعية مُهمَلة منذ زمن..منزل مهجور تزوره الرياح ليل نهار..لا صوت هنا إلا صوتها يعلو ويبعث الرعب بالنفوس الحائرة..أمرتُها بالتوقُّف:

- هنا..توقَّفي.

نزلتُ وفتحتُ بابها ناظرًا إلى عينيها المرعوبتين:

-هيا.

ردَّت مُستنكرة رافضة التحرُّك:

-إلى أين؟

-ألم تسألي عن سبب اختفائي ستة أشهر. هيا لا تخافي ..خمس دقائق وستمضين كما جئتِ.

نزلت سلمى من سيارتها..ودَّت لو تهرب الآن.. خوفها يتزايد بكل لحظةٍ بذلك المكان المُريب..سألته:

-أنا لا أفهمُ أيَّ شيء؟

-أتصدقينني.. أنا نفسي لا أفهمُ شيئًا.

-حقًّا؟

همَّت بالرحيل ولكنني لاحقتُها مُمسكًا ذراعها:

-سلمى.. ليس بمقدوري البوح بأي شيء.

-إنهم يبحثون عنكِ بكل مكان ..ما سِرُّ اختفائك؟

اقتربتُ منها هامسًا لها وكأنني أخافُ أن يستمع لي أحدٌ:

-سلمى.. لي عندك رجاء، أتوسَّل إليك تنفيذه.

-أيُّ رجاء؟

كاد قلبُها يتوقَّف للمرة الثانية..ظهر طفل صغير أمامها فجأة..حاملًا شمعة مُضيئة بيده..مرعب للغاية وجود طفل بهذا المكان المهجور وبهذه الهيئة..ملابسه مُتسخة ومُهترئة هي الأخرى..والعجيب تلك الشمعة التي لا تنطفئ بالرغم من قسوة هذه الرياح الشديدة..

وعيناه الثابتتان الموحيتان بالغموض والرهبة..تُشبِه عيني قطٍّ مخيف تضيئان بالظلام..عينان جاذبتان تسلبان عقلَك.. هل تؤمن بتلك الأسطورة القديمة.. القِطط يسكنها الشيطان.. خاصة الأسود منها؟ هل صادفتَ قطًّا أسود مِن قبل؟ تقول الأسطورة: لا تنظر بعيني قِطٍّ أسود أبدًا.. فالشيطان يسكنه..لا تنظرِ فيمسسك الشيطان..البعض يزعم أن أغلب المنتحرين بكل أرجاء العالم لوحظوا بصحبة قِطٍّ أسود بلحظات حياتهم الأخيرة..وكثير من الناس تقتنع بذلك.. إن صادفت قطًّا أسود لا تنظر بعينيه مُطلقًا..نظرته قاتلة.... اهربْ بكل ما لديك من قوة.. اهربْ من الشيطان.. نَظَرَ ناحيتي ونيران شمعته صامدة أمام تلك الرياح العاتية مُتسائلًا:

-نادر؟

ابتسمت حين رأيته بحنان شديد:

-نعم يا حبيبي.. تعالَ.. لدينا ضيفة. سلمى.. التي أخبرتك عنها بالأمس.

قلتُها مُشيرًا ناحيتها..نظر نحوها بوجهٍ ثابتٍ بملامحه الجامدة.

أشرتُ ناحيته بعدها مُحدِّثًا سلمى:

-سمير..صديقي.

سمير طفل في السادسة من عمره..لا أحد يعلم اسمه بالكامل ولا هو يعرفه..طفل يتيم لم يجد سوى الشارع ليكون ملاذًا له منذ فتحَ عينيه على الدنيا..مؤلم أن تولد بتلك الدنيا مُنتهي الصلاحية..لا أب لا أم لا أهل..لا يجد سوى الهمِّ يُلوِّن أيامه والوحدة تملأُ لياليه..هل تبادلتَ الأدوار - ولو مرةً - مع طفل شوارع؟ تخيَّلت حياته وآلامه ومُعاناته؟ لا أظنُّ ذلك، كل ما تفعله هو غلق زجاج سيارتك لتمنع صوته من الوصول لمسامعك..تقهره..ليبقى غريقًا بوحدته الكريهة..طفل أقصى طموحاته بالحياة سقف يحميه ولُقيمات من الخبز تسدُّ جوعه كل يوم..

كان هناك شخص ما يُتابِعُنا عن بُعد..اختفى خلف إحدى الأشجار القريبة دون أن يراه أحد.

مَدَّ سمير يدَّه مُصافِحًا سلمى ناظرًا بعينيها:

-أهلًا سلمى.. عُذرًا فبيتنا لا يليق بك.

نظرت سلمى إليَّ بحدة متناهية وكأنها تتلاشى النظر بعيني سمير.. أوشك صبرها على النفاد:

-إن لم تنطق الآن بطلبك..سأنصرف على الفور..لقد طفحَ كيلي.

اقتربتُ منها هامسًا:

- ابحثي لي عن وسيلة للهروب خارج مصر بمساعدة أيٍّ مِنْ معارفك.

-ماذا؟

-أرجوكِ يا سلمى.

-مِمَّ تهرُبُ؟

-ليس بمقدوري البوح بأي شيء..قلتُ لكِ ذلك.

-وأنا قلتُ لك إنني مخطئة منذ البداية.. أراكَ على خير.

همَّت مرة أخرى بركوب سيارتها..أمسكتُها بقوة شديدة وكأنها فرصتي الأخيرة للهروب:

-انتظري..سلمى أتوسَّل إليك، ساعديني، نفِّذي لي طلبي أرجوكِ..أنتِ فُرصتي الأخيرة.

-اترُكْ يدي.. أنت تؤلِمُني..اتركني.

فجأة انطلقت بعضٌ من طلقات الرصاص الأحادية من مسدس مجهول لهذا المُتخفي وسط الزراعات..لم أرَه حينها ولم أدرِ مِن أين تأتي تلك الطلقات..سقطت سلمى أرضًا تُصارِع أنفاسها الأخيرة..وانخرط سمير في البكاء مرعوبًا انطفأت شمعته حينها بينما جثوتُ أنا على ركبتي مصدومًا حزينًا..اغرورقت عينايَ حُزنًا عليها وعلى حالي..تلمست الدماء الحارة

المتدفقة من جُرحها..كنتُ أعرفُ أنها تموت..الجرح قريب من القلب يبدو أن ذلك المتخفي قناصٌ بارع يعرف جيدًا ما يفعله..نظرتُ إلى عينيها المذهولتين:

-سلمى..ألم أؤكد لك ألا تخبري أحدًا بموعدنا.. سلمى؟

كنتُ كالسرطان..مرض لعين لا علاج له..أَصَبْتُ كل مَن حولي باللعنة..لا ملجأ بعيدًا عني مهما أفعلْ..فلعنتي ككلبٍ مُصاب بسعار مزمنٍ يسعى طوال عمره لعضّك..وتمزيقك إربًا..ماتت سلمى..لم تفهم حتى لماذا تلك النهاية..كانت تحتاج لإجابة سؤالها..لماذا متُّ؟ وكنتُ أنا الوحيد القادر على إجابة شافية مختصرة.

بسم الله الرحمن الرحيم..الإجابة أنا..نادر أمجد رشوان..استمعتُ حينها لذلك الصوت المنذر بالخطر..سارينة الشرطة تقتربُ وأنوارها تضوي بالمكان..فخٌّ جديد يبدو أنني على وشك الوقوع به..نظرتُ لسمير والقلق والترقُّب بعينيَّ.

-اجرِ يا سمير..اجرِ.

انطلقتُ مُحاولًا الهروب..لا أدري لأين ولكن من المؤكد أن النهاية لن تكون بهذه السرعة..نظرت خلفي لأرى سمير فوجدته بعيدًا ..قدماه الصغيرتان لا تقويان على مجاراتي..رجعتُ إليه سريعًا وحملته فوق كتفيَّ وعدوتُ مُسرعًا مرة أخرى أُسابِقُ القدر..

-إلى متى سنظل هكذا هاربين؟

سألني سمير مرعوبًا مُلتقطًا أنفاسه بصعوبة بالغة..صرخت فيه:

-لا أدري..لا أدرررررررررررري.

وصلت مجموعة من سيارات الشرطة إضاءتها اغتصبت الظلام الساكن حولنا..رأيت مجموعة من رجال الشرطة بالقرب من جسد سلمى يتوسطهم رجل شرطة ينظر تجاهي..سُحقًا لقد رآني للتو. وأنا أحاول الابتعاد بعيدًا بأحضان الضباب..نقيب في بداية الثلاثين من عمره يُدعى شريف النجار..عيناه ثاقبتان ومشهود له بالكفاءة البالغة وسط أقرانه..صوَّب مسدسه ناحيتي صارخًا:

-قِفْ مكانك..سنقتُلك إن لم تتوقف.

أتعجَّب كثيرًا حينها أنه لم يُطلِق عليَّ الرصاص..كنتُ أنتظرُ ذلك..رصاصة واحدة تُنهي حياتي البائسة وتُريح الجميع.. صرخَ شريف بأعلى صوته لرجاله:

-لا تتركوه..

وكانت المطاردة العنيفة..جريتُ بكل ما لديَّ من قوَّةٍ قاهرًا أنفاسي..سمير ممسكًا بكتفي والرعب يقفز من عينيه..وهؤلاء خلفي كظلي يوشكون على إمساكي..ما يمنعهم عني ذلك الضباب المتنامي..جريتُ متمسكًا بالحياة بكل ما فيها من ألم..لاعنًا قلبي المسيطر على كل

حواسي والآمر لها بالهرب.. وصلتُ للطريق الزراعي..انطلقتُ على الأسفلت بسرعة أكبر وهم خلفي يصرخون:

-قِفْ مكانك.

بدأ حينها شريف بإطلاق بعض الطلقات العشوائية..جميعنا يجري وكأننا وسط كوبٍ من الحليب المُعكَّر.... لم تصبني أيٌّ من طلقاته..أعمدة إضاءة عن بُعدٍ تبدأ بعد جسر علوي تُنذِرُ بانتهاء الشبورة بحضرتها.. هناك سيكون الموت المُحقَّق أو الاستسلام...وصلتُ لأوله.. جسر علوي يقطع فرع النيل بتلك المنطقة الزراعية..مياه النيل بالأسفل على مسافة لا تقلُّ عن عشرة أمتار..وطلقاتُ الرصاص الباحثة عن جسدي لتخترقه حاصدة لروحي مِنْ ورائي..لا مفرَّ..نظرتُ إلى سمير بعدما أنزلتُه بجواري بسرعةٍ خاطفةٍ مُتخذًا القرار:

- سمير..سنقفز.

-لا أنا خائف.. نكمل هروبنا جريًا أفضل، أرجوك..لن أقفز أنا.

صرختُ فيه:

-لا..لن نستطيع الجري أكثر من ذلك ..سيلحقون بنا لا محالة.. لا تخف سُدَّ أنفَك جيدًا ..سنقفز ..هيااااااااااااااا.

لم أُعطِه فرصة للتفكير..أمسكتُ يدَه ووَثَبْنَا في اللحظة نفسها..كنتُ أستمعُ إلى صرخته تتعالى بتلك اللحظات بالهواء قبل أن نغوص تحت المياه المتقلبة المرعبة بتلك الليلة.

-أنا خائئئئئئئئف.

ونجحت الخُطة..نجونا بأعجوبة من موت مُحقَّق برصاص الشرطة..علامات استفهام كبيرة تلتفُّ حولي..أسرار دفينة يأبى صدري البوح بأحدها..وكأني أقِفُ بكواليس حياتي..أنظر إلى الجمهور المُترقِّب قصتي بشغفٍ كبير على الرغم من امتعاضه لرؤيتي.. بطل أجرب يأبى جمهوره تركه إلا بعد افتضاح أمره.. أُحاوِلُ منع ذلك بكل ما أوتيتُ من قوة، ولكنه يحدث رغمًا عني.. ودقَّت دقات مسرح حياتي لأستعدَّ للظهور الجبري.. أُطفئت الأضواء وبقيت بؤرة واحدة تبحثُ عني أنا.. البطل الوحيد.. مُعلنةً عن بداية العرض الآن..الآن فقط..فُتح السِّتار.

سُكونٌ دامٍ

(الثاني عشر من ديسمبر – القاهرة)

- مصرع سلمى عبد الفتاح برصاص مجهول على الطريق الزراعي.

تصدَّرَ مانشيت قتلها صفحات الحوادث ببعض الصحف والمجلات الصادرةِ صباح ذلك اليوم. سرعان ما انتشر الخبر ووصل للصحافة..على الرغم أن جثتها لم تُنقل بعد من موقع الحادثة..أمام ذلك البيت المهجور المملوك لسعيد عبد الجواد..فلاح عجوز مات وحيدًا بالبيت نفسه ولم تُكتشف جثته إلا بعد شهر كامل من تعفُّنها مصادفة..أبلغَ عنها مُحصِّلُ شركة الكهرباء..كان رجلًا وحيدًا مات كلُّ أبناؤه قبله واحدًا تلو الآخر وبقيَ يُصارِعُ أحزانه بمفرده إلى أن رَحَلَ هو الآخر..ولم تكن المرة الوحيدة التي جرت فيها جريمة قتلٍ بالمكان نفسه..عُثر من قبل على رجلٍ وامرأةٍ مقتولين داخل سيارتهما بالمكان نفسه وقُيِّدت الحادثة ضد مجهول خاصةً أنه كان من الواضح أنها سهرة حمراء بالهواء الطلق.. زجاجات الخمر المُلقاة بسيارتهما والمرأة العارية تقريبًا ينبئان بذلك.. قطع خلوتهما الجنسية أحد اللصوص وذبحهما وسرق إطارات السيارة الأربع..ولم يُعثر على أيِّ أثرٍ للقاتل حينها.

ومرةً أخرى عُثر فيها على جثة سيدة في العقد الرابع من عمرها مجهولة الهُويَّة ولم يُستدل على شخصيتها وقُيِّدت أيضًا تلك القضية ضد مجهول..قتلى كُثر والمكان واحد وكأن شبح الموت يُرفرف عاليًا فوق ذلك البيت المهجور..صارخًا بأعلى صوته..مَن يقترب سيموت..مَن يقترب سيُذبح..ذاك مكاني فلا تقتربوا..

الساعة الثامنة صباحًا..انتشرت قوات الشرطة ورجال المعمل الجنائي بالمكان يمارسون عملهم..وقفَ النقيب شريف النجار بالقرب من جثتها يشرب سيجارته..ظهرت سيارة مدنية صغيرة (ماركة لادا) تقترب من موقعهم..توقَّفت السيارة وفُتح بابها لينزل منها الرائد مجدي نور الدين..اتَّصل به شريف صباح اليوم ليُعلمه بتلك الحادثة..نظر له مجدي بعينين هادئتين..

-صباح الخير.

-صباح الخير سيادة الرائد.

بدأ شريف النجار بسرد تقريرًا سريعًا عن الحادثة وأنصت له مجدي..

-تلقينا اتصالًا هاتفيًا من مجهول يُبلغ عن جثةٍ لفتاة مُلقاةٍ بهذا المكان، وفور وصولي مع قوة الشرطة سمعنا صوت طلقات نارية مُتتالية ورأينا شخصًا يجري عن بُعد:

أشعل مجدي سيجارته وأخذ نفسًا عميقًا منها مُمعنًا بالتفكير..كان مجدي ضابطًا غير اعتيادي.. يشهد له الجميع بالكفاءة ما عدا رؤساءه..لطالما عانى ظلمهم وتعنُّتهم ضده على الرغم من تفانيه بعمله لأقصى حَدٍّ ممكن..ولكنه اكتسبَ مناعة اللامبالاة..كلُّ ما يفعله هو القيام بعمله على أكمل وجهٍ دون أن ينتظر كلمة شكر أو ترقية استثنائية..هكذا أقنع نفسه أنه يحبُّ عمله وتملؤه السعادة حين يقوم به..كان هادئًا أغلب الأحيان ولكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة..تلك العيان الهادئتان قد تشتعلان بأي لحظة يشعر فيها بالتقصير الأمني بأي قضيةٍ يتولى التحقيق فيها..

مرَّت سنون عمره الخمس والثلاثون مؤمنًا بذلك..نظر لشريف نافخًا دخان سيجارته بوجهه وكأنه على وشك الانفجار غيظًا.. مُتسائلًا..

-وأين ذلك الشخص؟

-للأسف قَفَزَ من أعلى الجسر وتمكَّن من الهرب.

- هَرب؟ قَفَزَ من أعلى الجسر وتمكَّن من الهرب! أعلمك شيئًا يا سيادة النقيب.. كلمة هروب تلك تَصِمُ مَنْ ينطقها بالعار خاصة إن كان ضابط شرطة.. حذارِ..أخرجَها من قاموس حياتك وإلا فلتبحث لك عن مهنةٍ أخرى.

قالها مجدي ناظرًا بعينيه بحدة متناهية..حاول شريف إيجاد مبررٍ له.

-سيادة الرائد!

قاطعه مجدي:

-لا تبحث عن أعذار..أتظنُّ أن العمل بالقاهرة هين؟ أنت بالعاصمة أيها النقيب الهُمام وليس بالصعيد.

-أعتذر..لن تتكرر.

اقتربَ مجدي من الجثة الملقاة على الأرض ومُغطاة الوجه.

-بيانات القتيلة؟

-سلمى عبد الفتاح مجاهد..هذه رخصة القيادة الخاصة بها.

ناوله إياها..نظر فيها لحظة ثم كشف الغطاء عن وجهها..وجه غربت الحياة عنه للأبد..

-سلمى عبد الفتاح؟ أليست هي؟

قالها مجدي متذكرًا شيئًا ما فأجابه شريف مؤكدًا ما يدور بباله.

-نعم هي.

- امرأة لم تكد خرجت مؤخرًا من قضية مخلة بالشرف تُقتل بمكانٍ مهجور كهذا..وبتلك الطريقة..واتصال هاتفي يُبلغ عن الجريمة قبل وقوعها، ما توقعاتك لتلك القضية يا حضرة النقيب؟ مَنْ قتلها؟

كان يعلم أنه لن يتلقى إجابة تُرضيه..هكذا تعوَّد..اليوم الأول بالجريمة مليء بالألغاز ومستحيل إجابتها باليوم نفسه أبدًا؛ فلذلك تعلَّم الهدوء خاصة باليوم الأول مستعدًّا لفكِّ شفرات ذلك المجرم المتخفي وراء أي جريمة يُحقِّق فيها..الهدوء سيد الموقف الآن..نفثَ أنفاسًا مُتلاحقة مِن سيجارته المحترقة ناظرًا لذلك البيت المهجور والهواء يتصارع بين جوانبه مُحدِثًا صوتًا أشبه بصوت عاصفة تقترب..عاصفة شَبْحِ الموت..عاصفة البيت المهجور.

-أخبار شِبهُ مؤكَّدةٍ بإقالة الحكومة وتعيين المهندس عبد الغني رشوان النصراوي خلفًا لرئيس الوزراء الحالي وما بين مؤيد ومعارض تدور حلقة اليوم عن...

امتدَّت يدُه لتغلق التلفاز على تلك المذيعة الناطقة للخبر.. نطق بعدَها بعصبيةٍ شديدة:

-الخبر صحيح..لا مجال للشَّك الآن.

مجموعة من الشباب والفتيات مجتمعين حول أحد المناضد المتهالكة ببيت بسيط الأثاث..حوائطه مُتشقِّقة مدهونة بالزيت، ومصباح وحيد صغير يتدلَّى من السقف يعوق إنارته ذلك الغبار المتراكم فوقه..نظرَ بعضُهم إلى بعض، لا يجدون ردًّا مُناسبًا لما استمعوا له..نَطَقَ أحدهم:

-ألم أقل لكم إنني رأيتُه بأمِّ عيني يخرج من قصر الرئاسة؟!

اعتاد الشباب بالفترة الأخيرة انتشار الشائعات وأغلبها لا تتحقق، وكأنها نوعٌ من جَسِّ النبض أو للتعتيم على شيء آخر يرغبون بتمريره وشغل الرأي العام بخبر كاذب لن يتحقق..ولكن الأمر مختلف تلك المرة..فلم تكن شائعة..أقسمَ ذلك الشاب برؤيته عبد الغني على أبواب قصر

الرئاسة وذلك مؤشِّر لصحَّة الخبر هذه المرة..ذلك الشابُّ هو فتحي عبد العزيز..شابٌّ في أواخر الثلاثينيات من عمره، ولنعدَّه ثائرًا وطنيًّا لحين إشعارٍ آخر..كان يجتمع بمجموعة من الشباب والفتيات بذلك المنزل المُتهالِك لمناقشة أمور سياسيةٍ ومجتمعية، أغلبُهم يعمل بالصحافة الإلكترونية، ويمتلكون مُدوَّنات شخصية تصرخ بآرائهم اليومية ضد سياسة الدولة وقيادتها ويراودهم حلمٌ يتمنَّون تحقيقه يومًا ما..حلمٌ شبيه ما تمنَّاه الضُّباط الأحرار قُبيل ثورة يونيو ١٩٥٢..حلم يُعاقِب عليه القانون، وقد يقودهم للإعدام..الحرية.

وَقَفَ فتحي عبد العزيز مرتديًا خوذته فوق دراجته البخارية بالقُرب من قصر الرئاسة بعدما دخل عبد الغني النصراوي بسيارته الفارهة للداخل..فُتحت له الأبواب..باب وراء الآخر، وهو يخطو خطوات واثقة تجاه ما خَطَّط له طيلة الفترة السابقة..حلمه الأوحد..السلطة.

رجلٌ مَلَكَ بيديه الدنيا وما فيها..أموال طائلة جمعها طوال سنوات عمره السبعين..أحلامه تتحقَّق قبل أن تخطر بباله ولم يتبقَّ سوى حلم واحد تأخَّر تحقيقُه قليلا.. تزاوُج السُّلطة بالمال..زواج كاثوليكي لا طلاق به..على أن يُبارِكَ هو ذاته ذلك الزواج في احتفال كبير تشهده الدولة بأكملها..ذاك هو حلمه..وذلك هو كابوسهم الكبير.

استقبله رئيس الديوان الرئاسي بمكتبه الفخم..جلس عبد الغني فَرِحًا.. تلك هي المرة الأولى التي يطلب فيها مقابلته بصفة شخصية..تلك هي المرة الأولى التي يدخل فيها القصر الرئاسي مُتوقِّعًا نجاح ما يرمي إليه منذ فترة..

-كيف حالك عبد الغني بك؟

-نحمد الله.

-تفضَّل بالجلوس..مهندس عبد الغني رشوان النصراوي شديد، من أنجح رجال الأعمال في بلدنا، ومن أهم رجالك الاقتصاد حاليًا ورئيس الحزب المصري الجديد.

ابتسم عبد الغني بثقة:

-طوال عمري أعمل مُتفانيًا لمصلحة الوطن، لم أهرب بأموالي كما فعل غيري بتلك الأزمة، كلا..ظللتُ أكافح وأتحمَّل تلك الظروف الاقتصادية الصعبة لأجل بلدي وشعبه، كنتُ أُدرِكُ جيدًا أنها وعكة صغيرة سيأتي من يُعيد الأمور لنصابها يومًا ما وقد صَدَقَ حدسي.

نظر إليه رئيس الديوان بعينين يملؤهما الإعجاب:

-لذلك وَقَعَ عليك الاختيار.

-الاختيار؟ اعذرني..لا أفهم شيئًا.

قالها بخبُث مُستترِ..هو يعرف جيدًا ما يرمي إليه..إنها اللحظة المُرتَقَبة منذ زمنٍ..كل خطوة تفانى بالتخطيط لها يجني ثِمارها الآن أمام عينيه ..نهض رئيس الديوان من كرسيه وجلس بالكرسي الأمامي المُواجه لعبد الغني ناظرًا بعينيه مربتًا على فخذيه:

-المهندس الهُمام عبد الغني النصراوي، أنتَ مُكلَّف من رئاسة الجمهورية برئاسة الوزارة الجديدة.

كادت فرحة الانتصار تزغرد بعيني عبد الغني ولكنه تماسَكَ:

- هذا شرفٌ عظيم.

-تهانينا الحارة.

- أنا بقِمَّة السعادة ليس فقط بسبب المنصب، لا..تأسرُني تلك الثقة التي منحتني الرئاسةُ إياها.

اعتدلَ الرجل للوراء وكأنه يستعدُّ لشرح شيءٍ ما يُقلِقُه:

-الثقة متوفرة لكن..

-لكن ماذا؟

-أنصتْ لي جيدًا يا سيد عبد الغني..الدولة تمرُّ بظروف استثنائيةٍ صعبة لم تنتهِ بعدُ..وجميع المناصب أصبحتْ على كفِّ عفريت..جميعها دون استثناء؛ ولذلك عليكَ دومًا التَّحلي باليقظة والذكاء، كلُّ كلمةٍ تتفوَّه بها ينبغي أن تكون محسوبةً بميزانٍ دقيقٍ، كلُّ قرارٍ تُقدِم على اتخاذه..متى تُهاجِمُ معارضيك؟ ومتى تصمت؟ السياسة..لعبةٌ صعبةٌ تحتاج لمَهرةٍ محنكين.. أأنتَ لاعبٌ ماهر؟

كَتَمَ عبد الغني ضحكاته..فمن بتلك البلد يستطيع اللعب مُنفردًا مثله..عاشَ عمره بطوله ينتظر تلك اللحظة..لم يكفِه المال..مهما يزد ويتنامَ كان يشعر بنقصان شيءٍ ما..السلطة..الجاه..ذهب عيار ٢٤ لا يقدره سوى صائغ ماهر..حبَّات من الألماظ الحُرِّ..تتلألأ بعيدًا تُغري الجميع، ولكن مَنِ القادر على امتلاكها؟ سؤال ساذج:

- أأنتَ لاعب ماهر؟

ومَنْ غيره يستطيع ذلك..هو الصائغ الماهر..هو المُراوِغ الأكثر احترافًا..همس لنفسه:

-عليك الاستعداد لأفضل مباراةٍ في التاريخ.

قَطَعَ رئيس الديوان تفكيرَه:

-عبد الغني..يا سيد عبد الغني.

ابتسمَ له بثقةٍ:

-لا تقلق يا سيدي.. وليطمئنَّ سيادة الرئيس..

-أمامك أسبوع تعكُفُ فيه على اختيار وزرائك، وتستعدَّ لحلف اليمين، ويمكنك استخدام مكتب رئاسة الوزراء باجتماعاتك من الآن.

-شكرًا جزيلًا.

-بالتوفيق.

صافَحه بحرارة شديدة..خرجَ عبد الغني والفرحة تحمله من فوق الأرض..وكأنه وُلِدَ من جديد ليعيش حياةً مديدة..عاد شابًّا مرة أخرى بعد اقترابه لأرذل العمر..وما هي إلا دقائق وسيُزفُّ الخبر لمصر بأكملها..ليشهد الجميع زواجًا جديدًا بين المال والسُّلطة.

ارتبكَ الشباب حول منضدتهم المُتهالِكة والأمل بغد مُشرقٍ يتباعَدُ..كل الشواهِد تُنذرُ بما هو أسوأ..فقرٌ وظُلمٌ وبهتان..قَتلٌ وسجن واعتقالات.. ورئيس وزراء جديد هو الأسوأ على الإطلاق..صرخَ أحدُهم:

- كارثة بكل المقاييس ..ألم يجدوا غير ذلك المسعور ليُنصِّبوه رئيسًا للوزراء؟!

نَهضَ فتحي بعصبيةٍ مُفكِّرًا يائسًا:

-إنهم يُصرُّون على خصومتنا.

- هؤلاء خطر علينا يزداد يومًا بعد يوم.

طرقاتٌ متتالية على الباب يعرفونها جيدًا..إنها هي..فتون فوزي صديقتهم الصحفية الثائرة..تلك خبطاتها المميزة..أربع دقاتٍ مُتفرِّقة..فتحَ فتحي الباب..دخلتْ فتون تلك الفتاة الساحرة..عينان زرقاوان تسلبان قلبك بمجرد النظر إليهما..ولكنهما مغطتان بنظارة زجاجية تحجبهما..كنز دفين تحت عدساتها تدفن سحرها الأخَّاذ..وفقرٌ مُدقِع تشتمُّه بنظراتها على الرغم من تناسُق ملابسها وشعرها الأصفر الناعم المتدلي على وجنتها..نظرت إليهم فتون بعدما جلستْ مُتنهدةً:

-وصلتكم آخر الأخبار؟

-للأسف.

أجابها أحدُهم.

نَظَرَ إليها فتحي متسائلًا:

-أين كنتِ؟ لم نرَكِ لأكثر من أسبوع.

-كنتُ بمأموريةٍ بالإسكندرية.. أتابِعُ مشكلة الحرائق المتتالية بأماكن متفرقة هناك.

-أهناك سبب واضح؟

-كلا..على الأغلب حوادث قضاء وقدر أو إهمال غير مُتعمَّد. المهم الآن ..ما الحلُّ بتلك المصيبة؟

قالتها ناظرة لهم جميعًا لعلَّ أحدهم يفكر بحلٍّ ما لتلك الكارثة الشديدة، فتتابعوا بنَدْبِ حالهم دون جدوى.

-هذا الرجل لو تمكَّن من رئاسة الوزارة فلن يتركها إلا بخروج روحه أو أرواحنا نحن.

- الأزمة الحقيقية أنه العدوُّ الأول للشباب.

-لقد طَفَحَ الكيل..إلى متى سنظلُّ هكذا؟ بعضنا يَلقَى سوء العذاب في غياهب السجون والمُعتقلات والباقي لائذ بالصمت خوفًا من ذلك المصير.

-أنا لا أدري كيف لذلك الفاسد أن يجلس على كرسي رئاسة الوزارة بهذا اليُسر؟

-سؤال غبي ..أنتَ تعرف جيدًا أن الفساد عُنصر رئيسي لاختيار الوظائف العليا بهذه الدولة.

-لله الأمر من قبل ومن بعد.

حاولت فتون بثَّ الأملَ بنفوسهم حتى وإن كان ضعيفًا ليُصارِع يأسهم المستشري بقلوبهم.

-اهدؤوا..مهما يكن..سنمضي بتنظيمنا السِّري حتى النهاية..سنكافح.. تفاءلوا قليلًا..عَددُنا ليس بالقليل..نحن الأقوى..سنفرض سيطرتنا أكثر وأكثر على مواقع التواصُل الاجتماعي، سنبعث روح الرَّفض والثورة بأنفُسِ الجميع..وسننتصر يومًا لا محالة..صدقوني..الحق معنا.

حلمٌ بائدٌ لدى كل الشباب الحالمين بالحرية..رغبة تشتعل كل لحظة وسط بقايا أشلاء حريتهم..مجموعات بكل أرجاء الجمهورية يجتمعون ويتباحثون الأوضاع ويبثون آراءهم عبر مواقع التواصل الاجتماعي..تنظيم سِريٌّ مُعاصِر يحلم بثورة جديدة تُغيِّر الأوضاع..ثورة حقيقيَّة تختلفُ تمامًا عمَّا سبقَها بدءًا من ثورة يونيو ١٩٥٢ لآخر ثوراتهم على جماعة الإخوان ٢٠١٣..ثورة العدل..قهر الظُّلم..العيش بحرية وكرامة وعدالة للجميع..حلم تتوارثه الأجيال أملًا بتحقيقه يومًا ما.

اكتظت الساحة أمام مسجد السيدة زينب بروَّادها وعُشاقها..أصوات الإنشاد والذِّكر تتطايَرُ لمسامعك فتُثيرُ الدِّفء والخشوع بنفسك..استعدادات للمولد النبوي الشريف دارت على قدمٍ وساق مدة ثلاثة أيام..يُهرع صانعو الحلويات بالمناطق الشعبية لتجهيز أدواتهم للمشاركة بهذا الكرنفال السنوي..وخاصة شارع السد المؤدي للمسجد تغمره الأنوار قبل أسبوع من الاحتفال بالمولد النبوي الشريف..غمرت أرفف محال الحلوى ذلك الحصان الحامل على ظهره أحد فتوات العصور القديمة وإلى جواره عروسه في انتظار طفل صغير يُشيرُ بسبابة يده راغبًا في اللعب بهما ثم أكلهما..مكان يفوح منه عَبَقُ التاريخ..تتردد الفرحة بين جوانبه..ترى الرضا بوجوه مرتاديه..تزيَّنت مئذنة المسجد بأفرع من النور لأعلاها، وكذلك كل جوانب المسجد خارجه..حلقات ذِكرٍ بساحة المسجد وداخله..مجموعة من البشر، مسافرون من كل

القرى والنجوع يأتون ليرموا حمولهم وآلامهم على باب مسجد حفيدة النبي صلوات الله وسلامه عليه..يهزُّون رؤوسهم مع دقات دفوفٍ بأيدي بعضهم على وتيرة واحدة..

-الله..حي..الله..حي.

هل عايشتَ تلك التجربة من قبل؟ اذهبْ بذلك اليوم وتمايَلْ معهم..واحكِ لي بعدها عن إحساسك..راحة عجيبة ستتسلل لداخلك..تتملكك مهما تكن همومك..انتحار جماعي لمتاعب الحياة..غسيل رباني للنفوس مجانًا..

وقفتُ أتوسَّطهم مُتمايلًا معهم على إيقاع دقاتِ دفوفهم..

-الله..حي..الله..حي.

مع كل هزة لرأسي يمينًا ويسارًا يتضاءل حُزني..مسكن رباني عظيم، ولكنه سرعان ما يزول بمجرد الابتعاد عن هذه البقعة المباركة..لطالما حلمتُ أن أعيش هنا ولا أخرج أبدًا..أُجاوِرُ حفيدة النبي وأُعايشُ هؤلاء مَنْ يمتلكون نفوسًا طيبة مباركة ووجوه مشرقة تمنحك الدفء بين تجاعيدها الراسخة.

كان سمير واقفًا ينظر لي مُتعجبًا..ما زالت ملابسنا مُبتلة بعض الشيء ممَّا حدث بالأمس.. لم نَنَمْ ولو دقيقة واحدة فبعد خروجنا سالمين من مياه النيل بأعجوبة وانتقالنا للقاهرة فوق إحدى التريلات لم تغفُ عيوننا خوفًا من المجهول..تساءل سمير كثيرُا عما يجري، ولكنني لم أملكُ له أي إجابةٍ حينها..طلبتُ منه النوم ليرتاح وتظاهرتُ أنا أيضًا بذلك، ولكن الخوف منعنا وبقينا يقظين حتى وصلنا إلى هنا..اقتربَ مني سمير جاذبًا بنطالي:

- جوعان.

لا أملكُ إلا جنيهًا واحدًا بجيبي..وهو يعلم ذلك..نظرتُ حولي فوجدتُ بائعًا للسميط والجبن..ابتسمت لسمير ناظرًا له:

-تأكل سميط؟

-أي شيء أنا جائع جدًّا ولكن هل سيكفي ذلك الجنيه لسدِّ جوعي؟

- لا تشغل بالك ..انتظر.

اتجهتُ لذلك البائع المنادي بصوت حنون أحبُّه كثيرًا.

-سميط وبيض وجبن طازج..

تصنَّعت أنني أعاني مرضًا عقليًا..متخلف..أُجرُّ قدميَّ بصعوبة ويداي أرفعهما بجوار فمي الذي التوى لليسار..تلعثمتُ ناظرًا إليه:

-يا بائع الجبن والبيض ..أنا جوعان.

-ألديك نقود؟

قالها ناظرًا لي متسائلًا:

-لا أملك شيئًا ..أنا جوعاااان.

رقَّ قلبه لحالي..ناولني قطعةً من السميط وقطعة جبن.

-امسك.. ادعُ لنا اللهَ بالبركة.

نظرتُ لهما مُدركًا أن سمير سيطلب المزيد..نظرتُ له مُجددًا وتعالى صوتي المُتلعثم:

-أريدُ المزيد، أنا جوعااااان.

-لا تكن طماعًا.

-المزيد..المززززيد..جوعاااااان.

تصنعتُ البكاء كالأطفال..ما كان أمامه سوى إرضائي وإلا دعوتُ عليه بوقف الحال.

ناولني قطعةً أخرى وبيضة.

-خُذْ.. فلتملأ بطنك.

-جزاك الله خيرًا..مشكور..فتح الله عليك وبارك لك.

ابتعدتُ عنه وسمير يرمُقني من بعيدٍ ضاحكًا..غابَ الرجل واختفى كلانا بالزحام.

-سميط وبيض وجبن طازج..سميط وبيض وجبن طازج.

جلسنا على الأرض بين أرجل الوافدين والمنشدين نتمسح ببركات السيدة زينب..التهمَ سمير طعامه سريعًا وأنا أنظر إليه سعيدًا..كنتُ أشعر بعاطفة قوية تجاهه..وكأنه ابني الذي لم يولد لي..نظر إلى عينيَّ بحبٍّ شديد وسألني:

-هل تسمح لي بسؤال؟ لماذا تراعيني لهذا الحدِّ؟

بادلته الابتسامة وربت على وجهه بحنانٍ شديدٍ:

-لأنني أحبُّك.

-تحبني؟ ولماذا تُخفي عني سبب هروبك؟ ممن تفرُّ؟

تنهدتُ مرتبكًا حزينًا.

-لن تجد إجابةً شافية تُقنعك.

بادرني سمير بسؤال آلمني كثيرًا:

-أنتَ مَنْ قتلَها؟

-ألم أكن واقفًا بجوارك حينها؟ كيف قتلتها إذن؟

-غير متأكد..الظلام كان شديدًا، وإن لم تكن أنت القاتل..لِمَ هربتَ وجرجرتني معك؟

نظرتُ للأفق المُغتَصَب بأرجل الناس حولنا..تنهدتُ كاتمًا حزنًا دفينًا بصدري:

- لأنهم لن يُصدقوني. سيصمونني بالكاذب..القاتل الكاذب، على الرغم أنهم أشد كذبًا وبُهتانًا.

-مَنْ هؤلاء؟

-الأشرار..محولو حياة أي إنسان لجحيمٍ دائمٍ لا ينتهي.

سألني ببراءة الأطفال المُعتادة:

-الأشرار! هل تخبرني بسِماتهم..أشكالهم؟ كيف لي أن أتعرف إليهم حتى أتجنَّب شَرَّهم بحياتي؟

نظرتُ لهؤلاء المتمايلين برؤوسهم وكأنه يصرخون:

-الله..حي..الله..حي.

دقات دفوفهم ترنُّ بأذني..أصوات مُتعددة مُتداخِلة تُحدِث ضوضاء مُحبَّبة للنفس تُبارِز أحزاني الدفينة..تنهدتُ ناظرًا للأفق المختفي بعيدًا مُحاولًا الرد على سؤاله بالرغم أنني أدرك تمامًا أنه لن يفهم..

- الشَّرُّ.. الشَّرُّ مخلوق تعس.. يعدك بسعادة زائفة..بالدنيا وما فيها..وما إن ترتمي بأحضانه حتى تكتشف الحقيقة.. طاعون..سقم لا شفاء منه.. أذرع قاسية تحاوطك..تضمُّك..تكسر ضلوعك كالقبور.. خيوط غليظة سوداء تتشابَك كالحرير.. تلتفُّ وتلتف حتي تنصب لك مشنقتك الخاصة.. تتعلق بها رقبتُك ولا منجى..لا مفرَّ.. حينها تبدو الحياة بعيدة..كمجذوب أصمّ على مدى البصر يصرخ بلا جدوى: الغوث..الغوث..أما من مُنقذٍ؟

سراب بعيد يخبلك..تناديها بأعلى صوتك: انتظري لم أنعم بك بعد..انتظررررررررري. مهما تُهرع خلفها لن تصل.. لن تسمعك.. وتنتهي دنياك..وتحت الثرى يختلي الشَّرُّ بك يحكي لك..لأي مدى كنت تائهًا، كنتَ تابعًا..مضحوكًا عليك.. الشَّرُّ قيدٌ جبريٌّ لمن يقترب.. نغمة ملعونة مُجبرٌ على سماعها ..غنائها. فقط اقتربْ مرةً وبايعه وينتهي كل شيء، قُضي الأمر..لا رجعة مع الشيطان.. الشر شيطان شرس..شره..لا يكتفي.. بلايين البلايين من العباد ولا يكتفي..يئنون ليل نهار بصلاتهم له ولا يكتفي.. صلاة ملعونة..عباد الشيطان.. عباد الشر..الأشرار.

نظرتُ لسمير مُتوقِّعًا علامات الاستفهام تملأ وجهَه البريء المُنذرة بضياع كلماتي تلك هباء..وكيف لطفل بالسادسة من عمره أن يفهم ذلك دون معايشته؟ لن أتعجَّل، فالحياة مليئة بما سيفسر له كلامي فيما بعد.

-أفهمتَ؟

أمسكَ سمير جانبه الأيسر مُتوجِّعًا بشدة..عاودَه ذلك الألم اللَّعين مُجددًا..

-ماذا أصابك؟ الوجع مُجددًا نفسه؟

-ألمٌ شديد لا أتحمَّله..آآآآآآآآآآآآه.

صرخَ بصوتٍ مَكتومٍ مُحاولًا التغلب على ألمه الشديد..احتضنته مُربتًا عليه خائفًا لتكرار ذلك الألم أكثر من مرة وعلى فترات متقاربة..

-فلتتحمَّلْه قليلًا.. وستصبح على ما يُرام كالعادة.

-آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه.

تعالت صرخاته لتمتزج بأصوات الباعة الجائلين لتطغى على دقات دفوف الذاكرين..ويبقى الألم هو الأعلى صوتًا ويبقى الحُزن هو الدائم أثرًا على الرغم من تلك المسكنات الروحانية الموسمية..امتزجت صرخاته الجسدية بصرخاتي النفسية. التقينا على أرض واحدة..أرض الوجع..والوجع أنواع..أصعبها النفسي منها..قد تتلقى روحك ضربات سياط مُوجعة طوال عمرك ولا تستطيع حتى البوح بذلك..ويبقى الإنسان عليلًا حتى النهاية..متألمًا حتى الموت.

خمس ساعات من التحقيق المتواصل بمكتب الرائد مجدي نور الدين مع كل مَنْ كان لهم صلة بالمجني عليها سلمى عبد الفتاح..شاركه النقيب شريف النجار ذلك التحقيق وأحيانًا كان يُبادِلُه مجدي مهام وظيفته ليستريح قليلًا ويدخن سيجارته المفضلة..

جلسَ مجدي على كرسيه الجلدي مُتابِعًا تلك الفتاة رقم تسعة بتحقيقهم اليوم..كانت تعمل لدى سلمى بفيلا المنصورية خادمةً..هكذا قالت، ولكن مظهرها يوحي بعكس ذلك تمامًا..فبنطالها الجينز الضيق والقميص الذي يُظهِر أكثر مما يخفي وزينتها تنبئ بكونها سيدة بغيًّا وبجدارة مُتناهية.

سلمى عبد الفتاح صاحبة أكبر قضية دعارة بالفترة الأخيرة..اتُّهم فيها العديد من عِلية القوم بالمجتمع وتناولت سيرتها كل الصحف والمجلات وبرامج التوك شو، ولكنها خرجت من القضية هي ومن معها لخطأ بإجراءات الضبط والإحضار وأُقفِلت على ذلك، ولم ينبش أحد بعد ذلك سيرتها القذرة خاصة أنه قد نُقِلَ الضابط المسئول عن تلك القضية لأقاصي الصعيد عِقابًا له على تتبُّع نجوم المجتمع وتعكير مزاجهم.

صَرَخَ مجدي بالفتاة فجأةً دون سابق إنذار لتتوقَّف عن بكائها المُصطنع..أوشكَ على فَقْدِ صوابه..شعر أنه يدور بحلقةٍ مُفرَغة ولن يصل للجاني أبدًا..لم يجد خيطًا واحدًا قد يفكُّ شفرات تلك الجريمة يومًا ما.

-صه..كُفِّي عن بكائك اللعين فورًا؟

-معذرة سيدي..الفقيدة كانت حنونًا للغاية مع الجميع..يُعتصر قلبي لفِراقها.

قالتها وهي تغالب دموعها.

-احكي لي ما حدثَ بالتفصيل.

-كنتُ نائمةً واستمعتُ إلى صوت أقدامٍ تتسلَّل ببطءٍ، خرجتُ من غرفتي مُناديةً سيدتي سلمى ..ظننتُ أنها عادت من الخارج..ولكن تلقيتُ ضربةً قويةً على رأسي وفقدتُ الوعي بعدها لم أدرِ بأي شيءٍ، وعندما أفقتُ عرفتُ ما حدثَ لها..

-وهل سُرِقَ أيُّ شيء؟

-لا..كلُّ شيء بمكانه حتى عُلبة جواهرها كما هي بمكانها.

-وهل تعرفين أنتِ مكانها أيضًا؟

-نعم سيدتي كانت تعتمد عليَّ بكل شيء.

-وما الذي يثبتُ أنكِ لم تشتركي مع شخص آخر بمؤامرة على القتيلة هو يقتلها وأنتِ تسرقينها وتبتدعين هذه القصة؟

-معاذ الله أن تمتدَّ يدي بالسوء لها..كانت كأختي..رحمها الله.

-متى رأيتِها آخر مرة؟

-بالأمس ليلًا..ارتدت ملابسها وخرجت وسألتُها عن حفل تلك الليلة، فأخبرتني بإلغائه.

نَظَرَ حينها إلى شريف وتبادلا ابتسامتهما بسخرية.

-وهل تحتفلون كلَّ يومٍ؟

- سيدتي أحبابها كُثر..ومع ذلك كانت تُعاني الوحدة دائمًا.. لهذا كُثرت الحفلات التي تجمعها بأصدقائها وأحبابها لعلَّها تخرجُ من عُزلتها بقضاء أسعد الأوقات معهم.

-حسنًا..ألم تتلقَّ أيَّ أتصال هاتفي قبل خروجها؟ آستمعتِ لها تتحدَّثُ بعصبيةٍ مثلًا؟ أيُّ شيء لفتَ انتباهك؟

-أبدًا.

انتهت أسئلته لها..وانتهى التحقيق بأكمله..وقَّعت على أقوالها وانصرفت..تنهَّد مجدي مُتعبًا ناظرًا لشريف:

-شريف..أفرغْ جميع المكالمات الصادرة والواردة على هاتفها ..قد نجِدُ أيَّ شيءٍ يدلُّ على الجاني.

-فورًا.

-هل وجدتَ أيَّ دليلٍ بفيلتها؟

-لا وننتظر تقرير المعمل الجنائي ورَفْعِ البصمات لعلهم يدلَّاننا على هذا الزائر الخفي لفيلتها ليلة أمس.

-إن كان موجودًا من الأساس..والحاسوب الإلكتروني الخاص بالقتيلة؟

-لا يوجد أي شيء يُلفت الانتباه.

-أنا مُرهَقٌ للغاية وأحتاجُ للراحة قليلًا.

دخل حينها أمينُ شرطة حاملًا ظرفًا أبيض بيده بعد استئذانه بالدخول..وضع الظرف أمام مجدي على مكتبه.

-ذلك الظرف وصلَ لجنابك منذ قليل يا سيدي.

-حسنًا..اخرجْ أنتَ.

فتحَ مجدي الظرف..رأى ما فيه..شاهَدَ ما لم يتوقَّعه..جحظت عيناه.

-غير معقول؟

صورة للمجني عليها سلمى عبد الفتاح بعد مقتلها مباشرة مُضرَّجة على الأرض بدمائها وبجوارها شخص يتلمسها جاحظ العينين..أشار شريف ناحية الصورة بمجرد رؤيتها ذلك، الشخص نفسه الذي نجحَ بالهروب منا ليلة أمس لحظة وقوع الجريمة..

همسَ مجدي مُدرِكًا حجم الأزمة المُقبل عليها:

-نادر؟

قالها لنفسه..حرص ألا يستمع له غيره.. تعرَّف إليَّ بمجرد رؤية صورتي بجوار قتيلته الجديدة..هُرع بعدها سريعًا لمكتب رجل الاقتصاد الأول عبد الغني رشوان النصراوي..جدي..الباشا كما يحب أن يناديه الجميع دائمًا..أسرع قبل أن تفوح رائحة جريمتي الوهمية وتتعقد مصائبي أكثر وأكثر..ألقى بقنبلته بوجه جدي على انفراد..نظرَ إليه الباشا بعصبيةٍ شديدةٍ مُتمالكًا أعصابه بصعوبة:

-هل جُننت أيها الرائد؟

-الصورة واضحة أمام جنابك.. انظرْ جيدًا..

ناوله إياها..تمعَّن بالنظر بملامحي المختفية وراء لحيتي غير المُنسَّقة وشعري الأشعث

..ترك الصورة على مكتبه وسادت لحظات طويلة من الصمت..أشعل سيجاره ونفث دخانه بالهواء مُفكِّرًا..نظر لمجدي والتوتُّر يملؤه:

-أهناك مَنْ شاهَدَ تلك الصورة غيرك؟

-النقيب شريف النجار..لكنه لم يُقابِل نادر مِنْ قبل، مِن حُسن الحظِّ أنه منقول للمديرية بعد اختفائه.

اقتربَ الباشا من مجدي ناظرًا بعينيه بقوةٍ:

-أنصت لي جيدًا يا مجدي..أُحذِّرُك..اياك أن يعرف أحدٌ بأمر هذه الصورة..والأفضل أن تختفي وكأنك لم ترَها..مفهوم؟

-كيف ذلك؟

-كما سمعتَ..هذه الصورة لا تَحمِلُ أيَّ إثبات.

-يا عبد الغني باشا هذه الصورة التُقطتْ لحظةَ وقوع الجريمة، ونادر لاذَ بالفرار بمجرد وصول قوات الشرطة.

-أوامري لا تُردُّ يا حضرة الرائد..هذه الصورة فُقدت.. اترك الجميع ظانين سفره كما هم، فليبقَ الوضعُ كما هو..حتى إشعار آخر.

قالها بعصبيةٍ شديدة مقطعاً إياه..صمتَ لحظاتٍ ثم لاحقه مجدي بالردِّ:

- لكن زوجته نانسي نصير لا تُصدِّق سفره المفاجئ واختفائه بغتةً منذ ستة أشهر دون اتصال واحد يطمئنها.

-لا يهم.. علينا فقط البحث عنه والعثور عليه بهدوء.. وفي سرية تامة وبعدها سنفهم ما وراء ذلك اللُّغز ..وللمرة الأخيرة أُحذِّرُك ..إياك أن يعرف أي مخلوق أيَّ شيء..

لم يجد مجدي مَفرًّا من موافقة مجدي عبد الغني النصراوي، فمن يستطيع الوقوف أمامه وجهًا لوجه مُتحديًا أوامره..حتى وإن كان مجدي نور الدين الضابط المنضبط المتفاني بعمله..كان مجدي ذكيًا لحدٍّ كبير مما ساعده على الاحتفاظ بموقعه بمديرية الأمن سنواتٍ على الرغم من تأخُّر ترقيته وتجاهُل بعض رؤسائه لمجهوداته، ولكنه ظَلَّ مُوفَّقًا لحدٍّ كبير رغمًا عن البعض..تغلَّب على العديد من العوائق وكنتُ أنا عائقه الجديد..اختبار صعب عليه اجتيازه دون خسائر..أنا المختفي منذ ستة أشهر دون سابق إنذار..بحث عني بكل مكان ممكن..لا

وجود لي..اختفى أثري تمامًا..وتلك هي المرة الأولى التي يعثر عليَّ مصادفةً مُتَّهمًا بجريمة قتل عاهرة أمام منزل مهجور ملعون، ولكن مَن يعرف ذلك غيره..شريف النجار..الوافد الجديد من الصعيد مساعدًا له..يعرف شكلي فقط دون أن يُدرك شخصيتي الحقيقية.. يدركني..نادر أمجد رشوان.

حياة بائسة تشتمُّ عَبَقَها بكل مكان..تراها في عيون الكادحين الباحثين عن لقمة العيش ليل نهار..بلد ظالمة تضمُّ الظالمين بين أحضانها وتلفظُ المظلومين بعيدًا ليبدأ صراعهم اليومي ليقتاتوا سُبل العيش مهما يكلِّفهم ذلك من ذُلٍّ وانكسار..عبيد وسادة..مَنْ يمتلكون المليارات ومَنْ يقاتلون بميدان الحياة من أجل حُزمة ضئيلة من الأموال..قد بلغت دولة الظلم ذُروتها والعجيب أن مريديها من المظلومين يباركون ارتفاع شأن ظالميها يُهلِّلون لهم بالمُضي قُدُمًا بمزيد من الظلم كالمثل الشعبي القديم: (أضرب كمان عاوز أتوب).

إن مقدار العدل والظلم بكل دولة على وجه الأرض يُقاس بمقدار ثقافة شعبها ووعيه فكلما يَزِد الجهل يَزِد الظلم..أعطني شعبًا جاهلًا أُعطِك حاكمًا ظالمًا فاسدًا..

الشخصية المصرية تهزمها متطلبات الحياة منذ الأجداد..فأصبحتْ ضعيفة مُنكسرة..تثور أحيانًا رافضة الظلم والبهتان باحثة عن كرامةٍ مسلوبةٍ ولكن سرعان ما يكسرها الاحتياج..الجوع والجهل قد يدفعانها للعودة لأسوأ مما كانت..وقد تُهاجِمُ من مَدَّ يدَه لينتشلها مِن بحر الذُّل والهوان وتتهمه بالخيانة..فنغدو منقسمين على أنفسنا كما يريدون..مجتمع مقسم منذ القِدم.. العائلة الملكية الفرعونية وطبقة الموظفين الكبار بالدولة ثم الأقل شأنًا بقية الشعب من العبيد خادمي أسيادهم من الملوك والأمراء والكبار..واستمرَّ الحال على هذا المنوال حتى يومنا هذا، بل أقبحُ ممَّا كان..

تتغير الوجوه والظلم واحد لا يتغير.. تتعاقَب الأزمان والجهل مهلكة الشعوب..والقتل فزاعة لمن سوَّلت له نفسه بالتغيير..سُنَّةُ الظالمين الجهل..سُنَّةُ الظالمين الجوع.

وقفتْ فتون بمطبخ بيتها البسيط شاردة أمام إناء قهوتها المقتربة على الفوران..بيتٌ كآلاف البيوت يرعى الجوع والظلم بين حوائطه المُتشققة الآيلة للسقوط.. فكرتْ مليًّا بما استمعت له باجتماعها الأخير بشباب التنظيم السِّرِّيِّ..رافضةً ما آلَ إليه تفكيرهم..مُستنكرةً قرارهم..كلمات فتحي تتردد بأذنيها لتشعرها بالعجز عن فعل أي شيء..لا تملك سوى الصمت والابتعاد..لن تستطيع الوقوف أمام ثورتهم الدامية تلك التي تقفز من عيونهم جميعًا..وتلك كانت البداية..نظر إليها فتحي ليبلغها قرارًا جماعيًّا..ألقاه بوجهها كقنبلة موقوتة ستنفجر بميعاد يحدِّدونه هم..

-قرَّرنا تصفيته جسديًّا.

-عمَّن تتحدث يا فتحي؟

-عبد الغني النصراوي..قُضيَ الأمر.

لم تُصدِّق فتون حينها ما استمعت له..لم تظن يومًا ذلك الاتجاه الدامي بتفكيرهم..تعلم جيدًا أن تلك القنبلة الموقوتة ستنفجر بهم أولًا قبل أي أحد آخر..حاولتْ إقناعهم بالعكس ولكن صُمَّت آذانهم جميعًا..حاولَ فتحي إقناعها:

- اهدئي ولنتناقشْ.

-نتناقش! وهل تركتُم مجالًا للنقاش؟ تقصدُ اقتراحًا إذن؟

-لا.. قرارًا..

-إذًا قراركم نهائي لا يحتاج لأيِّ نِقاش، وكأنني لا قيمة لي بينكم.

-لم يعد أمامنا حَلٌّ آخر يا فتون..هؤلاء الطغاة الفاسدون موتهم أصبح حتميًّا لا محالة..إمَّا هم وإما نحن. لا مجال للانتظار أكثر من ذلك..ذاك طوقُنا الأخير للنجاة.

صرختْ فيهم بعصبيةٍ شديدة:

-النجاة بالدم والقتل؟

-سُدَّت كلُّ الطرق..

-تفتحون بابًا لجهنم لن يُغلق مرةً أخرى، وإن اندلعت حربٌ أهلية ستكونون أنتم شرارتها.

تركتهم فتون وفتحت الباب لترحَلَ..لاحَقَها فتحي ماسكًا يدها ناظرًا بعينيها:

-انتظري يا فتون..ليس بمقدورك الابتعاد عنا.

-ماذا؟ وان ابتعدتُ؟ ستقتلونني؟ لا تَخَفْ.. أنا لم أسمعْ شيئًا.. لم أعرفكم من الأساس.

عادت لبيتها حائرة حزينة لما آلت له أوضاعها وأوضاعهم..دائرة مفرغة سيدور بها الجميع..بحور من الدماء ستنفجر قد تغرقهم جميعًا دون تمييز..ولكنها لا تملك أيَّ شيء سوى الصمت..لن تستطيع الوقوف أمام طوفانهم الدامي.

جلست فتون أمام تلفازها الصغير بصالة بيتها المتواضع شاردة مهمومة..فُتح الباب ليدخل كابوسها اليومي القديم..والدها المخمور..فوزي عبد المتعال..رجل بالستين من عمره اتَّخذ الخمر مِحرابًا يتعبَّدُ به ليل نهار..نادرًا ما تلقاه مُتزنًا غير مخمور..كان كابوسها المُتكرِّر الذي تناسته منذ زمن ولكنه عاد مُجدَّدًا ليصارحها بأنها لن تستطيع نسيانه مهما تحاول هي ذلك..ترنَّح فوزي مُلقيًا نفسه على كرسي خشبي قريبٍ ناظرًا إليها:

-اخلعي لي ذلك الحذاء..تعالي.

نظرتْ إليه مُحاوِلةً التغلب على إحساسها بالقيء الفجائي..هكذا تشعر دومًا حين تراه..

-أسمعتِ؟ هل الأمر مُقزِّزٌ لهذا الحد؟ أم يملؤك الكِبر؟ هيا..اخلعي الحذاء لوالدِك.

نهضت ناحيته مُجبرةً تخلع له حذاءه جالسةً تحت قدميه العفنتين:

-أنا لم أنطق بشيء.

-عيناك تقولان الكثير والكثير منذ أول أمس. كنتُ أنتظرُ منك ترحيبًا يليق بأكثر من عام دون لقاء واحد، ولكنك بُهتِّ بمكانك كمن رأتْ عِفريتًا.

نهضت فتون سريعًا متجهةً لغرفتها قاطعة أي محاولة لفتح حديث معها:

-أنا مرهقة.. سأخلُدُ للنوم.

أمسكها بقسوةٍ من ذراعها اليُسرى..جذبَها بقوةٍ ناحيته:

-معك نقود؟

سحبت ذراعها من بين يده..أخرجت محفظتها القديمة وألقت له بعضًا من النقود..التقطها بشغفٍ كبيرٍ ككلب جائع يتلقَّف وجبته الدَّسمة من العظام.. بينما دخلت هي غرفتها وأغلقت بابها..رنَّ هاتفه الصغير وهو يعدُّ نقودها..فأجاب:

-برعي..لا..وصلت للتو يا صاحبي. (يضحك): غدًا يحلو السهر..أحلى ليالي العمر..أراك بشَرٍّ (يضحك): سلاااام.

غلَبه النوم قليلا بمكانه..غلبته خمره فغاب عقله كالمعتاد..بينما جلست فتون ساهرة أمام مرآتها تنظر إلى وجهها الحزين..خلعت نظارتها وجلست تُصفِّف شعرها شاردة.. نظرت لكُتبها المُرتص بعضها فوق بعض على منضدتها الصغيرة متمنية أن تعاود دفن رأسها وعقلها بين سطورها..أحبَّت فتون القراءة وخاصة الكتب الشعرية منذ صغرها..عشقت أشعار نزار قباني..ذابت بين سطور رومانسيته الراقية..تذكرت أشعاره التي عشقتها.

-يا سيدتي كنت أهم امرأة في تاريخي

قبل رحيل العام

أنتِ الآن أهم امرأة

بعد ولادة هذا العام

أنتِ امرأة لا أحسبها بالساعات والأيام

أنتِ امرأة صُنعت من فاكهة الشعر

ومِن ذهب الأحلام

أنتِ امرأة كانت تسكن جسدي

قبل ملايين الأعوام

..لطالما تمنَّت أن تنضمَّ لمدرسة حُبِّه التي تغنى بها كاظم الساهر..لطالما عَشِقَت كاظم الساهر وتخيَّلته مِرارًا وتكرارًا فارسها المأمول بتلك الحياة..سالت دموعها تُعذِّبها كل ليلة مدركة أن دنياها كالقبر المظلم تصرخ فيه ليل نهار..بكت فتون ناظرة إلى عينيها بالمرآة وشفتاها تردان ما يَقبُرُه صدرها..تبوح بشكواها بمحاولتها الشعرية الوحيدة..تذكرت تلك المرة التي أمسكت فيها قلمها لتكتب شعرًا دون جدوى..غالبتها دموعها بعد عدة أسطر..

- موجوعة أنا..من يضاهيني؟

محطمة الوجدان..من يغالب أوجاعي؟

قلبي يصرخ غمًّا والحزن خليل أيامي

روحي الخرس عنوانها..وعنوان أحلامي

بركان قديم انطفأ يتمنى غلياني

القلب يبغي فرارًا .. بين الضلوع احتبس

يصرخ وبكل صرخة ألم..وجع غير محتمل

يهرب! قالوا القلب إن هرب..الموت

علي بابه وقف..قلت..الموت شهد عذب

يا ليته يدقُّ بابي وأنا أرتمي بأحضانه على عجل

..سكتوا..خرسوا..هربوا

وبقيت أنا في الوجع..

وحدي أنا في الكون..وحدي أنا والوجع

سالت دموعها كالأنهار على خديها..حاولت الخروج من حالتها تلك بصوت كاظم الساهر معشوقها..وضعت شريطًا له بالكاسيت، فخرج صوته نافذًا لقلبها مُحاوِلًا غسلَ هُمومها:

-علمني حبك أن أحزن..وأنا محتاج منذ عصور

لامرأة تجعلني أحزن لامرأة أبكي فوق ذراعيها

مثل العصفور لامرأة تجمع أجزائي كشظايا البلور المكسور

علمني حبك سيدتي أسوأ عاداتي

تراقصت كالمذبوحة على كلماته المُزيدة لحزنها..تراقصت وتراقصت وتراقصت حتى ارتمت على سريرها يغلبها بكاؤها ويتعالى فوق صوته القادم من عالم آخر..لتشهد ليلة جديدة بأحزانها المتراكمة..ليلة بكى فيها القمر حزنًا عليها..ليلة باكية.

تتوارد الأرواح بالزمان نفسه..قد تشعر بضيق بصدرك أحيانًا وتكتشف أن عزيزًا لديك يُعايشُ مشكلة ما..قد ترى روحك ما لا يفهمه عقلك ولا يدركه..وقد تحوي اللحظة نفسها كارثة لشخصين متقاربين بمكانين مختلفين يكتشفان فيما بعد حدوثها بالتوقيت نفسه.

وربما يرى أحدهما الآخر بمصيبته تلك بروحه ويعايش ما يمرُّ به مثله تمامًا، ولكن يتدخل العقل بعدها ليمحو ذلك من الذاكرة فلا يبقى سوى إحساس مشترك بكارثة لأحد الطرفين أو كليهما..وكنتُ أنا مِن ذلك النوع..أرى بروحي الكثير والكثير..أُحارِبُ عقلي دومًا بمعركة خاسرة لا أتذكَّر منها سوى شعور بالانقباض تجاه شخصٍ ما.

الساعة الثانية عشرة منتصف الليل..خرجتُ مُهرولًا لاهثًا من عيادة الطبيب بأحد المستشفيات الحكومية بعد طول انتظار بسمير ووجعه المتزايد بشراسة ذلك اليوم..جسَّ الطبيب جسدَه موجعًا إياه كلما..اقتربت يداه من موضع الألم..نظر إليَّ الطبيبُ قلقًا مُتسائلًا:

-هل شعر بتلك الآلام مُسبقًا؟

أجبتُه قلقًا:

-أكثر من مرة على فترات متباعدة..ألم بسيط يستمر دقيقةً أو اثنتين. ولكنها اشتدت كثيرًا هذه المرة وطالت مدتها.

كان أنينه يتعالى من الألم..حَقَنَه الطبيب بمهدئٍ سريع المفعول وذهبَ ليجلس على كرسي مكتبه الصغير بتلك الغرفة الموحشة الموحية بالهلاك..قُطْنٌ مُتناثر على منضدة قريبة وأدوات صدئة وجهاز قياس للضغط ودولاب زجاجي صغير به بعض الأدوية..حتى البالطو الأبيض الخاص به اصفرَّ لونُه واقتربَ من لون الصَّدَأ المنتشر بكل مكان هنا..وكأنه المستشفى العام للصدأ الطبي..هكذا ينبغي أن يكون اسمها.

جلستُ بالكرسي الأمامي لمكتبه الصغير..نظر لى بعينين قلقتين:

-لا تخفْ، سيزول الألم..هذه حقنة مسكنة، أنصحُك باصطحابه فورًا إلى مستشفى خاص، أأنتَ والده؟

فاجأني بذلك السؤال ولكنني تداركتُ سريعًا وأجبتُه:

-أأأ..نعم أنا والده.

-يحتاج لبعض التحاليل الطبية..عليك الاطمئنان عليه بمستشفى مُجهَّز..

- ولِمَ لا ننتهي من الأمر هنا؟

-هنا لا توجد أي إمكانات.. هنا لحالات الطوارئ فقط.

قالها بصوتٍ منخفض وكأنه يخاف أن يستمع له أحد.

نظرتُ له بحدة متناهيةٍ وبعصبيةٍ شديدة:

-لن أخرج من هنا..ستعالجه وإلا..

انخفضَ صوته أكثر وكأنه يهمس لي مُقاطعًا:

-صدقني.. حقنة المُسكّن تلك على نفقتي الخاصة، ولولا حالتكما المزرية وهيئتكما لما كشفتُ عليه مجانًا.

همستُ له خوفًا من أن يسمعني سمير:

-فيمَ ترتابُ أيها الطبيب؟ أرجوك صارحني بالحقيقة..

-أرتابُ في فشلٍ كُلويٍّ تؤكِّده التحاليل أو تنفيه؛ لهذا تعجل..الأمر خطير.

وكأن أحدهم طعنني بسكين بارد بقلبي..نظرتُ لسمير وتسارَعت الدموع المُحتقنة بعينيَّ هامسًا:

-فشل كلوي!

-لا تسبق الأحداث..هيَّا سريعًا إلى مستشفى خاص، وأنصحُك بالتصرُّف في مبلغ ليس بالقليل لأنه لو ثبت حدسي لذلك المرض..سيحتاج على الفور لعملية جراحية..لأن الغسيل الكلوي لطفل بعمره مصيره الفشل والموت.

-كم تتكلف؟

-عليك بالتأكُّد أولًا.

-كم تتكلف أرجوك؟

-ثمنًا باهظًا..باهظًا جدًّا..آسف حقًّا..أدعو الله أن يرحمه ويتولى أمره..آسف.

خرجتُ ورأسي يكاد ينفجر..ليس هناك سوى حَلٍّ واحد فقط..لن أسمح بضياع سمير مني مُطلقًا..سأبارز القدر لآخر قطرة بدمي..هو فقط مَنْ تبقَّى لي بهذه الحياة البشعة..هو الضوء الوحيد المنير لعتمتي وقبري الداخلي الغارق فيهما طوال عمري..سأفعل المستحيل لإنقاذه مهما يكلفني ذلك..مهما يكن الثمن..حتى وإن كان الثمن هو أنا..نام سمير على قدميَّ ونحن

بذلك التوكتوك الصغير الذي يشقُّ بمصباحه الصغير ظلامًا دامسًا بذلك الطريق..طريقي الوحيد الآن..التقطته بأعجوبةٍ على أول الطريق.

-مقابر الغفير؟

نَظَرَ إليَّ حينها السائق مُتعجبًا من وجهتي وشكلنا المثير للشُّبهات وكأننا كأهل الكهف خرجنا للتَّوّ من سُبات عميق دام لمئات السنين ..ولكنه أشار إليَّ بالركوب..يبدو أنه اعتادَ مَنْ هم على شاكلتنا بتلك المنطقة.

-تفضَّل يا غالي

وانطلقَ مُتأرجِحًا فوق تلك الأرض غير الممهدة مُتلافيًا الحفر والمطبات المتعددة..

فتح سمير عينيه ونظر حوله وسألني:

-إلى أين إن شاء الله؟

كنا قد وصلنا..نظرتُ إلى السائق:

- هنا..قِفْ هنا.

توقَّف ونزلنا..أخرجتُ جُنيهًا وأعطيته إياه..نَظَرَ إليَّ بشكٍّ مُريبٍ:

-لا تؤاخذني .. إلى أين أنتَ ذاهب بهذه الساعة المتأخرة؟

-وما شأنُك أنتَ أيها السائق؟! أنا هنا لزيارة قبر أمي رحمها الله..هيا انصرفْ.

-حقًّا! رَحِمَها الله وأسكنها فسيح جناته... وولد صالح يدعو له.

قالها بسخرية وانصرف بتوكتوكه ليعمَّ الظلام الدامس حولي..اختفى القمر هذه الليلة خلف السُّحب المتراكمة مُنذرًا بليل قاتم الظلمة ولكن انعدمت الرِّياح تلك الليلة تمامًا وكأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة..أخرجتُ شمعة وناولتُ سمير إياها مضيئًا لها بعود كبريت بجيبي:

-خذْ ْحذرَك..إياك أن تنطفئ.

-إلى أين يا نادر؟

-تعالَ..لا تخفْ.

اخترقنا ذلك السكون بأقدامٍ حَذِرَة..كنتُ أبحث عن شيء ما أعرفه جيدًا..مررتُ بين تلك المقابر الجماعية البعيدة..مقابر الفُقراء..حتى الموت به غنيٌّ وفقير..فهناك تجد جثامين الأغنياء بمقابر واسعة مُرصَّعة بالرخام ومُحاطة بأبواب وجنازير كلٌّ على حدة، ولكن هنا بمقابر الفقراء يُدفن بعضهم بجوار بعض لا يفصلهم سوى قليلٌ من التراب وشاهِدُ قبرٍ كُتبَ عليه بطبشور يتلاشى بعد قليل فيصبح مَجهولَ الهُويَّة..لكنني أعرف وجهتي..خامسُ قبر ناحية

اليمين بعد بقايا سورٍ عالٍ مُهدَّم..هنا..ذاك هو القبر المرصود..روحي تنجذبُ مني الآن..وكأنني أُحلِّق بعيدًا لأرى الأرض من أعلى..كم أتمنَّى الموت! ولكنني أخاف عذابًا ينتظرني لا محالة..عذاب في الدنيا وعذاب في الآخرة وأنا هارب ذليل بأطراف الدنيا أبحث عن طوقٍ للنجاة فلا أجد..أبحثُ بروحي الحائرة المُعذَّبة..رأيتُ أمام عينيَّ شيئًا عجيبًا..رأيته بروحي..غرفة متهالكة بسيطة الأثاث أعرفها جيدًا..رجلًا يتلاعب الخمر برأسه يرتشف آخر قطرة بزجاجته العاشرة تلك الليلة..إنه فوزى عبد المتعال والد فتون..لم أُدرِك حينها كيف رأيتُ ذلك..جذبني سمير بصوتٍ خائف مُرتعِد:

-نادر..أنا خائف.

نظرتُ إليه مُطمئِنًا:

-إياك والخوف وأنا بجوارك.

جثوت على ركبتيَ وبدأتُ بالحفر أمام ذلك القبر الخامس..تتراءى أمام عينيَّ لقطاتٌ لا أفهمها أحاول إبعادها عن ذهني وأنا مستمرٌّ بالحفر..فوزي عبد المتعال يترنَّح مُتجهًا لغرفة فتون..يفتح بابها برفقٍ شديد..يدخل غرفتها مغتصبًا سكونها الليلي..فتون نائمة على سريرها غارقة ببحر همومها النفسي..اقتربَ منها فوزي وأنا أشتدُّ بالحفر....اقتربتُ من هدفي المنشود..نظر فوزي لملامح جسدها الممشوق تحت جلبابها المنزلي..انتهكَ حُرمته بنظراته الشهوانية الحيوانية..اشتهاها..اقتربَ منها خالعًا قميصه ليبقى عاريًا..جسستُ بيدي شيئًا صلبًا..مددت يدي لأخرجه..حقيبة سوداء مدفونة تحت التراب..أزلتُ التراب عنها وفتحتُها..رزم من النقود فوق بعضها البعض..سَيْطَرَ الذهول على وجه سمير حينها..لم يرَ بسنواته الست السابقة هذا الكمَّ من النقود مُطلقًا..من أين أتيتُ أنا بكل هذه الأموال وكيف عرفت مكانها..لغز كبير جديد ينضمُّ لألغازي برأس سمير..انتفضَ سمير إلى الخلف خائفًا..ذلك السائق يقف أمامنا ممسكًا بمطواة تضوي بنور شمعته..نظر للأموال مذهولًا شاهًرا مطوته بوجهي:

-يا بن العاهرة..أتُخفي كل تلك الأموال وهنا؟ صَدَقَ حدسي..هيا..انهض أيها الأحمق وإلا دفنتُك بجوار السيدة والدتك رَضِيَ الله عنها.

صرختُ فيه مُحاولًا إبعاده عمَّا يُفكِّر فيه:

-تلك النقود مُخصَّصة لعلاج ابني المريض..

-حقًّا! ألف سلامة! لحظة لأبكي على ولدك المريض!

-خُذْ نصفها واتركْ لي الباقي..

-مكانك لا تتحرك..ارجع للوراء وإلا شققتُك نصفين.

ابتعدتُ أنا وسمير للخلف..نظرتُ إلى سمير المرتجف خوفًا..عادت تلك اللقطاتُ تتراءى أمام عينيَّ..فتون تنتفض من سريرها وتُبعِدُ يدَه العابثة بجسدِها صارخةً:

-كفى ..كفى نجاسةً..

اقترب فوزي منها أكثر وهجم عليها مُحاولًا تقبيل جسدها..مَدَّ يدَه ليغتصب نهديها..دفعته للخلف:

-أنت حيوان عديم الإحساس..قلتُ لك كفى.

انقضَّ عليها مرةً أخرى يصفعها بقوة..وطىء جسدها

-أذناي تكرهان هذه الكلمة..ألم يكفِك أنني لم أسألك عن غيابكِ أكثر من سنة مضت؟ ألم يكفِكِ ذلك يا بنت ليلى؟ هيا فلتتركيني أنهلُ من بحرِ جمالك ولا تسمعيني تلك الكلمة مُجددًا على الأقل هذه الليلة..يا لجمالك!

قطعَ جلبابها فطارت أزراره العُلوية..أقبل عليها كذئبٍ شَرِهٍ لضحيته..كان السائق الممسك بالحقيبة الممتلئة بالأموال مستعدًّا للرحيل..نفخت حينها بالشمعة بيد سمير فساد الظلام بالمكان..أمسكت حفنة من التراب بيدي وألقيتُها بعينيه..صرخ السائق:

-يا بن الحرام ورحمة أمواتك..لن تفلت مني.

أمسك بالحقيبة بكل قوةٍ لديه..اشتباك عنيف دائر بيننا..وقعت المطواة من يده في أثناء صراعنا الشديد..صراع جسدي هائل على البقاء بيني وبينه..وصراع جسدي بالتوقيت نفسه بين فوزي وفتون على الشرف..أبت فتون الاستسلام له هذه المرة..أفلتتْ منه وجرت بكل أرجاء شقتها وهو يتتبعها لاهثًا كالثور الهائج..صرخ فيها:

- أتتمنَّعين عليَّ؟ لماذا هذه المرة؟

-قرفت..سئمتُك وسئمتُ مُعاشرتَك.

لم تَدرِ فتون نهاية تلك الحياة الأليمة..لم تدرك نهاية مأساتها..أب مغتصب..داعَب جسدها منذ طفولتها..انتهكَ براءتها وقضى على أحلامها بعيشٍ كريمٍ شريف..كانت تفرُّ منه كالمجنونة تبحث عن مخرجٍ فلا تجد..حاصرَها كما كان طوال عمره..

أخرجتُ عُلبةَ الكبريت من جيبي ورميتُها لسمير..صرختُ فيه:

-أنِر الشمعة.

لعل نورها ينهي مآسينا..لعله يرشدنا للطريق الصحيح..ما زال السائق يُقاتلني على تلك الأموال الفانية..سائق غبي يخاطر بحياته إما ليقتلني ويهرب بتلك الأموال التي ستملأ حياته بتعاسة لا نظير لها وإما سيموت ليلقى عذابًا بجهنم لا نظير له..عجبًا للإنسان الغرور اللاهث وراء المال..حاول سمير إشعال عود الثقاب مرارًا وتكرارًا..لا يرى شيئًا ولكنه يستمع لأنين

صراعنا وصوت جسديا المتشابكين..وأنا لا أرى سوى فوزي المنقض فوق فتون رافعًا لها جلبابها بقوة ليغتصب عَفافها مرةً أخرى..أمسكت فتون مقصًّا وجدته بجوارها..أبصرتُ بجواري فرأيتُ تلك المطواة مُلقاة بالقُرب مني فكافحتُ لأُمسكها..

حالة من السكون بكل مكان الآن..نجح سمير بإضاءة شمعته..جحظتُ عيناه لما رأى..ذلك السائق يُحتضر فوقي مُرتعشًا والدماء تنسال منه..سحبتُ نفسي من تحته وأنا أرى شيئًا آخر..فتون تلك الفتاة الرقيقة الرومانسية قتلت أباها..مقصُّها استقرَّ بظهره بعدما سحبت نفسها من تحته..كلانا دبَّ سلاحه بظهر مصارعينا باللحظة نفسها..كلانا يدافع عن بقائه بقانون واحد..قانون الغاب..القتل..لم يتبق سواه لم يكن هناك مفرٌّ لغيره..وقف كلانا ينظر لجريمته..تدخَّل عقلي سريعًا ليمحو تلك اللقطات من ذاكرتي..لقطات قتلها لأبيها الكريه..لم يبقَ سوى إحساس غامض بالانقباض يملؤني..فسَّرتُه حينها أنه توابع لتلك الجريمة الجديدة..جريمة المقابر..سائق أبله سيلقى حتفه بجهنم لا محالة..بعدما لقيَ حتفه بالدنيا على يديَّ هاتين..منضمًا بذلك لموسوعتي الضخمة..أمسكتُ حقيبة الأموال محتضنًا إياها..نظرتُ لسمير مادًّا يديَّ له...أسئلة عديدة تتصارَعُ داخل عقله الصغير.. أراها بعينيه.. مَنْ أنا؟ وماذا فعلتُ لأصبح طريدًا هكذا؟ ومَن أين لي بكل هذه الأموال؟ قبرٌ من الألغاز تتداعى عليه كثعبان شَرِهٍ لتحطيم عظام كافر عنيد.. مِن المؤكد أنني مجرم عتيد الإجرام أو سارق هارب بغنيمته أو تاجر مخدرات تطاردُه الشرطة.. شكوك كثيرة تملأ رأسه.. مددتُ له يدي متجاهلًا نظراته تلك..علينا الهروب مُجددًا..علينا الاختفاء بعيدًا عن ذلك المكان..مبتعدين عن تلك المقابر..مبتعدين عن سكونها المنذر بالخطر..سكون برائحة الموت..سكون برائحة الدماء.

زُجاجٌ مَنْثور

(الثالث عشر من ديسمبر- القاهرة)

-الحب..الحب أعظم إحساس..شعورٌ يُربك كيانك من اللحظة الأولى.. يسلب قلبك من أول لمسة ..أول نظرة..الحب هو روح الحياة..مسكين من لم يصادفه.. عالمنا جميل إن اقترنَ بالحب.. ورود وريحان وقطرات من الندى بصباح يستقبل شمسًا لا تغيب..الحب عِشقٌ وسكون لا ينتهيان.. فلنبحثْ عنه في المدى بيننا..أنتظرُ اتصالاتكم وقصصكم ..متى دقَّ قلبكم لأول مرة لعِشقٍ فُجائي اجتاح أرواحكم..قصص عشقكم الأولى.. ابقوا معنا ..وتذكرة الحب..و..نيفين أمجد.

كان ذلك الصوت الرقيق الخارج من الراديو بإذاعة (إف إم بالعربي) يُداعب آذان المستمعين يوميًّا الساعة التاسعة صباحًا.. صوتًا ينفذ إلى القلب بمجرد الاستماع إليه..إنها نيفين أمجد أختي العزيزة..بيننا عامان..نيفين الحبيبة..حبيبة عمري وقلبي..كم أعشقُها! أعشقُ عينيها

السوداوين..همساتها..لفتاتها..هدوءها المثير للرهبة..أحبُّها وكأنها معشوقتي..طوال عمري ولها مكان خاصٌ بقلبي لا يسع غيرها..أختي الجميلة..نيفين أمجد.

امتزج صوتها بصوت وردة الجزائرية ببرنامجها الصباحي المُشرق..تغنَّت معها وأنصتَ لها المستمعون بكل مكان بمصر..اعتادوا بَدْءَ يومهم بصوتها الدافئ:

-طبعًا أحباب والحب عجيب وملوش أسباب..

طبعًا أحباب وأنا وأنت سؤال وملوش جواب

يا أبو حس بيعرف يلمسنى..وكلام ولا غيره يونسنى

يا غنوة متحتجش شفايف..قلبى من غير قلبك خايف

وأحنا من غير بعضنا أغراب..طبعا أحباب.

طاقة إيجابية تُبثُ عبر أثير الإذاعة يوميًا يحملها صوتُها الحنون لقلوب المستمعين لها عِشقًا لصوتها ومواضيعها..

وقف مجدي نور الدين حائرًا بأحد الأكشاك الزجاجية بين الورود وألوانها..أشار إلى البائع معطيًا أوامره بجمع بوكيه من الورد يطغى الأحمر على ألوانه.. يعرف جيدًا أنها تعشق اللون الأحمر..لون الحب..صوت وردة الجزائرية ما زال يخرج من مذياع ترانزستور صغير..وضع بوكيه الورود بجواره بسيارته اللادا وانطلق..

انتظرها على غير عادته..خرجت من بوابة مدينة الإنتاج الإعلامي فوجدته..اعترضها بسيارته فتوقَّفت بسيارتها الصغيرة..اتصل بها هاتفيًا..أجابته وهي تنظر إلى عينيه عن بُعد بدهشة:

-مجدي!

-اشتقتُ إليكِ.

-بكّاش..

-أقسمُ لك..اشتقتُ إليك كثيرًا.

-مجدي، هل عاودتك الحمى من جديد؟ مِن الأفضل أن نحجز لك أقرب ميعاد عند الطبيب.

قالتها ضاحكةً مُستقبلةً مشاعر الشوق والحب بعينيها وكأنها تحتضنُه برموشها..فرحة جارفة تجتاحها لطالما تاقت لكلماته تلك النادرة.

لم تَعْتَدْ نيفين تلك الجرعة المفرطة من الحب والحنان من مجدي على الرغم أن زواجهما لم يكمل عامه الأول حتى الآن، ولكنها اعتادت عيوب عمله ضابطَ شرطةٍ..تلك الشخصية

الرومانسية التي يشهد الجميع برقتها وجاذبيتها اعتادت الجفاء والبُعد وندرة المشاعر..تلك عيوب وظيفته وهي تقدرها جيدًا..ملاك حائر حنون..ورجل يعيش وسط المجرمين والقتلة يُعايش الدماء والموتى حوله طوال يومه فلن تنتظر منه مشاعر دافئة بنهايته..
احتوته..عَشقتْهُ..عَشقتْ حتى جفاءه..تغاضت عن عيوبه..هكذا هي كالمثل الشعبي القديم (مرآة الحب عامية) أحبته نيفين قبل زواجهما.. ست سنوات لم تفصح عن حبها لأحد..ولكنني كنتُ شاعرًا بذلك..عيناها كانتا تبوحان له كلما رأته رغمًا عنها، ولكنها سرعان ما تمتلك عينيها وتخفي حبَّها بأعماقها..كانت تعرف أنه لا يحبها حينها، وكنت أُشفقُ عليها..حاولت كثيرًا لفت انتباهه تجاه حُبِّها دون جدوى..واعتمدت على الأيام لتئدَ ذلك الحب بداخلها وتُكمِل حياتها بعيدًا عنه.. ولكننا فوجئنا به يطلب يدها مني منذ عدة أشهر ..ووافقتُ على الفور وتزوجا..كانا متشابهين، يجمعُهما اليُتم، فمجدي كان وحيدًا بتلك الدنيا، كان الابن الوحيد لوالديه المُتوفَّيَيْن الواحد تلو الآخر بعد التحاقه بكلية الشرطة ..عاش يتيمًا بشقة والده الصغيرة معتمدًا على معاشه الصغير..عاشَ مُكافحًا عزيز النفس صُلبًا كالجبال..جمعهما بيتٌ واحد، كما كانت تحلمُ طوال عمرها..بيت مجدي ونيفين..

جلسا بكافيتريا تُفضِّلُها هي..ترى مياه النيل عن قُرب..تجلسُ هنا كثيرًا بمفردها تشكو أوجاعها لمياهه..لتبُحر بعيدًا عنها ولكنها هذه المرة معه..تنظر لوردِه الرائع..قد بدأ يتغير..هكذا تراهُ الآن مُتعجبة..نظر لها قاطعًا شُرودها الفَرِح بوردِه الأحمر:

-راهنتُ نفسي على تلك النظرة بعينيكِ.

-أنتَ تعرفُ أنني عاشقةٌ للورد..لكن أخبرني: ما هذا التغيير المفاجئ؟

نَظَرَ إلى عينيها بحبٍّ جديد عليها:

-للحقِّ شعرتُ أنني مُقصِّرٌ تجاهك ..انشغلتُ كثيرًا بعملي الفترة الأخيرة.

-مجدي..منذ متى ونحن متزوجان؟

- ثمانية شهور تقريبًا.

-ثمانية شهور فترة كافية لحفظ كُلِّ أفعالك ورغباتك ..هيا أخبرني ماذا تريد بهذا الورد؟

ضَحِكَ مجدي ماسكًا يدها بحنانٍ شديد:

-أريدُ شيئًا واحدًا فقط..حبَّك..دِفء أحضان قلبك..هذا ما أريدُ.

-بكّاش وحاصل على الجائزة الأولى بالبكّش..

-الله يسامحك.

-حسنًا سأصدقك مؤقتًا..للحقِّ الورد رائع.

-أعرفُ أنكِ تُحبين اللَّون الأحمر.

- مُرَا؟

سألهما الجارسون بابتسامة صغيرة:

- غداء؟

-لا..ليس الآن..

- كُوبي ليمون، ولا تنسَ الثلج..

انصرف الجارسون وساد بينهما الصمتُ أحدهما ينظرُ إلى عيني الآخر، يتبادلانِ الحبَّ فيما بينهما..ابتسمت نيفين ضاغطة بيديها على يديه..

-لو أنك تظلُّ هكذا طيلة الوقت.

لحظات نادرة تتمنى نيفين استمراها للأبد..ذابت بعينيه اللتين تعشقهما منذ زمنٍ..تعانقت روحاهما وتشابكت أيديهما..وانتحرت لوعتُها بأحضان حُبِّه المنشود..تمنَّت أن تنتهي حياتها بتلك اللحظة..تغادر تلك الحياة والعشق يغرقها..جميل هو الموت عِشقًا..جميلةٌ تلك الحياة بأحضان الحبيب..جميلٌ اشتياقها.

وانطلقَ موكبُه الجديد..وجهتُه المُرتَقبة اليوم تنعش قلبَه فرحًا بالانتصار..كمَلِكٍ تحمله الأقدار نحو عرشِه الأول..الذي طالما حَلُمَ به وخطَّط لنيله..أتَّكأ الباشا عبد الغني رشوان النصراوي على كرسيه الخلفي بسيارته السوداء الجديدة المصفحة المانعة للرصاص..إنه يومه الأول بها..أرسلتها الوزارة كنوع من الإعلان عن مهامه الوظيفية الجديدة.. لتعزله من البداية عن عالمهم الخارجي عالم الأوباش والفقراء والمُهمَّشين..انطلقَ في موكبه يتبعه سيارتان مُكتظَّتان بحراسه المدججين بأسلحتهم لحمايته..حراس كالأسود تحمي ذئبهم العجوز..تحمي مفترسها الأول ولكن مَنْ يهتم فجيوبهم الممتلئة من أمواله هي الأهمُّ..شركة حراسة خاصة طلب منها الباشا تتبُّعَه وحراسته منذ فترة كبيرة..ولم يبخلْ عليها مُطلقًا..كان يعلم جيدًا أن هناك كثيرين يتربَّصون له..كمٌّ لا بأس به من الأعداء يُلاحِقونه..وجودهم حوله بكل مكان يشعره بالأمان..رنَّ هاتف سيارته الفخمة..أجاب بشغف:

-صباح الخير..أنا في الطريق سعادتك..تفضَّل مع ألف سلامة.

أغلقَ هاتفه ونظر إلى الشمس بعينين وقحتين من خلف زجاج سيارته القاتم..حارس آخر يمنع أشعتها بالوصول إليه إلا بمقدار بسيط..دقائق معدودة ويصل مكتب مجلس الوزراء ليُباشِر عمله الجديد رئيسًا لهم..يختار هذا ويبعد هذا ويشكل حكومته القوية..لن يحتاج لوقت لإنهاء مهمته تلك..فقد اختارَ أغلبهم منذ فترة وبقيَ فقط الإعلان عن أسمائهم وتسليم قائمته تلك للرئاسة لتحظى بالقبول..إنهم شركاؤه..شركاء المستقبل القريب..مجموعة من أهم رجال

الأعمال..حكومة رجال الأعمال..هكذا سيطلقون عليهم..وستُسنُّ الألسنة لتنهشهم من اليوم الأول لإعلان حكومته..ولكنه لن يُبالي بشيء..فهو يعرفهم جيدًا..يُدرِكُ هؤلاء الناس..شعب هذه الدولة..كلام فقط..سخرية وفضفضة على المقاهي ليلًا بعد يوم طويل من بحثهم عن لقمة العيش..يدرك أن مَنْ ينشغل بلقمة العيش لا يمكن أبدًا أن يفعل شيئًا آخر سوى الكلام..والكلام لن يؤذيه..سيغلق أسماعه إن قابَلَ أحدهم..سيغضُّ بصره إن نجا أحدهم مِن مَفرمتِه اليومية ليعترض عليه..استعدَّ الباشا لعالمه الجديد..تهيأ لزيجته المأمولة منذ زمن..زيجة ماله بسلطة تحميها..لم يُدرِكْ عبد الغني أنه على شفا حُفرةٍ عميقة قد تُهلِكُه..لم يفهم أنه على بُعد خطواتٍ عن مصيرٍ مَجهولٍ يترقَّبه..

شارع عريض ممتلئ بالسيارات على جانبيه..سياراته الثلاث بأوله..وهناك مَنْ يقبعُ بمنتصفه ينتظر وصوله..إنه فتحي عبد العزيز..ذلك الشاب الثائر الدَّموي.. جالسًا كالصقر داخل سيارة جيب محركها جاهز للانطلاق..تنتظر ضغطة من قدمه اليُمنى لتتحرك..نظر بمرآتها لمن بالخلف..ثلاثة شباب في أواخر الثلاثينيات من العمر..الصمت والترقُّب يُخيمان فوق رؤوسهم..حانت اللحظة الفارقة..مَرَّ عبد الغني بجوارهم..فتحي يتتبعهم بعينيه متوترًا..تستمع إلى دقات قلوبهم بتلك اللحظات بوضوح شديد....اقتربت السيارات من نهاية الشارع مُستعدة لتسلك طريقًا أيسر..

نَظَرَ فتحي بحدةٍ إلى شابٍّ يجلس خلفه آمرًا إياه:

-الآن.

ضغط الشابُّ على زِرِّ الاتصال بموبايل بيده..وبلحظة واحدة انفجار ضخم يلتهم نهاية الشارع..سيارة مركونة ملغمة بخمسين كيلوجرامًا من الديناميت ومكالمة هاتفية صغيرة تصلهم بالأمس مع رسالة صغيرة بمكان السيارة الملغومة وميعاد التنفيذ..كل ما عليهم الاتصال بأول رقم مسجل باللحظة الحاسمة وينتهي كل شيء..لغز كبير حول تلك المنظومة المستترة خلف هذا الحادث ولكن فتحي هو المالك الوحيد لفك شفراتها..فتحي هو حلقة الوصل بين شباب التنظيم السِّرِّيِّ وهؤلاء..مَنْ تتخضب أياديهم بالدماء وتمتلئُ أنوفهم برائحة البارود والديناميت ليل نهار..نزل فتحي من سيارته ليُتابِع عن بُعدٍ..طارت السيارتان الخلفيتان بالهواء وانقلبت بمَن فيهما مُنفجرةً تلتهمها النيران المشتعلة بكل مكان كنار جهنم..صراخ وعويل من الشُّرفات والمارين بالشارع ممن كانوا بالقرب..جثث تتفحم ورجال تجري والنيران تلتهمهما كفأر أشعلتَ نيرانك به انتقامًا منه لدخوله منزلك..ولكن سيارة عبد الغني تقف بعد الحادث مباشرة على الجانب الآخر..النيران مشتعلة بإطارها الخلفي، ولكن لم يُصبْها شيءٌ إلا شُروخ بزجاجها القوي وبعض الجروح بجسدها الصُّلب المصفح..فُتح بابها الخلفي بصعوبة..نزل الباشا بحذرٍ وذهول..هناك مَنْ جَرُؤَ على أكثر من الكلام..هناك مَنْ وجَّه نيرانه ناحيته لتحصد روحه..ولكنه ما زال حيًّا يُرزق، وسينتقم أشدَّ انتقام ممَّن فعل ذلك..جالَ بعينيه بجهنم المشْتعلة مِن حوله..جُثث متفحمة ونيران ودم يحترق بكل مكان..صراخ وعويل يتعالى..رآه فتحي بعينين يملؤهما الشَّرُّ والإصرار على الانتقام لآخر نفسٍ..تبًّا لذلك العجوز المُتجبِّر! وكأن الله يأبى لقاءه ..وكيف لعزرائيل أن يُخطئه وسط كل هذه الأرواح

المحصودة؟! ركب فتحي سيارته سريعًا وانطلقَ ناحيته..لَمَحَ الباشا سيارته تقتربُ..اختبأ خلف سيارته المُصفَّحة..رشاشٌ آليٌّ يبحث عن روحه بطلقاتٍ عشوائية مُنطلِقة مِن سيارة فتحي..تُصيبُ آخرين ممَّن كانوا بموقع الحادث وهُرعوا لإطفاء النيران فماتوا بالرصاص..سقط قتلى جُدد ونجا عبد الغني..رائحة الدماء الممتزجة بالدخان تخترق أنفه ..هالَه ما يرى..هربَ حينها فتحي سريعًا والفرح يملأ وجهه..تخيَّل أنه قد انتهى للأبد..من المؤكد أن تلك الطلقات أصابته إحداها..اختفى بعيدًا تاركًا خلفه بحورًا مِن الدماء والنيران المُشتعِلة وعشرات من البيوت التي ستكتسي بالسواد مِن تلك اللحظة للأبد..

وما هي إلا دقائق وامتلأت الساحة بسيارات الشرطة والمطافئ والإسعاف..كلٌّ يُهرع لعمله الفُجائي بتلك المصيبة..انطفأت النيران ونُقلت الجثث واحدةً تلو الأخرى..تجمَّع الناس بموقع الحادث بعدما نُقِلَ الباشا بسيارة إسعاف خاصة لمستشفى الشرطة..وقفَ أحدُ مراسلي قناة فضائيةٍ يُعقِّب على الحادثة أمام كاميرته ومستشفى الشرطة خلفه:

-حالةٌ من الفزع أمام مستشفى الشرطة بمدينة نصر إثر انفجار هائل بأحد الشوارع أصابَ موكب رئيس الوزراء المُرشَّح بقوة للمنصب عبد الغني رشوان النصراوي وأنباء عن عددٍ كبير من القتلى..سنوافيكم بالأخبار أولًا بأول..تابعونا.

امتلأت ساحة المستشفى بأهالي المُتوفين وعائلتهم..شقَّت صرخاتُهم عنان السماء..تعالى أنينهم ليمتزج برائحة الموت النابعة من ثلاجة المشرحة الممتلئة بذويهم..خمس وأربعون ضحية بتلك الحادثة الإرهابية البشعة..شخص واحد مُستهدَف راح بدلًا منه خمسة وأربعون بريئًا..وأكثر من تسعين مُصابًا بحروق وطلقات رصاص قد تودي بحياتهم قريبًا..هُرع مجدي نور الدين وشريف النجار إلى المستشفى فور تلقيهما أنباءً عن الحادثة..صاحَبَهما بعضُ الضباط وحاملي الرتب العسكرية الرفيعة..نَظَرَ الطبيب لهم ليردَّ على سؤالهم التقليدي مِن أمام غرفة العمليات بالمستشفى:

-الحالات في مُنتهى السوء.

لاحَقَه مجدي بسؤاله:

-وعبد الغني بك؟

- أستاذ عبد الغني إصابته ليست خطيرة..حَمَتْهُ سيارتُه المُصفَّحة، ولكن باقي الحالات حرجة للغاية.

-أين هو؟

سأله أحدُ اللواءات بشغفٍ وقلقٍ.

- نُقِلَ إلى غرفة ٢٥، وحاليًا هو تحت تأثير حُقنة مُنوِّمة لتهدأ أعصابُه قليلًا، ٣ ساعات وسينتهي مفعولُها.

قالها ناظرًا إلى ساعته المُقتربة من الثانية عشرة ظهرًا.

نظَرَ مجدي للجميع مُتنهدًا..إلى متى ستظلُّ تلك الحلقة المفرغة من حصد أرواح الأبرياء؟ ما ذنبهم بصراعٍ دائرٍ على سلطة زائلة؟ هم فقط يبحثون عن لقمة عيشهم حتى وإن كانت تُغرقُهم بالذُّلِ والهوان..ومع ذلك تُحصد أرواحهم لتكون بديلًا لجلاديهم..يومٌ عصيب قامت له الدنيا ولن تهدأ..حادثة إرهابية جديدة تنضمُّ للتاريخ..محاولة اغتيال فاشلة لرئيس الوزراء المُرتَقب عبد الغني رشوان النصراوي.

ليلةٌ دامية تنضمُّ لحياتي الشائكة..ساعاتٌ من الصمت سادت بيني وبين سمير بتلك التَّبَّة العالية بهضبة المقطم..جلسنا والهمُّ يتملَّك حواسَّنا ويلجم ألسنتنا بعدما هربنا سريعًا مِن مقابر الغفير بالأمس بذلك التوكتوك الصغير المملوك لقتيل جشع كاد يُنهي حياتي طمعًا بالمال..تثاقلَتْ كلماتُنا واكتفينا بالنظر للأفق البعيد ساعاتٍ لم أُدرِكْ عددها..قَطعها سمير ناظرًا إليَّ لأول مرةٍ منذ الأمس.

-أما مِنْ نهايةٍ لذلك؟

لم أجد ردًّا مُناسبًا مني..وأيُّ ردٍّ يخبره بمأساتي الغارق بأعماقهما أكثر وأكثر بكل لحظة تمرُّ بحياتي تلك البائسة..امتلأت عيناه بالدموع:

-لا أُصدِّق أنك قتلته بهذه السلاسة!

نظرتُ إليه مُتنهدًا مُشفقًا عليه:

-لو لم أقتله لكان قتلنا هو لينجو بتلك النقود.

-تبًّا لهذه النقود! أنا لا أريدُها..أبغضُها..لا أريدُها.

صرخ بوجهي رافضًا إياها..أمسكتُ كتفيه بقوةٍ ناظرًا إلى عينيه:

-نحتاجها لعمليتك الجراحية..لا مجال للرفض..أنتَ تحتاجُها وسأفعلُ أيَّ شيء لأُحافِظَ على حياتِك..

-أنا خائف.

-لا تَخَفْ وأنا معك.

-أنا خائف منك أنتَ.

تنهَّد سمير ناظرًا إليّ:.

-مَنْ أنتَ؟ ومِن أين حصلتَ على هذه الأموال الطائلة؟

امتلأت حينها عينايَ بالدموع ونظرتُ للأفق لأهربَ مِن نظراته تلك الجارحة لي..لم أحتملْ اتهماته هو الآخر..اقتربَ مني وربتَ على يديَّ ماسحًا دموعي بيديه الرقيقتين الصغيرتين:

-ما قِصتُك؟

لم أدرِ بماذا أجيبُه ومن أين أبدأ..أعلمُ أنه يتساءلُ منذ لقائنا الأول عن ماهيتي وشخصيتي الحقيقية..لم يقتنع يومًا أنني ذلك المجذوب السارح بالشوارع يتسوَّل قوت يومه..هناك سِرٌّ أُحاولُ إخفاءه..وصدقت ظنونه عندما رأى ذلك المال الوفير القابع بحقيبة مدفونة بمقبرة أعرف مكانها جيدًا..تنهَّدتُ وأنا أنظرُ إليه مُتخذًا قراري بالتطهُّر..سأخبرُه..نعم سأقصُّ عليه كل شيء..أشعر أنه ابني الوحيد وعليه معرفة الحقيقة كاملة مهما تكن قسوتها وأنا أيضًا أحتاجُ لمن يسمعني..مَنْ أُلقي حُمولي القاسية بين يديه..مَنْ أكشفُ له سِرِّي..

-ما قصتي؟

سؤال واحد تتعدَّد إجاباته..دينٌ كبير يُوثِق رقبتي..يُجرجِرُها بقوة..ذنوب وآثام قديمة أدفعُ ثمنها أضعافًا الآن..نظرتُ إلى عينيه مُلقنًا له حِكمتي بالحياة..خُلاصة تجربتي تمهيدًا لما سأحكيه له:

- لا يوجد بدُنيانا ميزان ثابت، لا يبقى الحقُّ حقًّا طوال الوقت ولا الباطل باطلًا، ولا الخير خيرًا ولا الشَّرُّ شَرًّا، إياك وأيَّ مبدأ ثابت..امحُ بيديك لمعة عينيك لأي شيء بالدنيا. المال والجاه والفضيلة ستائر فخمة تحجبُ حقيقتنا..والفقر سببٌ يحجبُ بشاعتنا..ولو امتلكَ الفقير المال والجاه لأخرجَ أقبحَ ما فيه..وكذلك الفضيلة يعتنقُها مَنْ لا حيلة له ..قلاع زائفة تُخفي..قِلاعًا هشَّة.

-لا أفهمُ.

قالها سمير وعيناه حائرتان..ابتسمتُ له:

-لن تفهم الآن.

-أرجوكَ أخبرني بكلِّ شيءٍ.

كنتُ كدرويشٍ تائهٍ بحياة تفوحُ منها رائحةُ الموت بكل أشبارها..تطوف رُوحه هنا وهناك هربًا من العذاب..بحثتُ عن البداية مُتسائلًا..متى بدأت المأساة؟ متى تحوَّلت حياتي للجحيم؟ لا إجابة واضحة..وكأنني صوتٌ يصرخ بكهف مهجور ينتظر إجابة دون جدوى..حلَّقت روحي عاليًا بعيدًا عن هضبة المقطم..رأيتُ نفسي هناك..لا أدري لماذا..مددتُ يدي لأفتحَ بابها..إنها غرفتي..خطوتُ بداخلها مُترددًا مُتعجبًا..كل شيء كما هو..غرفة بقصر نادر أمجد رشوان..مِن أغنى أغنياء القاهرة..عائلة عريقة تمتلكُ المال منذ القِدَم.. غرفة نومي..ستائر بيضاء تتطاير بفعل الهواء الشديد..وذاك هو سريري الذي طالما تألمتُ عليه وافترستني حيرتي هنا..سكون تامٌّ بالغرفة..الهواء يدور بأرجائها الواسعة..وقفتُ أمام مرآتي ناظرًا إليها..تأملتُ ملامحي الجديدة..ستة أشهر لم أنظر بمرآة قط..هالني ما آلَ إليه شكلي..لحية طويلة وشعر

أشعث..أهذا أنا؟ أهذا نادر رشوان؟ سقطت دموعي لتُبلِّل ذقني المتسخ..نظرتُ لنفسي وأنا أُردِّدُ المُتبقي مِن حِكمتي ناظرًا إلى عينيَّ:

-اياك ومِرآتك..لا تصدقها،بريق زائف يخطف العيون.. ليس كل ما يلمع ذهبًا.. دنيا خدَّاعة..الكذب ينخر بجذورها، وسيأتي يومٌ تنهار فوق رؤوس الأفاكين مثلي.. حينها ستخرج الحقائق مِن قبرها المَنسي لتطوِّق رِقاب دافنيها كالأفعى ..وقتها سينادي مُنادٍ: لا رحمة بعد اليوم..كُلٌّ سيدفع ثمن أفعاله..لا رحمة.

اختنقَ صوتي بين أحبالي الصوتية..أقتربُ من الانتحار شنقًا بها..نظرتُ إلى دولابي على اليسار..تحركتُ ناحيته..فتحته..مددتُ يدي وأخرجتُها..بدلتي..بدلة ضابط تحمل على كتفيها نسرًا ونجمتين..عقيد شرطة..أنا العقيد نادر أمجد رشوان..ضابط شرطة مُخضرم..نعم..إنها الحقيقة..عقيد غريق ببحر التِّيه..أنا مَنْ نُسجت حوله العديد من الألغاز..وأنا فقط مَن أمتلكُ كشفَ غُموضها..

ودار شريطُ حياتي للوراء..عاد إلى قبل ذلك بعامٍ كامل..واختفت اللحيةُ وعدتُ كما كنتُ..الضابط الثريُّ نادر أمجد رشوان حفيد الباشا المُتجبِّر..مددتُ يدي لأرتدي بدلتي ناظرًا لنفسي بالمرآة مُعجبًا بسطوتي ونظرات عينيَّ الثاقبة..عدتُ مُتألقًا عاقلًا حامًلا ذلك النسر على كتفيَّ مصحوبًا بنجمتين حالمًا بتغييرهما لأعلى الرُّتب عن قُريب.

عام كامل للوراء..تتقاذفُني ذاكرتي اللعينة..لماذا اختارت تلك البداية؟ يبدو أنها تحركني بدافع من ضمير لاهث للعودة..بغمضة عينٍ نظرتُ حولي فلم أجِدْ غرفتي بالفيلا..كنتُ بمكان آخر شاهِدٍ على أحد آثامي..حاملًا نجمة واحدة بجوار النسر..كنتُ حينها مُقدّم شرطة.

منزل بمنطقة ريفية بالفيوم ليلًا..كشافات الإضاءة الليلية بأيدي بعض الرجال تتحرك على استحياء..رجلان يحفران أمام ذلك المنزل وآخرون يُراقبون المكان بأسلحتهم المُشهَرة بوجه أيِّ أحدٍ يُفكِّر بالاقتراب..سيارة نصف نقلٍ تقف قريبًا ويقف بجوارها رجلان بملامح أجنبية يحتضنان رشاشيهما هما أيضًا بأيديهما..سيارة تقترب تُربِكُ عملهم..لا يروا منها سوى ضوئها..استعدَّ الرجال بأسلحتهم تجاهها....اقتربتْ أكثر..بانت ملامحُها الآن..إنها سيارة (بوكس) شرطة..اقتربَ كبيرُهم.. رجلٌ في الستين من عمره يُدعى سلامة الدفاس بملابس صعيدية مثلهم..توقَّفت السيارة أمامهم..اقتربَ الدفاس ناظرًا إلى السيارة الواقفة بحذرٍ شديد..امتلأ وجهه حينها بابتسامة عريضة..أشارَ إلى رجاله بخفضِ سِلاحهم مُحييًا مَن بداخل السيارة:

- مرحبًا بالباشا.

-أهلًا بك يا حاج سلامة.

كنتُ أنا مَن بداخلها..أنا الفاسد الباحث عن المال ليس احتياجًا، ولكن كلعبةٍ تعودتُها منذ الصِّغر..لعبة المال الشَّره للزيادة..لم أكن بمفردي حينها..كان بجواري..صديقي المُقرَّب..مجدي نور الدين..ابتسمتُ للدفاس مُطمئنًا إياه:

-لا داعي للقلق إنه النقيب مجدي نور الدين..أمان.

-ضيفك فوق رؤوسنا ..تفضَّلا.

نَزَلْنا من (لبوكس) وأنا أرى بعيني مجدي تعجبًا وحيرةً..لم أخبره إلى أين سنذهب..قلتُ له فقط أريدُك معي ذلك اليوم..اصطحبنا الدفاس لداخل المنزل الريفي..بيت بسيط يقبع الفقر بين جوانبه..أريكة صغيرة بأحد الجوانب جلس عليها ٣ رجال وامرأة يبدو من ملامحهم أنهم أجانب، ومِن لكنتهم فيما بعد أدركتُ أنهم إنجليز..كان هنا رجلان من الصعيد يجلسان بجوارهم وانضممنا لهم مع ترحيب شديد للدفاس أراح تلك النظرة القلقة بعيونهم جميعًا حينما رأونا بملابسنا (الميري) المنذرة بالخطر..قالها وكأنه يُطمئنُهم:

-تفضلا..تفضلا..حلَّت البركة اليوم، يا مليون خطوة عزيزة.

-الله يخليك يا حاج سلامة.

-البهوات ضيوفنا أيضًا.

أشار ناحيتهم فحييتُهم برأسي وبابتسامة خفيفة:

-أهلًا وسهلًا.

-شاي أم قهوة؟

-شكرًا.

-يمين طلاق أبدًا.. شاي أم قهوة؟

-حسنًا شاي سكر خفيف.

-والضيف؟

-قهوة سكر زيادة.

انصرف سريعًا وساد الصمتُ بين الجميع مع ابتسامة بلاستيكية ملأت وجوهنا..سألني مجدي هامسًا:

-ما الأمر يا نادر؟

-ليس الآن..اصمُتْ وستفهم كل شيءٍ بحينه.

مرَّت الدقائق بصعوبة بالغة..شيء ما مريب بذلك المكان..هكذا فكَّر مجدي..ذلك الضابط المنضبط..مكان كهذا بهذه الساعة المتأخرة من الليل ينبئ بعمل خارج عن القانون..ذلك هو التفسير الوحيد..

دخلَ سلامة الدفاس ومعه بعض الرجال حاملين جوالًا كبيرًا من طرفيه..يضعونه على الأرض ويشير إليهم الدفاس بفتحه..تركتُ كوب الشاي على الأرض ونهضتُ لأرى ما بداخله..واقتربَ معي الجميع ما عدا مجدي الجالس بمكانه مُترقِّبًا..

سلَّطَ الدفاس كشَّافًا من النور أضاء محتويات الجوال..مجموعة من التماثيل الفرعونية الصغيرة وقميص صغير من الجلد وبعض الأوراق المكتوبة بالهيروغليفية..مكثَ رجاله يُرتِّبونها أمام أعينهم..ابتسامة على وجوه الجميع..صَدَقَتْ نبوءة مجدي..عمل خارج عن القانون..تجارة آثار..سَيْطَرَ الانبهار على الإنجليز الأربعة..اقتربوا متلمسين بأيديهم تلك الآثار والدفاس يشرح لنا جميعًا ما نراهُ.

-هذه ربع مقبرة..يبدو أنها كانت لساحرٍ فرعوني، تفضلوا عاينوا محتوياتها وتأكدوا بأنفسكم.

لمحتُ حينها ذلك الصراع الدائر بنفس مجدي بعينيه..نهضَ مُتحسِّسًا سلاحه بيده موشكًا على استخدامه..هُرعت بجواره ومسكت يده ناظرًا إليه بقوة شديدة..نزعتُه منه لأُنهي صراعه جامحًا جنون ضميره المُتهوِّر..وما هي إلا دقائق معدودة وتمَّت الصفقة..صفقة بيع الآثار برعايتي أنا رجل الحكومة..عقيد شرطة، تمَّت تحت جناحيه صفقة بملايين الدولارات.. ابتسم سلامة الدفاس وهو يُودِّعنا بعدما وضع نصيبنا بستة صناديق ممتلئة بالدولارات بخلفية (البوكس).

-هذا نصيبك يا باشا ونصيب الضيف، شرفتمونا والله يا نادر باشا.

وانطلقتُ (بالبوكس) الملغوم بالدولارات..ثمن صفقة عفنة الرائحة..التزمَ مجدي الصمتَ طوال الطريق..حتى وصلنا لهضبة المقطم..كنتُ أحبُّ ذلك المكان كثيرًا وأشعرُ فيه بالارتياح..وأجِدُه مكانًا رائعًا لتصفية الحسابات والخلافات..نزلتُ من (البوكس) ونظرتُ للأفق أستنشقُ هواء الليل النقي..نظرتُ إلى مجدي الجالس (بالبوكس) حتى تلك اللحظة..توجهتُ إليه ونظرتُ إلى عينيه بابتسامة:

-كل ما أريده أن ينعم صديقي وزوج أختي بحياةٍ سعيدة.

-يبدو أنك تناسيتَ أننا ضُبَّاط شرطة.

تركتُه ووقفتُ أعلى التَّبة..تنهَّدتُ:

-لم أنسَ ..لكن هذا حقٌّ لنا.

نَزَلَ من السيارة غاضبًا مُقتربًا مني:

-حق لنا؟ تلك الأموال حرام

-مَن قال لك إنها حرام؟

-نادر.. لا تخلق قوانين شاذة تُناسب أطماعك أنتَ فقط.

-أنصِتْ لي جيدًا يا مجدي..لم يُذكر بأي دين نزلَ من السماء تحريمٌ صريح لتجارة الآثار، ببساطة هؤلاء قوم سبقونا بالدنيا منذ آلاف السنين مجرد بشر مثلنا، ومَن يَجِدُ رُفاتهم وآثارهم تُصبحُ مِن حقِّه لا محالة.

-هذه الآثار مِلْكٌ للدولة ..أموال شعبها، ليس مِن حقنا أيها الضابط، نحن أقسمنا أن نحميهم ونحمي حقوقهم.

كان مُصرًّا على مبادئه اللعينة..وكنتُ مصرًّا على معتقداتي..نظرتُ له مُتسائلًا مُحاوِلًا زعزعة ثوابتِه:

-وهل تضمن الدولة إن جنت تلك الأموال أن توصِّلها لشعبها حقًّا؟ لمستحقيها المُعْدَمين؟ تضمنُ ذلك؟

نَظَرَ حينها بعينيَّ بتحدٍّ شديدٍ لأول مرة:

-عقلي لا يفهم لماذا أنت بالذات تُقدِمُ على عملٍ كهذا؟ ما حُجَّتك؟ أتحتاجُ للمال؟ كلا أنت تملك أموالًا طائلة لا عدد لها. لماذا إذًا؟

بادلتُه نظراته تلك القاسية بحبٍّ شديد:

-أنا أقدمتُ على عملٍ كهذا لأجلكَ أنتَ.

-نادر..كُفَّ عن هذا الهُراء..

-أُقسِمُ لك..أنا أعرفُ جيدًا مدى احتياجك إلى هذه الأموال، وأختي أيضًا تحتاجُ إليها..كلاكما ينقصُه العيش الرغد، أيعجبك حياتُكما تلك؟ أجبني؟

-مَن قال لك إن السعادة في المال؟

-جملة يلوكها الأغبياء قليلو الحيلة بأفواههم..ليست السعادة في المال..أفِقْ يا صديقي..لا تكن مثلهم وافهم الدنيا.

-لا أريدُها.. هذه الأموال ليست مِن حقِّي..ولن أمُدَّ يديَّ إلى أيٍّ منها.

قالها ناظرًا بعينيَّ متخذًا قراره الملعون..لحظات من الصمت لم أجد فيها ردًّا مُناسبًا لغبائه..يرفض أموالًا ضخمة تنقله لعيشةٍ رغدة ينعم فيها طوال حياته لإيمانه بمبادئ عَفَى عليها الزمن.. استكملَ مُهدِّدا إيايَ:

-لا تخف.. اعتبر أنني لم أرَ شيئًا. ولكن أرجوك..لا تضعني في هذا الاختيار الصعب مرةً أخرى لأن المرة القادمة لن تكون أنت المختار.

تبادَلنا حينها نظراتٍ من التَّحدِّي وكأنه صِراع بين الخير والشر..بين الفضيلة والخطيئة.. قَهَرني بنقائه الزائد..امتلأ صدري بالغِلِّ والغضب..هكذا كنتُ..رغبتي بتدنيس كلِّ مَنْ حولي

كانت جامحة تُحرِّكُني دومًا دون تفكير..ذلك السبب الرئيسي لاصطحابه بصفقةٍ كهذه..امتلكتُ قُدرةً عجيبةً على الكذبِ وتغيير الحقائق لصالحي..ولم أجِدْ مَن يجرؤ على مُخالفتي..المال والسُّلطة اتَّحدا لخلق غولٍ شَرِهٍ..لم أكن ضابطًا عاديًّا وحسب..كنتُ كالإمبراطور..ولم أكن كذلك لكوني عقيد شرطة أو لمالي الوفير..لا..كلمة السر كانت عبد الغني النصراوي..ذلك الأخطبوط المادُّ أذرعِه بكل مكان..لا يقوى أحدٌ على التَّصدِّي لي..لا يقوى أحدٌ على محاسبتي..الجميع يَهابُني لأجله..هكذا كنتُ..ضابطًا مُتجبِّرًا يمتلك المال والجاه..يدهسُ من يرغب..عشراتٌ من المتهمين ماتوا تحت يديَّ من تعذيبٍ مُبرحٍ..تقارير متعددة بانتحارهم تُخفي جرائمي..كنتُ أتلذَّذُ بخروج أرواحِهم..أرواحٌ كثيرة تتعلَّقُ برقبتي..أنهيتُ حياتَهم بدمٍ بارد دون أدنى تأنيبٍ من ضميري النائم..الشَّرُّ والتَّجبُّرُ لعبتان أدمنتهما..كانا صديقيَّ الوحيدين..

زادَ خوفه وامتزج بصدمة كبيرة بعينيه الصغيرتين..لم يتوقع مُطلقًا أنني أملكُ هذا الماضي المُدنَّس بالخطايا والآثام القَذِرة..نظرَ لي سمير كاتمًا دموعه بنفس مكاننا على هضبة المقطم أمام توكتوك قتيل الأمس.

-لا أصدِّقُ أنك هكذا.

-كنتُ..

قلتُها مُحاوِلًا إقناعه بتوبتي..أو على الأقل مُحاولتي ذلك.

-لا فرق.

- سمير..لا يهمُّ مَنْ أنا الآن..فقط عليك الخضوع لهذه العملية الجراحية، أرجوك،..ما زالت الفرصة سانحةً لإنقاذك..لعلك تصير سببًا يرحمُني الله به، قد يغفر لي خطاياي لأجلك..ستعيش يا سمير..ستحيا..لأجلِكَ وأجْلِي.

سقطتْ دموعه..هل يُصدِّقُني ويُصدِّقُ توبتي؟ التوبة التي لم أُعلنْها حتى لحظتنا تلك..وأيُّ توبة لمثلي أنا الفاسد مُظلم القلب؟ وهل يقبلها الله بعد كل تلك الآثام؟

نظرتُ للسماء وروحي تسأله: هل ستقبلُ توبتي؟ هل سترحمني مِن عذابي يومًا ما؟ هل سأنجو من جحيم الأرض والسماء..يا رب؟

أفاقَ الباشا..كوابيس قاسية هاجمت عبد الغني النصراوي طيلة الساعات الثلاث الماضية..كمٌّ هائل من الدماء عايشَه ذلك اليوم..كمٌّ لا يتحمله بشرٌ مهما تكن قساوته..وقفَ عبد الغني بشباك غرفته بالمستشفى شاردًا..آلاف الأفكار تتداعى على رأسه..لم يتخيَّل يومًا أن هناك مَنْ يجرؤ على قتله..لقد أخطأ التقدير وعليه مِن الآن تغيير حساباته..عليه الانتقام ممَّن فعلَ ذلك وبأسرع ما يمكن ليكون عِبرةً لغيره..لم يكن عبد الغني بمفرده بالغرفة..هُرع الأقربون للاطمئنان عليه بعدما أخبرهم مجدي بالحادثة..وأولهم نانسي نصير زوجتي الرقيقة التي لم

يمرّ على زواجي بها عامه الأول..أجمل جميلات القاهرة..وردة بعمرها الثامن والعشرين، تشتمُّ عبقَها المميز عن بُعد..نانسي نصير بنت رجل الأعمال الكبير والدكتور نصير عبد الرازق إمبراطور الدواء السابق..مات نصير منذ ثلاثة أعوام تاركًا لها ولأختها سما نصير ثروة طائلة..وامتزح المال بالجمال..وكنتُ أنا الفائز بها كعادتي في اقتناء أجمل الأشياء..وقفتْ نانسي وأختها سما وعلامات القلق على وجهيهما بغرفة الباشا بالمستشفى واصطحبهما عزيز شوقي أقربُ أصدقائي لقلبي وزوج سما نصير..تزوَّجها قبل اختفائي بقليل..وقف َهو الآخر بجوار زوجته البارز بطنُها للأمام..يبدو أنها تحملُ طفلًا بأحشائها في شهرها السادس على أقل تقدير..كان قَلِقًا هو الآخر وجميعهم فَزِعُوا لتلك الجريمة البشعة..حاولوا مواساة عبد الغني:

-حمدًا لله على سلامتك يا عمي.

-نشكر الله أنك لم تُصَبْ بأي مكروهٍ.

-عبد الغني بك ..أتسمعُنا؟

سأله عزيز ناظرًا لمجدي متعجبًا من صمته وشُرودِه.

التفتَ عبد الغني والغضب يملأ عينيه مقتربًا منهم ناظرًا إلى أعينهم جميعًا..متسائلًا:

-بظنِّكُم..مَنْ يجرؤ على فعلٍ كهذا؟

نظر بعضُهم إلى بعضٍ بحيرة..ثم التفتوا لمجدي منتظرين إجابةً عن سؤاله..بحُكم وظيفته مؤكد سيحصلون على إجابةٍ منه..سأله عبد الغني هو الآخر.

-هيَّا أخبِرْهم يا حضرة الضابط، مَنْ يجرؤ على قتل عبد الغني النصراوي وبتلك الطريقة؟

-مُؤكَّد إرهابيون.

إجابة تقليدية لم يجد مجدي سواها..صفَّق له عبد الغني بسخريةٍ قبل أن تتحوَّل ملامحه إلى الغضب الجامح ناظرًا إلى عينيه بتحدٍّ شديد:

-إجابتك خاطئة. أُعلِّمُك شيئًا يا سيادة الرائد: أول خاطرة تقفز ببالك دائمًا احتفظْ بها لنفسك لا تُخبرْ بها أحدًا لأنها فاضحة تُشير للناس إلى خيبتك. فكِّر قليلًا..ابحثْ عن إجابةٍ شافية..دَعْ هذا يعمل قليلًا.

أشار إلى عقله بعنف..

-اطمئنَّ يا عبد الغني بك.

-أطمئنُّ؟ حسنًا، سأطمئنُّ أيها السادة..الرائد مجدي نور الدين يدعوني للاطمئنان.. الأمر في مُنتهى اليُسر..أتعلمُ كم ضحيةً ماتت بهذا الانفجار؟ غدًا سيملؤون الدنيا عويلًا لأن عبد الغني

النصراوي دخل مكتب الوزارة وقدماه مخضبتان بدماء الضحايا الأبرياء الفقراء..تفضَّل يا حضرة الرائد اذهبْ لعملك حالًا..٢٤ ساعة فقط ومرتكبو هذا الحادث ينضمُّون للأموات..مفهوم؟

-حاضر يا عبد الغني بك..أوامرك مُجابَة.

قالها مجدي نور الدين مُحاوِلًا التحكُّم بأعصابه مُداريًا ضيقه من تلك الطريقة الجافة التي حادثه بها ويهمُّ بالخروج ولكن الباشا يستوقفُه:

-مجدي.

نَظَرَ إليهم جميعًا.

-أُدركُ جيدًا أنكم لا تكفُّون عن السؤال عن نادر وعن سبب اختفائه المفاجئ، والآن سأخبركم..ولكن حذارِ أن يعرف أيُّ مخلوقٍ بما ستسمعونه الآن.

نظر له مجدي حينها متعجبًا..سادت لحظاتٌ من الصمت والترقُّب والتَّطلُّع بعيون نانسي وعزيز..سألته نانسي بشغفٍ:

-أين نادر يا عمي؟

-نادر سافر للعلاج.

قالها مُتنهدًا..فتعجَّب الجميع مُتسائلين:

-علاج؟

-تعلمون جيدًا أن نادر بالفترة الأخيرة كان مضطربًا للغاية، وأنا أمرتُه بالسفر للندن برحلة للعلاج هناك بأكبر مصحاتها النفسية.

-لندن؟ ولماذا لم تخبرني؟ أنا زوجته وكان من واجبي أن أكون معه بهذه الظروف القاسية.

-هل أندمُ أنني أخبرتُكم؟

- يا عبد الغني بك سيادتك تعلم جيدًا أن هذا هو مجال تخصصي ولو كنتَ سافرتُ برفقته لكان ذلك أفضلَ له.

كان عزيز شوقي خليلي منذ الصغر..طبيب نفسي متميز..كنا صديقين بالمدرسة الإعدادية وبعدها الثانوية، واستمرَّت صداقتنا حتى بعد تفرُّقنا لكليتين مختلفتين..

صرخ فيهم الباشا مُعبِّرًا عن انزعاجه لأسئلتهم المُتكررة:

-أفٍّ..أنصتوا. لا داعي للجدال الآن ..نادر بخير، وبدأت حالته بالتحسُّن وقريبًا سيعود..قريبًا.

قالها ناظرًا لمجدي وكأنه يعطيه أمرًا خفيًا بالبحث عني والوصول إليَّ بأسرع وقتٍ ممكن..مهمة مستحيلة أن يبحث ضابط شرطة مثله عن زميل له خاصة إذا كان ذلك الزميل هو أنا عقيد شرطة مخضرم ذكي كمن يبحث عن حبة رملٍ وسط بحرٍ من الرمال المتحركة..أنا المختفي منذ ستة أشهر دون سبب واضح للجميع..الذائب بين ٩٠ مليون إنسان..كل ما يملكه ذلك الخيط المبتور بصورة لي مع قتيلة سيئة السمعة..سلمى عبد الفتاح..تنهَّد مجدي ناظرًا لعبد الغني:

-إن شاء الله..بعد إذنكم.

خَرجَ مجدي لمهمته المستحيلة..لا يدري مِن أين يبدأ..كل ما ينتظره معجزة ليجدني..معجزة ليتعثر بي بأي مكان..معجزة مستحيلة.

ودَّقت الساعة الرابعة بعد الظهر بساعة الحائط الصغيرة المعلقة على ذلك الحائط المتآكل ببيت فتون فوزي..مَرَّ أكثر من ثلاث عشرة ساعة على جريمتها الليلية..رائحة الدماء ما زالت تفوح حولها..دماء نَجِسة لذلك المغتصب الكريه..للحقِّ كانت تتمنى قتله منذ طفولتها..وللحقِّ أيضًا لا يجب على أحد محاسبتها على تلك الجريمة فهي المجنيُّ عليها وليس هو..فمَنْ يستبيح شرف ابنته الوحيدة حُقَّ عليه القتل ألف مرة..هكذا شعُرت..هكذا برَّرت لنفسها الهَلِعَة..حالة من الصمت والذهول سيطرت عليها..للتو انتهت من إزالة كل آثار جريمتها..ثلاث عشرة ساعة من العمل المتواصل لتخفيها تمامًا..هُرعت إلى شُرفة بيتها وأخرجت تلك الصناديق المتبقية مِن ترميم حمامهم..صناديق صغيرة بها عددٌ لا بأس به من القيشاني وبعض من الأسمنت..جرَّت جثته للحمام وصلبته بصعوبة على حائطه..دقَّت مسامير بيديه وقدميه ووقفت أمام جثته المصلوبة تصفعها أكثر من ساعتين..هو السبب بكل ما تعانيه بحياتها..اغتصب براءتها وعِفَّتها وانتهكَ شَرَفَها منذ الصِّغر..لم تنسَ قط أول مرة تهجَّم عليها فيها حيثُ قيَّدها بسريرها وسلبَ عُذريتها مُبكِّرًا..لم تنسَ لياليها المُعذَّبة وهي تُخفي جريمته تلك عن والدتها خوفًا منه..سمَّم حياتها وأيامها..بدأت بخلط الأسمنت الممتزج بدموعها التي لم تجف طوال ليلتها تلك..ووضعت القيشاني فوقه واختفي تماما تحته..واختفت جريمتها..أزالت دماءه النجسة ولم يعد لها أيُّ أثر سوى رائحته الكريهة..غسلتْ مقصَّ الجريمة جيدًا ووضعتْهُ بدرجها بغرفتِها..أخفتْ كل شيء ما عدا شيئًا واحدًا لم تلحظه..موبايل فوزي المُلقى تحت الكنبة..جلست بمنتصف الصالة لا تُصدِّق كل ما حدث..لا تُدرِكُ كيف أخْفَتْ جريمتها بهذه الطريقة..وكيف جرؤت على قتله من الأساس..نظرت حولها لذلك البيت الشاهد على جرائمه الشنعاء..صمتٌ مُطبِق حولها لا تستمع إلا صوت عقارب تلك الساعة المُنذرة بمرور مزيد من الوقت لعلها تنسى..هل سيأتي يوم تكمل فيه حياتها دون خوفٍ؟ لعلها تخرج من كبوتها تلك حُرةً طليقة..دخلت غرفتها..بدَّلت ملابسها..ارتدت فستانًا أبيض كان بدولابها..نظرت لنفسها بالمرآة بابتسامة باكيةٍ..سقطتْ دموعها عنوةً.

دقَّات على بابها تخترق سكونها الدامي..دقات مستمرة تُرعبها..خرجت مُترددة تنظر ناحية الباب..نظرت حولها لتتيقن من إخفاء كل شيء يتعلق بجريمتها..هُرعت للحمام تنظر للحائط

وتتأكد..دقات مستمرة..تتجه ناحية بابها مترددة بقدمين متثاقلتين..تستمع لدقات قلبها المتعالية لتصمَّ أذنيها.

تمُدُّ يدها المرتعشة وتفتح الباب بحذرٍ شديد..لترى مُفاجأةً لم تكن في حُسبانها..حبيبٌ غائب منذ فترة..يظهر ليكون طوق النجاة لها ببحر الظلام الموشكة على الغرق فيه..شخصٌ أحبته وعَشِقَته..أنا..نادر أمجد رشوان..أقِفُ على بابها بعد غياب ستة أشهر..أنظرُ إلى عينيها باشتياقٍ مُريبَ..أقفزُ داخلها لأحتضن قلبها وأُقَبِّلَه..تقع تلك الحقيبة الخارجة من قبر مظلم بالأمس المليئة بالأموال من يدي..أرتمي بأحضانها وكأنها ملاذي الأخير..اشتقتُ إليها بشدةٍ كأرض جافَّةٍ تشتاق إلى شربة ماء لتروي بها زرعها الموشك على الموت عطشًا..كليل مظلم بالقطب الشمالي يشتاقُ إلى شعاع الشمس..احتضنتني بقوة..أغلقتُ عينيَّ مُستسلمًا لدفئها..ترهلتْ حواسي بقربها..فقدتُ الوعي بأحضانها..غبتُ في سكراتها..كلانا طوق نجاة..كلانا عاشقٌ فرقتْهُما الأيام..كلانا يحتاج للآخر.. كلانا يحتاج لمن يُلملم أشلاءه..كلانا كزجاجٍ منثور.

<u>**جاثوم نادر**</u>

(الثالث عشر من ديسمبر- روض الفرج)

كابوس جديد ينضمُّ لآلامي يُضني قلبي.. كغارقٍ جبري تُحتبس روحه مُمتنعة عن الخروج..غِبتُ عن الوعى فترةً غير قليلة..فتحتُ عينيَّ مفزوعًا خائفًا من المجهول..جئتُ الى هنا لأرتمي بأحضانها وأتناسى همومي.. أحضان حبيبتي فتون..جئتُ لأخرج من دوامتي اللعينة..ولكن ازدادت الرهبة بقلبي اليائس..اعتصرته أحزاني كثعبانٍ شَرِهٍ اغتنم فريسته للتَّوّ..نظرتُ حولي..أين أنا؟ مرحاض صغير حوائطه متقاربة..لون القيشانى المغطي لها يزيد اختناقي..لطالما كرهتُ اللون البنى بكل درجاته طيلة حياتي..حذفته من كل شيء حولي..لا أدري لماذا، ولكني دومًا كنتُ أشعرُ أنه لون الموت..أختنقُ بشدةٍ حين أراه..صوت منتظم لقطرات مياهٍ متلاحقة تسقط من صنبور مياه بجواري..صوت آخر أستمعُ له عن بعد..إنه صوت فتاة تبكي.. صوت أعرف أنينه جيدًا، إنها فتون..هُرعتُ لأخرج من ذلك المكان القابض لقلبي..فتحتُ بابه وخطوتُ خارجه..هالني ما رأيتُ..إنها فتون بوصلة من البكاء الهيستيري..جالسة تغالب دموعها وشرودها.رأيتها ورأيت ما هو أكثر.. شيء مفزع...رأيتني مُمدَّدًا على كنبة بجوارها جثة هامدة لا تتحرك..إنها لا تراني....اقتربتُ مذهولًا مصدومًا..هل خرجت روحي؟ مددتُ يدي أتلمَّس جثتي..هل متُّ حقًّا؟ يا ويلتي! سألقى مصيرًا حتميًّا..سأُقذف بالجحيم لا محالة..امتلأت نفسى بالرعب وتهدَّج صوتي المرتعش:

-فتون..فتون.

لم تُجِبْ..لم ترَني..غابت في شرودها وهي تلفظ أصعب كلمات قد تستمع لها بمثل هذا الموقف

-أقسى إحساس أن تُسجن بقدرك، لا تقوى على الفرار أو الصراخ لعل أحدهم يسمعك، ينقذك..لكن محال..جفت الأقلام ورُفِعت الصحف..قدر واحد..من يوم ولادتنا توضع أقدامنا على بداية الطريق ، لا مجال للاختيار..تذكرة ذهاب بدون عودة ..قبر يُنادي كل يوم: يا بن آدم.. أشتاق إليك.. قبر يعرف النهاية وأنتَ مَخدوع للأسف، هكذا الإنسان.. يصمُّ أذنيه عن صوت القبور، يسكن قلاع الوهم مُتناسيًا.. هكذا الإنسان معصوب العينين، مكتوف اليدين يمضي بطريقه المرسوم، يمضي لخطوته الأخيرة..الموت.

وكأنها تحادث جثتي تُلقِّنُها درسًا جديدًا بعد فوات الأوان.. انهارت فتون بالبكاء أكثر وأكثر..تشتم رائحته الآن بكل وضوح..إنه الموت..كلمة موجعة..تنذر بعذاب لا نهاية له..ذلك هو القدر..تلك هي الدنيا.. ونخرج من رحم أمهاتنا لنعاني قسوة الانتظار برحم الحياة ليحين موعد خروجنا الثاني والأخير لعذاب أبدي..حالة من الذهول المستمر الممتزج بحزن دفين على تلك النهاية المرتقبة..نظرت لجثتي وانسالت دموعي..عدتُ للوراء مبتعدًا تاركًا دنياها مستعدًّا للرحيل..مِن المؤكد سيظهر فجأة ملائكة العذاب لأواجه مصيري الأخير..هل مِن مَهْربٍ؟ خرجتُ من الباب..هبطتُ درجات سلمه المتهالك..ترجلتُ على قدميَّ للشارع أمام بيت فتون..هناك يقف التوكتوك اللعين لذلك القتيل الذي ألحق به الآن..جلس سمير على الأرض بجواره ينتظرني ولكنه سينتظر كثيرًا..أشفقتُ عليه من هذه الدنيا الغرور..مَن سيحنو عليه

بعد موتى؟ مَن سيحميه من ذلك المرض الناهش لجسده؟ انهالت دموعي أنهارًا..تطلعتُ بعينيه كنظرة أخيرة..وابتعدتُ..مشيتُ هائمًا أنظر حولي لتشبع عيناي من الدنيا..نظرتُ بوجوه المارين بتلك الحارة..وجوه طيبة تحمل هم قوتها ومستقبل ضبابي ينتظر أصحابها ولكنها مبتسمة تشعر بالرضا بين تجاعيدها..مجتمع استشرى الفقر بين أوصاله ونعم غيره بالمال والجاه والسلطان..هنا حين تصبح العدالة رفاهية لا يستحقونها..فالظلم قانونهم الوحيد..حي روض الفرج القديم..بنايات قديمة عشوائية يفوح الفقر بين جنباتها..ممرات ضيقة أوسعها ذلك الشارع الحاوي لبيت فتون..عتبات أسمنتية أمام كل بيت ودرجات للأسفل لغرف أرضية يسكنها المهمشون..عالم آخر يختلف عن عالمي الذي تجبرت فيه..كانت فتون هي النافذة الوحيدة التي رأيت بها ذلك العالم المستتر..أطفال عائدة من مدارسهم الحكومية..وتلك السيدة السمينة بجلبابها الأبيض الجالسة أمام محلٍّ صغير به بعض البسكوتات وأكياس الملح والشاي والسكر..ابتسامة عجيبة أراها بوجهها..وكأنها تبارز فقرها بالابتسامة..وبائع عرقسوس جوال يروي عطشهم..صوته العتيق يمتزج بأصوات الأطفال اللاعبين أمام بيوتهم وكذلك بأصوات الماعز التي ترعى هنا وهناك..عالم عجيب تمنيتُ لو كنتُ واحدًا منهم..تمنيتُ لو فقدتُ كل جاهي ومالي مقابل نظرة الرضا تلك والابتسامة على وجوههم..ازدادت دموعي..وزادت خطواتي سرعة..كنتُ راغبًا بالفرار سريعًا بعيدًا عن كل شيء..رغبت بالنسيان..تحولتْ خطواتي لهرولة..ثم عدو سريع كالمجنون..أجري وأجري وأجري..حتى ابتعدت إلى شارع عمومي..طريق أسفلتي واسع..لم أتوقف..عدوتُ أكثر وأكثر..فجأة استمعتُ لصوت مربك..سارينة سيارات شرطة تعدو خلفي..زادت الرهبة بداخلي..لا أدري لماذا فمن المفترض أنهم لا يرونني فأنا ميت الآن..نظرتُ خلفي لأشاهدهم..إنهم يرونني جيدًا..يُهرعون لإمساكي..لا بد أنهم زبانية العذاب..وحان عذابي الأبدي..عدوتُ بكل طاقتي لعلني أهرب منهم..من شارع إلى شارع حتى وصلت لكوبري علوي فوق النيل..تذكرتُ تلك المرة التي نجحتُ بالهروب من ذلك الضابط ورجاله ليلة قتل سلمى عبد الفتاح..لم أفكِّر كثيرًا..وقفتُ على الكوبري..إنهم يقتربون للغاية..قفزتُ بالهواء..ثمانين مترًا كالدهر بأكمله..وكأن الموت ليس بنهاية..ما أقدمتُ عليه بحياتي ليس له نهاية..سيظلُّ يطاردني حتى بعد الموت..ولو خرجت روحي ألف مرة..عذاب متكرر.

-ذاك ما جنته يداك..تلك هي عقوبتك..التيه.

صوت يتردد بأذنيَّ يصفع قلبي مرارًا وتكرارًا..غطستُ تحت الماء..قوة عجيبة تجذبني نحو القاع..لا تتوقف مطلقا..فتحت عينيَّ لأبصر حولي..غرفة سوداء الحوائط تمتلئ بمصادر إضاءة صغيرة..مياه تتساقط من كل جسدي..صور فوتوغرافية تملأ تلك الجدران..مكان مريب لا أعرف ماهيته....اقتربتُ من تلك الصور لأتبيَّنها جيدًا..برقت عيناي حين طالعتها..إنها لي..بلحظات مختلفة من حياتي..وكأنها حياتي كاملة تمرُّ أمام عينيَّ بصور فوتوغرافية..ملايين من الصور..كل لحظة..كتاب حياتي المُصوَّر..مددتُ يدي اليُسرى أتلمسها..حياتي لحظة بلحظة..بأسوأ ما فيها.. كنتُ أتساءل دومًا: أين ذهب نسل قابيل بن آدم؟

أين ذهب نسل القاتل الأول؟ لا تجهد نفسك وتبحث عن إجابة..الآن فقط وأنا أنظر لتلك الصور الفاضحة لجرائمي عرفت الإجابة..الأرض تعجُّ بهم الآن وانا واحد منهم.. واحد من القاتلين الجدد..الآن أعايشُ الكابوس الأعظم..يا ليتني متُّ لحظة ولادتي! يا ليتني كنتُ ترابًا! سواد أعظم يتخلله بعض النقاط البيضاء..صور قليلة تُذكِّرني بلحظات دافئة عايشتها..تُذكِّرني بنيفين أختي الحبيبة..بأمي الحنون..بحبيبتي فتون..هأنا أحتضنها بإحدى الصور..مرتميًا بأحضانها الدافئة..لحظات نادرة بحياتي شعرتُ بها بالسعادة..أغلبها معها..برفقتها..كنا نتشارك ضحكاتنا..همساتنا..تتعانق عيوننا..إنه العشق..نادرًا ما تعثر عليه بتلك الدنيا..فتون.. لكل منا فتنته..وأنا عشقتُ فتنتي..غرقتُ في بحر ملذاتها.. أبحرتُ مُصارِعًا بذراعيَّ أمواج عقلي وقدري الصارخين بالابتعاد..آه لعذابي! آه للوعتي! يا مَن سلبت روحي.. يا مَن عشقت ترنحي بسكرات هواها..أنا المجنون بكِ أنتِ.. محبوبتي..أحبُّكِ جدًّا..أقولها لكِ قبل نزوحي للجحيم..لأنكِ كنتِ نقطة مضيئة وحيدة بحياتي..يا ليتني قابلتُك منذ زمن بعيد! مؤكد كان سيتغير المصير..لم أنسَ تلك اللحظة الأولى التي رأيتك فيها..سقطت عيناي بسحرك بغتةً..ارتعش قلبي فجأة دون سابق إنذار..كنتُ خارجًا من عملي بمديرية الأمن بوقت متأخر ليلًا..وكنتِ أنتِ على الجانب الآخر شاردة..نظرتُ لعينيك دقائق دون أن تريني..تسمَّرتُ مكاني..سحرتني زُرقتها خلف نظارات لم أرَها من سحر ما خلفها..وفجأة توقف ميكروباص بيني وبينك..ونزل مجموعة من الملثمين وبغمضة عين اختطفوكِ..مصادفة عجيبة..وكأن القدر ساقني إليك لأنقذك.. هُرعت إلى سيارتي وطاردتهم أشد مطاردة..توقفوا وألقوكِ على الطريق واختفوا سريعًا..نزلتُ من سيارتي وهُرعت ناحيتك..نظرتُ لعينيك عن قُرب لأول مرة بحياتي..سألتك وقلبي يرقص فرحًا:

-أنت بخير؟

-أشكرك.

-مَن هؤلاء؟ ولماذا قاموا بخطفك؟

-لا أدري.

-أنا ضابط شرطة..أتسمحين لي بمصاحبتك لأي مستشفى قريب، ونكمل حديثنا هناك؟ اتكئي عليَّ.

-لا أستطيع..ساقاي تؤلمانني بشدة.

لم تستطيعي الوقوف..تركتُك سريعًا وذهبتُ لسيارتي لأقربها لك..عدتُ ولم أجدك..اختفيتِ فجأة كما ظهرتِ فجأة..حلم جميل لدقائق معدودة تمنيت تكراره..بحثتُ عنك كثيرا بعدها فلم أجد لك أيَّ أثرٍ..أحبُّك..أعشق صوتك..حنانك..جمالك الساحر..أحبُّك فتون..

غِبتُ بالنظر لصورتها كثيرًا..ارتعشت الأضواء من حولي..انطفأت فجأة وساد الظلام..لا أرى شيئًا. أشعر فقط بضغط المياه تنساب إلى رئتيَّ..أنا تحت مياه النيل..أقتربُ من القاع..لا أدري إلى أين المفر؟

شلل تامٌّ لكل حواسي..خروج آخر للروح..وهل تخرج الروح مرتين؟ فتحتُ عينيَّ لأراها أمامي فجأة..إنها فتون..ما زلت على أريكتها الصغيرة..مدت يدها تمسح عرقي من فوق جبيني..وتضع لي قطعة قماش باردة كالثلج..وكأنني كنتُ بحمى مباغتة..نظرت حولي غير مصدقٍ ما يحدث لي..أدركتُ حينها أنه كابوس جديد..وكأنه شيطان جاثم على صدري للأبد..يُصاحبني ويُقيِّد روحي..يُجرجِرُها..سجن مظلم يجمعني به طيلة حياتي..كوابيس تُهاجمني حتى وأنا يقظٌ..وكأنها جزاء لأفعالي وجرائمي.

ابتسمت لي فتون حينها:

-جسمك بارد للغاية..سأحضر لك مشروبًا ساخنًا.

تركتني ودخلت إلى مطبخها..ما زلتُ على قيد الحياة..وما زالت حقيبة الأموال بجواري..ما زال شيطاني يُراقصني كعاهرة كريهة الرائحة..شيطان أثيم كالجاثوم..صديق جبري لجرائمي اللعينة.

فتحى عبد العزيز سمعان

(الثالث عشر من ديسمبر- القاهرة)

هُرع الرائد مجدي نور الدين لمكتبه المشترك بمديرية أمن القاهرة..مهمة مزدوجة يحملها على عاتقه..البحث عني والعثور عليَّ بأقرب وقت ممكن وكذلك تتبع الإرهابيين مفجري اليوم موكب الباشا رئيس الوزراء المُرتَقب..تتلاحق الأحداث تِباعًا بأسرع ما يمكن..عثر شريف النجار على فيديو مُصوَّر للحادثة من أحد الشرفات المجاورة لموقع الانفجار..شخص ما قام بتصويره بعد الانفجار مباشرة وحمَّله على شبكة الإنترنت تحت عنوان "شاهد لحظة انفجار سيارة عبد الغني النصراوي"، جلسا مجدي وشريف يشاهدانه بتركيز شديد بعدما نجح الأخير بكشف أحد مرتكبي الحادثة.. يظهر وجهه جيدًا بالفيديو يقترب بسيارة جيب ويتوقَّف بالقرب من سيارة الباشا المُصفَّحة وتنطلق بعض الطلقات من رشاش آلي يحمله شخص ما جالس بالخلف ثم ينطلق سريعًا..لسوء حظِّه كان هناك مَن يهوى التصوير عن قرب..أشار شريف ناحية الفيديو بعدما ثبت على وجه فتحي.

-هذا التسجيل صُوِّرَ من شُرفة قريبة لمكان الانفجار، لحُسن الحظ زاوية التصوير مكَّنتنا من تحديد ملامح سائق السيارة ..فتحي عبد العزيز سمعان ٣٣ عامًا ..طالب بليسانس الحقوق..٤ سنوات بالسنة الأخيرة. الراسب الأول بالكلية..هكذا يُطلقون عليه ..عضو فعَّال باتحاد الطلبة وله نشاط سياسي معارض..يكتب مقالات ضد النظام بجريدة إلكترونية اسمها آخر البلد، وكتب مقالتين بجريدة المصري الجديد.

وقف مجدي متفحصًا لصورته بتحدٍّ شديد قبل أن يصدر أوامره باستخراج أمر النيابة للقبض عليه..خرج مجدي على رأس قوة شرطية مصاحبًا لشريف النجار في اتجاههم لمصر القديمة..حارة ضيقة تسمى عبيد قنديل هكذا كان العنوان المُسجَّل ببطاقته.

رَنَّ هاتف مجدي..رأى اسمها..زوجته نيفين..لم يُجِبْ..اعتاد ذلك..لا يرد على أيِّ اتصال مهما يكن وهو بعمله..كانت تحتاج إليه كثيرًا ولا تجده..اعتادت هي الأخرى ذلك، ولكنها هذه المرة تفتقده بجوارها بشدة..كانت تنتظر دورها بعيادة طبيب النساء..اقتربَت ذِكرى زواجهما على عام كامل، ولم يحدث أي حَمْل..انتابها القلق الشديد ولكنها أخفتْ عنه ذلك..كان عليها الاطمئنان أولًا على نفسها قبل أي اتهام آخر.

-سيدة نيفين..تفضلي.

نادتها الممرضة..دخلت للطبيب وجلست أمامه وهو يفترش تحاليلها الخاصة وبعض الأشعات التي طلبها منها..نظر لها بأسًى:

-بكل أسف يا سيدتي التحاليل تؤكِّد أن هناك استحالة لحدوث حمل.

-ماذا؟ ألا يوجد أي أمل؟

-للأسف الأمل ضعيف ويكاد يكون منعدمًا.

امتلأت عيناها بالدموع..هُدمت أمالها بطفل يحمل اسم حبيبها ويملأ وحدتها..حاولت الاتصال بمجدي مرة أخرى فلم يجب..كان مشغولًا عنها بصيده الثمين ..كما كان دائمًا..وصلت قوة الشرطة بالقرب من بيت فتحي..توقَّفوا بالخارج ونزلت القوة تقتحم تلك المدقات الصغيرة بين البيوت التي تتحمل مرور توكتوك صغير على الأكثر.. بيوت لا ترى الشمس مطلقًا..طرقات حادة على باب بيته بالدور الثاني..وينفتح بابه الخشبي المتآكل..وتدخل القوة داخل البيت وعلى رأسها مجدي وشريف..سيدة عجوز جاوزت الستين عامًا وسبع سيدات مختلفات الأعمار أغلبهنَّ يحملن أطفالهنَّ الصغار وبعض الأطفال المختبئين خلفهن خوفًا منهم..الجنود يفتشون البيت بهمجيةٍ شديدة..نظر مجدي للسيدة العجوز وسألها:

-أين فتحي؟

-ماذا تريدون من ابني؟

قالتها بحدة شديدة..كاد شريف يصرخ بوجهها، ولكن مجدي أشار إليه بالصمت..نظر لها مجدي مبتسمًا بهدوء:

-الأمر بسيط يا سيدتي.. كلمتان معه وننصرف.

-لم يرجع بعد من الجامعة. إنه بالسنة الأخيرة بكلية الحقوق ووعدني أنه سيحصل على الليسانس هذا العام..ويُعيَّن بمنصب وكيل نيابة..سيصير زميلًا لك أيها الضابط..

تفحَّص مجدي البيت بعينيه..فقير كأغلب بيوت تلك المنطقة..حوائط زيتية متآكلة..أثاث بسيط متهالك..أطباق بها بعض الخضار على منضدة خشبية صغيرة..يبدو أنهنَّ يُجهزن الغداء..غرفتان ببابين على الصالة..البيت كله لا يتعدى الستين مترًا مربعًا.

-أين غرفته؟

سألها مجدي فأشارت ناحيتها.

-تلك ..غرفته بمفرده وأخواته البنات جميعهنَّ في الغرفة الثانية حتى بعد زواجهنَّ لا يقترب من غرفته أحدٌ، لا هُنَّ ولا أزواجهنَّ وأولادهنَّ ..فتحي..الابن الوحيد على سبعة بنات..

دخل مجدي غرفته وصحبه شريف النجار..استمرت الجنود بتفتيش كل شبر بالبيت..غرفة صغيرة لا تختلف عن باقي البيت..حوائط زيتية تختفي خلف صور كثيرة مُعلَّقة عليها تُثير الاندهاش..صور لمناضلين وثوار مجهولين من كل أنحاء العالم وصور لثوار ميدان التحرير وصورة كبيرة لكارل ماركس أيقونة الاشتراكية بالعالم..وصورة لجيفارا وأخرى لعمر المختار والعجيب صورة سيد قطب زعيم الإخوان الشهير الذي أُعدم بستينيات القرن الماضي وهناك صورة أخرى كبيرة لمحمد مرسي الرئيس المعزول..خلطة عجيبة تنبئ بمجرم مُختلٍّ يؤمن بالمتضادات الفكرية بالوقت نفسه..اليسار واليمين بآن واحد.. كان مجدي منشغلًا بتحليل شخصية فتحي عبد العزيز المُتجسِّدة على حوائط غرفته..بينما انشغل رجاله بتفتيش كل شبر بالغرفة..اقترب مجدي من حاسوب إلكتروني صغير موضوع على منضدة خشبية صغيرة عليها بعض كتب القانون..جلسَ مجدي وحاولَ فَتْحَه..ولكنه يطلب منه كلمة سِرٍّ ليستطيع ذلك..نَظَرَ إلى شريف النجار:

-شريف.

-نعم!

-اتصل بالمديرية لتُرسلَ إلينا أحدًا يفكُّ شفرة ذلك الحاسوب الإلكتروني.

-حاضر.

وقفتُ شاردًا أَمْلَأُ رئتيَّ بهواء شباكها الصغير المُطلِّ على شارعها الصغير دون جدوى..هواء يتسلل لشقتها بصعوبةٍ..أشعرُ أن كل شيء حولي يزيد من اختناقي على عكس ما كنتُ أتخيَّلُ..ظننتُ أن هذا هو المكان الوحيد الذي سيمنحني الراحة ولو لحظاتٍ..وضعتْ كوبًا من الشاي الساخن على منضدة قريبة

-الشاي.

نظرتُ إلى عينيها أبحث فيهما عن ذاتي..سألتني:

-كيف عرفتَ مكاني؟

-أنسيتَ أنك وصفت لي هذا المكان من قبل؟ راهنتُ نفسي أنكِ هنا.

اقتربت مني وعيناها تملؤهما الدموع..

-٦ أشهر وأنا بدونك أتعذَّب كل ليلة، ٦ أشهر كالمجنونة أبحثُ عنك، ٦ أشهر وروحي تصرخ ليل نهار باحتياجك.

مسحتُ دموعها بيدي ونظرتُ إلى عينيها الحنونتين..صراع دائر بداخلي لا ينتهي إلا بالنظر لعينيها والشعور بالدفء بقُربها..ينتهي لحظات فقط..وكأن عينيها بَرُّ الأمان.

-وكأن روحي كانت تتوق إلى حِضنك باحثةً عن مرسًى لجزعها.

-ولماذا منعتها كل هذه المدة؟

-لولا احتياجي إليكِ لما خاطرتُ وجئتُك هنا.

-لماذا؟ ماذا حدثَ لك يا نادر؟ ما الذي يجعل ضابطًا بمركزك وسطوتك يختفي بهذه الطريقة العجيبة؟ أنسيتَ مَن أنت ومَن جدك؟

-مَنْ يدري..قد يكون كل ما أعانيه بسبب ذلك.

-لا أفهم.

-هكذا الحياة ألغاز عديدة مُحالٌ فهمُها، ألغاز مُسلَّم بها كما هي..لا تقبل أي نقاشٍ أو تحليل

-أيُّ ألغاز؟

نزلت دموعي حينها..كاد قلبي يتوقف وأنا أنطق بتلك الحقيقة البائسة.

-إنني لم يعد لي وجود بحياتك

مسحتْ دموعي بيدها الرقيقة وهمست لي وكأن روحها تخاطب روحي:

- أتدركُ كم أحتاجُ إليك؟

-أتذكرينَ أول مرة تقابلتْ فيها عيوننا؟

حاولتْ تغيير مجرى الحديث وتخفيف وطأته:

-ظهرتِ بحياتي فجأةً كما اختفيتِ فجأةً

-فررتِ مني حينها.

-كنتُ خائفة.

-والآن؟

-أخافُ بدونك.. أرتعبُ في البُعد عنك.

-مكتوبٌ علينا الفِراق.

-نادر أرجوك.

غِبْنَا في بحر من الدموع الممتزجة..اختلطت أحزانُنا واعتُصرت قلوبنا أكثر وأكثر..الفِراق..أقسى إحساس بالكون..قلبان ملتصقان بحبل وريدٍ واحد تمتنع عنهما الحياة بغتةً..ينقطع الحبل دون سابق إنذار..مَنْ سرق دنيانا؟ مَنْ قتلَ قلبنا؟ لا يدري أحدُنا سببًا لذلك الفِراق .. ألمٌ مُوجِع تتلاشى معه الروح تدريجيًّا..تغيب..لتعيش المُتبقي مِن عمرك وحيدًا شاردًا غارقا بظلمةٍ أشد من ظلام القبر..ظلمة الفراق.

تركتُها..تحركتُ ناحية كرسي بأحد الأركان..جلستُ عليه شاردًا منهارًا:

-أسمعتِ من قبل بقصة زيزينيا؟

تحركت ناحيتي وجلست بجواري تنظر لي..تهتُ بشرودي واستكملتُ:

-زيزينيا.. مقهًى بحي الهرم يجتمع عليه عازفو الملاهي الليلية كل آخر ليلة ويقتسمون أرباحهم ..مقهى ساهر طوال الليل لا يُغلق بابه أمام أي أحد..ويومًا ما تفاجؤوا برجلٍ يُهرول ناحيتهم والدماء تسيل من رأسه بغزارة.. وقعَ أرضًا أمام المقهى، هُرعوا جميعًا ناحيته وسريعًا حملوه لأقرب مستشفًى وعُولج الرجل على نفقتهم الخاصة..أبلغوا الشرطة ولكن حينما وصلتْ للمكان اختفى الرجل..لم يجدوا له أي أثر، تناسوا أمرَه ولكن بعدها بيوم آخر تكرَّر المشهد نفسه. الرجل نفسه يُهرول ناحيتهم والدماء تسيل مِن رأسه، سألوه قبل أيِّ شيء: لماذا اختفى الليلة الماضية؟ وما سبب جراحه تلك؟ لم يُجِبْهم..لاذَ بالصمت التام..فهُرع نِصفُهم لعلاجه على نفقتهم بأقرب مستشفًى وعزف النصف الآخر عنه، تكرَّر ذلك كل ليلة، وبكل مرة يتناقصُ عددُ الهارعين لإنقاذه ويزداد عدد السائلين عن لُغز ذلك الرجل دون جدوى إلى أن أتى يومٌ لم يقترب منه أحد منهم..تركوا دماءه تنساب دون حتى الالتفات ناحيته..مات الرجل ودُفنت ألغازه معه، وبقيت قِصتُه سِرًّا كبيرًا ولم تتوصل الشرطة إلى حقيقة شخصيته.. مات ودُفن كأيِّ كلبٍ ضالٍّ يتضررون من رائحته النَّتنة:

-لا أفهمُ ما ترمي إليه.

-ليست الجروح ما تقع عيناكِ عليها فقط ..هناك جُروح داخلية لا تُرى.. أشدُّ وجعًا آلاف المرات.. لا توصُف..مهما تحاولي ذلك. وحتى لو عرفتِها ووقفتِ بجواري وتحمَّلتني مرةً واثنتين وثلاثًا..سيأتي يوم وتتمنين الخلاص مني ككلبٍ أجرب نتن تضايقك مصاحبته..هكذا الإنسان يزهد فيما مُنح ويبكي ما ليس بيديه.

لحظات من الصمت حاولت فتون فَهْمَ ما أقصده..تشعر أنها تراني لأول مرة بحياتها.. تراني أخفي شيئًا بين ضلوعي..كانت دومًا ملاذي الأبدي..أحضانها المكان الوحيد بالعالم الكاتم لأسراري..لأول مرة يُراودها ذلك الإحساس..أنا أبتعدُ عنها..أقِفُ على البَرِّ الثاني مُصرًّا على ابتعادي..قطعتْ دوامات الصمت بيننا:

-انهضْ وانصرف..ارحلْ.

-حاضر.

كنتُ أعلمُ أنها النهاية..نظرتُ إلى عينيها للمرة الأخيرة..نهضتُ في طريقى للابتعاد..صرختْ بقوة:

-لا أرغبُ برؤيتك مُجدَّدًا..لا أريدُ أن تقع عيناي مرةً أخرى ولو مصادفةً عليك.. أدركتُ الآن أنك لم تحبني قط. لم تحبني.

توقفتْ..التفتُّ إليها والدموع تتصارع بعيني..قلبي يوشك على التوقُّف مُنتحرًا لقسوة كلماتها..

-لو كنتَ أحببتني لكنتَ حافظتَ علينا.

قالتها وكأنها تطعنني بكلماتِها..صرختُ كالمجنون:

-لم أستطع..حبُّنا الذي كان طوقًا لنجاتي لم أستطع إمساكه..الموج كان عاتيًا ..كافحتُ وصارعتُ كثيرًا ولكن بالنهاية لم أستطع..خارت كل قُوايَ وانهرتُ..جُرفت مع التيار..

-أهذه نهاية قصتنا؟

اقتربتُ منها..نظرتُ إلى عينيها بشغفٍ:

-طلب أخير؟ أريد أن أرتوي لآخر مرةٍ من عينيكِ.

حاولتُ للمرة الأخيرة.

-نادر أرجوك، أرغبُ بمساعدتك.

-ابقي بعيدة.

-احكِ لي.

-لا أستطيع ..أنا الآن شبحٌ لا وجود له، لا أنا ميت ولا حي..شبح يجري بكل الشوارع..

يصرخ بأعلى صوته..يتمنى فِقدان الذاكرة..أو الموت، لكن للأسف لا الذاكرة تُفقد ولا الموت فيه نجاة.

-أوصلت لهذه الدرجة؟ الانتحار؟

-لو أنني أضمنُ أن الموت نهاية لآلامي لما ترددتُ لحظةً.

مدَّت يدَها وحضنت راحتاها يديَّ..دفء عجيب يتسرَّب إلى قلبي..نسمات الحياة تهبُّ من جديد ولكني أرفضُها..لا مجال لها الآن..كفى لذلك الصراع القاسي..كفى لعذابها.

-دعني بجوارك دون أن تحكي لي شيئًا..فقط اتركني بجوارك، أرجوك.

سحبتُ يديَّ من جنتها..هُرعتُ للهروب بعيدًا لمصلحتها..ستدرك ذلك في حين آخر..تحركتُ ناحية تلك الحقيبة الممتلئة برائحة الموتى.

-أنسيتِني سبب مجيئي ..أنتِ الوحيدة التي أستطيعُ ائتمانها على هذه الحقيبة.

-علامَ تحتوي هذه الحقيبة؟

فتحتُها..برزت النقودُ تضوي بداخلها..

-٥٠ مليون جنيه..أو بمعنى أصح ٤٩ مليونًا لأنني سآخذ مليونًا منها الآن، أعلمُ جيدًا أنها بأمانٍ معك وإن عُدتُ سأجدها على حالها.

قلتُها وأنا أُعدُّ المليون جنيه..أظنُّ أنه مبلغ كافٍ لعملية سمير..لن تتكلف أكثر من ذلك..ودَّعتني بيأسٍ شديد وأنا أغلق الحقيبة مُحاولًا تجاهُل تلك اللحظات العصيبة.

-سأشتاقُ إليك كثيرًا.

- طلبٌ أخير.. أي شيءٍ من ملابس والدك وماكينة حلاقة جديدة لم تُستخدم.

-حاضر.

تركتني لتنفذ طلبي الأخير..يتمزَّق قلبها لأحزاني..تعلم أن هناك سِرًّا مُريبًا أُخفيه وعليها الوقوف بجواري للنهاية..حتى وإن كانت ستتصنع الابتعاد عني كما طلبت منها..سألتها عن بُعد:

-أما زال والدُك يغيب كثيرًا عن البيت؟

-أنتَ تعرف أنه لا يُطيق البقاء هنا ويحب السفر دائمًا.

خمس ساعات متواصلة من محاولات فَكِّ الرقم السِّرِّيِّ لذلك الحاسوب الإلكتروني الخاص بفتحي عبد العزيز..وقفَ مجدي كثيرًا بشرفة تلك الغرفة الصغيرة المُطلة على بيت آخر بينهما أقل من مترين وكأنهما شقة واحدة يدخن سجائره الواحدة تلو الأخرى....نَظَرَ حوله لتلك الحارة المنسية البعيدة عن أعينهم..مرتع مناسب للخارجين عن القانون..بيئة خصبة للمجرمين وتُجَّار المخدرات..ذلك الفقر المستشري في أوصال ذلك المكان كفيلٌ بثورة جياع على أقل تقدير..ولكن هناك مَنْ يقاوم محافظًا على مبادئه لآخر نفس..كوالد فتحي ذلك الرجل

العجوز البالغ من العمر سبعين عامًا..يعمل طوال يومه على عربة فول بأحد الميادين ولا يعود لبيته إلا للنوم فقط..لطالما طلبَ من ابنه فتحي الوقوف معه ومساعدته ولكن فتحي كان دائم التهرُّب منه بحجة دراسته وصعوبتها..عملة نادرة يصعُبُ العثور عليها..مَنْ يُدافع عن مبادئه وشرفه أمام ذلك الفقر الطاغي يستحقُّ وسامًا على صدره..أيام عصيبة تزداد سوءًا..ولا يعلم أحدٌ مَن المسؤول..المجرمون أم مَن أوصلهم لذلك وسقاهم الفقر أنهارًا؟ ولكنه رجل شرطة..عليه فقط تطبيق القانون..هو وزملاؤه..عليهم توخي الحذر من تلك المناطق والحارات الضيقة..عليهم تكثيف جهودهم لمحاربة هؤلاء المجرمين المنتشرين بتلك العشوائيات دون البحث عن أسباب..عبء ثقيل على عاتق رجال الشرطة..هكذا كان يفكر مجدي نور الدين..وأصوات المحاولات الفاشلة لفكِّ الرقم السِّرِّيِّ تمتزج بضوضاء عشوائية تملأ المكان..شريف النجار يخرج من الغرفة مناديًا الرائد مجدي:

-سيادة الرائد..الرقم السِّرِّيُّ تم اختراقه.

دخلا سريعًا إلى الغرفة..جلس مجدي على جهاز الكمبيوتر والترقُّب على وجهه..بعض الصور الشخصية والأغاني وملفات وورد على سطحه الخارجي..فتحها الواحدة تلو الأخرى..جحظت عيناه:

-ما هذا؟

كان مِلفَّ وورد بعنوان (عمليات)..فتحه وقرأ ما بداخله مصدومًا..سأله شريف:

-خير؟

- ملف مُدوَّن به كل العمليات الإرهابية بالفترة الأخيرة وتواريخها وعناوين الضحايا وكل المعلومات عنهم.. خط سيرهم..مواعيدهم.

كان ملفًّا مُصوَّرًا..كل ضحية تصحبها صورتها وتاريخ قتلها وميعادها بالساعة وخط سيرها..معلومات دقيقة..آخرها صورة عبد الغني النصراوي..صورة الباشا..تنهَّد مجدي فَقَدْ توصَّل للفاعل بسرعةٍ كبيرة..وسيتفرغ فيما بعد للوصول إليَّ..دقَّق مجدي النظر مرة أخرى بذلك الملف الخطير..

لم تكن صورة عبد الغني هي الأخيرة..هناك صورة أخرى بنهاية ذلك الملف..ضحية جديدة يبدو أنها على وشك الموت..نظر مجدي إليها قارئًا معلوماتها:

-فتون فوزي..هذه الضحية لم تُقتل بعد. هلمُّوا سريعًا.

كانت الساعة تقتربُ مِن الثانية عشرة منتصف الليل..ساعة تنفيذ جريمته الجديدة..كان مُسجلًا بجوار اسمها وصورتها.. عشر دقائق تفصلهم عن قتلها..هُرع مجدي ومَن معه لمنزل فتون..المسافة بينهما لا تقلُّ عن عشرين دقيقة على أقل تقدير..القلق والترقُّب على وجه مجدي..سيفلت فتحي مِن يدِه بعد ارتكاب جريمة جديدة.

-قِف..قِفْ.

توقَّف السائق..ركب مجدي مكانه..انطلقَ بسرعةٍ جنونيةٍ..كاد (بوكس) الشرطة ينقلب عدة مرات..لعله يصل في الوقت المناسب. وكنتُ أنا هناك..وقفتُ بمرحاض بيت فتون أحلق ذقني بعد أن ارتديتُ ملابس والدها..قميصًا وبنطلونًا سوداوين..رائحة الموت تملأ أنفي كالمعتاد..تجاهلتُ ذلك فكل ما فكرت فيه بتلك اللحظة هو إنقاذ سمير من الموت..مستعدٌّ لأي شيء لنجاته..حتى وإن كان عمري هو الثمن..ويوم أسود كسكين طعنه طبيبها بقلبها..حاولت نيفين كثيرًا الاتصال بمجدي ولم يُجِبْها..تحتاج إليه بشدة..مسكت هاتفها وحاولت مرة أخرى طلبه ولكنه لا يُجيب..قذفت هاتفها بمرآتها الشاهدة على بكائها ساعاتٍ متواصلة..تكسَّرت ملامحها..لم تدرك أن مجدي بهذه اللحظات يُصارِع الزمن لإنقاذ فتاة بريئة والقبض على أخطر إرهابي..قد تتغيَّر حياتُهما للأفضل بمراحل..من المؤكَّد سيحصل على ترقيةٍ استثنائية ومكافأةٍ مُناسبة لمجهوداته تلك.

دقَّات على باب شقة فتون العتيق..التفتت فتون ناحيته..نظرت تجاه المرحاض المُغلق بخوف وقلق..لن تجيب..تكررت الدقات مرارًا وتكرارًا..تسلَّلت خلف الباب متسائلة بخوف:

-مَنْ؟ مَنْ بالباب؟ مَنْ؟

لا تتلقى أيَّ إجابةٍ..دقَّت الساعة الثانية عشرة منتصف الليل..دقات مستمرة على بابها..فتحت الباب بحذرٍ..رأته أمامها..فتحي عبد العزيز..

-فتحي؟

-ماذا؟ ألم تتوقعي رؤيتي مُجدَّدًا؟

دخلَ وأغلقَ الباب خلفه ووقف بمنتصف صالتها..

- فتحي..كل شيء انتهى..لا داعي لأي محاولةٍ لإقناعي.

نَظَرَ إليها والشَّرُّ يتطاير من عينيه:

-أتظنينَ أنه من السهل التخلي عنا بهذه الطريقة؟

-أخبرتك أنني لن أتحدث بكلمةٍ عنكم وكأنني لم ألقاكم من الأساس.

ربت بيده على كتفيها ناظرًا إلى عينيها:

-اثنان فقط من تصدقين حديثهما بالدنيا، إما الأنبياء وهؤلاء انتهوا منذ زمن، وإما الأموات لحظة خروج أرواحهم وهؤلاء كُثُر.

-ستقتلني يا فتحي؟

قالتها بقوة عجيبة وكأنها لا تهابَه بالمرة..أخرجَ مطواة من جيبه وفتحها:

-أنا عبد المأمور.

هَجَمَ عليها ولكنها استطاعت الفِرار من تحت يده..جرى وراءها بكلِّ مكان بالبيت..حاولت الفرار بكل طاقتها، ولكنه كان أسرعَ منها..وقعتْ أرضًا وجلس هو أعلاها رافعًا مطوته لأعلى ليغرزها بصدرها..إنها اللحظة الأخيرة بحياتها..ولكن قدرها لم ينتهِ بعد..ظهرتُ بالوقت المناسب..ضربته بقدمي بلحظتها الأخيرة فامتدَّ عمرها..سقط فتحي على الأرض وجحظت عيناه مِن هول الصدمة.

-نادر باشا؟

-لن تفلت هذه المرة.

قلتُها وأنا أستعدُّ للهجوم عليه لأُنهي حياته..صوت سارينة الشرطة تظهر فجأة..ها قد وصل الرائد مجدي نور الدين متأخرًا قليلًا..لولا وجودي كانت فتون في عِداد الأموات الآن..هُرع مجدي وشريف النجار سريعًا على رأس القوة الشرطية..يعدون بين الشوارع الضيقة والممرات..اقتحموا بيت فتون..صعدوا سُلمها المتآكل..طرقات عنيفة على بابها..لا أحد يجيب..صرخ مجدي بجنودِه:

-اكسروا الباب.

وما أن كُسر حتى أصبحوا بمنتصف صالتها..لينتهي اليوم نهاية غير مُتوقَّعة..فتحي جثة هامدة غارق بدمائه ومطواة مغروزة بصدره..وفتون جالسة أمامه والذهول يسيطر عليها..مشهد دامٍ لم يتوقعه..نهاية سريعة لإرهابي كان يتمنى محاكمته العادلة..نهاية مُباغِتة.

اتِّجاه جبريّ

(الثالث عشر من ديسمبر بعد منتصف الليل- القاهرة)

سرعان ما انتقلَ رجال المعمل الجنائي والنيابة لمعاينة موقع الجريمة الجديدة..وقُبض على فتون فوزي بتهمة قتل فتحي عبد العزيز..ترجَّل مجدي نور الدين بالبيت بينما انهمكَ رجاله بتفتيشه..دخل إلى المرحاض الصغير بمفرده..صوت قطرات المياه المتلاحقة الساقطة من صنبور صغير ما زال طابعًا مميزًا له بمجرد دخوله..نظر مجدي للحوائط..مَدَّ يده ليقارن بين بروزاته..لاحظ تلك المنطقة البارزة الجديدة من القيشاني عن مثيلتها بالجانب الآخر..نظر بعدها للمرآة يفكر..أشعل سيجارته وخرج..جثة فتحي توضع بغلاف بلاستيكي تمهيدًا لنقله إلى المشرحة..شيء صُلب تحت قدميه..نظر مجدي لأسفل..إنه ذلك الهاتف المحمول الخاص بوالد فتون..وجده مُلقًى تحت كرسي بالصالة..فتحَه ونَظَرَ إليه..نفث سيجارته مرة أخرى..وضع الهاتف بجيبه ونظر لجنوده الموشكين على الانتهاء..

وبدأ التحقيق..متهمة بجريمة قتل لم تكن على البال..جلست فتون فوزي لا تُصدِّق ما آلت إليه ليلتها بمكتب الرائد مجدي شاردة غائبة العقل..أهذا جزاء جريمتها الأولى..قتل والدها المغتصب؟ هل سيحاسبها الله على انتقامها العادل منه؟ كان عليها قتله منذ طفولتها..ذلك هو العدل بالنسبة لها..

أشعلَ مجدي سيجارة أخرى ناظرًا إليها..بينما جلسَ شريف النجار ورجل يكتب المحضر بجواره..حالة من الصمت والترقُّب بين الجميع قطعها مجدي ناهضًا ليجلس على الكرسي المُواجِه لفتون..

-حسنًا.. ستعترفين..لا مَفرَّ مِن ذلك..لن تخرجي من هنا إلا وأنا عارفٌ بكل شيء أريدُه أتسمعين؟

-قلتُ إنني لا أخفي شيئًا لأعترف به..

نفثَ سيجارته بوجهِها..بدأ أسئلته لمحاصرتِها لعلَّها تُجيب:

-ما علاقتك بفتحي عبد العزيز؟ هل بينكما أي خلافات؟ منازعات؟ أنتِ معه بالتنظيم السِّرِّيِّ، أليس كذلك؟ مَن أعضاء التنظيم؟

سقطت الدموع من عينيها:

-أي تنظيم؟ فتحي كان زميلي في الجريدة.

-أنتِ صحفية؟

-كنتُ.

-لماذا؟

-ظروف.

-لكن أنتِ خريجة سياحة وفنادق؟

-ومَن بهذا البلد يعمل بشهادة تَخرُّجِه؟

-أنتِ تعيشين بمفردك؟

-مع والدي؟

-وأين هو؟

-مسافر.

نظر إلى عينيها قليلًا ثم سألها مُبتسمًا بخُبثٍ:

-لماذا زارك فتحي الليلة؟

-لم تكن زيارة..فوجئتُ به يتهجَّم عليَّ.

-لماذا؟

-شرع باغتصابي.

ضحكَ مجدي..

-أنت تشاهدين الأفلام البوليسية القديمة كثيرًا.

-هذا ما حدث.

-قاربَ صبري على النفاد..كُفّي عن المراوغة وانطقي بالحقيقة.

قالها بعصبية شديدة..قاربَ على فِقدان هدوئه المعتاد..كان جهاز الكمبيوتر الخاص بفتحي على مكتبه..فتحَه على ذلك الكشف المُعنون بـ(عمليات).

-مَنْ تعرفين مِن هذه الأسماء؟

تفحَّصته فتون بعينين زائغتين:

-أغلبهم رجال أعمال مشهورون أو ضباط شرطة تم اغتيالهم في الفترة الأخيرة.

-مُتابِعة جيدة، ما شاء الله.

-قلتُ لحضرتك إنني صحفية، مِن الطبيعي أن أتابع مثل هذه الأخبار.

-هل لديك تفسير لوجود صورتك وبيناتك بقائمة الاغتيالات تلك؟

-لا.

نَهَضَ مجدي ناحية كرسي مكتبه..أخرجَ حقيبةً بلاستيكية صغيرةً بها بعضُ الملابس..

نَظَرَ إليها بعصبيةٍ مُلقيًا تلك الملابس أمامها..أدركتُ للوهلة الأولى أنها ملابسي التي بدلتُ ملابسَ والدها بها بمرحاضها..

-لمَنْ هذه الملابس؟

وشَعْر الذقن بحوض مرحاضك لمَن؟ انطقي.

انهارت فتون بوصلة من البكاء الهستيري..ضغط مجدي على جرس مكتبه..دخل أمين شرطة على الفور وأشار إليه بإيداعها بالحجز..زنزانة جماعية تحوي الساقطات والخارجات عن القانون..قذفَها بقسوة بداخلها فغابَت بظلماتها..تشعر فقط بأنفاس تملأ ذلك المكان الضيق ولا تميز وجوههم مطلقًا..وقفت شاردة لا تدري مصيرها..هل ستُكتشف جريمتها الأولى أم ستُحاكم على جريمةٍ لم ترتكبها؟

-أنتَ تحتاج لبعض الراحة سيادة الرائد..عُدْ إلى بيتك وارتَحْ قليلًا.

قالها شريف النجار ناظرًا بساعته التي تجاوزت الثالثة فجرًا..فنظر إليه مجدي حائرًا:

-أيُّ راحةٍ يا شريف؟ أيُّ راحةٍ بتلك المصائب المتتالية فوق رؤوسنا؟

-مجدي باشا..أظنُّ أنني أعرفُ صاحب تلك الملابس التي عثرنا عليها بمرحاض المتهمة.

-مَن؟

سأله مجدي بشغفٍ:

-هل تتذكَّر سعادتك الصورة المُرسلة مِن مجهول وكان بها المجني عليها سلمى عبد الفتاح لحظة قتلها مع ذلك الرجل الذي نجح بالفرار مني ليلتها؟ إنه هو..هو صاحب تلك الملابس..لم أنْسَهُ مُطلقًا.

برقت عينا مجدي نور الدين..خيط صغير جديد قد يوصله إليَّ..فتون فوزي..هناك علاقة ما تربطني بها..ولكن ما هي؟ ولماذا كنتُ ببيتها تلك الليلة؟ وهل لي علاقة بفتحي عبد العزيز؟ أسئلة كثيرة تدور برأسه تحتاج لإجابات سريعة..نظر مجدي لشريف آمرًا إياه:

- شريف..فتون فوزي توضع بحبس انفرادي ومحضرها يُحفظ بدرج مكتبي..مفهوم؟

-كيف؟ وعرض النيابة؟

-لا نيابة إلا بالوقت المناسب..افعل ما آمرك إياه .. فتون فوزي ليست بحوزتنا، وفتحي عبد العزيز يُترك بالمشرحة حتى إشعار آخر..مفهوم؟

فُتحَ باب مكتبه فجأةً ودخلت زوجته نيفين..علامات الإجهاد على وجهها وعينيها الذابلتين من البكاء طيلة الليل..نظر لها مجدي قَلِقًا مُتفاجئًا:

-نيفين؟ خير؟

-أريدُك.

- شريف تفضَّل أنتَ الآن.

-بعد إذنك.

خرج شريف النجار وأغلق باب مكتبه..اصطحب أمين شرطة لينقل فتون لزنزانة فردية موحشة..فُتح بابها الحديديُّ ودخلت فتون..زنزانة صغيرة مظلمة هي الأخرى..أرض وحوائط أسمنتية ومياه تملأُ أرضيتها..يبدو أنها ستعذب أشد عذاب بلياليها القادمة..ضوء طفيف يدخل من شباك حديدي بأعلى زنزانتها وكأنه بصيص أمل صغير قد يُخرجُها من كبوتها تلك..نظرت لأعلى تدعو الله بانتشالها ممَّا تعانيه..تدعوه أن يغفر لها..فهو الغفَّار الرحمن الرحيم.

واختفى القمر خلف السُّحب الكثيفة..ليلة مظلمة جديدة ترمي قلبي بسهام قسوتها..وقفتُ على هضبة المقطم حليق الذقن حاد الملامح..ووقف سمير بجواري والخوف يملأ نفسه مرتديًا قميصًا وبنطالًا جديدين مثلي..عيناه ترتعشان بوضوح..رياح عنيفة تكاد تقتلع التوكتوك خلفنا ليوشك على السقوط من فوق الهضبة لأسفلها..كنتُ مُخيفًا تلك الليلة..له كل الحق بذعره مني..نظر إليَّ وأنا أحتضن حقيبة الأموال المشؤومة..

- خائف.

نظرت بعينيه..أمسكتُ كتفيه بقوة تاركًا الحقيبة بجواري:

-لا تخف..لا تخف أبدًا وأنا بجوارك.

-أنا خائف منكَ أنت.

حاولتُ الدفاع عن نفسي أمام قاضي عينيه ذلك الصادر حكمه بذنبي.

-موته كان حتميًّا..كان سيقتلها وهي لم تقترف أي ذنب.

-لم أعد أُصدِّقك.

تنهَّدتُ كاتمًا آلامي الدفينة:

-لو أنني بمكانك لن أُصدِّق.

-اتركني أرحلُ.

-لا..لا.

صرختُ فيه بقوةٍ:

-لن ترحل يا سمير، ستدخل المستشفى وستُعالج وستعيش..وإن كان الموت يحتاجُ قُربانًا سأُقدِّم نفسي فداءً لك.

-لا أريد.

-رغمًا عنك ستحيا..رغمًا عنك.

نظرتُ للسماء....أوشكت الشمس على الخروج..الوقت يُداهمني..لا بُدَّ أن أنفذ ما رتبت إليه قبل شروقها..ساعة أو أقل وينكشف ذلك الظلام المنتشر حولنا..ركبنا التوكتوك وعدتُ مرة أخرى لمقابر الغفير..توقفتُ بالمكان نفسه خارجه..نظر إليَّ سمير مُتعجبًا:

-لماذا نحن هنا مُجددًا؟

-سأعيدُ باقي النقود لمكانها..ابقَ هنا سأعودُ سريعًا.

أذان الفجر يتردَّدُ عن بُعد..تحركتُ للداخل.. المكان نفسه..تذكرتُ تلك الليلة الماضية..تذكرتُ ذلك السائق الغادر المدفون هنا..حفرت له بيديَّ وأهلتُ الثرى فوقه لأُخفيَ جريمتي..كل شيء كما هو..سكون حَذِرٌ يتخلله أصوات المؤذنين عن بُعد..الرياح تدوِّي بالمكان..صفيرها يصمُّ الآذان..مصباح صغير بيدي يُنيرُ خطواتي..وصلتُ للمقبرة المرجوة.. خامس قبر ناحية اليمين بعد بقايا سور عالٍ مُهدَّم..وضعت الحقيبة بجواري واستعددتُ للحفر..صوتٌ يفُاجئُني خلفي:

-حمدًا لله على السلامة.

التففتُ سريعًا..رجل في الستين من عمره يحاوطه خمسة رجال بأعمار متقاربة..ملامح الإجرام تقفز من وجوههم..أمسكتُ حقيبتي مصدومًا لا أدري ماذا أفعل.. سألني:

-أين سيدُك؟

وقفتُ ممسكًا حفنة من التراب بقبضة يدي وأجبتُه مُتلعثمًا تخرج كلماتي بصعوبة بالغة:

-على وصول.

-أنت وجهٌ جديد لم أرَكَ بصُحبته مِن قبل.

-نعم أنا جديد.

-حقًّا..إذن فلنختصر بعض الوقت حتى يصل سيدُك، هذه بضاعتكم اطمئنَّ بنفسك.

حقيبة أخرى كانت بحوزته..فتحها..أكياس صغيرة تحوي مادة بيضاء..أدركتُ سريعًا من الوهلة الأولى لرؤيتها أنها مخدرات..هيروين..أُصبتُ بالارتباك:

-حسنًا.

- اطمأننتَ؟

-على ما يُرام.

-فلنطمئنَّ نحن أيضًا؟

تسمَّرتُ بمكاني..كل ما أفعلُه هو احتضان حقيبتي أكثر وأكثر:

-آه طبعًا.

-ماذا تنتظر؟ فلتعطنا إياها.

-أعطيك ماذا؟

-الحقيبة؟

-أي حقيبة؟

-ماذا دهاكَ يا رجل؟ حقيبة النقود.

-النقود؟

لم أفكر بأي شيء سوى الجري..ولكن ظهر رجل في السبعين من عمره قبل أن أفعل أي شيء..معه رجلان ممسكان بحقيبة..ملابسهما تنبئان بأنهما من الصعيد..جلبابه وعمامته تدلَّان على ذلك..

-مساؤكم ورد يا رجال.

-أهلًا سيد متولي.

نظر ناحيتي..سألهم:

-مَنْ هذا؟ وجه جديد؟ لم أرَه بصحبتكم من قبل.

أدركَ الرجل الأول صاحب البضاعة أنني كاذب..شَهَرَ مسدسه بوجهي صارخًا:

-مَنْ أنت أيها الأخرق؟

وبحركة تلقائية مباغتة قذفتُ الترابَ بعينيه..عدوتُ مُحتضنًا حقيبتي بأقصى ما لديَّ من سرعة..استمعتُ لصرخته خلفي:

-يا بن العاهرة..أمسكوا هذا الوغد سريعًا.

انطلقوا خلفي يطاردونني هم وطلقات مسدساتهم..الظلام خدمني للمرة الثانية..ضلَّت رصاصاتهم طريقها لجسدي..وصلتُ للتوكتوك وانطلقتُ به سريعًا..ما زالوا يجرون خلفي..الذُّعر على وجه سمير..طلقات الرصاص تُرعِبُه..دقيقتان فاصلتان، حياة أو موت..توقفوا وعادوا للمقابر بعدما ابتعدتُ عنهم..ابتعدتُ وأنا ألعنُ نفسي..ألعنُ جرائمي كل ما يجري لي جزاء لأفعالي..ملعون ولعنتي لجامي تسوقني لقدرٍ مَحتومٍ..نظرتُ للسماء وقلبي يعتصره الندم..يا رب..وهل يغفر الله لمثلي؟

يا رب..وهل يقدر لساني على نُطقِها؟ يا رب..إنك غفور رحيم.

انهارت نيفين أكثر من ساعة بالبكاء رافضة كل المحاولات المستميتة من مجدي لتهدئتها..فَقَدَ أعصابه صارخًا فيها:

-نيفين..كُفِّي عن هذا البكاء اللعين قليلًا.

نظرتْ إليه وهي تَكْتُمُ بكاءها دون جدوى..اقتربَ منها وجلس أمامها ناظرًا إلى عينيها مُمسكًا يديها مُربتًا عليها:

-نيفين..اهدئي..اهدئي يا حبيبتي، والله أنا لا أريد أي شيء من الدنيا غيرك، ولن يغنيني عنها سواك..كُفِّي عن البكاء، هيا انهضي إلى بيتنا وارتاحي. للأسف لن أستطيع الذهاب معك..كما ترين، العمل لا يرحم.

تمالَكت دموعها..نظرت إليه بحبٍّ ممتزجٍ بحزن شديد..سألته:

-أنتَ مَن تُحقِّق بقضية جدي؟

-هذا عملي يا نيفين لا أستطيع الرفض ولا انتقاء القضايا على حسب هوايَ.

-مجدي..أخافُ علينا..ابعدْ عنه أرجوك.

كانت نيفين الحفيدة المغضوب عليها لعبد الغني النصراوي..بعيدة كل البُعد عنه وعن دائرته منذ طفولتها..طمأنهَّا مجدي.

-يا حبيبتي أنا لا أتعامل معه بصفته الشخصية، مجرد حادثة اغتيال ويجب عليَّ التحقيق فيها بحكم وظيفتي، هيا.. هيا عودي للبيت ..نامي وارتاحي..هيا.

قبَّلها بجبينها..ارتمت بأحضانه القاسية..ربت بيديه على خديها وخرجت..استقلتْ سيارتها وعادت لبيتهما والشمس ترسل أول شعاع لها ليشقَّ ظُلمة ليلتها الماضية..ليلة غبراء على الجميع..نيفين المكتشفة بقطع سلسالها من الدنيا وخوفها لضياع مجدي منها لعجزها عن الحمل والولادة..وأنا وجريمتي الجديدة وتلك الدماء الغارق بآثامها..وفتحي وليلته الأولى بالعالم الآخر التي من الأغلب أنها ستكون ليلة سوداء جراء أفعاله وأعماله الدنيوية..وفتون تلك الرقيقة المظلومة وعذابها بزنزانة فردية ينتشر الصقيع بين جوانبها..

وقفتْ فتون بمكانها ساعاتٍ..لم تقوَ على الجلوس بذلك الماء أسفلها..صوتُ قطرات مياه يتساقط من صنبور بالزنزانة يُذكِّرُها بالصوت نفسه بمرحاضها المنزلي..صراع يعتصر عقلها وقلبها..دموع لا تجفُّ..ترتعشُ بردًا وخوفًا مما هو قادم..لفتَ نظرها زجاجة ملقاة بأحد الجوانب..ظهرت مع دخول ضوء الشمس للمكان..تقدَّمت بخطواتها ناحيتها..زجاجة بها بعض من المُطهر السامِّ (الفنيك)..شردت قليلًا..وكأن هناك من يُحدِّثها..هناك مَنْ يوسوس لها بحَلٍّ سريع وجذري يُنهي متاعبها..هروب فوري قد تنجو على أثره..أمسكت الزجاجة وكسرتها بالحائط الأسمنتي..تناولت قطعة من الزجاج وقربتها مرتعشة ناحية يديها..نَوَتْ قَطْعَ شرايينها لتغادر تلك الحياة السقيمة..لتعدو بعيدًا لمكان آخر لا تجد فيه حِقدًا ولا كُرهًا ولا مُغتصِبًا..مكان يعمُّ فيه السلام..سالت دموعُها مرتعشة بكثافة وزجاجتها تقترب من شرايين يدها وكأن جسدها يعترض..يعترض على هذا الموت الفجائي..على هذا الاتجاه المُباغت.

عزيز شوقي الشيخ

(الرابع عشر من ديسمبر- الساعات الأولى من الصباح)

صباح جديد بلا نادر..شمس تشرق دون شمسي.. منذ اختفائي ونانسي نصير زوجتي تعاني الأمرين..مُرَّ اشتياقها إليَّ ومُرَّ اللغز الكائن وراء ذلك الاختفاء..هجرها النوم ستة أشهر..كرهت سريرنا بدوني..غربت شمس حياتها لموعد مجهول..

سُحُبٌ كثيفة تملأ حياتها تُشعِرُها بالانقباض..جلست تتناول فطورها بالساعات الأولى من صباح ذلك اليوم وعيناها تغلفهما السواد لقلة النوم..أو بمعنى أصحّ انعدامه..نظرتْ لها أختُها سما نصير وهي شاردة تُقلِّبُ صورها معي على هاتفها:

-ألن تنامي؟

-لا أستطيع ..هجرني النوم منذ اختفائه..أعصابي وجسدي ينتفضان كل لحظة رافضين ذلك اللغز اللعين..

-أخاف عليك يا نانسي..سيصيبك مكروهٌ هكذا، من المفترض أن ترتاحي قليلًا خصوصًا بعدما أخبرنا عبد الغني بك بمكان نادر وتطمئنِّي قليلا..

نظرت نانسي لها بحيرة:

-هل تصدقينه؟

-ولماذا يكذب علينا؟

-طوال عمري لم أصدقه بأي شيء.

-إن غدًا لناظره قريب..سنعرف كل شيء بعد عودة نادر.

-يا ليته يعود حقًّا..أتمنى رجوعه من كل قلبي.

كتمت نانسي دموعها المعتادة..حاولت إخفاءها وغيَّرت مجرى الحديث بابتسامةٍ زائفة:

-أين زوجك عزيز؟ أما زال نائمًا؟

-عزيز بات بعيادته.

-لماذا؟

-يقول إن كثرة الحالات المرضية تجبره على المبيت هناك من كثرة التعب.

-أهناك خلاف بينكما؟

-كلا..لماذا تسألين؟

-طريقتك بالحديث عنه تنبئ بذلك.

تنهَّدت سما..احتارت بوصف إحساسها تجاهه..لم تسعفها كلماتها..

- لا خلاف ولا وفاق..حالة من السكون..الهدوء..حالة من الملل..

-عزيز رجل محترم يا سما ويحبك، حاولي فهمه والتقرُّب إليه قليلًا..

ابتسمت سما ابتسامة صفراء:

-أحضر لك كوبًا من العصير معي؟

-العصير أمامي كما هو..لا تغيري دَفَّة حديثنا.

-لا أنا أقصد عصير الفراولة وليس البرتقال..سأبلغهم يحضرونه لنا.

تركتْها وهربتْ للداخل..علاقتها متوترة بعزيز دون سبب..على الرغم من اقتراب مولودهما الأول على الخروج للحياة..ولكن هناك حالة من الفتور العاطفي بينهما ربما بسبب اختلاف طباعهما..أو لزواجهما السريع دون تأنٍّ أو على الأقل للفروق الاجتماعية بينهما، فعزيز من الكادحين بالطبقة المتوسطة، ولكنها لم تُعِر انتباهًا لذلك حين وافقت على زواجها به..ولم تهتمَّ لهذه الفروق..فعزيز شخص مكافح وطبيب وميسور الحال إلى حَدٍّ ما وبصعوبةٍ وافقَها على العيش بفيلا النصراوي بجوار أختها التي لا تفترق عنها أبدًا تلك الفيلا التي يمتلكها الباشا ويعيش نادر وزوجته بها وكذلك هو وسما ولكن هناك شيئًا ما يقف بينهما..يبعدهما كل يوم عن بعضهما البعض..هكذا كانت تشعرُ ولكنها تجاهلت ذلك متمنية تغييره بولادة طفلهما المُرتَقب.

رنين خجول على باب شقتها..فتحت نيفين عينيها اللتين حاولت جاهدة إغلاقهما للنوم دون جدوى..هل عاد مجدي؟ تساءلت: لماذا لا يفتح الباب بمفتاحه؟ مؤكَّد أن مَنْ بالباب ليس هو..نهضت من فراشها وارتدت روبها الثقيل زهري اللون..وقفت خلف باب شقتها متسائلة

-مَنْ؟

جاءها الردُّ سريعًا:

-أنا عزيز يا نيفين، افتحي.

-عزيز؟

فتحت الباب متعجبة من زيارته تلك بهذه الساعة المبكرة من اليوم..نظرت بساعة الحائط التي تقترب عقاربها من الساعة السابعة صباحًا.

-أسف لمجيئي مبكرًا هكذا..لكني أعلم أنك على وشك الذهاب لعملك فرغبتُ باللحاق بكِ قبل نزولك.

-خير يا عزيز؟

سارعَ عزيز بإخبارها بما حدث ليلة أمس..حكى لها عن مقابلتهم مع جدها عبد الغني النصراوي ومعلوماته تلك التي أخبرهم بها جميعًا عني ومرضي وسفري للخارج كما زعم الباشا.

نظرتْ له نيفين مصدومة.

-ما هذه الأخبار الغريبة يا عزيز؟ وإن كان نادر بلندن يتلقَّى علاجًا هناك لماذا أخفى ذلك عنَّا؟

-جدك هو مَنْ أخفى ذلك إلى أن تتحسَّن حالته على حَدِّ قوله.

-ألم يخبركم بمكانه بلندن؟ بأي مستشفى هناك؟

-لا.

-أشكرك جدًّا يا عزيز على حرصك على إخباري.

ارتبكَ عزيز حينها قليلًا..رَسَمَ على وجهه ابتسامة خجولًا:

- خِفتُ أن ينسى مجدي إخبارك وسط أشغاله.

-أيعرف مجدي هذه الأخبار؟

-نعم كان موجودًا حينها.

نظرات من الغضب قفزت بعينيها الجميلتين..حاولتْ إخفاءها:

-آه..مؤكد سيخبرني بعد عودته من العمل..أنت تعلم حجم مسؤولياته.

-أعلم ذلك..كان الله في عونه.

لحظات من الصمت بينهما شردت نيفين بذلك الخبر الغريب وعن إمكان تصديقه أم لا بينما نظر لها عزيز منتظرًا ردَّ فعلها..قطع صمتهما وسألها بنظرات يملؤها الحبُّ:

-حسنًا..أنت بخير؟

-الحمد لله.

-لا أظنُّ ذلك.

-نعم؟

ابتسم لها عزيز ونهض مُقتربًا منها:

-أنسيتِ أنني طبيب نفسي وأستطيع بكل سهولة ملاحظة أنك غير سعيدة ومضطربة.. عيناك تنبئان بذلك.

نهضت هي الأخرى بحدة شديدة:

-عزيز..تصبح على خير.

صفعته بحدتها كعادتها..تعوَّد ذلك منذ أكثر من عشر سنوات..حينما نما ذلك الشعور بداخله وتملَّك حواسه..شعر بحبٍّ جارف ناحيتها..كانت حبَّه الأول..وما زال يكنُّ لها الشعور نفسه حتى بعد كل هذه السنين ما زال قلبه يتأجَّج حين يراها..يعلم جيدًا أنها لا تحبه..ويدرك أن مشاعره تلك تضيع هباء، ولكنه لا يستطيع منع نفسه من الاهتمام بأمورها ورؤيتها من حين لآخر لأى سبب يختلقه هو..مجرد رؤيتها يُشعِرُه بالدفء المفقود بحياته..عزيز شوقي..شخص عقلاني هادئ الطباع طيب خلوق..ولكنها لم ترَه طيلة عمرها..سَيْطَرَ حُبُّ مجدي نور الدين على عقلها وقلبها..وأدركَ عزيز ذلك منذ زمن..لم ينسَ تلك المرة التي تجرأ وأفصح لها عن حُبِّه الدفين بضلوعه..منذ أكثر من عشر سنوات انتظرها بإحدى الكافيتريات..اشتعل قلبه حينها لوعةً وحبًّا حين رآها تهلُّ عليه بعينيها الساحرتين:

-عندك تأخير خمس عشرة دقيقة.

جلست نيفين بفستانها الزهري البسيط..لم يَرَها يومًا ترتدي بنطالًا..وكأنها تصرُّ على أنوثتها الرقيقة وإبرازها دومًا بفساتين مبهجة الألوان..نظرت إليه نيفين والضيق يملأ عينيها وبحدة حدَّثته:

-عزيز.استمع لي جيدًا..أنتَ أقرب صديق لنادر ولذلك أرجوكَ تعتبر هذه المرة هي الأولى والأخيرة ولا تطلب مني أن نتقابل مرة أخرى مهما يكن.

نظر لها بعشق متناهٍ مُفصحًا عن مشاعره الدفينة:

-نيفين..أنا أحبك..أحبك بكل جوارحي.

لم يجد منها ردًّا..أشاحت وجهها بعيدًا عنه.

-لا أقوى على إخفاء مشاعري تجاهك أكثر من ذلك، أنا أحبك..أعشقك وأعشق لفتاتك وعينيك و..

-وأنا أعُدُّكَ كأخي ليس أكثر.

خنجر حادٌّ طعنت قلبه به على الفور مقاطعة إياه..سال دم عشقه يُخضِّب كلماته

-أخيك؟

-عزيز..أنت لا تعرفني جيدًا، أنا إنسانة صريحة..واضحة..لا أُخفي شيئًا مهما يكن ما يشعر به قلبي تراه بوجهي..أتفهمني؟

احتبست الدموع بعينيه..وجهها ينبئ بالضيق..كرامته تُجبِرُه على إنهاء ذلك الحديث غير المتكافئ.

-مفهوم يا نيفين..مفهوم.

- أتمنى ألا تفتح هذا الموضوع مرةً أخرى ولو مع نفسك بعد إذنك.

قالتها وانصرفت تاركة إياه يُعاني آلام عشقه الذبيح..عانى كثيرًا من أجل نسيانها وزادت آلامه حينما رأى نظرات الحب تنطلق سهامها لصديقنا المشترك مجدي نور الدين..كنتُ أنا وهو فقط من نرى تلك النظرات..أنا أخوها وهو حبيبها المحترق..ومرت الأيام..واعتادَ عزيز هجرها ولكنه لم ينسَ حبه لها..على الرغم من إنكاره ذلك أمامي عدة مرات..وآخرها طلبه زواج سما أخت زوجتي نانسي نصير..لم يَنْسَها ولكن كان عليه السير قُدُمًا بحياته..تلك هي الحياة.. مؤلمة..ذلك هو العشق أحيانًا يذبح أيامنا..ويعُلِّق رقاب قلوبنا على بابه اللعين..

ابتسم عزيز وهو يتذكر كل ذلك بسيارته مستمعًا إلى موسيقى غربية هادئة تملأ أذنيه..تُشوِّش على ذكرياته لتغسل عقله من آثار حبها البائس..

فجأة ظهر شخص ما منطلقًا بدراجة بخارية بسرعة كبيرة..نظر عزيز بجواره فرآه ونظرات الشَّرِّ تقفز من عينيه..شعر بالارتياب..لحظة فارقة ضغط فيها عزيز على مكبح الفرامل وباللحظة نفسها أخرجَ ذلك الملثم مسدسًا مُطلقًا منه عدة طلقات..ولولا العناية الإلهية لكان عزيز شوقي بعِداد الموتى..توقف عزيز بسيارته غير مصدقٍ ما حدث..وانطلقَ الملثم بعيدًا

وغاب عن الأنظار..نزل من سيارته وتجمَّع المارة حوله مرتعشًا متحسسًا جسده خائفًا..نجا عزيز من محاولة اغتيال عجيبة..مَن يرغب بالتخلص منه؟ وهو البعيد كل البُعد عن أي صراعاتٍ حياتية أو سياسية..مَنْ ذلك الشيطان الراغب بقتله؟ لغز عجيب يُلِحُّ عليه لفَكِّ شفراته..مَنْ يكرهه إلى ذلك الحد؟ يكره طبيبًا نفسيًّا يحبُّه الجميع.

اكتشاف

(الرابع عشر من ديسمبر- مستشفى الشرطة بمدينة نصر)

وَطِئت قدمايَ درجات سلم مستشفى الشرطة بمدينة نصر حاملًا حقيبة الأموال الباهظة بيد وباليد الأخرى سمير طفلي العليل....اقتربت الساعة من التاسعة صباحًا..إنه موعد بدء العمل كما أعرفه جيدًا..اخترت ذلك المستشفى بالذات وخاطرت بنفسي لعلمي بدقة العمل بداخله واحتوائه على نخبة من أنجح الأطباء..لا أفكر بشيء الآن سوى إنقاذ سمير..كل الحياة تتضاءل أمام آلامه واحتمالية فِقدانه للأبد.

كان شريف النجار قد أصدرَ أوامره إلى جنوده ليلة أمس بتغيير الحراسة كل ثماني ساعات والاختفاء وسط رواد المستشفى..كان آملًا في ظهور المجرم أو مَنْ ينوب عنه مرة أخرى ليكمل محاولة اغتياله..شدَّد على صلاحية كاميرات المراقبة بكل شبر.. كل شيء تحت السيطرة الأمنية وكيف لا ورئيس الوزراء المُرتَقب عبد الغني النصراوي باشا ما زال بغرفته.

جلستُ أمام الطبيب بعد انتهائه من الكشف المبدئي على سمير..وتأكَّدت شكوك طبيب المستشفى الحكومي ..حالة فشل كلوي..

-التشخيص صحيح..لكن لا داعي للقلق. طلبك نستطيع تنفيذه..نحتاج فقط لبعض التحاليل والفحوصات لنتيقن من قابلية جسده لكليتك.

-وهل يجوز نقل كُليتي لطفلٍ بعمره؟

-يجوز إذا كانت نتيجة التحاليل والفحوصات إيجابية.

واتخذتُ قراري بالتخلي عن إحدى كليتيَّ لإنقاذ حياته..نظر لي سمير مدمع العينين..ابتسمتُ له عن بُعد.

-إن جاءت النتيجة سلبية بمقدورك شراء كُلية أخرى من مُتبرعٍ آخر مُناسب.

- ادفع أي ثمن ليعيش.

-الأعمار بيد الله..قل يا رب.

-سؤال آخر بعد إذنك.

-تفضَّل.

-أهناك خزائن للأمانات هنا في المستشفى؟

- طبعًا..يمكنك إيداع ما تريد وأنت مُطمئنٌّ.

-شكرًا.

ارتمى سمير بأحضاني..لأول مرة أشعر بدفء مشاعره تجاهي..وما قيمة حياتي بدونه؟ لا شيء..أحبُّه بشدة..لن أستطيع العيش بدونه حتى وإن كان تبرعي بكُليتي ذلك سيودي بحياتي

ولكن هناك أملًا لإنقاذه..لعلها تشفع لي ولآثامي..لعلها تصبح صدقة جارية تغسل ذنوبي..مَنْ يدري؟

جلستُ أنا وسمير بإحدى طرقات المستشفى وحولنا عدد لا بأس به من المرضى، آلام شديدة بدأت تهاجمه من جديد..حصل مجددًا على حقنة مُسكِّنة هدَّأت من أوجاعه قليلًا.. سلَّمتُ حقيبتي بالأمانات بعد دفع مليون جنيهٍ تحت حساب العملية ننتظر نتائج تحاليلنا وفحوصاتنا نحن الاثنين ..أعلمُ أنه مبلغ كبير ومُبالَغ فيه..لن تتكلَّف عملية نقل كلية هذا المبلغ، ولكن كنتُ أخاف الموت بأي لحظة أو تحدث أي مُضاعفات تتطلب أموالًا مضاعفة ولا يجدنا مَنْ يُسدِّدها فيتركونه يموت..تعلمتُها منذ الصِّغر..هنا في بلادي المال هو الحياة..كلما زاد مالك مُنحتَ الحياة..وإن قلَّ تناقلتك الأيادي الممتدة بالصدقات والتبرعات الضئيلة حتى تملَّ وتتركك لتموت بعيدًا دون ضجيج..اذهب بنفسك للمستشفيات الحكومية..كم من مريضٍ هناك يتمنى الموت لضيق ذات اليد..وكم من مستشفى خاص يرمونك خارجه إن لم تكن مالكًا ثمن علاجك..فالمال هو مُحرِّكُهم الوحيد..والآن أنا أملكُ المال..أملكُ ثمن الحياة.

وعادت روحي ترى من جديد ما يلغيه عقلي..تواردت روحي بعدة أماكن هذه المرة..غِبتُ في شرود كثيف..رأيتني وأنا أقف أمام قصر جدي من الخارج والقمر ينتصف السماء هلالًا..لم أكن بمفردي هذه المرة.. كان معي سمير ينظر لي متعجبًا..ابتسمتُ له وخطونا تجاه باب الفيلا..إنها المرة الأولى التي أصْطَحِبُه فيها لحياتي التي طالما طلب رؤيتها ومعايشتها ولم أخبره عنها إلا الفتات..موسيقى راقصة تنبع من الداخل..أضواء تتلاعب وكأننا على وشك الدخول لملهى ليلي وليس قصر جدي..دخلنا وأنا شارد الذهن غير مصدقٍ ما أرى..رجالًا تنهش نساء بعيونهم السكارى..تخترق أذنيَّ ضحكاتُهم الخليعة..البعض يرقص والبعض الآخر ينخرط في وصلة من الانحلال المستفز..هناك مَنْ يُقبِّل خمس نساء بوقت واحد..وهناك مَنْ ينتهك جسد أخرى بأحد الأركان..وهناك مَنْ يُضاجع إحداهن..ماخور ليلي مكتمل القُبح..مررنا بينهم دون أن يلتفتوا لنا..مررنا بين آثامهم..صعدنا سُلَّم القصر لأعلى..ما زلتُ لا أُصدِّق ما أراه..آهات جنسية تنبع من غرفتي ..فتحتُ بابها..برقت عيناي..سما نصير بقميص نوم مثير تجلس على سريري عارية الساقين والنهدين.. لا يسترها إلا القليل..ضحكة خليعة على وجهها.. صراخ يخلع القلب بجواري..أنها حبيبتي فتون..ما الذي جاء بها إلى هنا..هناك مَنْ يوثِق قدميها ويديها على جسم خشبي بمنتصف الغرفة..رجل قبيح الهيئة..عارية الظهر يعذبها بسوط بيده يجلدها بقسوة متناهية..ويقف بالقرب من شباك غرفتي خلف ستائرها المتطايرة مجدي نور الدين يدخن سيجارته وينظر ناحيتها بشَرٍّ متضاعف..يتَّجهُ ناحيتها وصرخاتها تصمُّ أذنيَّ..ينظر لها بمنتهى القسوة:

-لم يُخلقْ بعدُ مَن يتحداني ما رأيك ببعض من غضبي؟ موجع؟ أتعلمين! كُثُر حاولوا مثلك الصمود، ولكن سرعان ما انهاروا ومِن الوهلة الأولى لعذابي..لا تُثيري غضبي أكثر من ذلك..بيننا حديث لم يكتمل..سنكمله؟ أم لك رغبة أخرى؟

تتساقط سياطه على ظهرها الرقيق..كنتُ كالمجنون لا أفهم ما أرى..ضحكات خليعة من سما نصير ومزيد من الإثارة وكأنها تطلب مني بعينيها مضاجعتها فورًا..سمير بجواري صامتًا

مشفقًا على حالي..لم يتوقف الأمر عند ذلك..كان هناك..الباشا ممسكًا موبايله ويتحدث وكأنه لا يرى أيًّا مما حوله ضاحكًا..

-سعادة الباشا..لا يا باشا..ما زال في العمر بقية، أدركُ تمامًا سيادتك أن عيونًا عديدة تترصَّد لنا..لنا الله، كلنا فداء للوطن، وحتى إن رحَلَ عبد الغني النصراوي هناك الكثيرون من أبناء مصر الشرفاء .. مصر غنية بكوادرها وأبنائها المخلصين سيادتك، شكرًا يا باشا..شكرًا على ثقتك وسلامي لسيادة الرئيس.

ضرباتٌ قوية أشعرُ بها تُصيب رأسي وكأن أحدًا انهال عليها بقدوم حادٍّ يوشك على تحطيمها..ضحكاتها المثيرة تتكرَّر وتمتزج بصرخات فتون..مجدي ينظر لها بشَرٍّ شديد وها هو عزيز صديقي المُقرَّب يقف خلف مجدي ويُحدِّثُه وكأنه هو الآخر لا يرى أيًّا ممَّا حولنا..

-لن أهدأ يا مجدي..لن أهدأ، كيف أهدأ وقد أُطلقَ عليَّ الرصاص وكاد اسمي ينضمُّ لقائمة الموتى..طوال عمري لم أُعادِ أحدًا مَن يُريدُ قتلي إذن؟ ولماذا؟

لم يُجِبْه مجدي وجذبَ فتون حينها من شعرها ليزيد من صرخاتها..لم يتوقف الأمر عند ذلك..رأيتني أدخلُ من شُرفة غرفتي..تحسَّستُ نفسي ونظرت لسمير..كيف لي أن أصبح شخصين، شخصًا بجوار سمير وشخصًا يدخل من الشُّرفة..كنت ممسكًا سكينًا بيدي والشَّرُّ يتطاير من عينيَّ..التفتُّ ناحية السرير فوجدتُ زوجتي نانسي بجوار سما ترتدي قميص النوم المثير نفسه..شعرتُ بالغضب الشديد حينها..رجلٌ ملثَّم الوجه نائم بينهما..يمسك بيديه كل شبر بجسديهما..ضحكات خليعة من الاثنتين..صرخات فتون تمتزج بضحكاتهما..مجدي وعزيز ينظران ناحيتهما فجأة وتمتلئُ أعينهما بالسخرية..الباشا عبد الغني يجلس على كرسي ويشرب من كأس خمر وُضع أمامه..دببت سكيني بصدر نانسي فتطايرت دماؤها على وجوههم جميعًا..مددتُ يدي وأغلقتُ عيني سمير والدموع تتلاحق بعينيَّ.

-يا أستاذ..يا أستاذ..هل تسمعني؟

لم أُفِق إلا على كلمات الطبيب الجالس أمامه ممسكًا بالأشعة والتحاليل..أفقتُ من غيبوبتي الجبرية وأنا لا أتذكَّر أيَّ شيء منها سوى بعض الانقباض في الصدر وكأن عقلي يأبى دومًا الاحتفاظ بأيٍّ منها.

-هه..نعم يا دكتور أنا معك تفضَّل أنا أسف.

-لحسن الحظ جسد سمير سيقبل كليتك يا أستاذ، وبإمكاننا الآن تجهيزكما للعملية الجراحية لكن هناك بعض الإجراءات اللازمة أولًا.

-أيُّ إجراءات؟

-أيُّ تحقيقٍ للشخصية تسلمه للمحاسب وهو سيُنهي كل الإجراءات اللازمة وما عليك بعدها سوى التوقيع على بعض الأوراق خاصة إقرارًا بموافقتك على إجراء العملية الجراحية.

-دكتور..ليس معي أي تحقيق لشخصيتي الآن.

-للأسف.

قاطعته قبل أن يعلن رفضه لإتمام العملية الجراحية:

-بإمكاني دفع ضعف الثمن إن أردتَ ذلك.

فكَّر قليلًا مُتخذًا قراره الحتمي.

- توكلنا على الله.

خَرَجَ بعدها من الغرفة ليعلن لمساعديه الاستعداد لعملية جراحية عاجلة..نظرت لسمير مبتسمًا له:

-أرأيتَ؟ المال يفتح كل الأبواب المُغلقة.

-مال حرام.

همستُ له حينها:

-أنصتْ لي جيدًا واحفظْ ما سأخبرُك به الآن الحقيبة سلمتها للأمانات هنا بالمستشفى، شخصان فقط متاحٌ لهما تسلُّم الحقيبة مجددًا، إما أنا وإما أنت..إن جرى لي أي مكروه تسلَّمها وعِشْ حياتك بما تحويه من أموال.

-لا أريدُها.

-سمير..هذه الأموال إن كانت حرامًا كما تفكر أنت.. فوِزْرُها أنا فقط مَن أُحاسَب عليه أرجوك افعلْ ما أطلبه منك..مَنْ يدري قد لا تتقابَل الوجوه مرةً أخرى.

كانت تلك هي كلماتي الأخيرة له وكأنها وصيتي..احتضنتُه..وما هي إلا ساعات قليلة وخرج كلانا على كرسيين متحركين بطريقنا لغرفة العمليات وقد تم تجهيزنا سريعًا للعملية الجراحية الدقيقة..الطريف أن الطبيب طلب منا الصوم مدة ثماني ساعات لإجراء الجراحة، ولكني أبلغته أننا لم نأكل لأكثر من يومين تقريبًا..خرجنا مُرتَدينَ ملابس تلك الجراحة سهلة الخلع..دقائق ويغيب كلانا عن الدنيا وقد يعود كلانا أو أحدُنا، وتمنيتُ من كل قلبي إن كان هناك عائد وحيد أن كون سمير وكأنني أختتمُ حياتي البائسة بإرادتي.. بعملٍ قد يشفع لي..ولكن وقف هناك بطُرقة المستشفى مَنْ يأبى مغادرتي للحياة بهذا اليسر..كان النقيب شريف النجار..رآني وتعرف إليَّ..ضابط ذكي..لم تخدعه إزالة لحيتي..برقت عيناه وأنا أمرُّ بجواره يجرُّ كرسيَّ الممرضون وأدخلُ غرفة العمليات..تُرى هل ستتم العملية الجراحية بسلام؟ هل سينجو سمير بحياته؟ وهل سأنجو أنا مِن هؤلاء الحمقى الباحثين عني بكل مكان؟

..ابتسم ابتسامة خفيفة وكأنه سعيد بهذا الانتصار..وجدَ أخيرًا مَن هرب منه ليلة قتل سلمى عبد الفتاح..وجدني..النقيب شريف النجار الضابط المنقول قريبًا مِن صعيد مصر اكتشفني..الضابط المنقول بعد اختفائي ب ٣ أشهر عثر عليَّ..

احكى يا شهرزاد

(قبل ٥٠٠٠ عام – قصر الملك)

ومَرَّ شهران من الزمان والملك "سيسنار الرابع" ينهل كل ليلة من بحور قصتها المثيرة..أسئلة عديدة تطارح عقله المُصرَّ على اكتشاف المغزى وراء ظهورها وإصرارها على تلك القصة المليئة بالظلم والظالمين..

امتلأت ساحة القصر الملكي بكبار التجار وكبار موظفي المملكة كأعضاء للديوان الملكي طلبهم الملك لأمر مهمٍ وخطير هكذا أبلغهم فاجتمعوا على الفور والقلق والحيرة تملأ نفوسهم..شيء ما يشعرهم بخطر يقترب خاصة بعد اختفاء ملكهم السابق بظروف غامضة لم تحل لتلك اللحظة..

دخل الملك "سيسنار الرابع" مجلس ديوانه فوقف الجميع..أشار إليهم بالجلوس على كراسيهم المرتبة بشكل دائري يتوسَّطهم كرسي العرش الكبير المُرصَّع بالذهب والزبرجد والياقوت الأحمر..لحظات من الصمت اغتالت خيالهم جميعًا..قطعها الملك بقرارات حاسمة:

-أعلمُ أنكم بالفترة الأخيرة يشغل بالكم تلك الأحداث المتتالية التي تتعرض لها مملكتنا العزيزة..يشغلكم تجارتكم وأموالكم ومستقبل أولادكم..حينما اتَّخذتُ قرارًا بتملك شعب المملكة أراضيها وقصورها وكنوزها كنتُ أفكِّرُ بمستقبلكم جميعًا، نعم..المستقبل هو العدل..وإن كنتم ستسارعون بقول إننا خُلقنا مختلفين متباينين فهذا لا يعني أبدًا أن ينتفي العدل بيننا.. فلكُلٍّ الحد الأدنى من الثروة ما دامت مملكتنا تنعم بهذا الكم الهائل بها..الثروة تمنع الثورة..وكنتُ أنا الشاهد فيما سبق على وأدها بمهدها ولكن مَنْ يدري قد تنفجر بأسرع ما يمكن إن لم ينتشر العدل بين الجميع..ولذلك اتخذتُ بعض القرارات أبلغُكم بها الآن:

قرار ملكي رقم واحد..تأميم جميع ممتلكاتكم بما فيها ما أملكُ أنا شخصيًّا وتسليمها للجان توزيع الثروة التي قمتُ بتشكيلها مِن بعض القضاة والوزراء بمملكتنا وبعضوية بعض من أفراد هذا الشعب ليكونوا شاهدين على الحق.

قرار ملكي رقم اثنين: إعادة توزيع ثروات مملكتنا فيأخذ كلٌّ منا ما يستحقه بالعدل بحيث يتملك كل فرد مِن المملكة مكان سكنه هو وعائلته، وبما أن كل قصور المملكة تنقسم لدور أرضي ودور يعلوه فبكل قصر هنا سيحوي عائلتين يتملك عائل كلٍّ منهم الطابق الخاص به..وكذلك تتوزع الحدائق المحيطة بكل قصر لقسمين بالتساوي نفسه..وتُوزع الأموال والجواهر بالتساوي ..ويُستثنى من ذلك القصر الملكي ليس لشيء إلا حفاظًا على حق أخي الملك السابق لحين عودته سالمًا بعد اختفائه، وبذلك يتساوى كل فرد بالمملكة..ولن يبقى هناك غني ولا فقير، وكُلٌّ يسعى بعد ذلك بنصيبه من الأموال ويكد ويشقى فيجني كُلُّ فرد ثمار جهده حينها فقط سيتحقق الحد الأدنى من العدل ونضمن مستقبل أولادنا وأحفادنا من بعدنا.

بُهتَ المجلس عن آخره..قرارات مصيرية تسلبهم ممتلكاتهم التي طالما نعموا بها..وكيف لهؤلاء الرعاع من الشعب مشاركتهم بأموالهم؟ إن الملك ليغشى ثورة شعب جائع ويرغب بإطفائها فتنطلق ثورة أخرى على الأبواب..ثورتهم هم على هذا الملك الراديكالي السالب لثرواتهم..نظر الملك لوجوههم..رأى ثورتهم في عيونهم الصامتة..لن يقدر أحد على النطق

بكلمة واحدة وإلا كان مصيره السجن لعصيانه الأوامر الملكية..يعرف جيدًا ذلك..ابتسم لهم ابتسامة ثقة واستكمل:

-قرار رقم ٣..إنشاء مركز علمي يتعلم فيه الراغبون من أبناء المملكة علوم الطب والفلك وغيرها من العلوم النافعة على أيدي أفضل العلماء، سترسل المملكة لاستضافتهم لدينا فترة لا تقل عن خمسين عامًا يتخرج بعدها من تحت أيديهم علماء أجلاء يقودون ركب التطور بالمملكة.

-قرار رقم ٤..السماح لأبناء المملكة ممن يحملون جنسيتنا الانضمام للجيش الملكي والحصول على جميع امتيازاته والتدرج بالوظائف بداخله حتى القائد العام للجيش، أي باستطاعة أي فردٍ من الشعب تولي حكم المملكة مكاني إن كان مؤهلًا لذلك وأثبت جدارةً بالغة فتداوُل السلطة واجب.

-قرار رقم ٥..القبض على كل مَنْ سولت له نفسه بخِداع شعب المملكة وكل مَن مارسَ السِّحر والدجل وامتهنَ خداعهم أعوامًا طويلة..وأخصُّ بالذكر ذلك الدجال المنزوي بأطراف المملكة مَن ادَّعى أنه يعالج مرض الطاعون باستخراج مصلٍ مُضادٍّ له وإعطائه للمرضى بوجبة سردين مملح..نوصي بالقبض عليه وعلى غيره ممَّن تلاعب بأوجاع شعبي الجليل ويحاكمون محاكمة عادلة تشهدها المملكة بأسرها، وإن كنتُ أعلمُ أن مصيرهم الإعدام لا محالة.

-قرار رقم ٦ والأخير..يعُلن الجميع إيمانه بوحدانية الله..إله أبينا آدم ونوح عليهما السلام..أعرفُ أنكم لا تعلمون شيئًا عنهما وقد أنساكم شيطانكم إلهكم الواحد الله خالق الكون بأسره لا إله غيره..والآن فُضَّ اجتماعنا وعليكم بدء التنفيذ على الفور.

نهضَ من مجلسه تاركًا إياهم تنهشهم أفكارهم..نظروا إلى بعضهم البعض لا يجدون ما يقال ردًّا على كل تلك القرارات التي تعتبر مصائب عظمى بالنسبة لهم..انفضَّ مجلسهم هنا ولكنه انعقدَ بمكان آخر سري ليناقشوا فيه خطتهم للنجاة من جنون ذلك الحاكم..ملك عادل..يا لسخرية القدر! يأتي ملك فاقد العقل يسلبهم كل شيء..لا بد من منجًى ومخرج لذلك..لن يهنأ بأفعاله ولو على جثثهم.

هُرعَ الملك لغرفته بالقصر وكانت بانتظاره..شهرزاد الواقفة بشرفة شاسعة ترى القمر يعلوها هلالًا وتهبُّ عليها نسمات منعشة تحمل رائحة عطرة..اقتربَ منها فالتفتت له ناظرة بعينيه:

-لن يتركوك.

-الحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع.

-ستنهال سياطهم الماكرة على جسدك الطاهر.

-مَن يخرج منهم عن عقله سيُحاسب.

-سيراسلون ملوك العالم أجمع ليمنعوك.

-ستصبح حينها خيانة تستوجب الإعدام.

-وإن حاربوك وشنوا عليك حربًا ضروسًا؟

-أنا لها..وسينتصر الحقُّ لا محالة.

-أشفقُ عليك.

-ممَّ؟

-لماذا لم تنتظر لتعلم نهاية قصتي؟

-أنتظر ماذا؟ رجل ظالم فاسد يستحقُّ مصيره.

-لا تكن متسرعًا.

-ما قصصتِه لي واضح كضوء الشمس..نادر أمجد رشوان رجل ظالم سخر له مَنْ يظلمه ظالم وأظلم وعلى الظالم تدور الدوائر.

-واهم..قلتُ لك لا تحكم على قصتي حتى تنتهي..قلت لك إن فيها نجاتك..قلتُ لك لا تتعجَّل حتى أنطقَ كلمة النهاية بها

-أعتذرُ لك..هيا أكملي.

-عِدني أنك ستنتظر وتؤجل قراراتك تلك.

-لا لن أؤجل شيئًا، سبقَ السيف العَذَلُ.

-حسنًا..أنت فقط مَن تحمل وِزرك، أنت المسؤول.

-حسنًا..هيا أكملي.

تنهدتُ شهرزاد ناظرةً ناحية القمر لتكمل حكايتها.

-بلغني أيها الملك العنيد ذو الرأي الخطير ..أنه بعد خمسة آلاف عام..وبمستشفى مدينة نصر للشرطة..دارت عجلة الزمان..وسَرَى البنج بالشريان..وغاب نادر عمَّن حوله..ضباب كثيف لا يرى فيه الولدان..ملأ عقله الحيران..أغرقته دوامات ذاكرته..وفي غفلة من الزمان..راح عقله بسُباتٍ عميقٍ.

وانتفت صفته بالمحو والنسيان..وتقلبت الأوجاع..وظهر الماضي من بعيد..يلوح بذكريات عفى عليها الزمان..وراح نادر بغيبوبة جبرية..بغرفة عمليات جراحية..وصاح من صاح..ممسكًا بطرف ثوبها الصباح..طالبًا منها طلبه الملح..احكي يا رسول المستقبل..احكِي يا رسول الزمان..احكي يا شهرزاد.

غَيبوبةٌ جَبريَّة

(يوم من الأيام)

وزاد التِّيه على أشدِّه..دبَّ الطبيب حقنته المخدرة بجسدي الهزيل..غِبتُ بغيبوبة جبرية..كنتُ كغارق ببحر من الذنوب العالية يتنظر الموت بأيِّ لحظة..أمواج عاتية من العذاب أتلوى بداخلها لا يغفر لي فأصل لبرِّ الأمان ولا تخرج روحي فتلتهمني دوامتها العنيفة لألقى عذابي الأبدي الحتمي..أسوأ ما في الدنيا الانتظار..انتظار عذاب الآخرة..جهنم ولهيبها المتشوق لإذابتي بلايين المرات..كنتُ كالمجذوب أهيمُ على وجهي بشوارع دنيايَ أبحثُ عن طوق للنجاة..النجاة من العذاب الحتمي..النجاة من الجحيم.

غيبوبة جبرية أشعرُ بها لأول مرة بحياتي..أستمعُ لصوت ضربات قلبي وصوت أنفاسي المتعالية وكأنني معلق بكل قوتي بالحياة أصارعها على الأقل حتى تنجح عملية سمير وينجو بكُليتي..ضباب كثيف أراني كالغارق به والعجيب أنني أقف على قدميَّ أنظر حولي وكيف لي

ذلك وأنا بغيبوبة طبية..لم أتعجب كثيرًا فمثلي اعتاد العيش بغياهب العقل السقيم..اعتدتُ خيالاتي وشطحاتي.يتلاشى الضباب رويدًا رويدًا..نظرتُ حولي..إنها طرقة أسطوانية طويلة مظلمة..تحسست جدرانها بيدي..تعجبتُ كثيرًا..يدي تنفذ للفراغ..عيني تراها فقط ولكن يدي لا تجدها..جدران وهمية.. برد شديد يتسرب إلى جسدي..أشعرُ وكأنني أتجمَّد..لفحات من صقيع مباغت تنتابني..يداي ترتعشان..نظرت حولي..لا شيء..جدران وهمية وطرقة أسطوانية لا نهاية لها وكأنها ممر الحياة..فالإنسان رحالة يجوب جنبات الحياة ممتطيًا جوادًا من الوهم حتى يموت..بارع في بناء عالم آخر من صُنعِه هو فقط ممتلئٌ بالتحديات الزائفة ويُصارِعُ من أجلها حتى النهاية كعابدي الأصنام في القدم ممن صنعوا إلهًا من العجوة بأيديهم وعبدوه وإذا جاعوا أكلوه..تَبًّا للإنسان أعظم واهم على سطح الأرض! لو خيَّروني لقتلته منذ مهده لنتخلص جميعًا من غباء نسله..ابتسمت..يبدو أن تلك الغيبوبة قد أرادتني فيلسوفًا على غير العادة..تذكرت المثل القديم خذوا الحكمة من أفواه المجانين..ضحكتُ وترددتُ ضحكاتي بذلك المكان الوهمي بغيبوبتي..خذوا الحكمة من أفواه الآثمين..هكذا تليق بي..الصقيع يزداد..إلا من بعض الدفء بذلك المكان..أرتعشُ بقوة..أخاف أن تكون هذه علامات لخروج روحي..ما زال قلبي ينبض بقوة وصوت أنفاسي تتعالى..صوت آخر يمتزج معهما..صوت قادم من بعيد..استرقتُ السمع جيدًا..إنه نُباح كلاب بعدد كبير..صوتٌ مُرعِب..فكرة أن أستمع هنا لصوت كلاب تنبح ترعب للغاية..ينتابُني قلقٌ شديد من ذلك الحُلم وأخافُ أن ينقلب لكابوسٍ لعين، لن أتمكَّن من الإفاقة منه إلا بعد زوال مُخدِّر الطبيب..مخيف أن تشعر أنك مُجبر على كابوس لا تمتلك حَقَّ الإفاقة منه..التفت ُبعينيَّ بعيدًا هناك شيء يضوي وكأنه قمر يرسل ضوءًا ضعيفًا في ليلة معتمة..تحركت بقدمي نحوه حذرًا مرتعشًا وصوت النباح يزداد....اقتربتُ أكثر وأكثر..فضول شديد يدفعني لاكتشاف ملامح كابوسي الجبري..وكأن هناك نهاية لتلك الطرقة الأسطوانية..أتمنى ألا تكون نهاية للحياة..كنتُ أشعر أنني أتَّجه لهلاكي ولكن فضولي يُجرجرُني عنوةً..لم أصدق ما تراه عيناي..كل شيء أصبح واضحًا الآن..صوت الرياح يكاد يصمُّ أذنيَّ..كلاب ضخمة مُسلسلة بسلاسل غليظة تنبح بقوة مرعبة مربوطة بحائط ضخم من الجرانيت، سُحُبٌ كثيفة تملأ السماء والقمر يتخفَّى خلفها تارة ويظهر تارة..مكان شاسع خطوتُ بقدميَّ فيه واختفت الطرقة الأسطوانية..والآن أنا بموقع الكابوس حصريًّا..مكان مظلم تملؤه الوحوش بأنياب تضوي لولا تسلسلها لانقضت وأنهتني على الفور.. ما هذا المكان المخيف..نظرتُ أمامي لأرى قصرًا عجيبًا على ربوة عالية..قصرًا من الصخور..وكأنه نُحِتَ داخل أحد الجبال..ثم أزيل باقي الجبل ليبقى هو شامخًا..برقت عيناي..صوت الكلاب يزداد ويمتزج بشدة مع ضربات قلبي المنذرة بالخطر المتزايد..لا أحد هنا سوى تلك الكلاب....اقتربتُ من القصر..الظلام شديد ولكنني أستطيع تبيُّن تفاصيله الخارجية بصعوبةٍ..قصر صخري بديع التصميم..يُشبه الشكل الهرميّ..نوافذ واسعة مفتوحة لا زجاج لها..فوق بعضها البعض..يجتاحها الرياح..باب واحد ضخم مغلق بالجنازير..خطوتُ تجاهه..رغبة جامحة تدفعني للدخول..حاولتُ فتح الباب دون جدوى..نظرتُ لأعلى..أقرب نافذة تبتعدُ عن الأرض الواقف عليها بخمسة أمتار على الأقل..صوت النباح يزداد..لو انفلت أحدهم لفتك بي على الفور..لأصبحتُ وجبةً دسمة بهذا الكابوس لكلب شرس..قررتُ التسلق..بدأت بالصعود لأعلى متسلقًا الصخور..بصعوبةٍ وصلت لأول نافذة..قفزتُ بداخلها..سقطتُ أرضًا..نظرتُ حولي..ظلام شديد..لا شيء سوى صوت النباح

والرياح..انتظرتُ السحاب يسمح لي ببعض الضوء من القمر المتواري خلفها لأبصر قليلًا المكان..والآن أرى تلك الغرفة بصعوبةٍ..حوائط صخرية..أرض صخرية ملساء تعكس ضوء القمر..أرى نفسي بها كمرآة..ما هذا المكان العجيب؟!غرفة شاسعة الاتساع..مددتُ نظري بأرجائها..بمنتصفها تقريبًا كراسي من الصخور..مقاعد فقط..يتوسطها كرسي ضخم لم أرَ مثله قط....اقتربتُ أكثر..غاب القمر وساد الظلام..انتظرتُ مرة أخرى بتصريح جديد من السحاب والشغف يفترسني..والآن عاود ضوء القمر مجددًا..مددتُ يديَّ لأتحسَّس ذلك الكرسي..ما هذا؟ إنه مصنوع من الذهب..يبدو كعرش كبير مرصع بالياقوت..هل أنا بمغارة علي بابا؟ برقت عيناي غير مصدقٍ ما أرى..تَبًّا لعقلي الباطن القاذف بي بمكانٍ كهذا بتلك الغيبوبة! كَنزٌ عظيم تمنيتُ لو أنني أجدُه بالحقيقة..كلنا يتعرض لذلك دائمًا..كثيرٌ منا يشعر بشيء ثمين بنومه يبدأ عقله بتكراره حتى يتذكره حين يستيقظ وأحيانًا ينهض سريعًا ليكتبه بورقة بجواره.. وأنا وجدتُ كنزًا ولكنني لن أُكرِّرَ ذلك الحلم بعقلي لأنني أتوقَّع الأسوأ..لا بد أن الكابوس قادم بغتةً لا محالة..لن تمر الأمور بهذه البساطة هكذا..صوتُ أقدام تقترب..وكأنها تجري ناحيتي..وصدَقَت نبوءتي..وبدأ الكابوس يفرز سُمومه..مجموعة من الرجال تصرخ عاليًا:

-قِفْ مكانك..قِفْ مكانك يا رجل.

أحدهم يحمل بيديه شُعلة من النيران..أراهم الآن بوضوح..رجال يصوبون سهامًا حديدية تجاهي وأعينُهم ممتلئة بالشَّرِّ.

-أنا..

قاطعني أحدُهم:

-لا تنطق بكلمة واحدة أيها اللص المُتسلِّل.

هلموا قيِّدوه وسلسلوه حتى ينظر رئيس العسس الملكي بأمره.

-انتظر..فلتفهمني..أنتم في حلمي..أنا بغيبوبة وأنتم داخلها.

-خسئتَ..اصمتْ يا لص.

انتابني قليلٌ من الضحك الهيستيري..عجبًا لتلك الغيبوبة الجبرية! لا بد أنني بزمنٍ آخر..عرفتُ ذلك من ملابسهم وحِرابهم..ورئيس العسس الملكي منصب عفى عليه الزمن..ولكن أي زمن؟ وأي مكان هذا؟ أبحرَ عقلي الباطن مخترقًا الزمن ووصل لزمن الأساطير.. ضحكت بفضول راغبًا في متابعة باقي ذلك الحلم..باقي ذلك الكابوس.

قيود وسلاسل ضخمة تلتفُّ حول يديَّ وقدميَّ ورقبتي بغرفة مظلمة يشقُّ ظلامها مصباح صغير من الزجاج مُعلقٌ على الحائط الصخري وبداخله شعلة صغيرة من النار..قيَّدوني وكأنني

مُجرمٌ عتيد الإجرام وأنا منهمك في هيستيريا ضحك لا مثيل لها..كابوس مضحك..أحدهم كان يصرخ بالآخر بجديةٍ شديدة:

-كيف يجرؤ هذا المعتوه على التسلُّل إلى هنا؟

-مؤكد أنه غائب العقل.

-انظر له جيدًا..إنه يستهزئُ بنا ضاحكًا!

-قيِّدوه جيدًا حتى ينظر في أمره رئيس العسس الملكي.

-ألا نُحقِّقُ معه حتى يعود رئيسنا من المدينة الجديدة؟

-كلا.. علينا انتظار الأوامر بهذا المعتوه..هيا أحكموا قُيودَه.

اقترب مني حينها ناظرًا إلى وجهي:

-سنرى أيها الساخر مَنْ سيضحك بالنهاية.

خرجوا جميعًا وأنا أُغالِبُ ضحكاتي..البرد شديد للغاية..سكون تامٌّ يجتاحني..رجعتُ برأسي على ذلك الحائط الصخري خلفي..تبًّا لذلك الكابوس! ظللتُ على هذا الحال كثيرًا..لو قِيسَ بالساعات لقلتُ إنه لا يقلُّ عن عشرات الساعات..ولكنني بكابوس..أدركُ أنه سينتهي بمجرد زوال مفعول البنج المخدر..مرت عشرات الساعات ولا شيء يتغير.. البرودة نفسها والسكون نفسه..العجيب أن الليل مستمرٌّ..لم ترَ تلك الغرفة الشمس مطلقًا..أرى ذلك من شباك صغير أعلاها..وكأنني حُكِمَ عليَّ بالليل طوال كابوسي..شعرتُ بالملل الشديد..العجيب أنني لم أتجمَّد إلى الآن..درجة الحرارة كفيلة بتحويلي إلى جثة باردة..ولكن الأمر لا يتعدى شعورًا بالصقيع..ببساطة لأنني بمكان غير حقيقي..مكان من صُنع عقلي الباطن فقط.. حاولتُ إضاعة الوقت بالتفكير في أي شيء لكنني فشلتُ..لا هروب من الكابوس بحلم آخر..صرختُ عاليًا:

-أفيقوووووووووووووووني.

كنتُ أقصدُ الطبيب..ولكنه حتمًا لم ينتهِ من إجراء عمليته الجراحية..عليَّ بالصبر..سمير يستحق الكثير..فجأة صوت يقترب..أحدهم يفتح باب تلك الغرفة..صرير الباب يشعرني بالترقُّب..تُرى ماذا يخفي لي؟ أقدامٌ تقترب..حاولت تفحصها بذلك الظلام المسيطر على المكان..شخص ما يقف الآن تحت ذلك المصباح لأراه جيدًا..إنها فتاة..فتاة رائعة الجمال لم أرَ مثلها من قبل..ابتسمتُ لها..يبدو أن هناك مفاجآتٍ سعيدة بذلك الكابوس..لم أدرِ ما يُدسُّ لي..كانت تلك الفتاة هي شهرزاد..مدَّت يدها وأنارت شمعة كانت بيدها من تلك الشعلة بالمصباح، واقتربت مني واضعة إياها بجواري، نظرت بعينيَّ بقوة مبتسمة:

-نادر أمجد رشوان؟

-أتعرفينني؟ مَن أنتِ؟

-لا أسئلة هنا..هنا فقط إجابات وإلا ستُعاقَب عِقابًا شديدًا.

-هذا كابوس..أتعلمين ذلك؟ كابووووس وأعلم جيدًا أنه سينتهي.

قاطعتني بالابتسامة نفسها:

-بمجرد أن ينتهي مفعول المخدر داخلك، أليس كذلك؟

تعجبتُ كثيرًا.

-لا تتعجَّب ولا تتساءل كثيرًا..أتعلم شيئًا؟ أعرفُ أناسًا قُتلوا بكوابيسهم.

-ماذا؟

-ناموا أو غابوا في غيبوبة جبرية وتمَّ قتلهم، فلم تعاودهم الحياة من جديد.

صمتٌ مُتبادَل حاولتُ فيه فهمَ ما ترمي إليه....اقتربتْ هامسةً لي مخرجة خِنجرًا صغيرًا وضعته على رقبتي:

-لا تشعر بالاطمئنان هكذا..لو ذبحتُك هنا في هذا الكابوس ستموتُ هناك بغرفة العمليات.

-أبعدي هذا الخنجر عن رقبتي.

قلتُها صارخًا بها.

-لا تخف.. شهرزاد فقط تعطيك مثلًا.

- اسمك شهرزاد؟

-قلتُ لك لا أسئلة هنا. هل تعلم أين أنت؟

لم تتلقَّ مني أي إجابة.

-أنتَ هنا في مملكة تبعدُ عن زمنك ب ٥٠٠٠ عام.

-ماذا؟

-أي قبل ميلاد المسيح ب ٣٠٠٠ عام. وبالتحديد في قصر المملكة القديمة المهجور الغائب ملكها السابق بحادثة مُروِّعةٍ لم يُكتشف مرتكبوها إلى الآن، ولا الملك السابق نفسه عُثرَ له على أي أثر، قصر مهجور نُسجت حوله الأساطير ولصٌّ متسلل قُبِضَ عليه بجوار كرسي العرش القديم لهذا الملك، تُرى ما التهمة التي سيوجهونها إليكَ؟

-أنا لا أفهم شيئًا مما تقولين.

-أمامك تهمتان..إما أن تُحاكَمَ بتهمة السرقة وإما أن تُحاكَم بتهمة قتل الملك السابق أو اختطافه أو على الأقل التستُّر على مرتكبي الجريمة

-أأنتِ مخمورة؟

ضحكتْ بهيستريا حينها لم أقوَ على تمالُك نفسي وصرختُ:

-أيها الطبيب..أفِقْنِننننننننننننننني.

اقتربت مني ناظرة بعينيَّ:

-لا تُضِع الوقت، سيحكمون عليك بالإعدام..لا تستخف بما أقول..خُذْهُ على محمل الجد قبل فوات الأوان.

-ماذا تريدين؟

-أريدُك أن تثق بي..أنا الوحيدة القادرة على إخراجك من هذا الكابوس بسلامٍ حتى تتم غيبوبتك الجبرية حتى نهايتها.

-لا أفهمُ.

-لو منحتُك الفرصة بالتطهُّر من كل آثامك ماذا أنتَ بفاعلٍ؟

لم تلقَ مني أي إجابة..للحقِّ استطاعت تلك الفتاةُ جذب انتباهي بشدة.

-أعلم أنك حمَّال للآثام والذنوب لا تتعجب..قلتُ لك امنحني ثقتك. سأحميك بهذا الكابوس مقابل أن تتطهر، اسمع سأريك شيئًا عُدَّه قُربانًا لثقتك شريطة أن تحكي لي كل شيء..كل شيء حتى تخرج من هنا كالثوب الأبيض المُنقَّى من الدنس.

نظرتُ لها كثيرًا..عجبًا لخلجات نفسي تلك القاذفة بي في هذا المكان العجيب..وهل لمثلي توبة؟ هل يتوب إبليس يومًا ما؟ مستحيل..مدَّت يديها وأمسكت كلتا يديَّ..نظرت إلى عينيَّ:

-أغمضْ عينيك..هيا أغمضهما ولا تخفْ.. ثق بي.

أغمضتُ عينيَّ..كانت يداها دافئتين..سَرَى دِفؤُهما بجسدي كله..ضغطت بهما على يديَّ بحنان مُطلَق.. لحظات لا أدري عددها. سكون مترقب..استمعتُ بعدها لصوتها مرةً أخرى:

-والآن افتحهما.

عجبًا..إنني بالطرقة الأسطوانية مجددًا ولكنني لستُ بمفردي..هي بجواري تمسك يدي مبتسمة..الدفء يحاوطني..نظرتُ لها مُتعجبًا..أشارت إليَّ بالنظر للأمام.

ضوء بعيد يأتي، إنه بنهاية تلك الطرقة.. بقعة ضوء تتسرب إلى نفسي..نهار بعيد يشقُّ ظلام ذلك الكابوس..أمل بعيد يضيء قلبي هكذا شعرت..دفء يقترب..خطوتُ ناحيته بشغفٍ مُمسكًا

بيدها..لا يوجد إنسان على وجه الأرض حياته لا تحوي تلك البقع الضوئية الباعثة للدفء ولكن هناك مَن يحافظ عليها وهناك مَن يطمسها ويزيد من عتمته حتى يختنق قلبه بردًا..والآن تمتدُّ خطوتي سريعًا ناحية ذلك الضوء البعيد..أسرعُ وأسرعُ قبل اختفائه..هواء نقي يتسرب إلى رئتيَّ..هأنا أقتربُ أكثر وأكثر..قلبي ينتفض فرحًا..وكأنني أمام بوابة الجنة..ارتميتُ بأحضان ذلك الضوء..غمرني حنانه الكثيف..فرحة عارمة تجتاح قلبي..عيناي لا تريان شيئًا، فالضوء ساطع للغاية ويُحيطني من كل اتجاهٍ..غارق بنور قد يغسل همومي..صوت يتسلل إلى أذنيَّ..نظرت لها فرحًا..رغبتُ في احتضانها حقًّا..لا أصدقُ ذلك القربان العظيم..

يرقصُ قلبي فرحةً..موسيقى أغنية النهر الخالد لمحمد عبد الوهاب..زمن بعيد يقترب..قادتني شهرزاد بذاكرتي للوراء لأكثر من سبعة وعشرين عاما..نظرتُ حولي فرحًا.. أرى مكاني الجديد بتلك الغيبوبة..جنتي..حديقة مملوءة بالورد العَطِر..رائحتها تشعرك بالسعادة الأبدية..شمسها مشرقة بسمائها لا تغيب..إنها جنتي الغائبة..لا تندهش فلي جنةٌ عشتُ بها منذ زمن بعيد..جنة عشقتها وخرجت منها عنوة لأُلقَى بجحيم الحياة..ضحكات بريئة تمتزج بالموسيقى..فيلا صغيرة تتوسط الحديقة..ملأت الابتسامةُ وجهي لتمتزج بدموعي هي الأخرى..دموعي على زمنٍ فائتٍ لن يعود..ولكنني أستمتعُ به الآن مجددًا..أعشقُ ذلك الطبيب الذي أتاح لي تلك الفرصةَ بحقنته المخدرة..لو كنتُ أعلم ذلك لأجريتُ تلك العملية منذ زمن..خطوتُ تجاه ذلك البيت المتلألئ ككنزٍ بعيد بلونه الأبيض الشاهق..بعدما تركتْ شهرزاد يديَّ لتتركني قليلًا أستمتعُ بتلك الفرحة المباغتة..فيلا من دورين..

صوت محمد عبد الوهاب يقترب ويعلو:

-مسافر زاده الخيال..والسحر والعطر والظلال

ظمآن والكأس في يديه والحب والفن والجمال

ضحكاتٌ لأطفال أعرفها جيدًا تقترب..صعدتُ سُلَّمًا صغيرًا بخلفية تلك الفيلا..أقِفُ الآن بشرفة صغيرة وأمامي بابها الصغير..قلبي تزداد دقاته صُراخًا..أهذه هي الفرحة التي كنتُ أبحثُ عنها طوال حياتي؟ إنها جنتي المفقودة..دخلتُ ببطء شديد لتلك الغرفة من شرفتها..فتاة جميلة بالثلاثينيات من عمرها ساحرة الجمال تبهر النُّظار للوهلة الأولى بالنظر إليها..ملاك حنون ترقص بفستان أبيض على موسيقى الأغنية بطريقة استعراضية مُبهرة..عقلي لا يُصدِّقُ ما أراه الآن ويرغب بمحوه على الفور، ولكنه عاجز عن ذلك تمامًا، فمُخدِّرُ الطبيب جعله كالمشلول يجلس على كرسيه متفرجًا فقط دون أي ردِّ فعلٍ..يا ليته يعجز هكذا طوال الحياة لأعيش سعيدًا!

طفلة في الخامسة من عمرها تضحك ببراءة متناهية..منشغلة بلعبها بمكعبات متناثرة حولها وتنظر من حين لآخر على الفتاة الراقصة فتضحك وتستكمل لعبها..بجوارها طفل آخر في السابعة من عمره منشغل برسم لوحة صغيرة بألوانه..شجر وشمس وبيت ورجل وفتاة و٣ أطفال..هكذا كانت رسمته البدائية الجميلة.

طفل آخر في الثانية من عمره جالس يشاهد رقصتها منبهرًا ضاحكًا..لا يراني أحد..لم يلحظوا وجودي..انهمرت دموعي..لم أستطع إيقافها..تداعت ذكريات عديدة برأسي بآن واحد..كانت شهرزاد تقف بجواري مبتسمة.

وددتُ لو تراني..لو تفتح ذراعيها وأرتمي بأحضانها دون تفكير أنهلُ من حنانها المفقود..إنها رضوى شاهين..إنها أمي رحمة الله عليها..إنه زماني البعيد الذي عِشتُ بذكراه طوال حياتي البائسة..عِشتُ على ذكرى تلك اللوحة التي رسمتها بنفسي وأنا في السابعة من عمري..لم أنسَ ذلك قط..هذا الطفل هو أنا وهؤلاء هم إخوتي..انطلقتُ دموعي تُبلِّل ذكرياتي المتعطشة لحنانها. ربتت شهرزاد على كتفي بحنانٍ.. ونظرت إلى عينيَّ:

-يا ليتك ظللتَ هكذا! يا ليت زماني توقَّف عند هذه اللحظة! أهذا ما تفكر فيه؟

أشرتُ إليها بالإيجاب..

-اجلسْ..فلنجلسْ هنا قليلًا..

جلست على كرسي بالغرفة..غرفتنا جميعًا..غرفة الألعاب التي كانت تجمعنا أغلب اليوم مع أمي..تتناثر ألعابنا بكل أنحائها.. وكأنني جالسٌ داخل شريط سينمائي لا أستطيع إيقافه ولا مصافحة أبطاله أو حتى لمسهم..أُشاهِدُ فقط.

تحركت رضوى ناحية الطفلة الصغيرة أختي نيفين واحتضنتها ثم إلى الطفل الذي يرسم لوحته طفلها نادر..أنا..ناظرةً إلى لوحته:

- أرني ماذا رسمتَ؟

أشار إليها الطفل:

-هذا بيتُنا.

-رائع..ومَن هذه؟

-هذه أمي.

-وهذا؟

-أبي.

نظرتْ شهرزاد إليَّ.

-كنتَ طفلًا جميلًا.

نظرت رضوى بعدها ناحية الطفل الصغير ذي السنتين من عمره تلاعبه:

-لماذا لا تلعب معهما يا صغيري؟ هه..أيها الصغير الحبيب.

ضحك الطفل الصغير..إنه أخي أحمد أمجد رشوان..حادثتني شهرزاد:

-أتشعر بالاشتياق إليها؟

أجابتها دموعي التي لا تتوقف..نهضتُ متوجهًا ناحيتها مُحاولًا لفت انتباهها..مددتُ يدي لأتلمسها..مرتْ يدي وكأنني ألامسُ الهواء..بكيتُ وأنا أُناديها دون جدوَى:

-أمي..أمي..أممممممممي.

اقتربت مني شهرزاد:

-إن طاوعتني ستنجو وأعِدُك أنك ستُقابِلُها وتتحدَّثُ إليها وترتمي بأحضانها.

-أنت لا تدركين مَنْ أنا..مُحال.

-لم يمر الوقت بعد..ما زال هناك أملٌ.

-مُحال.

-لا..هناك أمل ما دمتَ على قيد الحياة.

-خائف.

كنتُ كالطفل المرعوب من معاقبة أمِّه.

-لا تخف لن أخبرها بما فعلتَ..ستظل صورتك أمامها نقيةً.

-تعدينني؟

-أعدُك بذلك..هيا فلتقُصَّ عليَّ كل شيءٍ، هيا فلتتطهرْ.

-لكن كيف سألتقي بها وأُحادثها وتحدِّثُني؟

-قلتُ لك لا أسئلة هنا..كما أحضرتُك إلى هنا أستطيع فعل أي شيء يخطر ببالك.

-لماذا تصرين على معرفة قِصَّتي؟

ابتسمتْ حينها ونظرت إلى عينيَّ:

-هيا، أنا كُلي آذان مصغية.

كنتُ مترددًا..خائفًا..إنها آثام مريبة مَنْ سيتحملها.. مَنْ يُنقذني ممَّا أنا فيه..أمعقول أن تفعل تلك الفتاة المسماة بشهرزاد ذلك؟ أتكون التوبة بهذه السهولة؟ أعترِفُ بكل شيء بحلم داخل غيبوبتي الجبرية؟ أأسترجع كل شيء فعلته؟ أُعايشُه مرةً أخرى؟ حقًّا إنه كابوس مرعب..كابوس صنعته بيدي طيلة حياتي..قاطعتني قبل أن أفكر بأي شيء أقصُّه عليها:

-انتظر، هل ترغب بالرقص معي؟

-أرقصُ؟

- نعم..هيا.

تحركتْ ناحية الكاسيت، ووضعتْ شريطًا آخر داخل الكاسيت..عَجِبْتُ لها، كيف تستطيع اختراق ذكرياتي بهذا الشكل المذهل وتغيير تفاصيلها؟ استمعتُ لموسيقى أغنية من غير ليه لمحمد عبد الوهاب.. صرخت دموعي.. إنها الأغنية نفسها التي رقصتُ عليها مع أمي بالغرفة نفسها..كيف لشهرزاد أن تعرف كل هذا؟ مدَّت يدها ناحيتي..بدأنا بالرقص كما كانت تفعل أمي وأنا صغير..يا لها من ذكريات رائعةٍ أُعايشُها مجددًا محرومًا منها مع غيرها! يا ليتني ظللتُ صغيرًا أنهلُ من بحر حنانها للأبد! نظرتُ إلى عينيها:

-أتعرفين؟ عيناكِ ساحرتان.

-أتتحرش بمشاعري؟

-لا إنها حقيقة.

-تُراقصني ببراعة تختلف عن رقصك معها.

-حينها كنتُ صغيرًا.

-هكذا الإنسان كلما ازداد عمره ازداد براعةً.

-يا ليتني ظللتُ صغيرًا!

-هكذا الدنيا تزداد عُمرًا وتصيبك الشيخوخة ثم تموت وتغادر.

-كذب.. كذب.

توقفتُ عن الرقص بينما استمرَّت هي:

-دنيا كذوب. قد تفاجئك بالرحيل ببداية المشوار مُعلنةً نهايته دون سابق إنذار.

أرى أمي أمامي تتحدَّث مع إخوتي ومعي وأنا طفل ولا أستطيع سماعهم..بدوا كصورة بعيدة تبتعد رويدًا رويدًا..أمي الراحلة بريعان شبابها..المغدور بها من الدنيا..شهرزاد ما زالت ترقص على موسيقى الأغنية.

وقفتُ شاردًا وعيناي تمتلئان بالدموع..صوت عبد الوهاب يملأ أُذنيَّ:

-ياللى زماني رماني في بحر عينك ونساني وقالي إنساني

بحر عنيك يا حبيبي غريق لكن فيه أحلى ليالي زماني

أبحرتْ ذاكرتي يومًا آخر كنتُ أحتاجُ فيه إلى أمي بشدة..يوم زواجي منذ حوالي عام ..يوم حافل لابن الجاه والحسب والنسب نادر أمجد رشوان..حفل زواجي الذي تحاكى به الجميع إلى الآن، ولكنه كان يفتقد عينيها..يديها الحنونتين..كلماتها الرقيقة..أحضانها الدافئة..وقفتُ أتذكَّرها وسط تلك الألعاب النارية التي تملأ سماء حديقة قصري أو بمعنى أدق قصر عبد الغني النصراوي جدي..من الظلم أن نطلق عليها فيلا..كلا إنه قصر فخم يليق بأغنى أغنياء القاهرة وعروس بنت أكبر رجال الأعمال الدكتور نصير والوارثة لثروته هي وأختها فقط..الأنوار تتلاعب تبهر الجميع..موسيقى الأغنية تعزفها فرقة موسيقية بإيقاع معاصر ومجموعة راقصات يرقصن على ألحانها بشكل استعراضي..الجميع حولي من صفوة المجتمع يتسابقون لالتقاط الصور بزفافي السعيد..كنتُ ببدلة الزفاف واقفًا بمنتصف الحديقة أستمعُ لموسيقى أغنيتي الحبيبة وأشاهد رقصاتهن الساحرة..فاجأني عزيز صديقي المُقرَّب ضاحكًا:

-أراهنك أنك من طلبت عزف تلك الأغنية.

احتضنته مُرحِّبًا به:

-عزيز..لماذا تأخرتَ؟

-كان لديَّ بعض الحالات المتأخرة أنهيتُها سريعًا.

-يا ستار.. كُفَّ عن ملء جيوبك بالمال.

-أيُّ مالٍ يا نادر باشا؟ نحن غلابة. تركنا المال لك أنت ولعائلتك.

-قل أعوذ برب الفلق.

- أين عروسك؟

-لم تُجهَّزْ بعد.

انتهت حينها الفرقة الموسيقية من عزف تلك المقطوعة..صفَّق لهم الجميع..كان واقفًا هناك أمامهم جالسًا على بيانو كبير..إنه أخي الصغير أحمد أمجد رشوان..فنان العائلة..أسرعتْ أصابعه لعزف مقطوعة ساحرة يعرفها عاشقو الموسيقى..مقطوعة لبيتهوفن بعنوان الصمت..إن كنتَ لا تعرفها فابحث عنها الآن واستمع لها..ستأخذك لمكان بعيدٍ إن أغمضتَ عينيك..سِحرٌ سيتدفق إلى داخلك حاولْ حينها أن تحتبسه أكبر فترةٍ مُمكنة..سيشعرك بسعادة خَفيَّة لن تعرف مصدرها أبدًا..كان كفارس أحلام أي فتاة..كنتُ أعشقُ عزفه واختياراته.. أحببتُ الاستماع له دومًا..أخي الصغير أحمد.

ظهرت سما نصير حينها بفستان زهري يتلألأ:

-نادر..أهلًا..كيف أحوالك يا عزيز؟

-الحمد لله.

كان ذلك منذ عام تقريبًا..لم يخطر على بال عزيز وقتها أن سما نصير ستصير زوجته بعد أقل من خمسة أشهر.

-هيا يا نادر..نانسي جاهزة وتنتظرك.

-حاضر..عِشْ حياتك..

قلتُها لعزيز وانصرفتُ مع سما..ما زال أحمد يعزف مقطوعته السحرية..وها هو مجدي نور الدين يصل بصحبة زوجته وأختي نيفين تتأبط ذراعه.

-ابتسمي قليلًا يا نيفين..

-مجدي..لا تضايقني.

-يا حبيبتي هذا زفاف أخيك.. ولو رآكِ مُنقبضة الوجهِ هكذا ستضايقينه بأحلى ليالي عمره.

-أنتَ تعلم جيدًا أنني لا أحبُّ المجيء إلى هذا القصر.

توقفت نيفين حين رأته..جدها عبد الغني رشوان النصراوي وسط مجموعة من أصدقائه ورجال الدولة..رآها هو الآخر فتقدَّم ناحيتها:

-أهلًا..نيفين كيف حالك؟

لم تُجِبه.. نظر لمجدي حينها:

-ما الأمر يا مجدي؟ ألن تُصافحني زوجتُك؟

نظر إليها مجدي متوجسًا..تحركتْ ناحيته نيفين لتقطع ذلك الحرج:

-لا أبدًا يا جدي.. كيف حال حضرتك؟

-نيفين..حاولي السؤال عن صحة جدك ولو مرةً يا ابنتي؟

-حاضر.

ظهر عزيز للمرة الثانية محتضنًا مجدي.

-عزيز.. أشتاقُ إليك.

-هكذا نادر دائمًا هو مَنْ يجمع الأحباب.

-سعيد للغاية لرؤيتك هنا.

-كيف حالك يا نيفين؟ أشتاقُ إليكما على الرغم من استيائي منكما.

-لماذا؟

- لم أرَ أيًّا منكما منذ عُقِدَ قِرانُكما.

-مشاغل يا صديقي وتجهيزات الزفاف تلتهم كل أوقاتنا ..أخبرني: كيف أحوالك يا عزيز؟

- الحمد لله كما أنا.

تغيرت الموسيقى لتعلن عن بدء دخول العروسين..ازدادت الألعاب النارية..اقتربَ الجميع وتلاعبت الأضواء وتسابقوا بالتصفيق الحادِّ وعلى وجوههم جميعًا ابتسامةُ مجاملةٍ..

خرجتُ أنا وعروسي نانسي نصير كأمير وأميرة ليلة زواجهما وتتويجهما بتاجٍ السعادة الأبدية..هكذا ظنَّنَا الجميعُ..مال وجمال..للحقِّ نانسي كانت ساحرة الجمال حقًّا..توجهنا ناحية الكوشة وبدأ المصور يلتقط العديد من الصور لنا مع الجميع..مع جدي وعزيز ومجدي ونيفين وآخرين..وقفنا لنلتقط صورة جماعية عائلية..وقف جدي عبد الغني خلفنا وعزيز بجواري هو ومجدي ونيفين..بينما وقفتْ سما بجوار نانسي..أوشك المصور على التقاط صورته..نظرتُ حولي بكل مكان:

-انتظر.

وجدْتُه يقف بعيدًا..أخي الصغير أحمد لا يحبُّ التصوير مطلقًا..ولكنها صورة لن تعوَّض أبدًا..ناديتُه:

-أحمد..تعالَ.

وقفَ بجواري وأمسكتُ يدَه براحة يدي..حينها اكتملت الصورة..أو هكذا تصوَّرتُ..إنها مكتملة ولكنها كانت ناقصة.. تنقصها هي..والدتي الحبيبة رضوى..كنتُ جالسًا على كرسي هزاز بغرفتنا..غرفة الألعاب لم أبْرَحْ مكاني..أفقتُ من غفوتي وذكرياتي فوجدتها أمامي كما هي وموسيقى الأغنية ما زالت تتردد ممتزجة بصوت عبد الوهاب..الأطفال ما زالوا يلعبون..شيء واحد تغيَّر..

شهرزاد تمسك بيدها صورة زفافي تلك التي تصورناها جميعًا وتضعها على الحائط في برواز.

نظرتُ إليها متعجبًا:

-أنتِ عجيبة!

نظرتْ للصورة مبتسمة:

-صورة يملؤها الدفء.

نهضتُ ووقفت بجوارها ونظرتُ للصورة مثلها:

-بالعكس..صورة ناقصة، تنقصُها أمي.

قلتُها ناظرًا ناحية أمي رضوى المشاركة إيايَ طفلًا يرسُمُ تلك اللوحة البدائية.

ابتسمت شهرزاد:

-ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، عليك بالتعوُّد.

ترجلتُ بالغرفة ناظرًا لإخوتي وأمي تنهال دموعي:

-دائمًا هناك شيء ناقص.. الحب، الخير، الحنان، الرضا، الإيمان منقوص.. لا كمال أبدًا.

-لا ترهق نفسك..قلتُ لكَ هكذا الدنيا.

-أتعجبك الصورة؟ أليس كذلك؟ حاولتُ كثيرًا الحفاظَ عليها ولم أستطع.

نظرت شهرزاد إليَّ متسائلةً:

-الصورة؟

-اللّمّة.

تحركتُ لشباك الغرفة وأجمل لحظات حياتي تتداعى أمام عينيَّ..لحظات ضئيلة من المرح بيني وبين إخوتي..لحظات سعادة قصيرة.

-اللحظات الرائعة بحياتي كانت معدودة. لا يولد أحد حمالًا للذنوب، القلب مولود أبيض نقي ترى شعاع النور خلاله .. وكلما زاد العمر امتلأ ظلامًا ..تزداد عتمته وسواده المُكتسب يطغى، يطرد أيَّ شعاع مُرتقب للنور.. النور عملة نادرة لمثلي.. قلبي أنا ظلامه حالِك.

لاحقتني شهرزاد..مدَّت يدها وأدارت وجهي لتنظر في عينيَّ الهاربتين من عينيها:

-ماذا جرى لك؟

السؤال نفسه يتكرر..سأله سمير من قبل وها هي تُردِّده مجددًا..أمسكتُ كتفيَّ وكأنني أرتجفُ بردًا..نظرتُ من الشباك شاردًا..تغير كل شيء من حولي بلحظةٍ..وجدتُ نفسي بغرفتي ليلًا بقصر جدي..الهواء يُطيِّر الستائر والصقيع يجتاحني بقوة..صقيع خارجي وداخلي.. فاقدًا للدفء.. كنتُ بالوضع نفسه مُحتضنًا كتفيَّ وشاردًا بأمي الراحلة..وشهرزاد تجلس على كرسي خلفي تنظر إليَّ تنتظر قصتي.. أنظر خلفي لأرى نانسي زوجتي نائمةً على سريرنا..تبًّا لذلك الكابوس المبحر بين أيامي! تبًّا لذلك المُخدِّر الساري في شراييني! ترجَّلتُ بغرفتي بالقصر ناظرًا إلى شهرزاد، مؤكِّد أن نانسي لن تسمع شيئًا..أمسكتُ كتفيَّ مُرتجفًا:

-البرد.. يومًا ما غربت أحضانها وتركتني وحيدًا معذَّبًا بليل حياة لا ينتهي ..برد يزداد يومًا بعد يوم..مِن وقتها وأنا كالمجنون أبحثُ عن حنان لمساتها ودفء عينيها بكل مكان..رحيلها كالغرق..غارقٌ طوال حياتي لا أنا روحي تغادر ولا تكفُّ عن العويل للاشتياق.

تحركتُ حينها ناحية مرآتي الطويلة وجلستُ أمامها أتفحَّص وجهي وفجأةً صرتُ أنا الكبير..السند.. وارث أحضانها وحنانها..أنا مَن يبحثون عنها بأحضانه.. تمزَّعت مشاعري وانقسمت لاثنين..أحدهما يحاول بكل ما لديه من حبٍّ مساندتهم ومنحهم ما يفتقدون والآخر مُعذب وحيد أُصارع آلامي بعيدًا..بأبعد ما يكون حتى لا يراني أحد..كنتُ أنا وآلامي نختلي كل ليلة نبكي ونصرخ دون جدوى، صراع يُمزِّع قلبي.. وكيف يجتمع الحب والحنان مع الوحدة والعذاب؟ وازداد العذابُ رويدًا رويدًا حتى صار فرعونًا يحكم زمام نفسي..فرعونًا قاتلًا لأي حنان مُرتَقب..واختفى الحبُّ رويدًا رويدًا..

نظرتُ إليها.

-أكمل كلي آذان مصغية.

مسحتُ بيديَّ على وجهي..وتداخل الكابوس مع أيامي..وأصبحتُ شخصين، شخصًا يروي ويعترف وشخصًا يُجسِّد ما عايَشَه..أحدهما يعرف كل شيء عن الآخر..والآخر لا يعرف..وكأن الزمان عاد بي للوراء..تحديدًا بعد شهر من زواجي..وكأنني أُتابِعُ شريط حياتي وأكشفه لشهرزاد..وقفتُ أمام دولابي وقررتُ الخروج سريعًا..انطلقتُ بسيارتي تحت المطر الغزير..اشتقتُ إلى صومعتي الصغيرة..تلك التي ظننتُها ستنتهي للأبد..ولكنني عدتُ إليها بعد زواجي بأقل من شهر..شقة كتحفة فنية بدور أرضي بحي راقٍ هادئٍ..تملؤها اللوحات البديعة والرسومات على حوائطه..التحف والأنتيكات بكل مكان..وكأنك تدخل مُتحفًا حديثَ الطراز..مصادر للإضاءة صغيرة بكل مكان تشبه الشموع تعطي جوًّا رومانسيًّا حالمًا..تنهدت مبتسمًا وأنا أُزيل معطفي المبتل واضعه جانبًا..واستمرَّ الحوار الدائر داخل كابوسي مع شهرزاد:

-هناك كانت مملكتي الخاصة بمفردي..لا يدخلها أحدٌ إلا بإذني، هناك كان عذابي..قبري الدنيوي الصارخ فيه بوحدتي وآلامي كل ليلة بعيدًا عن الناس.. صومعتي..صومعة ببيت صغير كنتُ أختفي فيه كلما رغبتُ بتخفيف عذابي..الفضفضة لليالٍ صماء ..أرسمُ أوجاعي بألوانٍ باهتة.

وضعتُ شريطًا من أغانيَّ المفضلة..عبد الوهاب أيضًا وأغنية عاشق الروح..فتحتُ كل الأنوار..ملأتُ كأسًا من النبيذ وخلعتُ كل ملابسي وبقيت بالشورت فقط..لم أشعر بأي لحظة هنا بالبرد حتى بأعتى الليالي صقيعًا..أمسكتُ بفرشتي وبدأت برسم لوحةٍ جديدة.

دَقَّ حينها جرس الباب..تركتُ ما في يدي وفتحتُ الباب لتظهر أحدث فتياتي..سلمى عبد الفتاح..تلك الفتاة التي قُتلت بين يدي بليلةٍ تُشبه ليلتي تلك..ولكن ذلك يدور قبل مقتلها بأقل من عام بقليل..جلستْ سريعًا على سرير صغير بصومعتي بعدما تخلَّصت من ملابسها هي

الأخرى وغطت نفسها بملاءةٍ صغيرة تستر عورتها..جلست تغريني كعادتها دون جدوى..كنتُ منشغلًا برسمها فقط..هكذا كنتُ دومًا..استغرقتُ ساعتين وهي على الوضع نفسه تأمل مكافأة كبيرة على غير العادة بنهاية رسمها..تركتُ فرشتي ونظرتُ ناحيتها:

-فلنكتفِ اليوم.

نظرتْ إليَّ بشهوانيةٍ واضحة..وأشارتْ إليَّ لأجلس بجوارها:

-تعالَ هنا بجانبي.

ابتسمتُ لها دون أن أتحرَّك:

-ارتدي ملابسَك.

-أنتَ إنسان عجيب يا نادر باشا.

-لماذا؟

نهضتْ وأشعلت سيجارًا ودخنته ثم نظرتْ إليَّ:

-تتصل بي بهذا الوقت المتأخر من الليل ولم يمر على حفل زفافك شهر على الأكثر، وتعالي يا سلمى أريدك..حاضر، وأنا أُدركُ جيدًا أنك ستتصرف هكذا، لكن لم أقوَ على الرفض. ضابط صارم ورسام..رسوماتك رائعة وبالوقت نفسه لا تعلن عنها بل تخاف أن يعرف أحدٌ بها وببراعتك بالرسم، كل يومين مع فتاة تفوق سابقتها جمالًا ودلالًا ومع ذلك لا تلمسهنَّ حتى..فقط ترسمهنَّ..أنت حتى لم تحاول تقبيلي وأنت تعرف جيدًا أنني سأوافقك على أي شيء تريده مهما يكن.. لا، والأعجب سماعك الدائم لعبد الوهاب، مَنْ يراك هنا لا يمكن أن يتخيلك بمكتبك في المديرية وأنت كالأسد المفترس..نادر باشا..أنتَ تُحيرني للغاية!

-هيا انصرفي لبيتك.

قلتُها ضاحكًا..تنهَّدت سلمى:

-متى سنتقابل مجددًا؟

-سأهاتِفُك.

أطفأتْ سيجارها واختفت خلف برافان صغير تبرز ملامح جسدها من خلفه ترتدي ملابسها.

علا الصوت الصارخ بداخلي مُحدِّثًا شهرزاد..فجأة تبدَّل كل شيء مرة أخرى..ما زلتُ بغرفة الألعاب جالسًا على الكرسي الهزاز وشهرزاد تنظر إليَّ:

-كنتُ قديسًا ليس خوفًا أو رهبةً. الخطايا كانت أمام عينيَّ سهلة المنال، لكن شيئًا آخر يمنعني..شيئًا يُحذِّرُني..يُبعدني عن جمالهنَّ الأخَّاذ وسِحرهنَّ المُحفِّز على الخطيئة، لم أدركه في حينها، ولكني أدركته بعد حينٍ وفهمته جيدًا.

-أيُّ شيءٍ؟

-الحبُّ..كنتُ أبحث عنه وسط وجوههنَّ ..كل فتاة رسمتُها كانت رسمتها باهتة ماسخة معتمة ..كحياتي..وكأن ليلي ينتظر الشروق..غريقٌ يبحث عن طوق لنجاته وسط حياة مليئة بالنفاق..حتى قابلتُها وكأن قلبي وثَّق عهدي قديسًا لا ينقضه إلا مع مَن يعشقها.

بادرتني حينها بسؤال اعتيادي:

-أتقصد زوجتك نانسي؟

اختلطت مشاعري داخلي..تداعت كل لحظاتي مع نانسي نصير زوجتي. أمام عينيَّ..أعلمُ أنها كانت ساحرة وجميلة تسلب قلب الجميع..ولكني لم أشعر بها..رغمًا عني لم أرَها مُطلقًا..كنتُ أشعرُ بذلك كثيرًا وبالأخصِّ بلحظاتنا الخاصة على سريرنا المشترك..كنتُ كثير الشرود..وأعلمُ أيضًا أنها تحمَّلتني كثيرًا..انفجرتْ ذات مرةٍ بوجهي بعصبيةٍ شديدةٍ:

-لا أدري ماذا بك؟..٤ أشهر منذ زواجنا وأنا أشعر بسورٍ عالٍ بيننا يزداد يومًا بعد يوم..حتى وأنت بأحضاني غائب..أشعر بروحك تهربُ مني..تفرُّ بعيدًا عن دفئي..أُصبِّرُ نفسي كل يوم..اصبري..مؤكد هناك ما يُضايقه..مشغول بعمله..سيأتي يوم وسيرتمي بأحضانك ويفضفض لك..وتمرُّ الأيام وتزداد الفجوة بيننا..لم أعد أحتمل ذلك.

احتضنتُها حينها مربتًا على وجهها ناظرًا إلى عينيها:

- يا حبيبتي..أنت تتوهمين..لا شيء يشغلني عنكِ، أرجوكِ كُفِّي عن البكاء.

نظرتُ إلى شهرزاد بغرفة الألعاب وصوت عبد الوهاب ما زال حولنا:

- أشياء كثيرة بالحياة لا يمكن أن توصف، لا أحبُّها ولم أكرهُها، ولم يعرف قلبي الحب حينها حالة غريبة..قلبٌ صامت شارد، حياة بلاستيكية لا طعم لها ولا روح، من يوم خطبتنا وأنا أشعر بالانقباض..وكأنني دخلتُ نفقًا مُظلمًا لا نهاية له، وكأن أحدًا يُحاول إيقاف نبضات قلبي، قلبي الرافض والصارخ بعلو صوته المشتاق للتغيير، المشتاق إلى الحياة..الباحث عن حُبٍّ مجهول يخاف فِقدانه قبل حتى أن يجده..قلب يجهل سِرَّ انزعاجه.. نانسي بنت الجاه والغنى بنت الحسب والنسب.. اختيار جدي الباشا رائعة الجمال..حقًّا بهرتني بالبداية ولكن سرعان ما عاود قلبي البحث الأعمى عن حُبٍّ مجهول..قلب ينتظر سطوع شمس لا يعرف مشرقها.

نظرت شهرزاد إليَّ مُشفقةً على حالي..فكَّرتْ كثيرًا ثم ربتت على يديَّ بحنان شديد:

-أليس هناك شيء آخر تودُّ مصارحتي به؟

-أنا لم أقصَّ شيئًا بعد.

-إذن هيا.

قررتُ لحظتها التطهر بشكل أعمّ..لم أُكمِلْ لسمير ما بدأتُه بحقيقتي نظرًا لمرضه وسعيي لشفائه، ولكن لن يمنعني شيءٌ الآن من الاعتراف بكل شيء..سأُلقي كل آثامي هنا داخل كابوسي، سأقصُّ عليها كل شيء لعلني أتطهَّر حقًّا وتُنفِّذ لي أمنيتي بمقابلة والدتي واحتضانها..أدرك انه لا يوجد عاقل على وجه الأرض يُصدِّقُ ما يحدث لي..ولكن مَنْ يدري..لعل ذلك الكابوس حقًّا يُطهِّرني..لعل شهرزاد تلك ملاكٌ أُرسلَ إليَّ ليرشدني.. واخترتُ البداية..صباح يوم الأحد الموافق العاشر من أبريل لعام ٢٠١٦..أذكرُ ذلك التاريخ جيدًا فمنه بدأ حسابي على كل أخطائي وآثامي..ارتديتُ بدلتي العسكرية برتبة مقدم وخرجتُ من قصر جدي مُنطلقًا بسيارتي كعادتي كل يوم متوجهًا لعملي..أدرتُ الراديو لأستمعَ حينها لأغنية للمطربة وردة..أعشق الأغاني القديمة..وأحبُّ سماعها دومًا..ولكن لم تمر سوى بضع دقائق حتى بدأ الحساب والعذاب..انقطعت الأغنية ليخرج مذيع الإذاعة يعلن مُصيبةً كبيرةً

-أعزائي المستمعين..نأسف عن القطع المفاجئ، جاءنا الآن خبرٌ عاجل سلسلة من الانفجارات بشوارع مختلفة بالقاهرة تستهدف سيارات ضباط شرطة، وأنباء عن قتلى وجرحى ونهيبُ بالسادة المواطنين التزام منازلهم حرصًا على سلامتهم، وسنوافيكم بتطورات الأحداث أولًا بأول.

برقت عيناي لما استمعتُ له..بلحظتها ظهرت سيارة نصف نقل فجأة أمامي..كنتُ على كوبري علوي وأسفلنا النيل..لا مفر سوى الاصطدام أو السقوط بالنيل..تداعت كل لحظات حياتي أمام عينيَّ وقتها..وتصلَّبت يداي مستعدًّا لموتٍ مُحقَّق..موت المقدم نادر أمجد رشوان النصراوي.

عباس الدمراوي

(العاشر من أبريل ٢٠١٦-القاهرة)

لا مفر من الاصطدام..ضغطتُ بقدمي على دواسة الفرامل سريعًا فانحرفت سيارتي وكسرت حاجز الكوبري الحديدي..سقوطٌ مُدوٍّ بمياه النيل..ارتفاع كبير سقطتُ به واصطدمتُ بالمياه وغاصت أسفله مُحْدِثةً دوامة رهيبة حولها متجهة ناحية القاع..كنتُ مرعوبًا للغاية..مددتُ يديَّ لأحاولَ فتحَ باب السيارة دون جدوَى..حاولتُ فتح زجاج السيارة الكهربائي ففشلتُ..تبًّا لتلك السيارات الحديثة! سأغرقُ هنا بذلك المكان البعيد مُحتبَسًا بتلك السيارة اللعينة..استقرت السيارة بالقاع..انعدمت الرؤية من حولي.. المياه حولي بنية اللون..كم أكره هذا اللون! صارعتَ وصرختُ وكافحتُ مخبطًا بكلتى يديَّ على الزجاج محاولًا كسره..كفأر تحاوطه المياه من كل جانب ويحاول النجاة..خبطات متتالية سريعة على الزجاج بيديَّ وقدميَّ لعلي أهربُ من موتٍ مُحقَّق..المياه تغمر سيارتي..الأكسجين يتلاشى مِن حولي..صوت دقات قلبي يتعالى وتتلاحق وكأن قلبي يشعر بنهايته فينبض نبضاته الأخيرة..لحظات عصيبة تلك هي لحظات الموت..جسدي يتمزق..أشعر بروحي تنفلت من جسدي..لا فائدة..سأموت الآن..أغمضت عينيَّ بلحظاتي الأخيرة..فجأة شعرتُ أنني بمكان آخر..هناك هواء نقي يتسرب لرئتيَّ..فتحتُ عينيَّ لأجدني بغرفة العمليات والأطباء حولي أثناء عملية نقل الكلية لسمير بعد ٨ شهور من الآن..لم أفهم ما يدور..وكيف لي التنقل هكذا لتلك اللحظة بالمستقبل حينها..وكأني قد كُشفَ عني الحجاب..كنتُ أتصبَّب مياهًا من كل جسدي..مبتلًا وكأنني ما زلتُ تحت مياه النيل..جهاز ضربات القلب يتوقف..أعرف ذلك الصوت جيدًا..سكون يعلن موتي..لا معنى لذلك إلا أنني نجوتُ من غرقي هذا لأموت بغرفة العمليات..خرجتُ من غرفة العمليات تاركًا جسدي مُمدَّدًا على سريرهم..وكأنها روحي تتجول بين أيامي..تصل لنهايتي..نانسي وعزيز ومجدي بالخارج..العجيب أنهم يضحكون بهيستريا مخيفة..وتقف نيفين بعيدًا عنهم باكية..صفير حادٌّ يصمُّ أذنيَّ يتعالى رويدًا رويدًا..خرج الطبيب ليعلن لهم نبأ موتي..انخرط الثلاثة بضحكهم الهيستيري وزادت نيفين من بكائها..خرج الممرضون بجسدي مغطى الوجه..كنتُ مذهولًا مصدومًا...اقتربتُ من جثتي وأزلتُ الغِطاء الأبيض عن وجهي..ها هو أنا ميتٌ أمام عينيَّ..جثة هامدة لا تتحرك..يزداد الصفير بأذنيَّ..يختلط بضحكاتهم المستفزة...اقتربت نيفين من جثتي وقبَّلت رأسي..بللت وجنتي بدموعها..ابتسمت لها..وددت لو احتضنتها وطمأنتُها..ولكن لا أحد هنا يراني أو يشعر بي..فأنا روح لا ترى..روح تستعدُّ لرحيلٍ جبري لمثواها الأخير..مؤكد سيكون الجحيم..ولكن الله يمهلني لحظاتٍ أخيرة للوداع..ستنتهي حتمًا بأي لحظة..خرجتُ مع جثتي من المستشفى بسيارة الموتى وحيدًا جالسًا بجوارها..أنا وجثتي

فقط لا ثالث لنا..وصلت السيارة المقابر..فُتح باب السيارة الخلفي..وكانت هناك شهرزاد..وقفت تنظر لي..تتابع حكايتي عن كثبٍ..حمل جسدي ثلاثة رجال واتجهوا ناحية قبري المُعدِّ لاحتضان جسدي..وضعوني بعدما أزالوا غطاء الكفن عن رأسي وبدؤوا يُهيلون التراب فوقي..وقفتُ أنا وشهرزاد عند رأس القبر..امتلأت عينايَ بالدموع:

-وحيدًا..طوال عمري أعيشُ وحيدًا حتى والموت يفترسني..ينشب أنيابه بجسدي مطمئنًّا..ليتوقف قطار حياتي. دون صراخ أو عويل يزعجه فمن يبكيني أنا الوافد الغريب بعربة لا يجالسني فيها أحد منذ زمن بعيد والوحدة تقاتلني، ومهما يحاول رُوَّاد قطاري مواساتي أبقَ منعزلًا .. عِشتُ ومتُّ وحيدًا.

نظرت لي شهرزاد بحنانٍ شديدٍ:

-ومَنْ قال لك إنك ميت؟

-ماذا؟ أنا على قيد الحياة؟

قلتُها وأنا أنظر ناحية جسدي المُقترِب على الاختفاء تحت الثرى..صفير شديد يتزايد..أمسكتُ أذنيَّ متألمًا.

-بماذا تشعر؟

-لا شيء..أرجوك، هل ما زالتُ على قيد الحياة حقًّا؟

-مَنْ يَمُت يرحلْ بعيدًا..بينما أنت واقفٌ هنا أمامي وتحدثني.

-أنا لا أفهمك.. لا أفهم أي شيء.

ستنفجر أذنايَ من ذلك الصفير المتعالي..

..اقتربت مني ونظرت إلى عينيَّ بشفقة ممتزجة بحنانٍ شديد وأشارت ناحية قلبي:

-لديك وقت لتفهم..أفِقْ..أفِقْ.

ضربتني بكَفِّ يدها على وجهي..صفعتني بقوة..تعالى الصفير بلحظاته الأخيرة ليصمَّ أذنيَّ..ألمٌ شديد لصفعتها..وكأن عقلي ارتجَّ بقوة..دارت حياتي أمام عينيَّ لقطاتٌ تتداعى بقوة للوراء..كشريط سينمائي يعود للخلف..أراني جالسًا بجوار جثتي..أراني بالمستشفى والجميع يضحك..نيفين تبكي..أراني بغرفة العمليات..أراني تحت المياه..أصرخُ عاليًا ولا يسمعني أحدٌ..أرى سيارتي بمكانها قبل الحادث..أفتح عينيَّ لأرى السائق الآخر قد تفاداني بآخر لحظة..وقفتُ سريعًا بسيارتي ونزلت غير مصدقٍ أنني نجوتُ من موت مُحقَّقٍ لا محالة..صرختُ شاتمًا السائق المسرع المُبتعِد بسيارته نصف النقل:

-يا حيوان يا بن الكلب.

ولُفَّت الجثامين بعلم مصر..ودقَّت الموسيقى العسكرية الجنائزية في مشهد تملؤه الرهبة والجلال لهؤلاء الشهداء الأبرار المقتولين بيد الغدر والخِسَّة..بيد الإرهاب اللعين..وُضِعت جثامينهم فوق عربات صغيرة تمشي ببطء ويمشي أمامهم بعض الجنود بعرض جنائزي مُؤلِم..ومشى خلفهم الأهل والأقارب وكِبار رجال الدولة، وكنتُ أنا هناك وسط الناس شاهِدًا على بكائهم وصراخهم المكتوم..أرى الحسرة بعيون الجميع..كان مجدي بجواري..متماسكًا قويًّا على عكسي تمامًا..فقد تملَّكني الحزن بشدة..وخارت قوايَ لما أرى وأُعايش..امتلأت عيناي بالدموع على تلك السيدات المرتديات السواد وأطفالهنَّ الصغار..على تلك الأمهات الفاقدات أولادهنَّ..مشهد رهيب يخلع القلب الجامد مهما تكن قسوته..نظرت للجميع مُتفحصًا وجوههم..رأيتُ الحسرة تقفز من قلوبهم..لتنهش قلبي..لا أدري لماذا..أنا القوي القادر الجامد القلب فجأة أشعر بالضعف والهوان هكذا..ربما لاكتشافي حقيقة الموت..لأول مرة أشعر بالموت قريبًا هكذا..امتلأت الجنازة بقيادات الداخلية وعلى رأسهم الوزير حمدي زغلول..كنتُ خلفه مباشرة..علَّق أحد المذيعين على ذلك المشهد الحزين المنقول على الهواء مباشرة عَبْرَ التليفزيون ليدخل الحزن جميع البيوت المصرية.

-نتابع الآن مراسم تشييع جثامين شهداء الشرطة بحضور وزير الداخلية وعدد من القيادات الأمنية، رَحِمَ الله شهداء هذا الوطن وألهَم ذويهم الصبر والسلوان. هذا وقد أدانَ فضيلة مفتي الديار المصرية تلك الحادثة الإرهابية، وأكد أن الإرهاب الأسود يطلُّ برأسه من آن لآخر لينشر في الأرض فسادًا واستحقَّ بذلك اللعنة في الدنيا والآخرة.

وصلنا المقابر..قبورًا مفتوحة تنتظر جثامينهم..خمسة عشر شهيدًا من الشرطة بآن واحد..جريمة بشعة تعدت كل الحدود..وقفت والصمت يخيم فوق رؤوس الجميع..شيخ يقرأ القرآن بصوت يرجُّ القلوب..طفلة صغيرة تبلغ من العمر ثماني سنوات على الأرجح تقف بمفردها تمسك بعروس صغيرة بيدها بأحد الجوانب..جذبت نظري..صمود يملأ عينيها..تنظر للجثامين والتراب ينهال فوقها..تعجبتُ كثيرًا حين رأيتها..تحركتُ ناحيتها..جثوتُ على ركبتيَّ ونظرت بعينيها..مددتُ يديَّ مربتًا عليها لأواسيها، سقطت دموعها المحتبَسة.

-قال لي لا تتركيني وحيدًا.

قالتها ببراءة شديدة وكأنها تُمزِّق روحي ألمًا ووجعًا..أشارت إليَّ نحو عروستها الصغيرة.

- فريدة حزينة ..كانت تتمنى رؤيته آخر لقاء بينهما وعدها أنه سيقضي معها إجازة طويلة بغرفتِها ويلعب معها ويؤكلها ويشاركها كل ما تحبُّه، أتعلم! مِن يوم رحيل أمي وموتها وفريدة لا تلعب إلا معه، لا تضحك إلا معه..لا تأكل إلا معه..فريدة حزينة، لن تراه مجددًا..لن تراه.

بكتْ وبكيتُ معها..احتضنتُها بقوة..كانوا قد انتهوا مِن الدفن وبدؤوا بالانصراف..ظهرت سيدة عجوز أمامي..يبدو أنها جدتها..أمسكتْ يدها الصغيرة وانصرفتا بعيدًا..كانت تنظر إليَّ وتُشير إليَّ عن بُعد..سقطت دموعي على حالها..ما ذنبها حتى تفقد أباها وتعيش يتيمة فاقدة الحنان

مثلي؟ لعلها ذكَّرتني بيتمي ووحدتي طوال حياتي، ذكرتني بآلامي المنزوية بأبعد أركان ذاكرتي.

--

اجتمعت كل قيادات الوزارة وأعلنت حالة الطوارئ بين أروقتها..فقدنا خمسة عشر زميلًا بيوم واحد وبيد واحدة ترصدنا جيدًا، وقد تنال الأكثر منا إن لم ننتبه ونتوصل إليه قبل إقدامه على عمل إرهابي آخر..اجتمع بنا اللواء شاكر مدير أمن القاهرة بعدما تلقَّى تعليماتٍ صارمة من الوزير حمدي زغلول بسرعة التوصل إلى الإرهابيين..كان عصبيًا وعيناه تمتلئان بالغضب الشديد:

-هذا تحدٍّ واضح لسيادة الدولة.

-سيادتك أنا آسف..نحن المخطئون.

صارحتُه بالحقيقة التي اقتنع بها..قلتُها دون خوفٍ من ردِّ فعله:

-كيف ذلك يا حضرة المقدم؟

-نعرف جيدًا أننا مستهدفون يا سيادة اللواء ..ومع ذلك نتحرَّك بدون حراسة كافية بدون تأمين.. خطوط السير لا تتغير بشكل كافٍ من وقتٍ لآخر لتضمن سلامتنا و..

قاطعني مجدي نور الدين:

-لكن..ليس بمقدورنا فِعلُ كل ذلك ..

نظرتُ له بحدة مُتناهيةٍ:

-أنا أوجِّهُ كلامي لسيادة اللواء يا حضرة النقيب.

دافَعَ عنه اللواء شاكر ناظرًا إليَّ:

-النقيب مجدي كلامه صحيح .. لا نستطيع تعيين حراسة لكل ضابط منا..حتى أنا لا أتحرَّكُ بحراسة..ثم إن دورنا بالمقام الأول هو حماية الناس وليس حماية أنفسنا، شاركنا الآخرون بآرائهم:

-نحتاج لحلٍّ سريع نحن بخطر شديد طوال الوقت.

-أظنُّ أن جهاز الشرطة مخترق سعادتك..هناك أحدٌ بيننا يبلغهم على الأقل بخطِّ سير الضباط.

-كارثة.

-معنى ذلك أن هؤلاء الإرهابيين سيقتلوننا واحدًا تلو الآخر إن لم نصل لهم ولمن يساعدهم.

-أقترحُ إجراء حركة تنقلات للضباط وتغيير المواقع.

نظر إليَّ حينها اللواء شاكر منتظرًا اشتراكي بذلك العصف الذهني:

-نادر.. ألن تشاركنا برأيك؟

-ليس لديَّ شيء آخر أشارِكُكم بقوله.

تنهَّد اللواء شاكر..نَظَرَ إلى أحد رجاله ليدير فيديو على شاشة بروجيكتور لنشاهده جميعًا.

-تفضلوا..أدِر التسجيل.

كان فيديو مُصوَّرًا للحظة انفجار بمكان ما..يبدو أنها لحظة موت أحد الضحايا من زملائنا الضباط..نار مشتعلة تلتهم سيارة ويقف أمامها رجلان في الأربعين من عمريهما ولحيتهما طويلة غير مهذبة ويضحكان بهيستيريا وكأنهما يدركان أن هناك مَن يُصوِّرهما..

-هذا التسجيل صوَّرَ واحدةً من العمليات الإرهابية اليوم ..هذه سيارة العقيد شادي سعد الله رحمه الله لحظة انفجارها وهو بداخلها..وهذان منفذا تلك العملية الإرهابية..منتهى الاستفزاز والتهكم بنا..

كان وجهاهما غير واضحين بعيدًا..ولكنني تعرفتُ إلى أحدهما..طلبت تثبيت الصورة

-عذرًا أيمكنُك تثبيت الصورة على هذين الشخصين؟ حسنًا..أقتربُ من وجهيهما أكثر.

-ما الأمر يا نادر؟

سألني اللواء شاكر باهتمام.

-لا أبدًا سيدي لا تشغل بالك..فقط أتفحصُّهما جيدًا.

-أريدهما هنا أمامي قبل غروب الشمس..مفهوم؟ تفضلوا.

انتهى الاجتماع وانصرفنا جميعًا وكل منا تتملَّكه الحيرةُ من أين يبدأ، عدايَ..كنتُ مدركًا تمامًا نقطة البداية..وحدي أعلمُ ما سيُعجِّل بالقبض على هؤلاء الإرهابيين..خرجتُ سريعًا بسيارتي وصاحَبَني مجدي بجواري والتحدِّي على وجهي.

-نادر؟ إلى أين؟ منذ خروجنا من الاجتماع وأنتَ شارد..أتسمعني؟

-واحد من هذين الإرهابيين اسمه فريد الدمراوي مُسجَّل سرقات وهارب من حُكم قضائي بـ ١٠ سنوات. أتذكر قضيته جيدًا..أنا مَنْ أمسكتُ به بتلك القضية بعد مُطاردةٍ عنيفةٍ ولكنه استطاع الهروب من قاعة المحكمة بعد ذلك يومَ النطق بالحكم.

-وماذا يعني ذلك؟

-فريد له أخ مسجون في أحداث الشغب والقتل التي دارت باعتصام رابعة يُدعى عباس..وأُحيلت أوراقه لفضيلة المفتي منذ أسبوعين وتأكَّد الحكم بإعدامه مع مجموعة من ثلاثين متهمًا كان لهم جميعًا الحكم نفسه.

- وما علاقة كل ذلك باغتيالات اليوم؟

-مِن المحتمل أن تكون عمليات اليوم ما هي إلا رد فعل لحكم الإعدام.

-ولماذا لم تخبر اللواء شاكر بشكوكك تلك؟

نظرتُ له بابتسامة خفيفة تمتلئ بالاستهزاء:

-سأعلمك شيئًا يا مجدي..إن رغبتَ بتحقيق أي إنجاز بحياتك، إياك وإفشاءه على الملأ قبلها..إن قلت لن تنجح وإن نجحتَ لا تقُل.

-ولماذا أخبرتني أنا؟

-لأنك صديقي وزوج أختي ويهمني أن تفهم.

-أحيانًا أشعر بأنك تكرهني وتتعمَّد إحراجي.

-لا تكن ساذجًا..كل ما أريده أن تتقدَّم للأفضل لتعيش نيفين سعيدة معك..

كنا قد وصلنا لنقطة البداية..قطاع مصلحة السجون..الإدارة العامة لسجون المنطقة المركزية..وبالتحديد زنزانة ١٨ تلك الزنزانة الفردية المسجون فيها عباس الدمراوي المحكوم عليه بالإعدام ويدرك جيدًا أنه لا مناص من تنفيذه.

فتحتُ زنزانته واقتحمتُ قبرَه التجريبي..رائحة البول تملأ المكان..زنزانة لا تدخلها الشمس مطلقًا..حتى شباك صغير يعلوها حرم منه الدمراوي..وكأننا ندربه على لياليه اللامتناهية بقبره الحقيقي..اقتحمت ظلمته بصحبة كشاف محمول وضعه أحد الجنود أرضًا ليضيء المكان..كان عباس رجلًا ضخم الجثة تعدَّى الأربعين من عمره بأكثر من ٥ سنوات..جلس مُنزويًا بأحد الأركان تلتهمه رائحته العفنة..رفع رأسه ناحيتي مغلقًا عينيه فقد اعتاد الظلام أيامًا مَلَّ إحصاءها..يكسو وجهه لحيته الشاهدة على إجرامه اللعين..تلك التي يتخفى وراءها لينفذ كل جرائمه بدم بارد....اقتربتُ منه بعدما أغلق الجندي الباب علينا وانتظر مجدي بالخارج كما طلبت منه.

-عباس الدمراوي..محكوم عليك بالإعدام في قضية قتل مواطنين وترويعهم.

-مَنْ؟

نهضَ حينها مُحاوِلًا رؤيتي:

-فلتعدَّني عزرائيل.

-أظنُّ أن عزرائيل أرحم.

لم نتقابل من قبل ولكنه توقَّع شخصيتي فمن سيدخل له زنزانته تلك ويقتحم عليه قبره الجبري سوى ضابط شرطة.

-أتشتاقُ إلى الموت؟

نظر بعيني بتحدٍّ شديد:

-لا.. أشتاقُ أولًا لنظرات الحسرة بعيون كل مَنْ ظلمني.

-رائع..فلنختصر الوقت إذًا وتخبرني بأسماء المجموعة التي انضمَّ لها أخوك فريد ونجحوا بتنفيذ عملياتهم الإرهابية اليوم ..

قفزت الفرحة لوجهه فلم يُخفِها..نظر لي والابتسامة تملأ وجهَه الدميم:

-الله أكبر.. أنجحوا بالفعل؟

-إذًا أنت مُعترِف.

-وهل هناك عقوبة أكثر مما أنا فيه؟ يكفيني نظرة الذُّل تلك التي أراها بعينيك يا باشا والحسرة على زملائك..و...

قاطعتُه ممسكًا إياه من رقبته دافعًا إياه بقوة على الحائط بعصبيةٍ شديدة:

-أنصت لي جيدًا أيها الأخرق..سأدفنك هنا إن لم تنطق..تكلَّم.

-لن أنطق يا باشا..لن أنطق .. وهل ينطق الموتى؟ وحتى إن أخبرتُك ستعدمونني لا محالة..إذًا على الأقل أموتُ بشرفٍ.

-شرف!

-آه..لا تؤاخذني يا باشا..مَنْ هم مثلك لا يعرفون معنًى للشرف، مَنْ هم مثلك اعتادوا دهس خلق الله واعتلاءهم، يُحييَ هذا ويُميت ذاك. مَنْ هم مثلك...

لم أتمالك أعصابي لشدة استفزازه إيايَ..ضغطتُ بيدي على رقبته بقوة شديدة..وما هي إلا لحظات حتى سقط ميتًا مختنقًا أسفل قدميَّ..لحظات مرت وأنا أنظر إليه جثةً بلا روح..جثة عفنة خرجت روحها لترتمي بقاع الجحيم..مددتُ يدي وأخرجتُ هاتفي المحمول وجثوتُ على ركبتيَّ..رفعت جثته ووضعتها على الحائط والتقطت صورة تذكارية معه..كنتُ مبتسمًا هادئًا سعيدًا بموته..مثل هؤلاء يستحقون الموت دون صدور أحكام..وكنتُ أعرفهم جيدًا بمجرد النظر بوجوههم..ولو أني أملك زمام الأمور لقتلتهم جميعًا في الحال دون محاكمة أو تضييع للوقت باللجوء للقضاء، فهم لم يمهلوا المجني عليهم دقيقة واحدة للنقاش..حصدتُ روحه كما

حصدت أرواحهم دون مناقشة..كنتُ له مندوبًا لعزرائيل..التقطتُ صورة (سيلفي) على هاتفي..دخل حينها مجدي من الخارج ووقف مذهولًا مصدومًا..لم يتوقع مطلقًا أن أقوم بقتله..

تلقى اللواء شاكر مدير الأمن خبر موته بعصبية شديدة..أصرَّ مجدي على إخباره بما حدث..كنتُ هادئًا للغاية بينما وقف مجدي حائرًا ينظر لي..من أين لي بكل هذا الهدوء المستفز..صرخ اللواء شاكر بحدة متناهية بمكتبه بالمديرية:

-لماذا لم تخبرني أولًا يا نادر؟ منذ متى وأنت تتصرف بهذه الفوضى؟

-أنا أُباشِرُ عملي سيادة اللواء ليس أكثر.

-عملك أن تنفذ القانون فقط لا أن تصدر أحكامًا يا حضرة الضابط المحترم.

-الأمر بسيط يا حضرة اللواء .. مجرم ومحكوم عليه بالإعدام ومشترك بقضية اغتيل فيها زملاؤنا.. كلب نتن وأرسلناه للجحيم..

-هذا الكلب كان لديه معلومات تُنهي القضية يا بك، بالإضافة إلى تلك الفرصة التي منحتها جنابك جمعيات حقوق الإنسان، أخبرني بماذا سنُفسِّر لهم قتلَه؟

-لا تشغل بالك يا سيادة اللواء..السجين انتحر.

قلتُها بهدوء شديد وثقة استفزَّته، ولكنه حاول السيطرة على عصبيته ونهضَ عن مكتبه واتَّجه ناحيتي وكأنه يهمسُ لي:

-انتحر؟ ما قمتُ به يفرض عليَّ محاسبتك حسابًا عسيرًا ..أنتَ أضعتَ الخيط الوحيد الموصل لهؤلاء المجرمين.

-سأقبضُ عليهم جميعًا واحدًا تلو الآخر.

-لن أقبلَ منك أيَّ خطأ آخر.. لولا كفاءتُك التي يشهَدَ بها الجميع لكان لي تصرف آخر معك.

كان مجدي نور الدين يُتابِعُ ما يحدث بتعجُّبٍ شديد..تخيَّل لحظةً لو كان هو مَنْ قام بذلك لحُوكِمَ محاكمة عسكرية وعُزِلَ من منصبه على الفور وقد يحاكمونه بتهمة القتل أيضًا، ولكن كل ما هنالك طلبٌ من مدير الأمن بعدم تكرار ذلك لكفاءتي..كلمة أنيقة تغلف حقيقة وضعي بالوزارة..الكل يَهابُني ويهاب جدي عبد الغني النصراوي..رجل الأعمال الأخطبوط صاحب العلاقات المتشعبة بكل مكان بالدولة..نظرتُ إلى اللواء شاكر محييًا إياه التحية العسكرية وهممتُ بالانصراف:

-تمام سيادة اللواء.

استوقفني اللواء شاكر:

-نادر..هناك قرار بترقيتك إلى رُتبة عقيد وصل اليوم، مبارك لك.

خرجتُ والزهو يملأ عينيَّ..حينما تشعر أن بقدرتك دهس الجميع دون عقاب..العقيد نادر أمجد رشوان..إنجاز لم يحققه أحدٌ في سني مطلقًا..والدليل مجدي نور الدين بدفعتي نفسها وما زال برتبة نقيب، صحيح أن ترقيته تأخرت كثيرًا فأغلب دفعتي برتبة رائد الآن، ولكني قفزتُ رتبتين بقرارات استثنائية بأقل من عامين نظرًا لكفاءتي التي لا نظير لها، لم ينسَ لي رؤسائي مهاجمتي لوكر إرهابي بمفردي منذ عامين وقتلي خمسة عناصر إرهابية بعد اشتباك عنيف وإنقاذي لواء شرطة متقاعدًا قاموا بخطفه ومفاوضة الداخلية للإفراج عن أحد عناصرهم المقبوض عليه حينها...وبأسرع ما يمكن تمكَّنت وحدي من الوصول لمكانهم وتحرير اللواء والحفاظ على سمعة الشرطة بأكملها.. ولكن للحق أعرفُ جيدًا أن هذه مجرد أسباب ظاهرية للترقيات الاستثنائية فالأمر يتعلق بي أنا فقط.. نادر أمجد النصراوي..أنا الضابط الطموح..طموحي أكبر من ذلك بكثير قد أجلس يومًا على مقعد وزير الداخلية وقد أصل لما هو أبعد من ذلك..مستغلًا إمبراطورية جدي الباشا..

وقفتُ أمام مرآتي بحمام غرفتي بقصر جدي عبد الغني النصراوي..أنظر لوجهي المبتسم سعيدًا بالانتصار..قهرتُ تلك النظرة الأخيرة بعينيه الدنيئتين..نظرة الشماتة..طعنتها لأول وهلة وأرديتُها قتيلة أسفل قدميَّ لأدهسها ويختفي صاحبها بقبره الأبدي..لم أكتفِ بذلك..كلا..أسرعتُ لجنازته بصحبة بعض الجنود بشغفٍ لظهور أخيه بأي لحظة لأنهي حياته على الفور.. بمقابر البساتين ولكن خاب ظني فلم يظهر فريد الدمراوي مطلقًا..انتظرتُ انتهاء جنازته واقتحمتُ بيت العائلة بحي البساتين..ذلك البيت الحاضن للإرهاب والجريمة منذ زمن..تشتمُّ رائحة الدماء بين جدرانه..ترعرع الانحراف الفكري بجوانبه فخرج لنا اثنان من محترفي القتل والجريمة..وهأنا قضيتُ على أحدهما وسأقضي على الآخر بكل تأكيد..سأفعلُ المستحيل لأصل إليه قبل أي أحدٍ وأُلحقه بأخيه إلى العالم الآخر ليؤنسه بالجحيم..

وقفتُ ورجالي يفتشون كل شِبرٍ ببيت والدهم البسيط ذي الحوائط المتشققة يعلوها العنكبوت بكل جوانبه..تبادلت مع والدهما نظراتِ تحدٍّ وشَرٍّ مُتبادَل..كانت النساء تبكي وتتكتم حزنهنَّ..أمرت جنودي بالقبض على كل مَن بالمكان..فتحت غرفة التعذيب الملحقة بمكتبي..غرفة لازمة لمثل هؤلاء..هياكل خشبية علقتُ الجميع عليها رجالًا ونساءً وكل من لهم صلة من قريب أو بعيد بالأخوين..صراخهما كان يطرب أذنيَّ..أذقتهم كل ألوان العذاب ولم يتكلم أحد..أصروا جميعًا على التحدي..وأنا قبلتُ ذلك حينها..وسأنتصرُ..سأصلُ له بأسرع ما يمكنني..صاحب ذلك الوجه القبيح..فريد الدمراوي..أراه يجلس الآن بين عيدان الذرة وأصوات الذئاب تعوي حوله يدخن أرجيلته وهزيمتي تملأ خياله ولكن هيهات، سأسحقه لا محالة..

نظرتُ لنفسي بمرآتي بغرفتي بالقصر..تبدَّلت ملامحي من التحدي إلى الحزن..امتلأت عينايَ بالدموع..قلبي يعتصره الألمُ..

كانتْ ورائي..وقفتْ تنظرُ إليَّ..شهرزاد..تنظر لي بمرآتي وتناولني صورتي مع جثة عباس الدمراوي:

-لماذا التقطتَ هذه الصورة معه؟

أمسكتُ بالصورة ونظرتُ لها فتبدَّل المكان من حولنا بغمضة عين وكأنها تسافِرُ بي عبر الأماكن بأرواحنا بحرية شديدة..عجبًا لهذا الكابوس الغريب..وكأنها تعرف ما أقصُّه عليها قبل حكايته..وقفنا بصومعتي البعيدة الصغيرة..فتحت خزانتي الصغيرة السرية بالحائط..تلك الخزينة المستطيلة النحاسية المنحوت عليها اسمي..نادر أمجد رشوان.. وفتحتُها:

-تلك خزينتي الخاصة..أحتفظُ بها بكل صوري مع مَنْ حقَّقتُ معهم بحياتي الوظيفية..

-تقصدُ مَن عذَّبتهم!

مدَّت يدها وقلَّبت بصوري تلك..موسوعة جرائمي تلخصها هذه الصور..مع معذبي جبروتي الأعظم..سواء أكانوا جثثًا هامدة أم أجسادًا ما زالت على قيد الحياة تلتاع بجحيمي وتُخضِّب دماؤها تلك الصور العديدة..واكتشفت حقيقتي..كانت عيناها تبرقان وتمتلئان بالاحتقار بآنٍ واحد..حاولت أن تداريه..بذلك الوقت الخارج عن الزمان والمكان..بتلك الغيبوبة الجبرية..تعريتُ أمامها وكأنها أمسكت كتابي الحاوي لكل أعمالي الدنيوية وكأننا بيوم القيامة..همستُ لها:

-لم يَرَها مخلوقٌ قبل اليوم.

-أتعترف لي بكل هذه السهولة؟

-ألم تعديني بمقابلتها..ألم تناديني بالتطهُّر؟

-وهل يمكنك حقًّا التطهُّر بمجرد كابوس؟

-ماذا تعنين؟ أتلاعبينني أم تنقضين عهدك معي؟

-هل ستتحمل ردود أفعالي؟

- أرجوكِ..أنتِ لا تعرفين ما عايشتُه بحياتي.

-هل ستتحمل؟

-أرجوكِ.

صفعتني بقوة حينها..ألم هائل اجتاح جسدي وقلبي..انفجرت الدموع بعينيَّ..مددتُ يدي بجوار الخزينة..ناولتُها مفتاحها:

-ليس لها سوى مفتاح واحد..أمسكيه أرجوكِ.

مدَّت يدها بصعوبةٍ تلمسته وكأني أعينها حارسًا على آثامي..لعلها تنقيني حقًّا مما فعلت..رغبة يائسة باهتة بعيدة بالتوبة..ما إن تلمست المفتاح بيدها حتى انقطعَ النور من حولنا..ساد الظلام لحظاتٍ..ثم عاد مرة أخرى لأجد نفسي بمكان آخر..تتنقل روحي بين الأماكن والأزمنة دون سابق إنذار..فلا أدري أين سأكون باللحظة القادمة بغيبوبتي

الجبرية..كنتُ حينها بغرفة الألعاب بفيلتنا القديمة..كنتُ واقفًا أمام مرآتي الطويلة التي طالما وقفتُ أمامها في صغري أنظر لنفسي النظرة نفسها..كنتُ طفلًا صغيرًا بريئًا..كان إخوتي ينشغلون بألعابهم وكنتُ أنا إما أرسُمُ وإما أقفُ هنا أمام المرآة أنظر لنفسي مرارًا وتكرارًا..وكأنني أخترقُ المستقبل لأرى نهاياتي المؤلمة..كانت أمي رضوى جالسة على كرسي هزاز صامتة تتابع أطفالها دون أن ترانا أنا وشهرزاد..وقفت شهرزاد خلفي متسائلة:

-لماذا؟

نظرتُ إلى عينيها:

-كنتُ خائفًا لدرجة الجنون..كان لديَّ استعداد لقتل أي أحدٍ يُفكِّر ولو لحظة بحرماني مما أنا فيه.

-لا أُصدِّق. كنتُ كالملاك بصغرك..كيف بالملاك أن يصير إبليسًا؟

تركتها وتحركت شاردًا ناحية الشرفة..كنتُ أنظر للسماء الغاضبة وأحدثها..القمر يتوارى خلف السحب الكثيفة.

-ملعون بعدد الآهات المُتسبب بها، ملعون بكل وجع قلب صارخ دون جدوى، فمن يقف أمام جبروتي وطغياني؟ مَن يستمع للصارخين ويمدُّ لهم يد العون وينقذ قلوبهم مِن تحت قدميَّ..ملعون ..بكل حكاية كنتُ بطلها الظالم..بكل خطوة فوق دماء المظلومين..بكل ضحكة سرقتها مِن وجوه الغلابة قليلي الحيلة..ملعون ولعنتي فاقت كل الحدود الممكنة..

مدَّت يدها وربتت على كتفي..التفتُّ لها..نظرت بعينيَّ وكأنها تمنحني طريقًا للخلاص:

-أول طريق التوبة أن تعترف بخطيئتك.

-مُحال.

-كل شيء جائز.. ما دمتَ على قيد الحياة.

-توبة؟ أتوب داخل كابوس؟

ضحكتُ كثيرًا وتساقطت دموعي..مدَّت يدها وأمسكت كتفيَّ بقوة ناظرة بعينيَّ:

-لا..التوبة بعد الكابوس.

-مَنْ يدري؟ قد ينتهي العمر بذلك الكابوس..وأموتُ قبل نهايته.

-وجائز أن تفيق وتعيش.

-أعيش!

-لا تنسَ أنك ما زلتَ موثقًا بسلاسل وقيود غليظة بغرفة بالقصر القديم قبل ٥٠٠٠ عام، وعليك مطاوعتي حتى لا يعدموك بهذا الكابوس وتنتهي إلى الأبد.

كنتُ صامتًا أستمع لها..للحقِّ كنتُ أشعر بتلك القيود بيدي ورقبتي حقًّا..وكأن روحي هي الأخرى مسلسلة بتلك القيود..ولكن كيف نتنقل هكذا بسهولة بين الأزمنة والأماكن إن كنتُ موثقًا كما تقول هي..شيء خارج إطار العقل..كابوس يندرج تحت إطار فانتازي..ولكنها فانتازيا مرعبة قد تودي بحياتي..أنا أُصدِّقها..لا أملك سوى ذلك..نظرتُ إليها مُنتظرًا أوامرها

-هيا أكمل..كلي آذان مصغية.

تنهدتُ مستعدًّا لاستكمال قصتي..أشارت إليَّ بالصمت..مدَّت يدها لي وأمسكتْ يدي ودخلنا للغرفة مرة أخرى.. كان إخوتي نائمين..ورضوى يملأ وجهها ابتسامة واسعة وهي تنظر لأطفالها وتجر الغطاء على كُلٍّ منا..أشارت إليَّ شهرزاد لأجلس وسط هذه الذكريات الدافئة..لأتنسمَ بعضًا من نسمات النقاء.

فتحت أختي الصغيرة نيفين عينيها واحتضنت أمي رضوى:

-أمي.

-نامي يا صغيرتي..نامي.

-لا..أريد أن تغني لي حتى أنام.

نظرت شهرزاد ناحيتي.

-أتتذكَّر ما كنتَ تغني لها في صِغرك؟

أشرتُ لها بالإيجاب والدموع تملأ عيني.

بدأت رضوى تدندن أغنية غابت في غياهب ذاكرتي البعيدة..استحضرتها بلحظة واحدة..

-حبيبتي من ضفايرها طل القمر

ومن شفايفها ندى الورد بان

ضحكتها بتهز الشجر والحجر

وحنانها بيصحى الحياة في النبات

سالت دموعي وأنا أتذكر تلك الأغنية ونيفين تغلق عينيها وتنام.

-أغنية يملؤها الحب والشجن لوطن يحبُّه الجميع..لم أفهمها إلا بعد سنوات عديدة وحينها لم أجد ما كتبت له وغنت من أجلِه، بحثتُ عنه كثيرًا دون جدوى..الوطن..كل شيء أصابه

المسخ، كل كلمة تسممت معانيها وماتت مشاعرها بالتدريج، ولم يتبقَّ منها سوى مسخ..مسخ وطن.

-حبيبتي بتعلمني أحب الحياة

من حبي فيها حياتي شمس وربيع

والحب في الدنيا دي طوق النجاة

لولاه يضيع قلبي الوديع

بدأتُ حينها أُشارِكُها الغناء..يا ليتها تسمعني! ألهذا الحد يصل الحرمان؟ أمي أمام عينيَّ ولا أستطيع لمسها..احتضانها..الشعور بدفئها..يا لقسوة الدنيا! أفعل أي شيء لأحصل على لحظة واحدة بأحضان أمي..كانت شهرزاد تبتسم وهي تستمع لي وأنا أشاركهما الغناء عبر الزمن..وكأنني أسترجع معانيها الجميلة الغائبة..أغنية للوطن في بلد غاب عنها العدل وأنا أول الجناة المسؤولين عن ذلك..نظرتُ إلى نيفين الملاك النائمة:

- حبيبتي من ضفايرها طل القمر

ومن شفايفها ندى الورد بان

ضحكتها بتهز الشجر والحجر

وحنانها بيصحي الحياة في النبات

قذفتني ذاكرتي لليلة أخرى سعيدة من الليالي القلائل بحياتي..ليلة زفاف ملاكي الصغير..نيفين أختي الحبيبة..حفل زفافها بشقتها المشتركة مع مجدي..بعد عَقْدِ قِرانٍ دامَ عدة أشهر ..أصرَّتْ كثيرًا ألا تحتفل بزفافها بالقصر وهو المكان الذي ابتعدت عنه منذ زمن..رفضت ما وافقت أنا عليه..أصرَّت على البُعد تمامًا عن القصر بكل ما لديها من قوة..جلست نيفين متألقة بفستانها الأبيض بجوار مجدي يزينان كوشة الفرح بشقتهما الصغيرة ويحاوطهما الورد والزغاريد طوال الوقت..دخلتُ ممسكًا بوكيه ورد بيدي واتجهت لنيفين التي نهضتْ سريعًا وهُرعت لاحتضاني والترحيب بي..قبَّلتُها بوجنتها:

-مبارك يا حبيبتي.. مبارك.

-الآن فقط اكتملت فرحتي..خِفتُ ألا تجيء.

-وهل لي أغلى منك يا حبيبتي؟ مبارك.

-أعطوني قليلًا من هذا الحب المُتدفِّق.

قالها مجدي فضحكنا جميعًا..نظرتُ إليه موصيًا إياه بها:

-نيفين أمانة لديك.

-بعينيَّ وقلبي طوال العمر

- أربعة أيام وتكون بمكتبك يا حضرة النقيب المحترم، لا وسائط بعملنا.

-تمام جنابك.

احتضنتُ الاثنين

-مبااااااااااااارك.

ناداهما شابٌ الدي جي بعدما قام بتشغيل أغنية راقصة

-فلينضم العريس وعروسه وسط الأحباب أمامي هنا..

انخرط الجميع بالرقص حولهما وكنتُ بقمة سعادتي وأنا أتابعهما عن بعد..رأيت عزيز حينها احتضنته وقبلته..وقفَ عزيز بجواري يتابع فرحتهما..نظرتُ إليه ورأيتُ قِمة النُّبل والتضحية بعينيه..ما زال يحبها إلى الآن، ولكنه لم يقوَ على رفض دعوتها لحضور فرحها..وكأنه يعلن للجميع أن فرحها يساوي فرحه..حتى وإن كان قلبه هو الثمن..أحبُّك يا صديق العمر..أحبُّك يا عزيز بنقائك وشهامتك ونُضجِك..أحبُّك.

هناك ما سرقَ نظري وبرقت عيناي لأجله..إنه هو يتحرك بين الراقصين وينظر إليَّ بعينين ساخرتين..إنه عباس الدمراوي ذلك السجين الذي قتلتُه بيديَّ أراه أمامي..تلاعبت الإضاءة وانطفئت قبل أن أبرح مكاني..عادت بعد لحظات قليلة واستكمل الجميع الرقص، ولكنه اختفى..فتشتُ كل مكان بالشقة بحثًا عنه ولم أجده..لعلني هُيِّئ إليَّ وجوده..بكل تأكيد فقد دفن أمام عيني بقبره المنزوي بمقابر البساتين..مؤكد يُهيِّئُ لي عقلي ذلك.

وانتهى اليوم السعيد..الرابع عشر من أبريل ٢٠١٦ بعد أربعة أيام على حادثة الاغتيالات الجمعية لزملائي ضباط الشرطة..وعدتُ وحيدًا مرة أخرى..لم أعُدْ للقصر على الرغم من علمي بأن نانسي زوجتي قد تكون بانتظاري..شيء ما يبعدني عنها لا أدري ما هو..حائط يُبنى ويزداد يومًا بعد يوم..حتى أنني طلبتُ منها عدم حضور حفل زفاف أختي نيفين..وبمعنى آخر منعتها من الخروج معي ليلتها وكأنني كنتُ راغبًا في الفرح بعيدًا عنها..هل أكرهُها؟ لا..ولا أحبها..فتاة ساحرة الجمال بشهادة الجميع لا أنكر..تحبني أيضًا هذا لا أنكره، ولكن هكذا أنا إنسان تملؤه الألغاز لا أحد يفهمني حتى أنا..قضيتُ ليلتي بصومعتي البعيدة..مملكتي الصغيرة المالك لكل مكوناتها..جلستُ لأرسمَ لوحةً جديدة بألواني وصوت عبد الوهاب حولي يغني أغنيته:

-قلبي بيقولي كلام وانت بتقولي كلام

وعنيا شايفة كلام والناس بيقولوا كلام

احترت أصدق مين واحترت أكدب مين

قلبى بيقولي..قلبى بيقولي

رشفتُ آخر قطرة من زجاجة الخمر الثانية وما زلتُ منهمكًا بإنهاء لوحتي تلك..حياة عجيبة مَنْ يمتلك كل شيء يفتقد سعادتها ومَن يحتاج كل شيء تصيبه سعادتها وبغزارة..أنا المالك للمال والجمال والجاه وبعضٍ من السلطة أبيت والحزن مصاحب لقلبي كظلِّه..وكأنه انشطر لنصفين..أحدهما حزين والآخر يحاول الابتسامة..طير جامح يعشق الحرية عشقًا ولكنه يقترب من نسيانها..لا يتذكر سوى ذلك الخيط المربوط بقدميه منذ زمن بعيد..الحرية..لفظ يتباعد..يفقد معناه..ظلام يحتلُّ قلبي ويُعشِّش بجوانبه..يلتهمه..ظلمة قاهرة..خانقة.. حرب دائرة ينهزم فيها أي بصيص من النور..تبًّا للزمن! لو أني أعودُ طفلًا! لو أني يمكنني الاختيار..لكنتُ اخترتُ ألا أكون أنا..ألا أكون نادر أمجد رشوان..لو..لو..لو..أسوأ ما في الكون ذلك السجن الحابس لنا طيلة العمر داخل أسمائنا..داخل أقدارنا..للحق..أنا أكرهني..أمقتُني لأبعد الحدود..انتهيتُ من لوحتي..وجه مهرج نصف وجهه يضحك والنصف الآخر يبكي..لوحة تجسِّد حياتي بدقة..تركتُ فرشتي ونهضتُ فاتحًا ذرعيَّ ورقصتُ على موسيقى الأغنية وكأنني ذلك الطير المربوط من قدميه يحاول الإفلات..رقصتُ كالمذبوح فوق دمائه تخضب قدميه..لا فائدة..الظلام عظيم لن يُقهر أبدًا..فتحت زجاجة خمر جديدة وتجرعت ماءها لعلي أنسى آلامي دون جدوى..نظرتُ للوحتي الجديدة وامتلأت عينايَ بالدموع..أخرجتُ ولاعتي وأشعلت النيران بها..أحرقتُ ذلك الوجه الضاحك الباكي..تلتهمها النار كما تلتهم نفسي..حتى أصبحتْ رمادًا منثورًا كحالتي..أطفأتُ الأنوار وخرجتُ مُستقلًّا سيارتي لأعود إلى قصر جدي..يبدو أنه لا فائدة، لن أرتاح بأي مكان مطلقًا..ضاقت بي الحياة بكل مكان..الساعة الثانية بعد منتصف الليل والشارع خالٍ تقريبًا من السيارات..السماء صافية تستعدُّ لأعياد الربيع..نسيم الهواء منعش ويحمل رائحة الورد..حاولتُ استنشاقه، ولكن رائحة دنياي تطغى دومًا فلا أشتمُّ أيَّ رائحةٍ غيرها..رائحة كريهة تجزع لها نفسي ولكنني اعتدتُها..رنَّ هاتفي..إنها نانسي ..ما زالت تنتظرني..أغلقتُ هاتفي ورميته بجانبي..هناك دراجة بخارية تقترُب أستمع لصوتها جيدًا فجأة..نظرتُ بمرآتي..لم تصدق عيناي ما رأيتُ..إنه هو لثاني مرة بالليلة نفسها..هل غلب الخمر عقلي؟ إنه عباس الدمراوي فوق تلك الدراجة البخارية وعلى وجهه نظرة السخرية نفسها التي قتلتُه بسببها..ضغطتُ بقدمي على دواسة الفرامل سريعًا فغيَّر هو اتجاهه محاولًا الهرب مني..انطلق بالطريق المُعاكِس وانطلقتُ وراءه غير مبالٍ بالنتائج..صَعَدَ عباس على الرصيف وكاد يصطدم عدة مرات بلوحات الإعلانات وبعضٍ من المارة القلائل ولكنهم تفادوه بأعجوبة..كنتُ خلفه كظله..لم أتركه مطلقًا..من شارع إلى شارع حتى وصلنا إلى تلك السوق الشعبية ذات الزحام الشديد حتى ليلًا..سوق العتبة..دخل بدراجته البخارية بين المارة والبائعين..توقفتُ بسيارتي وأمسكتُ مسدسي وهُرعت جريًا وراءه..لن يفلت مني أبدًا..سأعرفُ سِرَّه مهما يكن..وكيف أراه حيًّا وقد قتلتُه وحضرتُ دَفْنَه بنفسي..وجدتُ دراجة بخارية يقودها شخص ما أمامي..انتزعتها منه وانطلقتُ بها خلف عباس الدمراوي..مطاردة شرسة..الطريق سد..توقف الدمراوي فجأة وجرى تاركًا دراجته البخارية..هُرعت وراءه..لن أتركه أبدًا..كانت الناس تنظر لنا متعجبة مما يحدث..توقَّف عباس الدمراوي بمكان وسط السوق..يبدو أنه لا يقوى على الجري أكثر من ذلك..راهنَ حينها على تعاطُف الناس معه..وقفَ مرعوبًا باكيًا:

-حرام عليك يا باشا..ماذا تريد مني؟ حرام علييييييييك.

أطلقتُ عدة طلقات من مسدسي بالهواء..صرخ البعض مرعوبًا وابتعدوا قليلًا..تركوه لي بالمنتصف..وقفتُ حينها أنظر له بتحدٍّ وجهًا لوجه..تغيرت ملامحه مرةً أخرى إلى السخرية..وضع يده خلفه وأخرج مسدسًا رفعه بوجهي..لم أترددْ لحظة وأطلقتُ الرصاص مُصوِّبًا على قلبه مباشرة..وهأنا أقتلُه للمرة الثانية..وقع على الفور غارقًا بدمائه وتعالَتْ صرخات الباعة والمارة..وامتلأ وجهي حينها بالانتصار الثاني..الانتصار على عباس الدمراوي..عدوي الدائم..

على بابِ الجحيم

(الرابع عشر من أبريل ٢٠١٦ -القاهرة)

أشعل الباشا عبد الغني النصراوي سيجاره المُفضَّل..نفثَ منه نفسًا عميقًا استشرى برئتيه واتكأ على كرسيه الفخم بمكتبه الكبير بمجموعته الاقتصادية بالسادس من أكتوبر..مبنى زجاجي من عشرة أدوار يدير منه كل مشاريعه وأعماله المتشعبة بكل أرجاء العالم..لم يكن الباشا رجل أعمال محليًّا..كلا..كانت مشاريعه تدبُّ أصولها بدول العالم الغربي وتجني أرباحًا عظيمة..رجل الاقتصاد الأول بلا منازع..

تنهَّد سيف ممدوح رئيس الحزب المصري الجديد والغضب يسيطر عليه مُحاوِلًا التهدئة ناظِرًا للباشا الجالس أمامه بمكتبه بمنتهى الهدوء:

-أنت لا تسمح بأي فرصة للتفاهُم.

-سيف بك..لديَّ مواعيد مهمة..شرَّفت.

-هذا تحدٍّ سافر لنا جميعًا.

-مع السلامة.

أشار بيده ناحية الباب طاردًا إياه..وانفلت زمام صبر الآخر وصرخ بوجهه لأول مرة بتاريخ علاقتهما المشتركة المبنية على المصالح:

-أتطردني؟ ستدفع ثمن أفعالك بأسرع ممَّا تتخيل.

-أتهددني بمكتبي يا سيف يا ممدوح؟

-أنتَ مَن تطمع بكل شيء..يا عبد الغني باشا..لن تنال ما تُخطِّطُ له أعِدُكَ بذلك..

-الشاطر مَن يضحك بالنهاية..وأموالي ستُردُّ إليَّ وبالطريقة التي أبتغيها وبأقرب وقت ممكن.

-حسنًا..ولكن تذكَّر جيدًا أنك مَنْ أغلقتَ كل الأبواب بيننا.

-شرَّفت يا سيف بك.

خرج سيف ممدوح غاضبًا يجرُّ أذيال الخيبة فلم يستطع الوصول لاتفاق مُرضٍ للطرفين، وما زال الباشا يتحكم بمصائرهم ومصيره هو الأكثر..كانت تجربة قاسية لم يشهد مثلها طوال

البضع وستين سنة التي مضت من عمره..خرجَ مهزومًا من إمبراطوريته الكبيرة..مُتجهًا بسيارته الفخمة لفندق سميراميس حيث ينعقد المؤتمر الشعبي الخامس للحزب المصري الجديد..كان الجميع بانتظاره على أحرٍّ من الجمر..وصل سيف ممدوح ونزل من سيارته ليجد بعض قيادات الحزب بانتظاره..رأوا خيبة الأمل على وجهه..يبدو أنه فشل في الوصول لحلٍّ سلمي مع الباشا..دخل للقاعة ووقف على المنصة يستمع لتصفيق الحضور..تحدَّث أمامهم وأمام كاميرات القنوات الإخبارية والبرامج الحوارية المتتبعة لأخبار الحزب دومًا.

-كيف يعيش بيننا أناس ينعمون بالثراء الفاحش وغيرهم يموتون جوعًا كل ليلة! غيرهم يبيعون كرامتهم.. أطفالهم..أعضاءهم..ليلقوا قوت يومهم دون جدوًى، غنيٌّ أعمى القلب وفقير لاهث يحتاج لكل مساعدة حتى وإن كانت مُغرَقة بذُلٍّ وهوان لا ينتهيان..كيف تعيش ببلد تفرق بين أبنائها..تطبق القانون على ضُعفائها دون أغنيائها..بلد تتخذ الفساد عقيدة ودينًا؟ ولينشب أقوياؤه مخالبهم بجثث أحلام الضعفاء والأغلبية الكادحة منه..هذا البلد يحتاج لتغيير جذري، هذا البلد يحتاج للعدل..العدل يا سادة..العدل.

كان عصبيًّا ومتأثرًا للغاية..صفَّق له الجميع..كان الصحفيون يملؤون القاعة وكان هو يتوسطهم... جلس ذلك الشاب الحامل لكاميرته الفوتوغرافية الصغيرة..فتحي عبد العزيز..ذلك المقتول على يدي ببيت فتون بعد ٩ أشهر من الآن..كان يحاول التقاط بعض الأخبار من هنا وهناك أو بشكل آخر يحاول دومًا الوجود بمجلس الأغنياء واجتماعاتهم سواء مؤتمرات كهذه أو أفراح لعله تصيبه الفرصة بضربة حَظّ فجائية..هكذا كان يفكر.. ودخلت ذات العينين الساحرتين ..هَلَّ هلال جمالها الأخَّاذ..علا موج عينيها الزرقاوين بصحبة حبيبها إبراهيم محفوظ البالغ من العمر ٣٣ عامًا..إنها فتون فوزي الفاتنة الصغيرة..أراها بوضوح داخل غيبوبتي تلك الجبرية..أدركُ جيدًا أنني ما أزالُ بغرفة العمليات أُجري جراحة شائكة بنقل كليتي لسمير وإنني لم أبرح مكاني، ولكن روحي الطوافة هي مَنْ تعرض عليَّ تلك المشاهد المتتالية تكشفها أمام عقلي لعلي أُدركُ سبب شقائي بتلك السنة الأخيرة خاصةً..تشابكت أيديهما..وبحثا بأعينهما عن شخص ما..وقعت عين إبراهيم على فتحي فأشار ناحيته.

-إنه هناك.

وما إن رآهما فتحي حتى تسلَّل خارج القاعة وجلسوا بساحة الاستقبال بالفندق..وضع فتحي كاميرته جانبًا بجوار كاميرا أخرى صغيرة وضعها إبراهيم هو الآخر يبدو أنهما يعملان بالتصوير الفوتوغرافي..هكذا يبدوان..ونظر إلى فتون وبدأ حديثه على الفور فهو الشاب العملي جدًّا من وجهة نظرهما:

- نحن نعمل بالقطعة..وذلك بالبداية طبعًا لأنكِ مُستجدَّة بالصحافة وغالبًا كل الصحف والمواقع تتعامل بالطريقة نفسها.

-حسنًا.. والنشر هنا في المصري الجديد؟

كان الحزب يملك جريدة تصدر يوميًّا ينشر بها أشهر الكتاب والصحفيين..ابتسم فتحي ساخرًا

-هنا! أنت تطمحين بالمستحيل.

-كيف؟

-حينما طلب مني إبراهيم إيجاد فرصة عمل لك بهذا المجال قلت له إن هناك آلاف الصحفيين الهواة وكلٌّ يتصارع فقط ليُنشر له مقال واحد وبأصغر المواقع المعروفة والآلاف أيضًا يصرخون ليل نهار بمدوناتهم وبمواقع إخبارية هشَّة بمقالات وأخبار ولكن كل الجهود تضيع هباء بعيدًا عن ساحات الصحافة الحقيقية بالبلد.

-لا أفهم.

-الخلاصة..عملك سأختار ما يصلح منه وسأدفع لك ثمنه ومن تلك اللحظة تنقطع علاقتك به تمامًا.

-ما معنى ذلك؟

-بمعنى ألا تبحثي عن اسمك بأي مكان لأن مقالاتك وأخبارك ستنشر بأسماء أخرى. لا تؤاخذيني.. هذه أولى درجات سُلَّم الصحافة وعليك تحمُّلها

كان فتحي سمسار أخبار ومقالات..يشتري ويبيع بثمن بخسٍ..ترسًا صغير بماكينة الظلم الصحفي بمصر..البعض يتاجر بأحلام الشباب على كل المستويات..ولكنهم يعملون في الخفاء..فتحي نفسه لا يعلم من هي اليد الأخيرة التي تشتري بعض المقالات منه..فهو يبيعها لسمسار آخر وتتناولها الأيدي وتتوه بين السارقين..ولم يفكر يومًا بتتبع ذلك والبحث وراءه..كل ما يهمه هو ثلة الأموال الضئيلة التي يحصل عليها مقابل مقال أو خبر جيد..خمسمائة جنيه مقابل كل مقال جيد ومئة وخمسين جنيهًا مقابل خبر صحفي فريد ومختلف وقلما يجد ذلك، وبالطبع يقتسم المبلغ مع الصحفي الصغير البائع الأول..صُدمت فتون بتلك الحقيقة العارية..حاول إبراهيم تجاوُز ذلك الصمت المسيطر عليها لحظات ليخبرها بأن أمام فقرهما واحتياجهما كل شيء مُباح.

-وما المواضيع المطلوبة لتعمل عليها اختصارًا للوقت؟

-الشهرة. جرائم المشاهير أيًا كانوا، فنانًا، سياسيًّا، لاعب كرة، راقصة، شيخًا معروفًا..هؤلاء فئات يحب الناس متابعة أخبارهم، ويدفعون لذلك مبلغًا جيدًا.

-كم تقريبًا؟

سأله إبراهيم:

-ليس الآن..نرى عملها أولًا ونُحدّد.

-حسنًا، اتفقنا.

ناولها فتحي ورقة كانت بجيبه..

-تمام، هذا بريدي الإلكتروني ..أرسلي إليَّ رقم حسابك البنكي لنتعامل من خلاله ماديًّا.

-فتون لا تملك أي حساب بنكي. حسنًا..إذًا سنتعامل بحوالة بريدية بكل مرة.

-بعد إذنكما..أراكما على خير.

وانصرف فتحي ليحاول قنص آخرين ليبتاع المقالات والأخبار لعِلية القوم بالصحافة..عاد للقاعة ليحضر باقي المؤتمر للحزب الذي بدوره هو عضو جديد به لعله يُصادِفُ فرصته البعيدة..تنهدت فتون مهمومة..أمسك إبراهيم يديها ونظر بعينيها المحملتين بالهموم..كانت تتمنى العمل بالصحافة منذ زمن حتى قبل التحاقها بكلية السياحة والفنادق خارج رغبتها..قَبَّلَ يديها مُعاهِدًا إياها أن يصير رجلها الوحيد..يواجه الدنيا معها بكل مُرِّها ولعلَّ حُبهما يصبح طوقًا للنجاة..بحث إبراهيم محفوظ عن عمل مناسب لطموحاته فلم يجد واضطرَّ بالنهاية العمل مصوِّرًا فوتوغرافيًّا بالشوارع والندوات والمؤتمرات بالأخص التابعة للحزب المصري الجديد المنضم إليه حديثًا..نظرت له فتون بحُبٍّ شديد هائمة بعينيه:

-أتعرف يا إبراهيم.. كل ما أحلمُ به أن يجمعنا بيتٌ واحد صغير حتى ولو كان إيجارًا لن أرتاح بزواجنا ببيت أمي.

-أنت تعرفين.. إنني لم أوافق على ذلك إلا لأنال رضاك ولتتأكدي أنني لا أستطيع الاستغناء عنك.

اتفق الاثنان على الزواج والعيش مؤقتًا ببيت والدتها الصغير بروض الفرج..لم يكن في الإمكان أبدًا العيش بغرفته الملحقة بحمام مشترك فوق أحد البيوت القديمة بشبرا..فقَبِلَ ذلك على أمل التغيير القريب..كان يعدها بذلك دومًا..ضحكت فتون هامسة له:

- لتُصلِح خطيئتك.

-أجمل خطيئة..ولكن انتظري، من قال لك إن الزواج العرفي خطيئة.

-سنعاود الجدال مرة أخرى..ألم ننتهِ من ذلك النقاش؟

-حسنًا..حسنًا..لأجل عينيك الخاطفتين تلك، أتعلمين؟ عيناك كالبحر أهوى الغرق بهما عاريًا.

-واللهِ أنت وَقِح.

-وأنا أعشقُ احمرار خديك يا حبيبة أيامي وأعشقُ خجلك.

استعدَّ عبد الغني للقائه الأول المنعقد على قدمٍ وساقٍ بقاعة الاجتماعات الكبيرة بمجموعته الاقتصادية..بدعة جديدة ابتدعها وصمَّم على تنفيذها باحتراف شديد..لا أحد يدري ما يفكر به

بن النصراوي وما يدور بباله أبدًا..ترجَّل الباشا الطرقات واثِقَ الخطوة يمشي ملكًا..يعرف جيدًا أن المال يملك مفاتيح الحياة..وما إن ظهر الباشا بغرفة الاجتماعات المُكتظَّة عن آخرها برجال الصحافة والتليفزيون والشباب حتى هَبَّ الجميع يُصفِّقُ له بحرارة..وقفَ الباشا خلف منصة كبيرة بمقدمة الغرفة يحدثهم وتلتقطه الكاميرات.

-أشكركم، أشكركم ..ان شاء الله لقاؤنا هذا سيكون كل ٦ أشهر هنا بالقاعة نفسها ..أبدأ كلمتي معكم بمبدأ أسيرُ على دربه دائمًا..مبدأ أظنُّ أنه سِرُّ النجاح بأي مكانٍ بالعالم.. لا نجاح وتقدُّم إلا بالشباب ..وصَرحُ عبد الغني النصراوي بمشاريعه الاقتصادية قد حقَّق كل هذا النجاح لسببٍ واحد فقط..وجودكم أنتم كعمودٍ رئيسي لهذا الصَّرْح .. أنتم الشباب.

تصفيق حادٌّ..ترى السخرية تقفز بأعين البعض..تنين ضخم يتظاهر بالوداعة والشفقة على ضحاياه..وكأنه يرغب بارتداء ثوب جديد يُخفي ملامحه الحقيقية..قاعدة حياتية بحتة..من يمتلك بلايين الدولارات لا يمكن أبدًا أن يمُدَّ يده بالعون لمن لا يملك شيئًا..هو فقط يستعبِدُهم ويمتصُّ دماءهم..وكلما زادت الثروة زادت شراهة الامتلاك..تلك هي الحقيقة.

وانقلبت الدنيا بسوق العتبة..انتقلت قوات الشرطة وطوَّقت مكان الجريمة..ما زال القتيل مضرجًا بدمائه على الأرض ويحاوطه رجال المعمل الجنائي وأفراد من النيابة تُعاين موقع الحادث..جنود الشرطة تمنع أيًّا من الأهالي ورواد السوق المتجمعين من الاقتراب..حشدٌ كبير يملأ المكان..

توقَّف مجدي نور الدين بسيارته خارج الكوردون الأمني المحاوط لساحة الجريمة..اخترقَ زحامهم مُتوجِّهًا لأحد الضباط الذي حيَّاه التحية العسكرية بمجرد رؤيته..أزمة كبيرة أجبرته على ترك عروسه ليلة زفافهما ولكن أنا صديقه وأخو زوجته الأكبر..مَنْ أغلى مني يتحرَّك له مجدي هلوعًا ليمُدَّ له يد العون بأي طريقةٍ..نظر مجدي للقتيل:

-ماذا حدث؟

-نادر باشا بأزمة كبرى.

-لماذا؟

-مبدئيًّا أغلب الشهود قالوا إن نادر باشا كان يُطارِدُ هذا الراجل وأطلقَ عليه الرصاص، ومات في الحال.

اقتربَ مجدي ناحية جثة القتيل المُغطاة على الأرض..أزال الغِطاء عن وجهِهِ:

-مَنْ هذا الرجل؟

-اسمه سيد عبد القوي..أحد بائعي سوق العتبة يفترش بضاعته هنا على الرصيف وكان ذاهبًا لجلب بعضٍ منها على دراجته البخارية قبل الحادث بقليل.

-أين نادر بك؟

-تحفَّظنا عليه بذاك المحل.

بعدما أنقذناه من أيادي الأهالي بأعجوبة.

نظر مجدي ناحية المحل الذي أشار ناحيته الضابط..عدد كبير من الأهالي يقفز الشَّرُّ من أعينهم جميعًا بعضهم يمسك شومًا وعصيًّا غليظة يمنعهم بعض جنود الشرطة من الاقتراب للمحل المغلق بابه الحديدي..اخترقَ مجدي زِحامهم ودخل للمحل سريعًا وأغلق الباب مرة أخرى خلفه.

كنتُ جالسًا بأحد زواياه على كرسي خشبي مطرق الرأس..ما إن نظر مجدي ناحيتي حتى رأى تورُّم وجهي وأثار الضرب المُبرح ودماء تلطخ ملابسي..رفعت رأسي والذهول يسيطر عليَّ.

-نادر..ما الأمر؟ ما الذي يجري هنا؟

-لا أعرف يا مجدي..لم أعد مُدرِكًا أي شيء.

-لماذا قتلتَ ذلك الرجل بالخارج؟

-كنتُ أراه عباس الدمراوي.

عرفتُ الحقيقة بعدها بلحظات..بعدما هَجَمَ عليَّ رواد السوق والأهالي..رأيتُ جثته عن قُرب وهالني أنه شخص آخر..عرفت ذلك وهم ينهالون عليَّ ضربًا مُبرحًا ولم يُنقذني منهم سوى تلك الدورية القريبة للشرطة التي سرعان ما فصلت بيني وبينهم وطلبتُ دعمًا شرطيًّا جاء سريعًا..تعجَّب مجدي ممَّا نطقتُ به:

-عباس الدمراوي؟ مَنْ قمتُ بخنقه بزنزانته منذ أربعة أيام؟

-نعم.

-كيف يا نادر وأنت مَنْ خنقه بيديك؟

-ليس لديَّ أيُّ تفسير.

-أنتِ بأزمةٍ كبرى

-أي أزمة؟

-يجبُ أن تبحث عن تفسيرٍ مناسب

-هذا ما حدث وكفى.. لا تنسَ مَنْ أنا ..أتُعلِّقون لي المشنقة؟

-ليس نحن يا نادر..هؤلاء مَنْ بالخارج هم مَنْ سيعلقونها لك.

نظرتُ له بعصبيةٍ شديدةٍ وصرخت بوجهه وكأنني كنتُ راغبًا بإسماعهم هؤلاء الأوباش الواقفين بالخارج:

-لا يقوى أحدٌ على المساس بي..أتفهمُ؟

-وآثار الضرب المبرح على وجهك.. مِن أين جاءت؟

-غدرَ بي بغتةً هؤلاء الرعاع. أعطني سلاحك وسأخرج لهم لأعرفهم مقامهم الوضيع.

مَدَدْتُ يدي لأخطف سلاحه بجانب بنطاله..بالطبع فقدتُ سلاحي في أثناء ضربهم لي..ولكنه أبعد يدي بعيدًا وتمسك بمسدسه الميري.

-كفى يا نادر..كفاكَ مصيبتك تلك..كفى.

-أي مصيبة؟ هؤلاء كلاب ضالة لا قيمة لهم .. مُرِ القوات بالخارج تقضي عليهم.
مجدي..أرجوك أخرجني مِن هنا.. هل أخبرت اللواء شاكر؟

كنتُ خائفًا..للحقِّ حاولت إخفاء ذلك، ولكنه رأى خوفي مستترًا بعينيَّ..حاولت إقناعه بسطحية ما حدث وعدم أهميته..

-الأمر بسيط يا مجدي..حقًّا بسيط..أخبرني أولًا مَنْ هذا الرجل الذي قتلتَه بالخارج؟

-بائع هنا بالسوق.

-ألم أخبرك أن الأمر بغاية البساطة..مجرد بائع..أخرجني أنت فقط من هنا بسلام وأنا سأُنهي الأمر.

-لن ينتهي بهذا اليُسر الذي تتوقَّعه.

تنهَّد مجدي وخرج..أصدرَ أوامره بحمايتي أو بالأحرى أوامر اللواء شاكر..وما هي إلا دقائق معدودة وتمركزت قوات الأمن المركزي تُشكِّل لي ممرًّا آمنا أمام المحل لمدرعة شرطة تقف بانتظاري لتبعدني عن ذلك المكان الموبوء..صحبني مجدي وخرجنا معًا من المحل..هالني ما رأيت..عددًا ضخمًا من الأهالي والنساء الصارخات..من أين أتى كل هذا العدد من الناس؟ وهل من المنطقي أن يهبَّ كلُّ هؤلاء لمقتل أحدهم؟ الأهالي يحاولون اختراق الممر الآمن بكل قوتهم..ولكن الجنود يقفون لهم بالمرصاد..الشتائم بأقذع الألفاظ تنهال على أذنيَّ..كم كنتُ أتمنى أن أفرغ فيهم خزائن ممتلئة بالرصاص وقتها لأرديهم قتلى جميعًا تنهش الصقور جثثهم العفنة..ثلة من الأوباش والرعاع يضربونني أنا..أنا صاحب المال والجاه والسلطة..تبًّا لهم جميعًا! نظرتُ بوجوههم والغضب يملؤني..كنتُ أحفظُ وجوهَهم..حاولتُ ذلك جاهِدًا لأعودَ وقتًا ما لأنتقم من كلٍّ منهم على حدة..ما أكثر القضايا الفارغة الباحثين لها عن مُتهمٍ! حتمًا سأعود.

-حسبي الله ونعم الوكيل.

-لن نتركك..قسمًا بالله لن نتركك.

-منك لله..ماذا فعل لك لتقتله؟

-حسبي الله ونعم الوكيل.

-لأننا فقراء تدهسوننا بنعالكم وتقتلوننا برصاصاتكم.

-منك لله..منك لله.

وصلنا للمدرعة الشرطية وركبنا..حاوطها الناس..لن تبرح مكانها إلا إن دهست الجميع..وانفلتَ الزمام..هجم هؤلاء الأوباش على المدرعة يزلزلونها..الغِلُّ والكُرهُ يقفز من أعينهم..كنا نهتزُّ بداخلها بشدة..ودارت معركة طاحنة بالخارج..عصيٌّ غليظة تضرب أجسادهم ليبتعدوا..ولكنهم لا يبتعدون أبدًا، وكأنني فريستهم وغنيمتهم الرافضين تركها مهما يكلفهم ذلك..حتى وإن مات بعضهم..طلقات من الغاز المسيل للدموع انطلقت لتفرق جمعهم..سادت الفوضى والهرج والمرج بالخارج..وبعد لحظات تمكنا من الهروب بعيدًا مخترقين تلك الحرب الخانقة.

خرجنا على الطريق بعيدًا..كنتُ مهمومًا حزينًا على الرغم من امتلاء نفسي بالغضب والانتقام..لم أدرِ وقتها لماذا يتسلل إليَّ ذلك الشعور..كنتُ مُتضارِبَ المشاعر غير متزنٍ..نظرتُ إلى مجدي متنهدًا:

-أشعر بالأسى الشديد..مجدي..لا تذهب بي إلى القصر ..تحرَّكْ إلى أي فندق هادئ. أحتاجُ وبشدة إلى الراحة بعيدًا.. ..معذرة يا صديقي عكرتُ لك ليلة زفافك..أرجوك طمئن نيفين واعتذر لها أيضًا..ولا داعي أن يعرف أيُّ أحدٍ آخر ما حدث، وبعد إذنك سيارتي هناك بموقع الحادث.. أرسل مَنْ يجلبها لي، لن أستطيع الظهور هناك مرةً أخرى على الأقل فترة ليست بالقليلة.

-نادر..سيادة اللواء شاكر استصدر أمرًا من النيابة بالقبض عليك.

قنبلة جديدة قذفها مجدي بوجهي تلك الليلة لتنفجر ناسفة عقلي..صدمة كبيرة منعتني أن أنطق بكلمة واحدة بقية الطريق إلى مديرية أمن القاهرة..كان اللواء شاكر جالسًا بمكتبه ينتظرنا..صرختُ بمجرد رؤيته أمامي:

-أعطني تفسيرًا واضحًا لما يحدث..ما هذا التهريج؟

رمقني اللواء شاكر بنظرة لم أرَها من قبل كانت ممتلئة بالشماتة والانتصار على الرغم من محاولته إخفاءها والتظاهُر بالهدوء والتأثُّر لحالي:

-نحن بغاية الأسف يا نادر ولكن التوقيت دقيق جدًّا والعيون تترصد لنا..ولذلك علينا المُضي بالتحقيق معك بشكلٍ سليم وقانوني دون أي تجاوزاتٍ.

-أيُّ تحقيق يا سيادة اللواء؟ هذا الرجل كان تاجر مُخدراتٍ وأنا قتلتُه في أثناء شروعه بقتلي ومحاولة هُروبِه.

صرخَ بوجهي بعصبيةٍ:

-المعمل الجنائي سيثبت أنك كنتَ مخمورًا.

-أنا لستُ مخمورًا.

-نادر..كلامك هذا تخدع به شخصًا غيري، أنا مُوقِنٌ أن دماءك ممتلئة بالكحول.

-حسنًا، ومَن سيعلن ذلك؟

-هذا المسكين لم نجد معه أي مخدرات أو سلاح، حتى تلفق له تهمة شروعه بقتلك..لن أحمي ضابطًا مخمورًا مُتهوِّرًا يقتل الناس بالشوارع بدون سببٍ.

-ستندم كثيرًا على كلامك هذا.

أشار حينها إلى أميني الشرطة بمكتبه فمسكا ذراعيَّ كأي مجرم وجرجراني للخارج..كان مجدي صامتًا تمامًا..صرختُ بعصبية شديدةٍ:

- مؤامرة..أتتأمرون ضدي؟ لن تتخلصوا مني بهذه السهولة يا شاكر بك؟ نادر النصراوي لن ينكسر..سأعلمكم من هو نادر النصراوي. مجدددددددددددي.. أخبره من هو نادر النصراوي يا مجدي، لن أنكسر..اتركوني أيها الأوغااااااااد.

نظر شاكر إلى مجدي بحدةٍ مُلقيًا عليه أوامره:

-أنصتْ لي جيدًا يا سيادة النقيب..التحقيق يتمُّ على أعلى مستوى من الشفافية..وتبلغني أولًا بأول بكل شيء..وبتقرير الطب الشرعي والمعمل الجنائي، أنتظرهما هنا على مكتبي بمجرد وصولهما.

-أوامرك يا سيادة اللواء.

فُتحت زنزانة خلفية بمديرية أمن القاهرة..دخلتُها وأنا بقمة غضبي..وقف جميع المحبوسين يرمقونني بنظرات مذهولة متفحصة..سرعان ما أدركوا من هيئتي أنني نزيل زنزانتهم الجديد..بعضهم يعرفني جيدًا وتعذَّب على يديَّ..وقفتُ بمنتصف الزنزانة صارخًا بهم كوحش كاسرٍ تحاوطه الذئاب:

-أيُّ كلبٍ فيكم عقله يوسوس له الاقتراب مني سأدفنه بمكانه.

لم أنسَ تلك اللحظة قط..طوال عمري كنتُ أنا الصياد وبلحظتي تلك أصبحتُ فريستهم المرتقبة..غابة ويسنُّ الجميع أسنانهم لنهشي بأقرب فرصة متاحة..لكن لا..استحالة..أنا الأقوى..نادر النصراوي تستحيل نهايته سريعًا هكذا وبهذه الطريقة..سأخرج من هنا أعرف

ذلك، وحينها يستعدُّ الجميع للَهيبِ انتقامي..لسعير جحيمي..لن أرحمَ أحدًا اشتركَ بتلك المؤامرة.

وبدأ التحقيق..جلس مجدي نور الدين بمكتب تحقيق أُعدَّ خصيصى له بأوامر اللواء شاكر..وامتلأت الطرقة أمام المكتب بالشهود والأهالي الممتلئين بالغضب الشديد والمُصرِّين على الانتقام مني..ووصلت الصحافة..عكف بعض الصحفيين على الحصول على بعض الأخبار السريعة وأقوال الشهود وبعض الصور..أعلم المانشيت الصباحي غدًا بكل الصحف: وسقط العقيد نادر رشوان. وكأنني لصٌّ هارب..هكذا الصحافة ولكنني لا أعيرهم اهتمامًا الآن..خرج أمين شرطة ينادي بذلك الحشد خارج المكتب:

-محفوظ سعفان السيد.

-نعم.

-تعالَ..ادخل.

دخلَ الشاهد الأول..رجل في الخمسين من عمره..نظر إليه مجدي وطلب منه الجلوس، لم يكن أحد بالغرفة سواهما وأمين شرطة يُدوِّن المحضر.

-اجلس يا محفوظ.

-شكرًا يا سعادة الباشا.

-اسمك وسنك ومهنتك؟

-محفوظ سعفان السيد ٥٢ سنة.. بائع على باب الله أسكن بالعتبة.

-احكِ لي كل ما حدث أمامك الليلة؟

-سيد عبد القوي يا باشا كان راجلًا طيبًا يجري على قوت يومه هو وزوجته وأولاده ومكانه بالسوق بسم الله ما شاء الله، كان يُربِحُه الكثير..واليوم قال لي: يا محفوظ قِفْ مكاني لأتمكَّن من جلب بعض البضائع من المخزن..كان يملك مخزنًا صغيرًا مُلحقًا بشقته، وهي ليست بعيدة..تبتعد عن السوق بحوالي خمس عشرة دقيقة، واستقلَّ دراجته البخارية..ووقفتُ مكانه أنادي على بضاعتي وبضاعته، وبعد قليل رأيته يجري ناحيتي لاهثًا ويجري خلفه شخصٌ ممسكًا مسدسًا كان يصرخ بأعلى صوته مُحتَميًا بالناس، ولكن لم يتدخل أحد بالبداية..خاف الجميع، سيد كان يترجاه.. حرام عليك يا باشا..ماذا تريد مني؟ حرام عليييييييك. ولكنه لم يتأثر بتوسلاته وقام بإطلاق الرصاص بقلبه وسقط غارقًا بدمائه..حينها هاجت الناس وهجمت عليه وضربته، هناك مَنْ يقول إنه ضابط مباحث ..هل هذا الكلام صحيح يا باشا؟

-هل لديك أقوال أخرى؟

-نعم.. لم أشترك بالضرب معهم أنا كنتُ واقفًا عن بُعدٍ أتابع فقط ما يجري..الله يرحمك يا سيد.

-حسنًا..وقِّع على أقوال.

-أبصمُ يا باشا.

--

فُتح باب مكتب اللواء شاكر فجأة ودخل الباشا عبد الغني النصراوي بصحبة رجال الأمن (البودي جارد) الخاص به..امتلأت عيناه بالغضب المتناهي..أشار إلى رجاله بالخروج وبقيَ بمفرده مع اللواء شاكر.

-أهلًا..عبد الغني بك.

-أنت للمرة الثانية يا شاكر..ألم تتعظْ؟

-أنا فقط أقومُ بعملي يا عبد الغني باشا.

اقتربَ منه عبد الغني مُهددًا إياه:

- حذرتُك من قبل..قلتُ لك..إذا..اقتربتَ ناحيتي لن أغفرَ لك.

ابتسم له شاكر ساخرًا:

-أتلاحظُ أنك تتحدث مع مدير الأمن وبمكتبه؟

-فلتذهب أنت ومكتبك إلى الجحيم..أكبر منك ورُميَ بالسجن كالكلب دون سابق إنذار.

-لكني الآن بمكتبي أجلسُ على كرسي وما أقوم به ينصبُّ في صميم عملي.

اقتربَ منه عبد الغني مستكملًا تهديده:

-إلا نادر.

- داريتُ عليه كثيرًا وساعدتُه مِرارًا وتكرارًا وإن لم تكن مُصدقًا إيايَ اسأله.

-لستُ بحاجة لسؤاله..يكفيني تلك الفرحة التي أراها بعينيك.

-أنت مخطئ يا باشا.

-فعلًا مخطئ أنني لم أسحقك كصرصور نتن وقتها، أتتذكر حينما قبَّلت قدميَّ باكيًا ووعدتني أنك ستبتعد عن طريقي..أتتذكر الذُّل والهوان وأنت تتمنى عفوي عنك حينها؟

ضحك شاكر ساخرًا:

- كان ذلك منذ زمنٍ بعيد يا باشا..ذاكرتُك قوية ما شاء الله.

-منذ زمن حينما كنا صديقين..لم يخطر ببالي أنك بهذه القذارة.

-أنت معلمي الأول يا باشا..وكلنا تلاميذك.

كان عبد الغني النصراوي وشاكر صديقين مقربين فرقتهما المصالح والأطماع..صراع شرس وحرب دائرة لتسريب معلومات إحدى صفقات الباشا لمنافس عتيد له حينذاك، واكتشف أن شاكر هو جاسوسه المُقرَّب..كاد يقتله، ولكنه تركه قاطعًا علاقته به تمامًا وقتها رحمة بأولاده..صرخ الباشا بوجهه القميء:

-نادر يخرج حالًا..وسنتحاسب بأقرب وقتٍ يا شاكر.

-آسف يا عبد الغني بك ..القانون فوق الجميع.

-سنتقابل قريبًا ..ونادر..سيخرج.

خرجَ بعدها عبد الغني تاركًا إياه وابتسامة الانتصار تعلو وجهه..الآن فقط استطاع النصر للحظة الذل التي طالما طاردته بكوابيسه..لم يعفُ عنه الباشا حينها بسهولة..كلا.. دام تعذيبه خمسة أيام بأقسى وسائل التعذيب التي عرفها بحياته..وصل به الأمر لتقبيله رجلي عبد الغني والبكاء كثيرًا ليصفح عنه..لم ينسَ ذلك طوال حياته.

هُرِعَ الصحفيون لالتقاط الصور للباشا فور خروجه من مكتب اللواء شاكر..كان فتحي عبد العزيز واقفًا بكاميرته وسطهم..بينما جلست نانسي تبكي بجوار أختها سما بالقرب من مكتب التحقيق على مرمى البصر..سأله فتحي:

-عبد الغني بك..ما تعليق سيادتك على جريمة القتل العمد التي قام بها حفيدك العقيد نادر النصراوي؟

أشار الباشا لرجاله لإبعاد الصحفيين..اتَّجه عبد الغني ناحية نانسي وسط رفض الصحفيين واعتراضهم على إبعادهم:

- نانسي عودي وأختك إلى القصر..هيا.

نهضت نانسي حين رأته تُغالِبُ دموعها:

-لن نذهب يا عمي ..لن نترك نادر هنا ونذهب.

-نادر سيخرج غدًا..أعدُك بذلك.

-لكن...

-هيا إلى القصر ونامي مُطمئنةً.

انصاعت نانسي لأوامره..اتجهت للخروج بصحبة سما..نظر الباشا بعينين يملؤهما الشَّرُّ ناحية الأهالي والصحفيين..دخلت نيفين ملهوفة بصحبة عزيز شوقي..من الواضح أن مجدي قد أخبر الجميع..نظر ناحيتهما الباشا واتجه للخروج..يعلمُ جيدًا ما عليه فعله..وأدركُ أنا أنه لن يتركني..وسيفي بوعده ولن يبرح الصبح حتى أكون خارج تلك الأزمة بالكامل.

وقفتُ أنظر لذلك الضوء الداخل لتلك الزنزانة من أعلاها..ضوء القمر يتسلل على استحياء..خلد بعض المحبوسين للنوم بينما جلس الآخرون شاردين كُلٌّ يفكر في نفسه..فُتح الباب ودخل عزيز..التفت إليه وارتميت بأحضانه..سألني مربتًا على كتفيَّ:

-نادر..ماذا يحدث يا صديقي؟

-ليس الآن..سأخبرك كل شيء في حينه.

-لماذا تتورط في جريمة كهذه؟

-هذا تاجر مخدرات قَذِر وجبَ قتلُه..لا تشغل بالك، كل شيء سيصير على ما يُرام وبأقرب وقت..ولكن أخبرني: كيف عرفت؟

-نيفين اتصلت بي منهارة ..هُرعتُ إليها وجئنا إليك سريعًا.

-نيفين!

انتابني التوتر الشديد..لم أرغب أن تراني بتلك الحالة أبدًا..يكفيها ليلة دخلتها التي انتهت بتلك المصيبة..يكفيها هلعها وذكراها تلك التي ستنطبع بعقلها طوال حياتها..نظرتُ لعزيز أترجَّاهُ.

-أرجوك يا عزيز لا أريد أن تراني وأنا بتلك الحالة، أخبرْها أنني خارج من هنا بأقربِ وقتٍ، طمئنَها.

-كيف ستخرج؟

-كل ليل وله آخر..أنا أقوى بمراحل من تلك المؤامرة.

-مؤامرة؟

-لا تشغل بالك.

-أخاف عليك كثيرًا يا صديقي.

-لا تخف..وطمئنها هي الأخرى.

وقفت نيفين بمكتب التحقيق بعدما طلب مجدي من أمين الشرطة بالخروج والبقاء قريبًا لاستكماله حين يناديه..كانت بقمة حزنها وانهيارها ودموعها تنساب من عينيها الرقيقتين..اقترب مجدي منها ورفع رأسها ونظر بعينيها ماسحًا دموعها بيده:

-ليس بمقدوري فعل أي شيء.

-لن أسامحك طوال عمري.

-أنا مكتوف اليدين يا نيفين..نادر مذنب.

-إلا نادر يا مجدي..إلا نادر.

-وهل أنا مَنْ أمرته بقتل رجل بريء أمام الناس بدون سبب.

-لا تلقِ تُهمك على نادر..نادر أخي بريء.

قالتها صارخة منهمرة بالبكاء.

-اهدئي أرجوكِ .. اهدئي.

لم يجد مجدي كلمات تسعفه بمثل ذلك الموقف العصيب الذي وضعتهما به..أزمة ضخمة تعصفُ بحياته الزوجية قبل أن تبدأ بليلتها الأولى..سيبذل الكثير من الجهد ليتخطى ذلك الشرخ بينهما وقد يفشل في ذلك..

خرجت نيفين بصحبة عزيز بعدما أخبرها بعدم رغبتي برؤيتها إياي الآن..انصاعت لرغبتي كعادتها..أوصاه مجدي بتوصيلها للبيت وطمأنته عليها..كنتُ أنا ومجدي وعزيز أقرب أصدقاء.

خرجَ اللواء شاكر من مكتبه فقد اقتربت الشمس من الشروق..أوصى مجدي نور الدين بالتحقيق ودِقَّتِه وأشياء أخرى وأبلغه بعودته بعد خمس ساعات لمتابعة سير التحقيقات..ما زالت طرقة المديرية تمتلئ بالشهود..ركب اللواء شاكر سيارته مُتحدِّثًا إلى سائقه:

-عُدْ لبيتِك وتعالَ غدًا بالعاشرةِ صباحًا.

-ألنْ أُرافِقَ سيادتَك للبيت يا باشا.

-البيت قريب..توكَّل أنت على الله.

-ألف سلامة يا باشا.

انطلقَ بسيارته مخترقًا اللحظات الأخيرة لظُلمة تلك الليلة.. كان سعيدًا تلك الليلة الاستثنائية بحياته التي تغَّلب فيها على جبروت النصراوي وانتقمَ منه شرَّ انتقام..كانت ضربته قاصمة..كان ينتظر تلك الفرصة منذ زمنٍ وها هي قد جاءته على طبق من ذهب..نَظَرَ بمرآة سيارته فوجد عربة نصف نقل تخبطه فجأة من الخلف..توقَّف اللواء شاكر ومَدَّ يده ليُخرِج مسدسه من التابلوه..ولكنَّ راكبيها لم يمهلوه فرصةً..مجموعة من الملثمين مرتدين قفازات ضربوه على رأسه فغاب عن الوعي..جرجروه داخل سيارته بالمقعد الخلفي وانطلق أحدهم بالسيارة وتبعه الباقون بالسيارة نصف نقل..وخطف مدير الأمن ذاته.

فُتح باب الزنزانة ودخل أربعة أمناء شرطة..كنتُ ما زلتُ واقفًا شاردًا أُفكِّر في مَخْرَجٍ لأزمتي تلك، وأنتظرُ الحل على يد جدي عبد الغني النصراوي..وما إن نظرتُ بوجوههم حتى أدركتُ ما ينتظرني..هؤلاء الأربعة بالذات هم مسئولو التعذيب بالمديرية..لطالما أصدرتُ أوامري لهم ونفذوها بالحرف..تُرى، مَن أصدر أمرًا بتعذيبي؟ جرجروني للخارج بقوة..حاولت منعهم ولكنهم كانوا أقوى مني..صرخت بهم:

-قفوا مكانكم..هل جُننتم؟ أنا نادر أمجد رشوان، ستندمون على أفعالكم شَرَّ ندمٍ. اتركونننننننننني.

جرجروني بالقوة لتلك الغرفة القابعة أسفل المديرية بالبدروم..كنتُ أصرخُ فيهم بعصبية شديدة..غرفة أشبه بالقبر لا تحوي سوى هياكل خشبية كثيرة لتسهيل التعذيب..إضاءتها خافتة ليس بها سوى مصباح أبيض بأحد الجوانب يتلاعب مُحدِثًا شَرَرًا كهربائيًّا يُثير الرعب بنفس المعذبين هنا..ربطوني على أحد تلك الهياكل وأنا أصرخ دون جدوى:

-لن تفلتوا بفعلتكم هذه أيها الكلاااااااااااااااب.

دقائق عصيبة تحوَّلت فيها مجرى الأحداث..قوات من الشرطة تقتحم عمارة بحي راقٍ وشيك..ضوء الشمس يتسلل رويدًا رويدًا لتزول ظلمة تلك الليلة..صرخاتي تتعالى كلما لمس سوطهم جلدي العاري احتجاجًا على ضرباتهم الخائنة..تكسر قوات الشرطة أحد الأبواب وتقتحم إحدى الشقق الفخمة..تُفتِّشُ الشقة كلها سريعًا..تدخل غرفة نوم فتعثر على اللواء شاكر عاريًا تمامًا إلا من ملابسه الداخلية ومقتولًا على السرير برصاصة بالرأس بجوار فتاة بالعشرينيات من عمرها عارية تمامًا، ولا يوجد ما يستر جسدها صريعةً هي الأخرى برصاصة بالرأس، ودماؤهما تغرق السرير..حقيبة مفتوحة بجوارهما بها عدد كبير من الدولارات المتناثرة بهمجيةٍ حول الحقيبة وبداخلها..صرختُ بقوة حينما مَرَّ ذلك التيار الكهربائي المؤلم بجسدي من جهازهم الذي طالما استخدمتُه بيدي..مؤلم وموجع للغاية..كدتُ أَفْقِدُ الوعي..وكأنني بالجحيم أتجرَّعُ سُبل العذاب على أفعالي..لن أنسى تلك اللحظات ما حييتُ..لن أنسى ذلك اليوم أبدًا..الرابع عشر من أبريل ٢٠١٦..وفجر الخامس عشر..صرخاتي تنخفض تدريجيًّا..غبتُ عن الوعي تمامًا..لم أره وهو يتابع ما يحدث بعينين حادتين بجانب بعيد من تلك الغرفة..لم أتوقع قط أن يوافق بهذه السرعة على تعذيبي..إنه مجدي نور الدين..الصديق.

العودة

(الخامس عشر من أبريل)

غائب عن الوعي ولكني أراني..أُراقِبُ حالي كشريط سينمائي أنا مشاهده الوحيد..هَلَّ ضوءُ الصباح مُتسلِّلًا من شباك زنزانتي الجديدة..زنزانة فردية حملوني إليها بعد وجبة دسمة من التعذيب وألقوني بأحد الأركان بمنتصفها..جلس مجدي نور الدين على كرسي خشبي يرمقني صامتًا..ظَلَّ هكذا ما يقرب من عشر دقائق لا ينطق وأنا لا أفيق..غائب عن الوعي تمامًا..تنهد مجدي وامتلأت عيناه بالدموع وهمس قاطعًا ذلك الصمت القاتل بيننا:

- طوال عمرك أفضل مني بكل شيء.. ضابطان.. الدفعة نفسها.. الطموح نفسه مثلنا كمثل أي شاب يحلم بالكثير وبالنهاية أحدنا نقيب والآخر عقيد ..لماذا يا حضرة العقيد؟ لماذا أخبرني؟ هل لديك تفسير مُقنِع؟

اقتربَ مني وصرخ بوجهي المُتورِّم من آثار تعذيبهم:

-ما الذي يُميِّزُك عني؟ أجبني.

صمتٌ هائل..مجدي يعلم جيدًا أنني لن أردَّ..ولذلك نطق بما بداخله لينبش أسراره الدفينة ومشاعره تجاهي..

-لا أنكر أنك صديقي المُقرَّب. لا أنكر أنك زوَّجتني أختك وباركتَ زواجنا، لا أنكر أنني..أحبُّك..نعم أحبك، لكن الظلم يُعذِّبُني ليل نهار، مال..جاه..سلطة..حتى تلك الأزمة الحالية أعلم جيدًا أنك ستخرج منها بسلام، اعذرني يا صديقي أنا لا أقوى على الرفض. اللواء شاكر أصدرَ آمرًا واجب التنفيذ دون مناقشة، وإن رفضتُ ليس ببعيد أن أصيرَ مكانك هنا، أُعذَّب وأتوجَّع ولكن الفرق أنني لن أخرج منها أبدًا، ستكون نهايتي..أتعرف لماذا..لأن هناك نادر واحد فقط، حاولتُ كثيرًا أن أصبح مثلك ولم أستطع.. لم أستطع..ولكن أعدُك أنني سأحاول وأحاول.. سأتخذُك قدوةً لن أحيد عنها.. ذئب مسعور لن يقوى أحد على مجابهته مهما

يحاول..ومؤكد أنك ستساعدُني، أليس كذلك يا صديقي؟ فأنا الآن من العائلة الكريمة، وفرد من قواها، أتسمعني؟ لا تخف، ستفيق بعد عدة ساعات وستصير بخير، سلام يا سيادة العقيد..سلام يا صديقي.

وخرج مجدي من زنزانتي..ما زلتُ مُلقًى على الأرض فاقدًا للوعي..أغلقَ الباب خلفه فكانت هي واقفة تُراقِبُ وتكتشف الحقيقة لحظة بلحظة..شهرزاد تلك الفتاة المحاطة بالألغاز خلف الباب..لم تكن بمفردها، كلا كنتُ أنا بجوارها..وكأني هنا الراوي الذي يقصُّ عليها كل تفاصيل حكايته فتتجسد أمامها..اثنان أحدهما بجوارها الراوي للقصة بأكملها والآخر مُلقًى على الأرض فاقدًا للوعي موجوعًا بضرباتهم..نظرت شهرزاد ناحية الملقى على الأرض و..اقتربت بينما انشغلت أنا الراوي بتحسُّس حوائط الزنزانة والنظر لأعلى من شباكها الصغير..بدأت أفيقُ..نهضتُ جالسًا أحاول فتح عينيَّ بصعوبةٍ وشهرزاد تربت على كتفي شفقة بحالي ولكنني لا أراها.. ضوء ضئيل لا يقوى على محاربة الظلام داخل تلك الزنزانة..أخرجت أعواد للثقاب بجيبي وبدأت بإشعال شموع كانت موضوعة على حوافِّ الزنزانة..أعلمُ أنها شموع افتراضية، ولكنني هُرعت لإشعالها منشغلًا بقتل ظلمة تلك الزنزانة أو بمعنى أدق قتل ظلمتي..شهرزاد تربت على كتفي بحنان شديد..أستعيدُ الوعي رويدًا رويدًا..تزداد الإضاءة تدريجيًّا وأنا أستكملُ لها روايتي:

- سمعتُ كل كلمة قالها..لم أتعجب..عيناه دومًا كانتا تنبئان بأكثر من ذلك مهما يحاول إخفاءها..أعذره كثيرًا..نحن بشر..والغيرة سلوك إنساني لا يقوى أحد على وأده، أنا أيضًا كنتُ أحاول دائمًا مساعدته..حاولتُ أن يشعر أنه مثلي..لا فارق بيننا وزواجه بنيفين أكبر دليل.

الضوء يزداد..ملامح الزنزانة تظهر من حولنا..فجأة يظهر سرير العمليات بأحد جوانب الزنزانة..وتداخل جديد للزمن بآن واحد..ونادر ثالث ملقى على سريرهم في أثناء عملية نقل الكُلية لسمير والأطباء من حولي فاتحي بطني وأصوات أجهزة قياس القلب تصمُّ آذاننا..زاد توتري وأشعلتُ المزيد من الشموع..نظرتُ ناحيتي شهرزاد:

-ماذا تفعل؟

- ظلمة..ظلمة تعذبني.

حينها كانت بمنتصف الزنزانة تُتابعُ ما يجري من حدثٍ ثلاثي لا يُصدِّقه العقل..عملية جراحية أنام على سريرها وزنزانة أُلقَى على أرضها موجعًا وثالث يروي ويُشعِلُ مزيدًا من الشموع..توتُّر الأطباء يزداد هو الآخر وينظرون لبعضهم البعض..صوت جهاز القلب يزداد إيقاعه..هناك خطر ما يقترب..شهرزاد تناديني:

- خائف؟

-الظُّلمة تحبس أنفاسي.

تقترب مني شهرزاد وكأنها تطاردني وأنا لا أتوقف عن إشعال الشموع بكل أرجاء الزنزانة..جهاز القلب يتوقف مُعلنًا انتهاء حياتي..الدموع تزداد بعينيَّ..يُهرع الأطباء لإعطائي صدمات كهربائية بجهاز إنعاش القلب..تُطارِدُني شهرزاد وأنا أصرخُ:

- خائف يا نادر؟

- الطرق كلها مظلمة..عتمة قاتلة.

- بيدك أنت أن تقضي على ظُلمتك.

- محال..سواد فاق كل الحدود.

- التوبة تمحو الذنوب.

- أنت لا تعرفين شئيًا، لا تعررررررررفين.

نهضتُ حينها وجلستُ مسندًا ظهري على حائط الزنزانة وتحوَّلت كل ملامحي إلى الانتقام..وبلحظات معدودة تمتلئ عيناي بالدموع وقلبي لا يعود، وصوت الجهاز يصمُّ أذنيَّ وشهرزاد تمسك يديَّ لتمنعني من إشعال مزيد من الشموع..صمت هائل يعود مجددًا..صمت مرعب..وقفت أنا وهي بالمنتصف.

- أراك حيوانًا ينشب مَخالبه حتى بنفسه.
- صهٍ..صهٍ.

كنتُ منهارًا باحثًا عن أي صوت يخبرها أنني ما زلتُ على قيد الحياة..ما زال لقصتي بقية بل هي لم تبدأ بعد.

-أتلك هي النهاية يا نادر؟

-صهٍ..صهٍ.

-تلك هي النهاية؟

-لا هذه البداية..البداية.

-خائف؟

-أنفاسي تُحتبس.

-خائف؟

-ظُلمة لا تنتهي.

-خائف؟

-أنا لا أخاف..لا أخاف.

قلتُها صارخًا بعلوِّ صوتي..حينها عاد جهاز القلب بصوت الحياة من جديد..وعادت العملية الجراحية لتستكمل نقل كُليتي..احتضنتني شهرزاد مُشفقةً عليَّ مما أنا فيه..احتضنت الرَّاوي.حضنًا دافئًا لكنه لم يحوِّ صقيعًا نفسيًّا..وصرختُ حينها موجعًا من آثار الضرب متكئًا برأسي على حائط الزنزانة.

-آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه.

كنا ثلاثة..واحدًا يتجرع كأسًا هو ساقيه الأول لأول مرة..كأس التعذيب..وثانيًا يحاول التوبة بنقل كُليته لطفل صغير لعلها تشفع لآثامه..وثالثًا يروي كل شيء والألم يعتصر قلبه على ظلمة حياته أملًا في توبة بعيدة ولقاء مستحيل بكابوس لا ينتهي.

و..اقتربت عقارب الساعة الصغيرة المعلقة على حائط بيت فتون فوزي البسيط من السابعة صباحًا..وقفتْ أمام مرآتها تستعدُّ ليوم سعيد..ستزفُّ إلى حبيبها إبراهيم ذلك المساء بالبيت نفسه..ملأت الابتسامة وجهها وهي تنظر لنفسها مرتدية فستانها الأبيض..ووقفت والدتها ليلى خلفها تنظر لها ودموع الفرحة بعينيها..الليلة هي أسعد ليالي عمرها الخمسين..أسعد من ليلة زواجها..

-بسم الله ما شاء الله قمر يا حبيبتي.

-حقًّا يا أمي.. ألن يحتاج بعضًا من السَّعة؟

-أراه رائعًا هكذا..كأنه مُفصَّل لك خصيصى. الله يكرمها هنية..اختارت لكِ فستانًا رائعًا..جديدًا وكأنك أول مَن تلبسينه.

-أنا سعيدة للغاية يا أمي.

-مبارك يا حبيبة قلبي. سأتركُكِ قليلًا لأكمل طعام اليوم، وأنتِ ارتاحي، ما زال اليوم بأوله.

تركتْها وخرجتْ ناحية المطبخ لتستكمل وليمتها الكبيرة استعدادًا للزفاف..ثلاثة أيام لا تفعل شيئًا سوى تجهيز طعام الفرح، تنام القليل رافضة أن تساعدها فتون بأي شيء..كانت سعيدة بتعبها.

-يكفي ذلك يا أمي..أنتِ مُتعبة للغاية.

-يوم زفافك هذا أحلم به منذ ولادتك..لا تشغلي بالك.

-كان من الأفضل أن نعقد الزفاف بالمسجد وكفى.

لم تدرِ والدتها ليلى أنها على موعد مع قدرٍ غائب سنواتٍ..وقفت مصدومة بارقة العينين من هول المفاجأة بمنتصف صالتها والأضواء تتلاعب وفروع النور بكل مكان..كان هو..زوجها الغائب منذ عشرين عامًا..أيعود الآن وبهذه الليلة؟ مفاجأة ألجمت لسانها..وقفَ فوزي مُبتسمًا لها ممسكًا مفتاح البيت بيده.

- راهنتُ نفسي أن مفتاحي ما زال قيد التشغيل.

-فوزي!

خرجتْ فتون من الداخل بفستانها وكأن مصيبة كبيرة سقطت عليها حين رأته..إنه هو..لا تخدعها عيناها..الأب الغائب يعود بعد عشرين عامًا..عاد بعد أن اقترب عمرُه من الستين..سقطت الدموع من عينيها وهُرعت لغرفتها وأغلقت بابها خائفةً..جلستْ على سريرها وانهمرت بالبكاء..وانعقدت مواجهة عمرها عقدين من الزمان..جلس فوزي على كرسي ناظرًا لليلى وهي تقذفه بأعتى نظرات الكُره والغضب المُستتر..

-ما الذي ذكَّرك بنا يا فوزي؟

ضربَ كفًّا بأخرى:

- ألستما زوجتي وابنتي..وما أملك من حطام هذه الدنيا؟

-زوجتك وابنتك؟ من رميتهما عشرين عامًا.

-لا اعذريني فأنا لم أخبرك..كنتُ مسافرًا و...

قالها بابتسامة باهتة فقاطعته على الفور بحدة:

-لا يهمني معرفة أين كنت..النتيجة واحدة.

-لكني أرغبُ بإخبارك.

نهض تجاهها مُحاولًا التقرُّب منها دون جدوًى:

-تحمَّلت الغربة لأجمع مالًا يُؤمِّن مستقبلكما، تعبتُ وتعذَّبتُ ونمتُ على الأرصفة..عملتُ ليل نهار دون جدوى..ما أربحه باليمين يُصرف بالشمال. عشرون عامًا ضاعت دون فائدة..تملَّكني اليأس فقرَّرتُ العودة لبلدي وزوجتي وابنتي.

وقفت لتبتعد عنه..واجهته بعصبية شديدة:

-وطول العشرين عامًا لم تفكر ولو لحظةً كيف تعيش زوجتك وابنتك؟ مِن أين تقتاتان قوت يومهما؟ ابنتك هذه التي تركتَها لي وهي بالمرحلة الابتدائية كيف تُكمل تعليمها؟ أتعود الآن في يوم زفافها بعد كل هذه المشقة؟

-كنتُ أعرفُ جيدًا أنك لها..وستتحمَّلين مهما يكن، دعينا ممَّا مضى بكل تعبه ومشقته..فلنعِشْ حاضرًا جديدًا معًا، ولنبدأْ من جديد حياة جديدة..أين فتون؟ فتووووووووووووون.. الحمد لله أنني وصلتُ بالوقت المناسب، مَن عريسها ذلك؟ أهو مناسب لها أم لا؟ مِن الآن وكل شيء سيتغير.

كاد يدخل غرفتها ولكنها منعته ووقفت أمامه بعينين يملؤهما الشَّرُّ:

-إياك والتدخل بحياتنا.

-يبدو أنك نسيتِ أنني والدها..فتووووون.

-انتظر هنا أنا أُحادثك.

حاول إزاحتها ولكنها تمسَّكت بذراعه بقوة شديدة..استلَّ ذراعه عنوةً منها.

-بهدوء يا امرأة..حرام عليك.

- يا أخي حرمت عليك عيشتك..لا تدفعني للصراخ بعلو صوتي وليجتمع عليك الجيران ويوسعونك ضربًا.

-يبدو أنك مشتاقة إلى ضربات يدي ورنة حزامي على جسدك.

-حسبي الله ونعم الوكيل فيك.

علا صوتهما ليُذكِّرها بمشاجرات زوجية عفى عليها الزمن كانت تتكرر ليل نهار قبل رحيله فجأة دون سابق إنذار..عادت العواصف تهبُّ بقسوة على حياتها مرة أخرى بعدما تعودت الهدوء النسبي..لطالما تحملتْ فتون قسوة الفقر والحرمان لحبها لوالدتها..فعلت ليلى كل ما بوسعها لتربيها وها هي نجحت بذلك؛ فاليوم زفافها إلى حبيبها إبراهيم، ولكن هل سيكتمل الفرح بقدوم غراب حياتهما الهارب؟ هل سيكتمل زفافها؟

عاد فتحي عبد العزيز بالساعات الأولى من الصباح لبيت والده الصغير بحارة عبيد قنديل بمصر القديمة..ترك دراجته البخارية أمام البيت وربطها بجنزير سميك بالباب..صَعَدَ للبيت على سلالمه المتهالكة، ودخل ليجد كُلَّ مَنْ بالبيت يقظًا..هكذا هم يبدؤون يومهم مبكرًا عكسه تمامًا..أطفال صِغار يلعبون، وآخرون بمرايل المدرسة وأغنية (يا حلو صبح) لمحمد قنديل تسمعها بالراديو الصغير الموضوع على منضدة خشبية صغيرة بصالة البيت..وأخواته البنات يساعدن أمهن بتحضير الفطور..أطباق من الفول والعسل الأسود والخبز الساخن..ألقى فتحي تحيته على الجميع:

-السلام عليكم.

التفَّ الأطفال حوله سريعًا فرحين بقدومه..

-كيف حالكم جميعا؟ كيف حال زوجك يا سيدة؟ هل هاتَفَكم أم لا؟

-فات أكثر من شهر يا أخي ولم يتصل بعد.. أخافُ كثيرًا عليه هذه المرة، يقولون إن ليبيا ممتلئة بالمخاطر هذه الأيام.

-إن شاء الله خيرًا وسنطمئنُّ عليه جميعًا.

-يا رب.

-كيف حالك يا أمي؟

قبل فتحي يد والدته المقترب عمرها من الستين عامًا.

-ستتناول فطورك معنا؟

-لا أنا متعب للغاية وأحتاج للنوم حالًا.

-والدك ينتظرك بغرفتك.

-لماذا؟ لماذا لم ينزل حتى الآن إلى عمله؟

-لا أعرف..أنه يريدك، ادخل وستعرف.

-حسنًا.

تركهم فتحي ودخل لغرفته..كان والده العجوز جالسًا على سريره بالغرفة ينتظره..رجل قاربَ على السبعين، ولكنه ما زال واقفًا على قدميه يعمل طوال يومه ليوفر لأولاده قوت يومهم..غابت ملامحه من كثرة تجاعيد وجهه..ولكنك ترى الرضا يملؤها..تشعر بالأمل حين تجالسه..يحبُّه كل سكان الحارة ويحترمونه..لم يفهم فتحي لماذا ينتظره على غير العادة..ولم يفهم فحوى حكاياته في هذه الساعة المبكرة عن حياته وهو شاب مثله..قاطعه فتحي:

-ماذا جرى يا أبي؟ ربع ساعة وأنت تحكي لي عن حياتك وأنت شاب، لماذا؟

-أخبرني يا فتحي..ما مهنتي؟

-ما معنى هذا السؤال؟

-فقط أجبني.

-بائع على عربة فول.

-وقبلها كنتُ أبيعُ أيَّ شيء بالقطارات، أي شيء..المهم أن أجد رزقكم الحلال مهما يكن قليلًا.

-مشكور يا حاج.

-أخواتك البنات جميعهن تسترنَ وتزوجنَ بهذا الرزق القليل.

-ربنا يخليك لنا يا حاج ويقدرني على رد جميلك وترتاح أنت وأمي من الشقى والتعب الدائمين هذين.

نَظَرَ له والده لحظات ثم نهض من مكانه وأغلق باب الغرفة بالمفتاح ووضعه بجيبه وسط تعجُّب فتحي ثم تحرك ناحية دولابه الصغير وفتحه وأخرج ملابس فتحي جميعها وألقاها على الأرض بهمجية لتظهر حقيبة جلدية صغيرة..فتحها ليُخرِج منها لفافات صغيرة من مخدر الحشيش ويلقيه بوجه فتحي.

- تريحنا بالحرام!

-أنا..

صفعه والده صفعة قوية صُدِمَ لها فتحي..لم يتوقف عند ذلك، بل خلعَ حزامه الجلدي وانهال به ضربًا على فتحي الذي حاولَ تلافي ضرباته دون جدوًى وعلا صوتهما صارخين:

-عِشتُ عمري كله شريفًا وتأتي أنتَ بآخره لتصمني بالعار والفضيحة أنا وأمُّك يا كلب!

-أنا لستُ بكلب..لستُ كلبًا.

- لا كلب ووسخ.

والدته تحاول فتح الباب من الخارج دون جدوى..طرقاتٌ متتالية على الباب:

-افتح يا فتحي..افتح الباب.

صرخ فتحي بوالده ماسكًا حزامه..فيقع والده أرضًا ويقف فتحي ماسكًا الحزام:

-فليكفِ يا أبي..كفى. علامَ تُحاسبني؟ على فقرٍ يُغرقني من يوم ولادتي؟ أم على عمر يتسرب أمام عينيَّ وأنا عاجز حتى عن العيش مثلك؟ لم أترك بابًا إلا وطرقته..لم أترك عملًا إلا واشتغلت به، صحفيًّا، مُصوِّرًا فوتوغرافيًّا على باب الله.. سباكًا، صبيَّ نجار..بنَّاء..ولا فائدة..أنتَ حافظتَ على نفسك وعلينا من الحرام، يا حاج ..أيّ حرامٍ تقصد؟ الحرام الحقيقي أنك بهذه السن وما زلتَ تقف على عربة فول ليل نهار، الحرام الحقيقي أن أمي ذات اليدين المرتعشتين ما زالت مُجبرة على العمل خياطةً للجيران، الحرام الحقيقي أن زملائي الحاصلين على شهادتهم الجامعية منذ خمسة أعوام كما هم، إما هاجروا للخارج هاربين من فقرٍ لا ينتهي وإما عاطلون على المقاهي عالةً على أهاليهم، فقر وذُلٌّ وهوان وقلة قيمة، أتستنكر أنني أحاول إخراجكم ونفسي من ذلك الهمِّ؟ أتراه حرامًا؟ الحكومة ذاتها تتاجر بالحرام، تبيع المخدرات بالصيدليات وتتاجر بالسلاح والعملة..أحلال على الحكومة وحرام علينا؟

سَيْطَرَ الذهول على والده..ما زالت الطرقات متلهفة على الباب:

-افتح يا بني..افتح. فتحي..افتح يا فتحي.

امتلأت عينا فتحي بالدموع..ألقى الحزام على الأرض بجواره وكَسرَ باب غرفته بقوة وخرجَ من البيت..حاولت والدته منعه فصرخ فيها:

-ابعدي عن طريقي يا أمي ..ابتعدي.

خرج فتحي بعدما ألقى قنبلته الناطقة بالحقيقة كما يراها الكثيرون مثله..الحقيقة العاهرة..أحيانًا كثيرة أتساءل: هل أغلبية المجتمع على حَقٍّ فعلًا أم مغيبون؟ هل ما ينادون به من مُثُلٍ وقيمٍ عُليا هي الحق أم هي مجرد قِناع زائف يُخفي ما هو أسوأ؟

يوم عصيب على الجميع وكأنه أقسم ألا يفرح أحد..خرج فتحي بدراجته البخارية يهيم بشوارع القاهرة لا يدري إلى أين يذهب..يعتصر الألم قلبه..تائهًا بدُنيا قاسية تلتهم آماله الضئيلة بعيش كريم..تردَّد كثيرًا قبل أن يذهب لوالده العجوز ووقفَ بعيدًا ينظر له وهو يعمل على عربة الفول ويجتمع حوله الآكلون يتناولون فطورهم في صمتٍ حاملين هَمَّ يومهم الجديد..وقف بعيدًا ينظر له فرآه..انهمرت دموع والده وابتسم له معطيًا إياه تصريحًا بالاقتراب من جديد..اقترب منه فتحي وارتمى بأحضانه مُقبِّلًا يده واختلطت دموعهما..وقف فتحي ذلك اليوم مكان والده يعمل صامتًا يُقدِّم أطباق الفول لزبائنه ووالده ينهش الهمُّ عقله.

وها هي نانسي نصير تعود لغرفتها بالقصر وتقف أمام صورة فرحنا باكية تشتاق إليَّ..حتى مجدي خرج من مكتبه مختنقًا وهامَ على وجهه بسيارته بالشوارع..لم يستطع تحمُّل تلك الجرعة الزائدة من القسوة ناحيتي..ونيفين تقف بشرفة بيتها يلتهمها قلقها الزائد عليَّ وعلى حالي..تنظر للشمس المختفية خلف شبورة كثيفة تملأُ الأفق..وكأن الرؤية انعدمت تمامًا حولها لا تكاد ترى أصابع يدها لو ابعدتها قليلًا ليلتهمها الضباب..وهكذا هي حياتنا جميعًا ضباب موجع يملأ حياتنا لا ندري متى يختفي..ووقفتُ أنا بزنزانتي الفردية تحت شباكها الصغير أنظر للضوء الخافت الداخل لها على استحياء وعينايَ تمتلئان بالانتقام..ولكن ممن سأنتقم..مؤكد ممن كان السبب وراء تجرعي هذه الكأس المحرمة على أمثالي..وأولهم اللواء شاكر..سأنتقم منه أشد انتقام فور خروجي من هذه الزنزانة البائسة..

ضباب كثيف بكل مكان حتى بداخل البيوت..جلست فتون بفستانها أمام مرآتها وعلى وجهها ابتسامة باهتة..صوت دقات الطبول والزغاريد من حولها..الغناء يملأ أذنيها:

-إتمخطري يا حلوة يا زينة يا وردة من جوه جنينة

شخص ما يقف خلفها ليفكَّ لها سحَّاب فستانها..تلتفت له بالمرآة لتجده والدها فوزي بملابسه الداخلية ينظر لها بشهوانية..دماء بكل مكان..تنظر ناحية سريرها لتجد حبيبها إبراهيم ميتًا مطعونًا بسكين.. صرخت فتون بصوتٍ مكتوم لا يسمعه أحد..هجم فوزي عليها ليغتصبها

وينهش جسدها ويخضب رجولته القذرة بدماء حبيبها..ذئب شَرِه قذر..كابوس مزمن..أفاقت فتون لتجد نفسها ما زالت على سريرها بغرفتها..غلبتها غفوتها بفستان فرحها..لا صوت بالخارج..انتهت نوبةُ خناقهما..صمت مريب..عيناها متورمتان من البكاء..خرجت بحذر للخارج..لا أحد..أنوار الصالة تتلاعب..الساعة الحادية عشرة صباحًا..تسرَّب أمل لداخلها على استحياء أن ما رأته مجرد كابوس هاجمها ليلة أمس..أمِلَتْ ألا يكون قد عاد فعلًا..نادت أمَّها الحبيبة:

-أمي..أمي..أمي.

لا أحد يُجيب..هل خرجتْ لجلب بعض الاحتياجات..صوت مياه مُنسابة بالمرحاض..يبدو أنها بداخله....اقتربتْ من بابه ونادت:

-أمي ..أنتِ بالداخل؟ أمي؟

لا رد..فتحت الباب بحذر..دخلت..مياه تنساب من البانيو الصغير..ستارة متآكلة تُغطي البانيو..

-أمي.

مَدَّت فتون يدها لتزيل الستارة لتجحظ عيناها من هول المفاجأة صارخة بكل ما أُوتيت من قوة:

-أمممممممممممممممممممممممي.

والدتها ليلى غارقة داخل البانيو وقد فارقت الحياة تمامًا..جثة هامدة.

وصدقت نبوءة مجدي نور الدين حينما أبلغني أنني سأفيق خلال ساعات..كنتُ أصدقه..فنحن محترفو التعذيب لا نترك أثرًا خارجيًا إلا ما نَدَرَ..وما هي إلا ساعات قليلة وكنتُ جالسًا أمام وكيل نيابة شرق القاهرة بصحبة المحامي الجهبز عبد الحميد نوار..جلستُ أستمعُ حينها لخطة خروجي من ذلك المأزق بهدوء شديد..كنتُ واثقًا بذلك.

-أظن أن الأمر أصبح جليًّا أمام سيادتك ..وينسخ أقوال الشهود تمامًا خاصةً أن تقرير المعمل الجنائي أثبت أن موكلي لا يتعاطى الخمور مُطلقًا وأثبتَ أيضًا أن القتيل كان مُتعاطيًا مُخدِّر الحشيش والمُحرَّز بجيبه تربة كاملة، والواضح لسيادتك هنا أنها قضية اتجار..والحرز الثاني..المسدس المسروق وعليه بصمات القتيل ..وهذا يثبت أقوال موكلي بأنه كان يطارده ولم يقتله إلا حينما بادرَ القتيل بمهاجمته أولًا، وهذا ثابت بأقوال بعض الشهود، إذًا هو ضابط شرطة يؤدي عمله وواجبه على أكمل وجه بمطاردة تاجر مخدرات.

نظر إليه وكيل النيابة لحظاتٍ ثم أمَرَ كاتب النيابة بجواره:

-أمرنا نحن..فؤاد عابدين رئيس نيابة شرق القاهرة بإخلاء سبيل العقيد نادر أمجد عبد الغني رشوان النصراوي واعتبار البلاغات المُقدَّمة ضده بتلك الجريمة بلاغات كيدية بعدما تبيَّن للنيابة أنه كان يُباشِر عمله على أكمل وجهٍ. وَقِّع يا سيادة العقيد.

وانتهت الأزمة..وأثبت أنه تاجر مخدرات بحِرزٍ وُضِعَ له خُفيةً..وتبدَّلت نتائج أخرى بنتائج تحليل دمي..ودُسَّ للقتيل مسدسٌ عليه بصماته..عظيم جدي الباشا..كنتُ أعلمُ جيدًا أنه سيُنجيني بأي طريقة..أُخليَ سبيلي وعدتُ للقصر بصحبة نانسي وأختها سما وتبعنا عزيز ونيفين بسيارتهما وعاد الباشا لمجموعته الاقتصادية يُباشِرُ عمله بعد ليلةٍ شاقة..لم أتحدَّث مُطلقًا..وعاد كُلٌّ إلى بيته وبقيت نانسي بجواري تربت عليَّ كطفلها المُدلَّل..خلدتُ للنوم بسريري وما إن وضعتُ رأسي على مخدعي حتى غِبتُ في سُباتٍ عميق كمن لم ينم طيلة حياته.

صدمة قاسية هبطت على فتون دون ميعاد..وغابت شمسها عن سمائها بغتة..لتصير حياتها قبرًا ضيقًا يكسر ضلوعها..فِراقها أضاع كل شيء..أضاع الحضن والدفء..أضاع الحياة..من سيحميها من ذئاب الدنيا بعدها؟ مَنْ سيسرق لها لحظات الفرح من براثن الأحزان الغارقة بها؟ مَنْ سيهون عليها الفقر والحرمان؟ وقفتْ فتون صامتة وكأن الزمن قد توقَّف عند لحظة اكتشافها لموتها..وكأنها تتمنى أن ترحل معها..ما زالت بفستان فرحها الشاهد على عذابها بليلة لن تنساها بقية عمرها. ألقتْ نظرتها الأخيرة عليها قبل أن يحملها رجال الإسعاف ويخرجون بها لمثواها الأخير..كان هناك ضابط شرطة بصحبة أمين للشرطة يُدوِّن أقوال الملعون فوزي والدها بالمحضر..جلس فوزي أمامهما يبكي بعينين كاذبتين:

- نزلتُ لأجلب طعام الإفطار يا باشا وهي قالت لي إنها ستأخذ حمامًا ساخنًا لحين عودتي، وعندما عدتُ وجدتها كما ترى ميتةً.. وابنتي اتصلت بِكُم قبل وصولي بدقائق، مسكينة.. فِقدان الأم كارثة كبرى يا باشا، الله يرحمك يا ليلى.

سـأله الضابط:

-أكان هناك أيُّ خِلافات بينكما؟ أي شيء يدفعها للانتحار؟

-أنا عائد مِن سفر طويل يا باشا بالأمس ليلًا.. سفر دام عشرين عامًا، كنتُ أشتاقُ إليها كثيرًا، الله يرحمك يا ليلى.

-وَقِّع هنا على أقوالك.

- أبصمُ يا باشا.

أخرج أصبعه ليبصم بالمحضر..أغلق أمين الشرطة محضره ونهض هو وضابط الشرطة يَهمَّان بالانصراف..

-مُرَّ علينا بعد ساعةٍ لتُكمل إجراءات الدفن.

- والجثة يا باشا؟

-تستلِمُها من المشرحة.

-مشرحة؟ لا إله إلا الله..أرجوك سيادتك...

-هناك شُبهة جنائية لا مفرَّ مِن تشريح الجثة.

-كما ترى يا باشا.. لله الأمر من قبل ومن بعد.

- البقاء لله.

-مع السلامة..مع ألف سلامة.

وخرج الاثنان وبقيَ الذئب بمفرده مع غنيمته فتون..تصنَّع البكاء:

-الله يرحمك يا ليلى. البقية بحياتك يا ابنتي.

نظرت إليه بعينين يملؤهما الغضب:

-قتلتَها؟

-ماذا؟

-قتلتَها؟

أعادتها على مسامعه وكأنها تصرخ.

-أجُننتِ مِن الصدمة؟

- قتلتَها..قتلتَها حينما تركتنا عشرين عامًا نشحذ قوت يومنا.. قتلتَها وهي تُصارِعُ الدنيا لتكمل تعليمي وترعاني ..قتلتَها حينما استبحت محارمك كالذئب المسعور الناهش لأي أحد وأي شيء مهما يكن حتى ابنته الوحيدة، قتلتها بعودتك من جديد لتُذكِّرَها بقرف عيشتك وسواد معاشرتك .

حدَّثته لأول مرة بثورة عارمة..كادت تنقض على رقبته لتُنهيَ حياته بيدِها.

-لن أرد عليك لأنني أُقدِّرَ مشاعرك الآن يا ابنتي.

-ابنتك؟ وقادر تنطقها ..حسبي الله ونعم الوكيل فيك..حسبي الله ونعم الوكيل فيك.

دخلت غرفتها تاركة إياه بمفرده وأغلقت بابها بحدة شديدة..تعالى صوته بعصبية هو الآخر ناظرًا حوله لفروع النور فبدأ في إزالتها واحدًا تلو الآخر..

-حسنًا يا فتون، ادْعِي الله على والدك بدلًا من الترحيب به، ليكن بمعلومك أنا هنا من الآن رجل البيت الآمر الناهي بكل شيء، وأوامري ستنفَّذ حتى لو كانت غصبًا عنك، من هذه اللحظة نظام آخر، انسي ما عِشْتِه مع أمِّك من تسيُّبٍ وحريَّةٍ زائفة، انتهى..لا أفراح هنا إلا بإذني.. لا زواج إلا بأمري. أنا أبوكِ غصبًا عنك وعن أمِّك.

نوبة من البكاء الهستيري غابت فيها فتون بغرفتها..كانت تتوقع ما هو أسوأ..حبيبها إبراهيم يأتي لإلقاء تحية الصباح يوم زفافهما فيقابل ذلك الذئب الكريه..استمعت لصوته بالخارج يقوم بطرده:

-لا بنات هنا للزواج، وإياك ورؤيتك هنا مرة أخرى. هيا انصرف وإلا قتلتُك لتؤنِسَ حماتك بتربتها.. هيا.

سيطر الذهول على إبراهيم وخرج..مضى دون مقاومة..كانت تتمنى حينها أن يقتلَه ويُهرِّبَها من سجنه وإجرامه القذر..ولكنها لم تحكِ له أيَّ شيء عنه من قبل..ربما تفاجأ وشُلَّ تفكيره..وبقيت فتون وحيدة تتألَّم من فِراق والدتها..تتلوَّى من ألم صحبته الجبرية على حين غِرة..تعلم أن القادم أسوأ بكثير مما مضى..القادم وَحْلٌ مُغرِق لن تنجو منه إلا بمعجزة إلهية..فَقَدَتْ فتون وعيها من كثرة البكاء وراحت في سُبات عميق تستقبل كوابيسها بوهن وخُنوع..حتى الأحلام محرمة عمَّن مثلها..مسكينة هي..تلك الرقيقة كالوردة الوحيدة الباقية وسط عاصفة لن تنقطع..وسط كابوسٍ مُخيف.

اضطراب

(الخامس عشر من أبريل)

شمس حارقة تُلْهِبُ رأسي..تائه بصحراء جرداء لا ماء فيها ولا حياة..ألهثُ كالمجنون تتابَعُ أنفاسي تبحث عن هواء يملأ رئتيَّ فلا أجِدُ..ضيق شديد يحاصرني..كابوس مُتكرِّرٌ لا نهاية له..أنظر حولي يائسًا لعلي أجد منقذي البعيد من ذلك التِّيه..وكأن البشر قد هجروا مدينتي..أصبحتْ خرباء لعينة منذ زمن بعيد..كنت عاريًا تمامًا إلا من قطعة قماش صغيرة تلتفُّ حول عورتي..أنا كالمغضوب عليهم لا جنة ولا نار..تلتفُّ آثامي حولي كالأفعى الماكرة..تُظهِرُ حنانًا زائفًا لتجرَّني أكثر وأكثر حتى تحكم سيطرتها عليَّ لتلتهمني كاسرة ضلوعي..حتى تلك النهاية المؤلمة لن أحصل عليها..خرف زائد عن الحد..الشمس تغتالني..العطش يبارِزُني بكل ما أوتيَ من قوة..تَغْرِزُ قدمايَ بالرمال الملتهبة..صوت بعيد يأتي..نظرت بشغفٍ باحثًا عن مصدره..هناك على مرمى البصر تجمُّع لبعض الناس..هُرعت ناحيتهم بكل قوتي..يتضح الصوت كلما..اقتربتُ..موسيقى بيتهوفن المسماة بالقدر..تظهر ملامحهم أكثر وأكثر..إنها فرقة موسيقية كفِرق الأوبرا تعزف تلك الموسيقى..عجبًا لذلك! هنا في الصحراء؟ مِنصة خشبية عالية وكأنه حفلٌ موسيقيٌّ يقف المستمعون أسفله بينما انهمكت الفرقة بالعزف أعلاها..قاومتُ قدميَّ المنغرزتين بالرمال واقتربت أكثر..عجبًا لما أرى! بدتْ ملامحهم واضحة تمامًا..فرقة الأوركسترا المرتدون بدلًا أنيقة سوداء اللون وبعض النساء بفساتين ليلية متلألئة..وهكذا الجمهور الواقف..بعضهم يرقص على الموسيقى والبعض يشاهد..حفلة بالصحراء..دققتُ النظر أكثر..إنه جدي عبد الغني النصراوي يقود الأوركسترا بعصاه الموسيقية..ذُهلتُ حين وجدت زوجتي نانسي وأختها سما تعزفان على آلات موسيقية..مجدي نور الدين يقف على اليسار كضابط أمن يتابع الحفل..وها هو عزيز يقف بالأسفل مدمع العينين ناظرًا لشخص ما..التفتُّ فرأيت نيفين تقف بمنتصف الجمهور مثبتة عينيها على شيء ما على المنصة، وعيناها تنهمران بالدموع..تبعت عينيها..شخصٌ ما يجثو على ركبتيه مخفضًا رأسه بمنتصف المنصة..لم أرَ ملامحه لغطاء أسود موضوع فوق رأسه المنخفض..العزف يزداد إيقاعًا ورهبةً..انهارت قوايَ تمامًا فسقطتُ على ركبتيَّ بالقرب منهم جميعًا..الحفل يبعد عني بنصف كيلومتر تقريبًا..حاولت الصراخ ليسمعني أحدهم..صوتي مكتوم تمنعه أحبالي الصوتية من الخروج..أوشكتُ على الموت..ما من منقذ

لي..الغوث..الغوث..زحفتُ على الرمال مخترقًا أقدام الراقصين..لا أحد يشعر بي..تكاد أقدامهم تدهس رأسي لتدفنه بالثرى..لعلي أتطهَّر..توقف الزمن حينها..الموت يقترب، أشتمُّ رائحته اللعينة..إيقاع الموسيقى يزداد علوًا وحدة..نظرتُ لنيفين الواقفة بالقرب مني..لا أحد يراني..الوحيدة المرتدية ملابس عادية مغايرة لزيِّ الحفل الذي أرى..لا أحد يسمعني..أشخاص تدخل على المنصة تجرُّ هيكلًا خشبيًا عاليًا..إنها مشنقة عالية يجرونها على عجلٍ..حبل سميك يتدلَّى تتساقط منه الدماء..الموسيقى تتعالى..نيفين تنهمر بالبكاء..لا أفهم شيئًا..التفَّ مجدي وأعطى المنصة ظهره ناظرًا ناحية الجمهور المنشغل بالرقص..الفرقة تزيد من عزفها أكثر وأكثر..عبد الغني النصراوي جدي يترك عصاه ويلتفتُ ناحية الشخص الجاثي على ركبتيه بشَرٍّ شديد..يتحرَّك ناحيته..يزيل الغطاء الأسود عن رأسه..يرفع رأسه..لا أُصدِّق ما تراه عيناي..إنه أخي الصغير..أحمد أمجد رشوان..مُكبَّل اليدين..خاضع تمامًا له..يقوده للمشنقة بيده..العزف يزاد حِدَّة..الرقص حولي يزداد..تقترب أرجلهم على دهسي..أحاول الصراخ دون جدوى ..صوت بكاء نيفين يتعالى..يلتفُّ الحبل السميك حول رقبته..يبتسم الباشا خُبثًا ومكرًا ودهاء..مَدَّ يده على مقبض المشنقة..خرج صوتي أخيرًا بصرخة عالية لم يسمعها أحدٌ غيره:

-أحمممممممممممممممممممممممممد.

نَظَرَ ناحيتي مُبتسمًا..قبل خروج روحه..قال اسمي.. آخر ما لفظه لسانه

-نادر

جذب الباشا مقبض المشنقة فتعلَّق عاليا..مات أخي الصغير..وانتهت المعزوفة ووقف الجميع يحيون الجماهير والباشا بمنتصفهم..يحيونهم على جثة أخي المعلقة..والآن دهستني الأقدام..رحت تحتهم أشتوي برمال محرقة..

صحوتُ من نومي وقلبي ينتفض حزنًا.. كابوس مرعب لم يزُرْني من قبل..بدأت كوابيسي تزداد هذه الأيام..

نظرتُ بجواري الساعة الحادية عشرة قبل منتصف الليل..نانسي نائمة على غير عادتها..جلستُ متنهدًا مُفكرًا في الكثير من الأمور..نفضت غطائي واتجهت إلى حمامي الكبير..فتحتُ صنبور المياه ووقفتُ كثيرًا أنظر لنفسي بالمرآة..وكأنني لا أعرفني..ما هذه الهموم التي تحيط بي؟ ولماذا أشعر بالحزن بداخلي بتلك اللحظات؟ وضعتُ رأسي أسفل المياه لعلها تغتسل من تلك الهموم اللعينة.

ارتديتُ ملابسي في هدوء وخرجتُ من غرفتي..هبطت سلالم القصر وصوت حزين يقترب من أذنيَّ..موسيقى بيتهوفن معزوفة حزينة على البيانو..ابتسمت..إنه أخي الحبيب الصغير أحمد..يبدو أنه جالس بغرفته منعزلًا مع موسيقاه على البيانو الخاص به..هكذا هو دائمًا..يجلس بمفرده بعيدًا بغرفته بمملكته الخاصة مثلي، ولكنني أمتلكُ مكانًا آخر بصومعتي البعيدة، إنما هو اكتفى بغرفته كصومعةٍ خاصة به..أحمد أمجد رشوان الشاب القليل الكلام الحالم الهادئ الرومانسي هكذا أطلقتُ عليه.. كنتُ دائمًا أُداعِبُه بأنه لو كان يملك صوتًا عذبًا

ليغني لكان أفضل من عبد الحليم حافظ بزمنه....اقتربتُ من غرفته والدموع تملأ عينيَّ ما زلتُ متأثرًا بكابوسي الأخير ولحظات فراقه للحياة به..مددتُ يدي لأفتح باب غرفته ثم توقفتُ..مسحتُ دموعي وحاولتُ تغيير ملامحي للحدة قليلًا..دخلت غرفته..لم يشعر بي..كان مُنهمكًا بعزفه..غرفة مغلقة الشبابيك وتكسوها الستائر..أعقاب سجائر مُلقاة هنا وهناك..ملابسه المتناثرة بكل أرجاء الغرفة تُضفي حالة من الفوضى..نظرتُ إليه..سيجارة بفمه مشتعلة وتنفث دخانها بعينيه ويتساقط رمادها على البيانو بينما هو منهمكٌ بالعزف وكأنه في دنيا ثانية لا يشعر بوجودي..زجاجة من الخمر بجواره بها القليل..

ظللتُ هكذا كثيرًا أستمع لعزفه دون أن يراني..وانتهى أخيرًا من مقطوعته المعزوفة على أوتار قلبه..مَدَّ يده ليشرب آخر ما تبقَّى من زجاجة خمره..فرآني..نظر إليَّ متعجبًا:

-نادر!

جلستُ على طرف سريره بالقُرب منه ممسكًا بسيجارة من سجائره المنفرطة على البيانو أعلاه وأشعلتُها.

- لم تحضر زفاف أختك ولم تسأل عن أحوالي بمحنتي، إلى متى ستظلُّ مكتئبًا منعزلًا هكذا؟

انهمرت دموعه تلاحِقُ بعضها البعض..نهض مبتعدًا في رُكن من الغرفة..التفتَ ونظر ناحيتي وجلسَ على الأرض منكمشًا كجنين يرفض الخروج للحياة..

-لا أقوى على نسيانها.. محال المُضي بحياة لا تحويها.

حُبٌّ موغل في العِشق فَقَدَه أحمد..كان كالحياة بالنسبة له منذ رحيلها عنه فَقَدَ قُدرته على التنفس وانزوى بغرفته بعيدًا رافضًا كل محاولة منا للتدخل وراكلًا أيادينا الممدودة له بالمساعدة..نهضتُ واتجهتُ ناحيته ومددتُ له يدي..نظر لي واستمرَّ ببكائه..جلستُ بجواره بمثل وضعه تمامًا وقصصتُ عليه لأول مرة حكاية لا يعرفها أحد.

-أتعرف! منذ زمن ليس بالقريب.. منذ عشر سنوات تقريبًا.. كنتُ شابًّا يافعًا مُقبِلًا على الحياة تخرَّج للتوِّ في كلية الشرطة. نور قلبي كان يضوي ليعمي عينيك..كنتُ مشتاقًا إلى الحب كطفل يشتاقُ إلى أحضان أمه، وقابلتها..مَنْ خطفت قلبي لأول نظرة..لا أدري كيف استولت على كل حواسي وعقلي ومشاعري..تعلقتُ بعينيها..بلمسة يديها..بلفتاتها..بعطرها الأخَّاذ..بدفء نظراتها..ومضت سنة من أروع سنوات عمري..جنة من السعادة لا تنتهي، كانت تحبُّ الرسم..رسمنا معًا حياتنا ومستقبلنا واتفقنا على الزواج.

نظر إليَّ أحمد حينها مُتعجبًا.

- لَمْ تحكِ لي هذه القصة من قبل.

نظرتُ إليه والدموع تتساقط من عينيَّ تخترق ابتسامتي المُصطنَعة:

-وبلحظة اكتشفتُ خيانتها..أصابني الجنون..كيف لهذا الملاك السارق لكل حواسي بالخيانة؟ كيف خدعتني بهذه البراعة؟

سألني أحمد بشغفٍ وكأنني انتشلته من حُزنه لحظاتٍ ليهتمَّ بي:

-كيف؟

-حبيبها هاتفني وحكى لي ما بينهما وطلب مني الابتعاد عنها، واجهتُها..بكت.. قالت لي..إنها اكتشفت أنها لا تحبُّني وخافت أن تجرحني ..ابتعدتُ وعلاماتُ الاستفهام تُصارعُني، كانت تواعدنا نحن الاثنين وتعانق قلبينا الساذجين بآنٍ واحد، ابتعدتُ وقد صرتُ شخصًا آخر فررتُ وبداخلي شخصان متصارعان ينهشان بعضهما البعض، شخصٌ يحبُّها وشخص يتمنَّى قتلها واختفت ..ومرَّت الأيام..وها هو أنا أمامك..الحياة استمرت ولم تتوقَّف عندها، أنت أيضًا عليك نسيانها وتكملة حياتك يا أحمد.

كانت يدي تحتضن يده محاولة إخراجه مما يغرق فيه..أعرف ذلك الحزن جيدًا..ألم يدفعك للانتحار كل لحظة..يُفقِدك الرغبة بالمُضي بدُنيا تخلو من عشقك الوحيد..نظر لي غارقًا بدموعه ..

-أنا غيرك..لسببٍ بسيط أنا مَن قتلها..أنا من سلَّمتُها للموت بيديَّ.

-قدر ومكتوب.

نهض ثائرًا يجوب أنحاء الغرفة صارخًا:

-لو كنتُ تزوجتُها لكان تغيَّر كل شيء. كانت ستعيش بجواري ننعم بحياتنا معًا، وننعم بمن مات ببطنها وأماتها بسبب خنوعي وضعفي.

حاولتُ تهدئتَه:

-أحمد..لا تنبش بدفاتر مضتْ..لا تقسُ على نفسك.

- آه لو كنتَ رجلًا؟ آه لو رفضتَ أوامر جدي وتزوجتها؟ آه..لو لم أكن ضعيفًا خاضعًا؟ أنا من قتلها وقتلتُ ابني..أنا قاتل جبان..

احتضنتُه واختلطت دموعنا..له كل الحقّ فيما يشعر..كان ضعيفًا ولم يستطع حمايتها والزواج بها والخروج من إمبراطورية الباشا فارغ اليدين..اعتاد مثلي المال والجاه، ومِن المستحيل الاستغناء عنها..وقف مشلول اليدين والعقل، وهي لحبها له أجهضت جنينها ليموت وتموت معه..معلنة له حبَّها الشديد لحظة خروج روحها..لم ينسَ أحمد تلك اللحظة قط مثلي تمامًا..لم أنس خائنتي..أتذكَّر عشقي لها دون جدوى..صدق أخي..نحن مختلفان حقًّا..كلانا يتعذب لذكرى أليمة..ولكن شتان بين الإخلاص والخيانة..شتان بين الحب والغدر..احتضنَ كلٌّ منا ذكراه بعيدًا في صومعته..وحيدًا مُعذَّبًا.

تركتُه وخرجتُ..انطلقتُ بسيارتي وأنا أعاني مرارة فِراقها إلى الآن..وتواردت روحي مجددًا بمكان آخر..شعر به قلبي ورأته روحي ولكن عقلي يمنعه من الاقتراب من بصيرتي ..بيت فتون..ذلك البيت المليء بأحقر ذكرياتها وأقذرها من والدها الكريه..جلس فوزي بفانلته الداخلية على منضدة صغيرة بالصالة يفترش رطلًا من الكباب ويرتشف البيرة من زجاجة بجواره..وكأنه حيوان يستعدُّ لنهش ضحيته من جديد..فتون تلك الفتاة الرقيقة المظلومة ربطها على كرسي خشبي وقيَّدها وأغلق فمها بغطاء رأس والدتها..منتهى القسوة والحيوانية..كان ذلك بعدما اعترضت على طرد حبيبها إبراهيم بعدما استيقظت من نومها لتعلن له عن إحساسها السيئ تجاهه ورغبتها بعدم العيش معه..جاءتها الجرأة لذلك فانفجرت بوجهه..ولكنه لم يعطها الفرصة كثيرًا، فقام بتقييدها وكتم صرخاتها..وخرج ليشتري عشاءه..جلس يأكل ويشرب دون أن ينظر ناحيتها معطيًا إياها ظهره:

- أمك كانت امرأة نكدية تعشق الغَمَّ ليل نهار، تركتُ لها البلد كلها وفررتُ بعيدًا بسببها..الله يجحمها بقبرها..اللهم آمين، أقول لك شيئًا..انسي..ما فات مات، لا داعي لتذكُّر الماضي..لنبدأ صفحة جديدة بحياتنا..بيضاء، ولكن بقواعد أضعها أنا أبوك..أريدك دائمًا أن تتريثي قبل الإقدام على أي عمل يزعجني..وبالأخص هذه الأيام، عليك مُطاوعتي وتنفيذ رغباتي حتى قبل النطق بها، طاعة الأب واجبة..وبالوالدين إحسانًا..وأنا أبوك وأخاف عليك، وهذا الشاب الفقير المتقدم لزواجك مرفوض..ليس من مستواك إطلاقًا، غدًا ستشكرينني على ذلك..أنت جوهرة وتحتاجين إلى صائغ ماهر ليحافظ عليك ويزيد من بريقك وتوهجك..هذا الشاب مرفووووووووووووض.

انتهى من تناول عشائه ووقف ينظر لها بشهوانية من أخمصي قدميها حتى رأسها..نظرات قذرة لا تخرج إلا من ذئب شَرِهٍ..اقترب منها والدموع تتلاحق بعينيها..فَكَّ وثاقها ودفعها بقوة ناحية غرفتها..قاومته كثيرًا ولكنه انهال بالضرب عليها حتى فَقَدَت وعيها تمامًا..ألقاها على سريرها ووقف ينظر لجمال جسدها تحت فستان زفافها الذي هدمه بقدومه..فَكَّ سحَّاب الفستان وعاودَ قذارتَه من جديد ينهش جسدها البريء ينهل من بحر جمالها المُحرَّم عليه..

كنتُ قد وصلت لهضبة المقطم ووصل قبلي عزيز ومجدي، الاثنان وقفا ينتظرانني بجوار سيارة عزيز..هاتفتُ عزيز فور نزولي من القصر وطلبتُ منه إحضار مجدي ومقابلتي..قصصتُ عليهما ما حدث ليلة أمس..حكيتُ لعزيز بالأخص قصة عباس الدمراوي منتظرًا منه تفسيرًا لرؤيتي إياه مرتين على الرغم من قتلي إياه قبل أيام بيدي..من المؤكَّد أن لديه تفسيرًا لذلك كونه طبيبًا نفسيًّا..وبالفعل أجابني بما كنتُ أخافه..قنبلة جديدة تنضمُّ لعذاباتي المؤخرة وهمومي..

- ما تحكيه يا نادر ليس له إلا معنى واحد فقط Schizophrenia أعراض فصام.

نظرت له مذهولًا:

-أنا؟

- الهلاوس والضلالات البصرية مِن أهم أعراض الفصام ..والتوهُّم بأن هناك شخصًا ما يرغب بإيذائك ورؤيتك أشخاصًا أو أحداثًا غير حقيقية يؤكد ذلك العقل الباطن حينها يدخل رويدًا رويدًا حالة من التضخم والسيطرة على العقل الواعي دون إرادته وبالتدريج يعيش المريض عالمًا من الأوهام والهلاوس والشكوك متوهِّمًا أن هناك مؤامرة للقضاء عليه ممَّن حوله.

قاطعه مجدي سائلًا له بجدية شديدة:

-عزيز..هل تدرك خطورة كلامك؟

-لا يوجد تفسير آخر لما حدث. أنتَ رأيتَ مجرمًا مرتين بعد قتلك له بيديك وليس هذا فقط..أنت طاردته وقتلت شخصًا آخر بريء كنتَ تتوهَّم أنه ذلك المجرم، عقلك الباطن بهذه اللحظات كان مسيطرًا تمامًا عليك.

حاولتُ رفض تلك الحقيقة ونفيها على الرغم من علمي بصحتها، فكنتُ أتوقَّع ذلك قبل سماعه من عزيز، ولذلك هُرعت لأسأله لأتيقَّنَ من معلومات بحثي على الإنترنت عن هاتفي المحمول قبل الاتصال بهما.

-ليس حقيقيًّا..أنا لستُ بمريض. وهذه الظروف الصعبة التي مررتَ بها لا تعطيك الحق لتصمني بهذا التفسير أبدًا.

نظر لي ماسكًا كتفيَّ بجديةٍ شديدة:

-نادر عليك ببدء العلاج فورًا.

وتفرَّق جمعُنا..ركب مجدي معي بناء على طلبي..كان يداري عينيه مني طوال الوقت وكأنه يدرك أنني استمعتُ لحواره معي بعد تعذيبي، ولكنني لن أتحدث مطلقًا بذلك..ولن أُظهِرَ له أبدًا أنني سمعته بغيبوبتي..انطلقتُ بطريقي وهو بجواري وكلمات عزيز الأخيرة ترنُّ بأذنيَّ:

- لا تُصعِّب الأمور على نفسك يا نادر، سأجلب لك مُهدِّئًا قويًّا عليك تناوله بانتظام دون توقف حتى تتحسن..وأرجوك أنتظرك بعيادتي لنتحدَّث وتفضفض لي قليلًا، لا تَخَفْ، كُلُّ شيء له علاج.

نظرتُ ناحية مجدي وألقيتُ إليه أمرًا نافذًا:

- مجدي ما استمعتُ له الليلة..مُحرَّم عليك النطق به لأي مخلوق.

-حاضر.

وبلحظة واحدة كانت روحي بمكان آخر كعادتها..الآن أنا بغرفة الألعاب بفيلا والدي القديمة ليلًا..أرى إخوتي نائمين وأنا طفل بجوارهم نائم كالملائكة..كنتُ نائمًا على كرسي بالحجرة منكمشًا كالأطفال ناظرًا إلى والدتي رضوى التي لا تراني وكأنني جنين صغير يصرخ رغبة

بحنانها واتخاذ قلبها درعًا لتلك الحياة القاسية دون جدوى..كانت شهرزاد تنظر لي مُشفقةً عليَّ:

-حضنها كان قِبلتي الوحيدة للأمان بذلك العالم.

-لا بد أن تشعر بالخوف..لا مفرَّ من ذلك.. شعور إنساني.

-الخوف موت.

-واجِهْ مصيرك وطهِّر نفسك..حاول.

-لا رجوع..مَنْ يخطُ بقدميه بوحل الظُّلم مرةً يَغُص فيه مراتٍ ومراتٍ حتى يغرق.

-حاول.. كل شيء يمكنك معالجته..لكُلِّ داء دواء.

وقفت بعصبية شديدة:

-أتصدقينه؟ أنا لستُ مريضًا، لستُ مريضًا.

نهضتْ تنظر بعينيَّ بحدةٍ:

-عنيد.

-بصير.

أجبتُها كعالم كبير يفهم خبايا الأمور جيدًا.

-وماذا بعد؟

سألتني حينها لأكمل حكايتي وهمومي وتلك المآسي التي أقصُّها تِباعًا عليها كما حدثت بالسنة الأخيرة لي قبل تلك الغيبوبة الجبرية بمخدر الطبيب التي أتمنى أن تستمر طوال العمر لأبقى هنا بصحبتها حتى تفي بوعدها بلقاء أمي واحتضانها، فأنا أعلن التوبة بكابوسي ذلك، ولكن بالحياة تحاوطني آلاف القيود تمنعني من إعلانها..وأولها عقلي المُكبَّل الآن بمخدر الطبيب..يملؤه الغيظ لما تعلنه نفسي من رغبة بالتوبة، ولكنه لا يستطيع فعل أي شيء..عقل يقودُني للشَّرِّ، ونفسٌ تتمنَّى التوبة..يا ليتني أبقى هنا! كابوس بتوبة أفضل من حياة بفسق وفجور..نظرت للأفق من شُرفة غرفة الألعاب.

-اقتربت النهاية أكثر وأكثر ..وعلقت قدمايَ بشَرَكٍ مُحكَم. لغز كبير نسج خيوطه حولي وكَتَبَ نهايتي

-لا أفهم ما ترمي إليه؟

-ما جرى بعد ذلك كان..

صرخت نيفين الصغيرة مفزوعة من نومها وكأنها تخرج من كابوس مخيف على سريرها لتقطع قصتي..

-أمي.

هُرعت رضوى والدتي إليها واحتضنتها:

-بسم الله الرحمن الرحيم، ما الأمر يا حبيبتي..حلم قبيح؟

-نعم يا أمي.

-هوِّني عليك يا روحي..نامي..لا تخافي وأنا بجوارك. نامي يا روحي.

دقائق قليلة ونامت وأنا أنظر إليها مُبتسمًا..وشهرزاد تنتظر قصتي..حاولتُ مرارًا وتكرارًا أن أكون لنيفين منبعًا لحنان أمِّنا المفقود، ولكنني فشلتُ، فلا شيء بالحياة يُضاهي الأمَّ..

قفزتْ ذاكرتي سريعًا لليلة نفسها..هُرعتُ لبيتها المشترك مع مجدي محاولًا تلطيف الوضع القائم بينها وبينه الذي أدركُ أنه توتَّر كثيرًا بسببي الليلة الماضية..جلستُ بكرسي الصالون الجديد ناظرًا للاثنين محاولًا أن أمارس دوري كوني أخًا كبيرًا لهما لأصفي تلك الدموع المحتقنة بعينيها.

-عليكما ألا تتأثر حياتكما بأي أحدٍ مهما يكن حتى لو كان أنا..نيفين..مجدي كان يباشر عمله ولو كنتُ مكانه لفعلتُ أكثر من ذلك، أقسمنا أن نطبق القانون مهما تكن العواقب، عليكِ أن تتباهي بزوجك الضابط الشريف مُنفِّذ القانون دون هوادة حتى على أقرب الناس إليه، مجدي ضابط ملتزم وعليكِ تفهُّم ذلك جيدًا

-أنا..

قاطعتُها قبل أن تنطق بما أعرفه وأدرِكه جيدًا..ستخبرني حتمًا بمكانتي الكبيرة لديها وأنها لن تقبل أن يتعدَّى عليَّ أي أحدٍ مهما يكن هو..ولكني لن أستمع لها الآن..قاطعتُها لأُنهي ذلك الموقف المُحرِج للجميع:

-نيفين..كَفى يا حبيبتي..سأعدُّ الليلة بدايةً جديدةً لزفافكم، وعذرًا على تعكير صفو فرحتِكما.

..اقتربتْ مني والابتسامة تشقُّ وجهها على استحياء،.نظرتْ بعينيَّ وقبَّلت خدي فقبلتُها هي الأخرى:

-أتعرف أنك أعظم أخٍ بالدنيا؟

-وأنتِ أجمل أخت بالدنيا.

-ربنا يسعدكما.. تصبحان على خير.

نهضتُ لأهُمَّ بالانصراف بعدما نجحتُ بمهمتي جزئيًّا..استوقفني مجدي:

-نادر..إلى أين؟

-لا تشغل بالك يا صديقي..دعني وشأني، أمامك ليلة سعيدة..ركِّز بها، أنا مُرهَق للغاية وأحتاج إلى الراحة. تصبحان على خير.

-وأنتَ من أهل الخير.

خرجتُ وأغلقتُ بابهما خلفي..تمنيتُ السعادة لهما من كل قلبي..لو أني أستطيعُ شراء كل سعادة العالم لنيفين وأحمد أخويًّا لفعلتُ ذلك..كم أحبُّهما على الرغم من بُعدي عنهما أحيانًا لظروف عملي وحياتي! خرجتُ وأنا أعرف وجهتي على الأقل تلك الليلة..سأذهبُ لصومعتي لأبحث عن أي بصيصٍ من الراحة.

تتردَّد كلماتُ عزيز بأذنيَّ لتفترس عقلي:

- العقل الباطن حينها يدخل رويدًا رويدًا، حالة من التضخم والسيطرة على العقل الواعي دون إرادته وبالتدريج يعيش المريض عالمًا من الأوهام والهلاوس والشكوك مُتوهِّمًا أن هناك مؤامرة للقضاء عليه ممَّن حوله.

أرى وجوه كل مِن حولي تتداعى أمام عينيَّ وأنا أقود سيارتي، أراهم ضاحكين مستهزئين بحالتي..الجميع ما عدا إخوتي وعزيز..كان صديقي المُقرَّب دومًا وأعلم أنه حزين لحالي..ولا أدري لماذا تغيرت نظرتي لمجدي بعد هذه الليلة..من المؤكَّد بسبب ذلك الحديث المعترف به في أثناء غيبوبتي..وعلى الرغم من أنني أغفر له ما قاله ولكن هناك جدارًا ما بُنيَ بيني وبينه تلك الليلة، الجدار الفاصل نفسه بيني وبين جدي الباشا وزوجتي نانسي وأختها سما جدار عازل يراه عقلي الباطن ويشعر به..لا أجد مصطلحًا مناسبًا لأصِفَ به ذلك الجدار..لعله خفوت في المشاعر..ترقُّب..تحفُّظ..لا أدري..سأقذف نفسي بصومعتي لعلي أهدأ....سأتقوقع داخلها كأخي أحمد..صومعتي البعيدة.

وارتفع أذان الفجر مُعلنًا قُرب انتهاء تلك الليلة الحزينة..وهبَّ العابدون المشَّاؤون بالظلمات لدروب ربِّهم العظيم..الساجدون بين يديه يطلبون رحمته بكل صلاة..وهناك آخرون يتخفون بينهم يخادعون الله، على قلوبهم رانٌ، وفي آذانهم وقرٌ، وعلى أبصارهم غشاوةٌ إلى يوم الدين..

توضأ فوزي وسجد لله يصلي له نِفاقًا ورياء بصالة بيتهم، وانهارت فتون ببكاء مكتوم على سريرها تغطيها ملاءة تضمُّ قدميها مكتومة الفم وفستان زفافها ملقًى أرضًا..خناجر من السُّمِّ تطعن قلبها منذ الصغر..منذ أن استباحها واستباح جسدها..كتمت تلك الكارثة عن الجميع وتناستها برحيله، ولكنها بقيت حية داخلها تهاجمها بكوابيسها وبعودته عاد كل شيء كما

كان..ذئبٌ شَرِهٌ لن يتوانى عن نَهْشِ جسدها ليل نهار..علامَ يُصلي..أيغفر الله لمثله؟ مأساة متكررة لا نهاية لها.

وانتهى أذان الفجر وفُتحت أبواب المساجد..واختلط العابدون بالمنافقين..وها هو واحد منهم.. فتحي عبد العزيز يدخل المسجد ليتوضأ وانضمَّ للمصلين بآخر صَفٍّ..وقف بين يدي الله وعقله بمكان آخر..وما إن انتهى المصلون من صلاتهم حتى لاحت نيَّاته بذلك المسجد المنزوي بحي العباسية..مَدَّ يده ليُسلِّم على مَن بجواره..رجل في الأربعين من عمره مرتديًا جلبابًا طويلًا أسود اللون يعلوه عباءة قيمة..له لحية طويلة غير مُهذَّبة..إنه فريد الدمراوي ذلك الإرهابي الباحث عنه الجميع..تصافح الاثنان:

-تقبَّل الله يا شيخ فريد.

-تقبَّل الله يا أخ فتحي.

خرجا من المسجد بصحبة رجلين آخرين يبدو أنهما يحرسانه، وكان هناك توكتوك ينتظرهم فركبوه..وانطلقَ من شارع إلى شارع..ومِن مدقٍّ إلى آخر..كان فتحي هو مُرْشِدَهُم معطيًا السائق ملامح الطريق..حتى وصلوا لبيت قديم من خمسة أدوار ودخل الجميع وهبطوا سلالم البيت للأسفل..فتح فتحي قُفلًا كبيرًا على باب يواجههم ودخلوا..دخلوا بدرومًا واسعًا مليئًا بالصناديق والأسبتة الفارغة وبقايا خضراوات ملقاة هنا وهناك ويبدو أنه مخزن للفاكهة..مجموعة من الرجال يرتبون مجموعة من الصناديق المغلقة بأحد الجوانب..ما إن رآهم فتحي حتى ابتسم:

-الله ينور يا رجال.

مَدَّ فريد الدمراوي يده ليفتح أحد تلك الصناديق لتظهر ما بداخلها..مجموعة من الأسلحة والقنابل..ملأت الابتسامة وجهه مربتًا على كتف فتحي:

-مشكور يا أخ فتحي..مشكور لمساعداتِك لنا.

-عفوًا يا شيخ فريد..أنتم تجاهدون وواجب على كل مواطن شريف مساعدتِكم، المهم ما رأيك بالسلاح؟ أصليٌّ؟

-أصلي.

- الحمد لله.

ضحك فريد .

-خبرتك تزداد يومًا بعد يوم ومكانتك أيضًا.

-يهمُّني رضاك يا شيخنا العزيز.

-تفضَّل، هذا حقُّك وتوكَّل أنت على الله وأنا سأتفق مع الرجال.

أخرج رزمة من النقود وألقاها إلى فتحي فالتقطها بشغفٍ كبير وانخرط يعدُّها..كان دوره هو التوفيق بين البائع والشاري والخروج بعمولةٍ تُرضيه ..

-أي خدماتٍ أخرى؟

-ابقَ على اتصال بنا من وقت لآخر.

-السلام عليكم.

-وعليكم السلام.

تركهم فتحي وخرج بنقود جديدة ليدفنها تحت بلاط أريكته الصغيرة آملًا أن يجمع مبلغًا كبيرًا ليسافر بعيدًا وينعم بحياته كمولود جديد بمكان آخر لا يعرفه فيه أحد..

وشَقَّ نور الصباح عتمة الليل..نهضتْ فتون من سريرها وارتدت ملابسها..فستانًا أسود يسترها..تستمع لصوت شخيره بالخارج..ستقتله..لا مفر من ذلك..يستحق الموت ألف مرة..مدَّت يدها وخلعت عمود السرير النحاسي بقوة..تسللت للخارج..غائب في سُبات عميق..رفعت العمود النحاسي ودموعها تتداعى..من الصعب على المرء أن يُنهي حياة الآخرين بيديه..ولكن حينما يقتلك الآخرون بدم بارد مئات المرات ستمتلك القوة لتُنهي عذابك بيدك..دكَّت رأسه مرتين فسقط أرضًا وخرجت الدماء من رأسه..قذفت العمود النُّحاسي بجواره وهُرعت للخارج..تجري بالشوارع هربًا من مصير قذرٍ غرقت فيه سنواتٍ وسنوات..تتابَعُ أنفاسها لتسبقها..كل شيء خلفها مخيف..حياة لا يتحملها بَشَرٌ..ومِن شارع إلى شارع حتى وصلت لغرفة حبيبها إبراهيم بشبرا..هو الملجأ الوحيد لها الآن بتلك الدنيا..دبت بقدميها على سطوح البيت الحاوي لغرفته..عدد من الغرف المتجاورة وغسيل معلق على السطوح وعُشَّة فارغة من الفراخ والأرانب على اليمين..دقات متتالية على بابه تعلن عن قدومها..فتح لها الباب حائرًا مُتعجبًا من مظهرها..لم تعطِه الفرصة لسؤالها..سقطت وغابت عن الوعي بمجرد رؤيته وكأنها وصلت محطتها الأخيرة وآن لها أن تترك روحها تتألم وتصرخ، وآن لجسدها أن ينهار بصحبة حبيبها الوحيد..إبراهيم محفوظ.

ها قد وصلتُ..مرت ساعات وأنا هائم بسيارتي بشوارع القاهرة قبل أن ينتهي بي المطاف بصومعتي الصغيرة البعيدة..دخلت والساعة تدقُّ الثانية عشرة ظهرًا..نظرت ناحيتها يبدو أنني مكثتُ كثيرًا تائهًا بشوارع العاصمة..ومشاعري متهالكة بين الانتقام من مقتول.. فقد أبلغني مجدي بما جرى للواء شاكر وأدركتُ حينها أن جدي قد تصرَّف بالوقت المناسب وأصبح اللواء شاكر مدير الأمن السابق مجرد مجرم متهم بقضية دولارات مزيفة، وليس هذا فقط بل قُتلت بجواره عاهرة مُسجَّلة بقضايا آداب أكثر من مرة..نهاية شافية..وذلك المرض الجديد المهاجم لي..فصام..هل يمكن أن تكون تلك بداية لما هو أسوأ؟ هل سأتمزقُ وتتوه روحي أكثر

وأكثر..دخلت صومعتي وخلعتُ حذائي..فتحتُ كل الأنوار والشبابيك..لعلي أخرج من ظلمة جبرية تحيط بي وبقلبي..وقفتُ كثيرًا لا أدري ماذا أفعل..نظرت لمكان خزانتي المستطيلة خلف الحائط..ترجَّلت ناحيتها وأخرجتها..مددتُ يدي وفتحتها بمفتاحها الجانبي..قلَّبتُ بيدي في صوري الممتلئة بدماء ضحاياي وآلامهم..وأخرجتُ صورتها..تتلاحق أنفاسي وتمتلئ عيناي بالدموع وأنا أنظر لصورتها..تلك التي أضعها بين صور آثامي وكوارثي..حبيبتي الخائنة ذات العينين الزرقاوين..عينان كالبحر تلتهمانك وتقضيان عليك بعدما تسحرانك بجمالها..عيناها..وآه من عينيها.

نظرت لعينيها بالصورة وسقطت دموعي..عيناها مرساي ومستقري إلى الآن..تبًّا لي! مَرَّ عقد من الزمان وقلبي ما زال ينبض بحبِّها يرقص عِشقًا حين يتخيلها تلقي سلامها البعيد كل منا بقريته المعزولة، أعلم أن التلاقي دربٌ من الجنون، ومع ذلك يجلس قلبي وحيدًا بظلمة قاسية ينتظر نورك ليطارد ظُلمته الجبرية.

أتصدقينني؟ ما زلتُ أشتمُّ رائحة جسدك الممتزج بعطر يلهثُ وراءه أي عاقل..ما زال نسيم شعرك يلهب إحساسي.. لحظات لا تُنسى اللحظة الأولى لتلاقي أعيننا..اللحظة الأولى لتعانِق أيدينا..اللحظة الأولى للدفء الهارب من جنتك..أنت الجنة التي طُردت منها.. أنتِ العِشق الذي لن يعود ومهما أستغفر قلبي بذكرك لن تعودي، ولن أبرحَ جنَّتك من جديد، ولكن يكفيني ذكراك....تكفيني الطلَّة بعينيكِ بصورك المنحوتة بقلبي.. تكفيني عيناك الخائنتان..

نطقتُ صارخًا بصورتها:

- أرأيتِ ماذا فعلتِ بي؟ بعد كل هذه السنوات ما زال سُمُّك يسري بعروقي.. ما زال قابضًا على قلبي متحكمًا بدقاته.

رميتُ صورتها بقوة..أكاد أختنق..لم أحتمل كل ذلك..أبحثُ برئتيَّ عن أي هواء يملؤهما..حقًّا سأختنق..جريتُ على شباكي أستنشق هواء الصباح بشدة..توجهتُ لتسجيلي الخاص بعد دقائق من الصمت والهدوء..خرج صوت عبد الوهاب بأغنيته المُفضَّلة لديَّ: من غير ليه..

-يااللي زماني رماني ببحر عينيك ونساني وقاللى إنساني

بحر عينيك يا حبيبي غريق لكن فيه أحلى ليالي زماني

فتحت زجاجة خمر وتجرَّعتها بالكامل دون توقف..ألقيتُها أرضًا وانسابت دموعي أنهارًا لا تجفُّ..فتحت أزرار قميصي وبدأتُ بالرقص على الأغنية:

-دنيتي غنوة لا..تنهيدة..لا..دنيتي حبك

حاجة حاسسها حاجة لامسها شايفها لكن ولا

أوصاف توصفها

أرقص كالمذبوح على باب عشقها المزمن..كم أتعذَّب لذلك الحب البعيد الذي لا ينتهي مهما أكرهها..ولكني لا أكرهها..ما زلتُ أذوبُ عِشقًا لمجرد ذكراها..رقصتُ ورقصت ورقصت..

قاطعتني شهرزاد الجالسة على لوحة رسوماتي تمسك ألواني وتُلوّن إحدى اللوحات البيضاء مبتسمةً

- هي مَنْ علَّمتك الرسم؟

لم أُجِبْها..نظرتْ ناحيتي وسألت مُجددًا:

-هي مَنْ علَّمتك الرسم؟

لم أجبها مُستمرًّا برقصي الغارق بدموعي..نهضتُ وأغلقت الصوت وبقينا معًا بصومعتي الهادئة..أمسكتُ كتفيَّ ونظرت بدموعي..

-أجبْ، هي مَنْ علَّمتك الرسم؟

- علَّمتني القسوة من يوم خيانتها..من يومها صرتُ شخصًا آخر..قلبًا مُعلَّقًا بين الحياة والموت كُتب عليه الألم طَوال حياتي..قضتْ على آخر فرصة لأصيرَ إنسانًا كباقي البشر، كنتُ عصبيًّا أصرخُ بشدة..كنتُ أتعذب بأنين عِشقي المذبوح لها..نظرتْ إليَّ مبتسمةً:

- الفرصة تُناديك.

-حبُّها كان غُولًا شِرهًا نشب أنيابه بقلبي.

- الفرصة تناديك.

-وها هي النتيجة..عشر سنوات من العذاب، عشر سنوات من الوحدة والعزلة..شَكٌّ بكل من حولي، أنتظر الخيانة بأي لحظة..إحساس قاسٍ قاومته مرارًا وتكرارًا ..صراع لا ينتهي وها هي النتيجة..وهم..فصام.

- الفرصة تناديك.

-كان لها لون عينيك نفسه..

أمسكتْ كتفيَّ ونظرت بعينيَّ بقوة..لحظات من الصمت بيننا عذَّبني لونهما، ولكنني ما زلتُ أعشق غرقي ببحوره..نطقتُ صارخًا هاربًا من عينيها:

-أي فرصة؟

قلتُها صارخًا بها مستفزًّا من هدوئها..التفتت ناحية أحد أركان صومعتي..فالتفت ناحية ما تنظر إليه..كانا أخويَّا: نيفين وأحمد الطفلين وأنا أيضًا معهم ابن السبع سنوات جالسين يتلون شيئًا من القرآن، وكأنه كُتَّاب تحفيظ بأحد المساجد..أتذكَّر ذلك المشهد تمامًا في صِغري..

- كَلا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا

أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرقُومٌ * وَيْلٌ

يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ *

ابتسمتْ شهرزاد ماسكةً يديَّ تربت عليهما..

- شعاع يضيء قلبك.

قاطعتهم صارخًا مُغطيًا على أصواتهم جميعًا رافضًا عرضها بالتوبة:

- مسكينة! اللعبة لم تبدأ بعد. اللعبة لم تبدأ بعد.

تعالت أصواتهم على صُراخي:

- الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ

الدِّينِ * ومَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ

أحاولُ الصراخَ والصراخ حتى لا أسمع سوى صوتي أنا فقط..أي توبة تنادي بها شهرزاد وتذكرني بها..فات الأوان..القادم أخطر وأسوأ مما تتخيل..لم ينتهِ الأمر عند تلك الأزمة..ستتوالى أعتى الأزمات..

-بالصِّغر علَّموني أن بالدنيا الصالح والطالح، وحينما كبرت لم أجد شيئًا صالحًا. وجدتُ غابة الكل ينهش ما تطوله يداه، وإن لم تكن بها ذئب شرس سيفترسونك طوال عمرك.

اندمجَ صفير حادٌّ لأصواتهم..أذناي لا تحتملان..

- إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ

الأَوَّلِينَ * كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا

كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ

يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو

الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ

تُكَذِّبُونَ

-آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه

صرختُ عاليًا..صفير موجع وقلب موجوع..ذكريات أليمة ذاك ما أملك..تواردت روحي بتلك اللحظات فرأيتُ فتون تنهض هي الأخرى مفزوعة بسرير إبراهيم..بغرفته المتواضعة..ذات الحوائط الزيتية المتآكلة لا تحوي سوى ذلك السرير ومنضدة خشبية صغيرة يعلوها حاسوب

صغير وبعض الأوراق والكتب المتناثرة وكاميرا صغيرة بجواره..هُرع ناحيتها إبراهيم مطمئنًا إياها..لم يفارقها منذ حلَّت بغرفته..مكث بجوارها ينظر لها موغلًا بحبِّه لها..

-لا تخافي يا فتون..لا تخافي يا حبيبتي. أنا بجوارك ..اهدئي..اهدئي.

رأته فارتمت بأحضانه خائفةً.

-إبراهيم..لا تتركني ..كن بجواري أرجوك.

- أنا هنا بجوارك ..اهدئي.

-أنا بردانة..بردانة. دثِّرني..دَثِّرني.

-حاضر.

شَدَّ غطاء أعلاها لعلَّه يُقلِّل من رعشتها تلك ولكنها لم تتوقَّف.

-دثِّرني أكثر..أكثر.

-سأُحضِرُ لك مشروبًا ساخنًا يبعث الدِّفء بجسدك.

أخرجَ جميع أغطيته ووضعها أعلاها..دخل إلى مطبخه الصغير الملحق بغرفته تلك..جانب صغير وضع به بوتجازه الكهربائي الصغير وبعض الأواني والأطباق..اختفى خلف ستارة متآكلة يجهز لها مشروبًا ساخنًا..كنتُ أرى تلك الغرفة جيدًا..وكأنني أعيشُ بها..أشتمُّ رائحتها وعَطَنَها الزائد..وكأنني أقِفُ بمنتصفها أنظر ناحية تلك الفتاة الجميلة المغدور بها..فتون فوزي..صاحبة العينين الزرقاوين..ابتسمت شهرزاد حينها بجواري بغرفة إبراهيم هامسة لي:

-أهذه هي؟

-..كلا..لست بهذه السذاجة..أتفكرين أنها الفتاة نفسها..حبيبتي الخائنة القديمة..لا، ليست هي..أبدًا لن تكون.

نظرت فتون ناحيتي وهي مرتعشة بسرير حبيبها، وكأن روحها ترى روحي..تُحدِّثها..وشهرزاد تُتابع حكايتي العجيبة:

-كنتُ خائفة..كشجرة أغصانها ذابلة ترى عاصفة تقترب. قدرٌ وعليها معايشته والرضا بعذابه تمنيتُ الموت بهذه اللحظة، تمنيتُ أن أصيرَ عدمًا لا وجود لي، ملعونة الدنيا الخاطفة لأحلامنا عنوة بقطار جبري، ملعونة الدنيا الكارهة لذواتنا ومع ذلك تجرجرنا لنهاية محتومة ملعونة..

-هكذا البشر دومًا منذ قديم الأزل يلعنون دنياهم ويصمون آذانهم عن رسائلها فربما لو استمع أحدهم يومًا لتغيَّر كل شيء.

قالتها شهرزاد ناظرة بعينيَّ..راحت حينها فتون بوصلة هيستيرية من البكاء وعيناها معلقتان بعينيَّ.. رعشاتها تزداد ضراوة وبلحظة انتقلت رعشاتها إليَّ..ارتعشت روحي هي الأخرى متفاجئة برؤيتها إياي.. طرقاتٌ متتالية على الباب..فتحت عينيَّ لأجد نفسي بصومعتي البعيدة..نائمًا على كرسي الرسم وأمامي لوحة ممتلئة باللون الأسود والأحمر وكأن هناك مَنْ لطخها باللونين بعشوائية تُعبِّر عن حالتي..صوت عبد الوهاب عاليًا بجواري:

-مش معقول يا حبيبي أبدًا مش معقول القدر اللي

هداني بحبك يوم من الأيام يبقى عزول

مش معقول حبنا يا حياتي يقدر يقسى وينسى أحبابه

بعد ما كنا بحضنه ليلاتي نرجع تاني نقف على بابه

مددتُ يدي وأغلقت صوته..توقفتْ طرقات الباب..ترجَّلت إلى هناك وفتحت..لم يكن هناك أحد..ولكنني وجدتُ ظرفًا على الأرض..أمسكته..مكتوبًا عليه مهمٌّ وسِري للغاية..إلى العقيد نادر رشوان..فتحتُه فوجدت أسطوانة..تعجَّبت كثيرًا..وضعتها بجهاز الدي في دي الموصل بشاشة التليفزيون المسطح على الحائط..كنتُ أظنُّ أنها أسطوانة صوتية فقط في البداية ولكنني وجدت داخلها فيديو..قمتُ بتشغيله متعجبًا..ظهر شخص مُقنَّع ملأ الشاشة يرتدي قناع فانديتا ذلك القناع المعلن للثورة ورمز لها بالعالم كله..وفانديتا كلمة لاتينية تعني الانتقام..بحثت عن معناه وأصوله من قبل بعد انتشار ظاهرة ارتدائه بالمظاهرات إبان ثورة يناير ٢٠١١ وجمعتُ مجموعة لا بأس بها من المعلومات.. مصطلح " قناع فانديتا " لم يُسمع به إلا في وقت قريب نسبيًّا.. بينما القناع في الأصل يُسمى ويُعرف باسم قناع جاي فوكس نسبة إلى المتمرد الذي ابتكره وارتداه لأول مرة في نوفمبر عام ١٦٠٥م والمحكوم عليه بالإعدام حينها لنشاطِه الثوري.. وسبب شهرته عالميًّا فيلم أمريكي الصنع من إنتاج عام ٢٠٠٥.. وتدور أحداث الفيلم في المستقبل القريب خلال عام ٢٠٣٢م، حيث يفترض مؤلف العمل أن بريطانيا قد تحوَّلت إلى دولة شمولية قمعية، بعد أن وصل إلى سُدة الحكم الرئيس آدم سالتر المنتمي لأحد الأحزاب اليمينية المتطرفة، ولا يتصدى له إلا رجل واحد يتخفى أسفل قناع هو قناع فانديتا، عازمًا تحرير بني وطنه من قبضة ذلك الديكتاتور الظالم.. مناديًا بتحقيق مبادئ الحق والمساواة من جديد على أرض مدينة لندن.. وتتصاعد الأحداث في قالب تشويقي إلى أن يتمكن ذو قناع فانديتا في نهاية الفيلم من تفجير مبنى البرلمان.. وذلك في يوم ٥ نوفمبر وهو التاريخ الذي تم اقتباسه من أحداث واقعية..حيث في ذات التاريخ من عام ١٦٠٥م حاول مجموعة من المتمردين تفجير مبنى البرلمان الإنجليزي..ويعدُّ الفيلم هو السبب الأول في الشهرة العالمية التي اكتسبها قناع فانديتا رمزًا للثورة على الظلم والفساد..

ظهر ذلك الشخص المُقنَّع بقناع فانديتا ليمتزج صوته بصوت موسيقى حماسية تدور خلف صوته الرخيم المعلن لمرحلة جديدة بعذاباتي..فاتحًا أبواب الجحيم..

- مرحبًا أيها العقيد نادر أمجد عبد الغني رشوان النصراوي..كيف حالك؟ أأنتَ مستعدٌّ الآن؟ مستعدٌّ للاحتفال؟

فانديتا من جديد

(السادس عشر من أبريل-القاهرة)

- مرحبًا أيها العقيد نادر، نادر أمجد عبد الغني رشوان النصراوي.. كيف حالك؟ أأنت مستعدٌّ الآن؟ مستعدٌّ للاحتفال؟

وبدأ عرضه المثير الراقص على فضولي وشغفي آنذاك لمعرفة صاحب القناع..أدار بريموت صغير بيده عرضه وكأنها أسطوانة أخرى داخل أسطوانته.

موسيقى حماسية تلهب المشاعر..مجموعة من اللقطات المتتالية المصنوعة بحرفية شديدة وكأنها شريط سينمائي..شباب يهتفون بميادين عدة مرتدين نفس القناع على وجوههم..صرخاتهم ترجُّ الشوارع والميادين بأعداد ليست قليلة:

- حرية..حرية..حرية..حرية..حرية.

تمتزج معها دبيب أقدام جنود الأمن المركزي المتعالية المعلنة عن عنف وصدام يقترب..يرفع بعضهم بنادق قنابل مسيلة للدموع بوجوه هؤلاء الشباب وبأكثر من مكان ينتقل بينهما الفيديو أمامي بحرفية..صرخاتُهم تزداد:

- حرية..حرية..حرية..حرية..حرية.

تنطلق القنابل لتُفرِّق جمعهم..حالة من الهرج والمرج بكل مكان..ضباب كثيف خانق ينتشر..تتحوَّل الشاشة لكتلة بيضاء تتلاشى رويدًا رويدًا ليظهر وجه الإعلامى إبراهيم عيسى ببرنامجه..يرتدي القناع نفسه..عرفتُه من الوهلة الأولى..

- هذا القناع أثار الكثير من الجدل وأثار الكثير من الصخب فضلًا عن أن هذا القناع منتشر بالتأكيد في ميدان التحرير بين المتظاهرين الذي أشْرُفُ بارتدائه هنا في برنامجي.

يتداخل معه لقطات متتالية لشباب آخرين يهتفون بالحماسة نفسها مرتدين القناع نفسه:

- عيش..حرية..عدالة اجتماعية.. عيش..حرية..عدالة اجتماعية.

لقطات أخرى لتعذيب بعض المواطنين بأقسام الشرطة..برقت عيناي حين رأيت ذلك..مَنْ جرؤَ على تصوير مثل تلك اللقطات..خِفتُ أن أراني بطلًا لأحد تلك المشاهد المغلقة بصرخات المعذبين..وجوههم تدمي وتكتسي بالذل..يصرخون دون جدوى..تمتزج معها ضحكات بعض الضباط سخرية بصرخاتهم..رجلٌ مُعلَّق من قدميه بالسقف..يصرخ ويصرخ ويصرخ وكل من حوله يضحك..يسخر لحاله:

- حرررررررررررام عليكم، سأموووووووووووت.

ضابط شرطة يصفع إحدى الفتيات صفعات متتالية ويضحك من بجواره وكأنها لعبة يقضون أوقات فراغهم بالتسلية بها..سيدات معلقات على حائط كالمصلوبات ويُقذف عليهنَّ مياه ثم تتوالى صرخاتهم بسريان تيار كهربائي جماعي بهنَّ بآن واحد..وجوهٌ تصرخ ووجوه أخرى تسخر وتضحك..ووجوه تهتف خلف قناع مُوحَّد.

- عيش..حرية..عدالة اجتماعية.

لقطة أخرى بأحد الأقسام..ضابطا شرطة جالسان ومتهم في الأربعينيات من عمره يقف أمامهما منكس الرأس بعد وصلة تعذيب شديدة تبدو ملامحها على وجهه..أحدهما ينظر له بسخرية:

- أريدك أن تتبول هنا في بنطالك..هيا لا تتردد، إن تبولت واقفًا سأتركك تمضي لحالك، هيا..هيااااااااااا..هيااااا.

سقطت دموع الرجل وابتل بنطاله..ذاق الذل والهوان..تعالت ضحكاتهما..قطعها إبراهيم عيسى بصوت يملؤه الجدية وما زال مرتديًا القناع نفسه:

- يتهمونهم أن هذا القناع يُخفي وراءه شيئًا مروعًا ولكن في الحقيقة...

لحظات من الصمت يخلع بعدها القناع ليبدو وجهه المعتاد أمام الجمهور المُتابِع لبرنامجه

-لا يخفي وراءه إلا وجوه الثُّوار المُعذَّبين.

هتافات ترجُّ الميادين بكل مكان:

- عيش..حرية..عدالة اجتماعية.

تتكرَّر وتتردد من أفواه مختفية خلف قناع موحد لثورتهم..رمز لخروجهم من كبوة الخنوع والذل لبرٍّ العدل المنشود حتى وإن كان مجهولًا بالنسبة لهم..خير لهم الموت شرفًا على العيش ذُلًّا وخُنوعًا..هتافات تتردد:

-حرية..حرية..حرية.

جنود وضباط بالأمن المركزي يصوبون مسدساتهم ناحيتهم..لحظات وتعجُّ الميادين بالقتلى والجثث الثائرة..هرج ومرج بكل مكان..جنود تهجم وتُفرِّقُ الجمع وتدهس الموتى..منفذو أوامر حكامهم دون أدنى تفكير..قتلة بالأجر لا قلب لهم ولا أمل..هذه حقيقتهم..لو فكَّر أحدهم ولو لحظة أنه بمعسكر الباطل لقتل نفسه آلاف المرات على تنفيذه لأوامر لا تحمي سوى عدة أشخاص قادتهم مصائرهم لاعتلاء أكبر المناصب..لقطات قريبة لوجوه هؤلاء الموتى وقد نُزِعَ القناع عن وجوههم..وتتغير الموسيقى الحماسية لأغنية أعرفها جيدًا لعمار الشريعي وكلمات الشاعر عبد الرحمن الأبنودي..سمعتها مرارًا وتكرارًا بفيلم البريء..تتعالى على تلك اللقطات الدامية أمامي بذلك الفيديو الاحترافي..

- يا قبضتي، دُقِّي على الجدار، لحد ليلنا

ما يتولد له نهار..

يا قبضتي، دُقِّي على الحجر، لحد ما

تصحّي جميع البشر..

لحد ما تتفسر الأسرار..

مش فاهم اللي حاصل، لكن بقلبي

واصل..

واللي مش فاهمه عقلي، بتشرحه

السلاسل..

يا قلوب بتنزف دم في العتمة

يا قلوب بتنزف دم وتغني..

سجنونك والكلمة

والكلمة غصب عنها وعني

طلعت من القضبان ومـ الأسوار

وجوه عديدة كانت تحلم بالحرية وسحقتها بيادات جنود الحقيقة..القناع ملطخ بالدماء مُلقًى أرضًا تدهسه الأقدام..نساء مرتديات السواد صرخاتهنَّ تختفي وراء صوت الأغنية..جنائز بكل مكان..نعوش محمولة تمر بشوارع عديدة..مجموعة من الأطفال المشردين أكبرهم عمره ثماني سنوات يفتشون بمقلب قمامة باحثين عن بقايا طعام..تمرُّ إحدى الجنائز عليهم..لقطات لوجوههم والبؤس عليها أكوام..يتداخل مع نهاية الأغنية صوت لأحد الشيوخ باكيًا:

- اللهم احرق قلوبهم كما حرقوا قلوبنا، اللهم انتقم منهم شر انتقام، اللهم أرنا فيهم عجائب قدرتك، اللهم طهِّر مصر منهم، اللهم العدل..العدل..العدل.

أحد الأطفال يجد قناع فانديتا بالقمامة فينظر له ثم يرتديه فينظر له الباقون بلامبالاة ويستكملون بحثهم عن أي طعام مهما يكن..

وهنا انتهى الفيديو الاحترافي وعاد صاحب القناع مرة أخرى إلى مكانه نفسه..نظرات سريعة على المكان خلفه يبدو أنه تحت الإنشاء يبدو ذلك من الطوب الأحمر وشكائر الأسمنت خلفه.. ألقى كلماته مختفيًا خلف قناعه..

- العدل.. اسم من أسماء الله الحسنى الذي لا يظلم ولا يجور، العدل الغائب عن زماننا هذا شيء مؤثِّر ومؤلم للغاية ولكن من تكراره اعتاده الجميع، الظلم أصبح أسلوب حياة وأنتم ممارسوه..الأشخاص المنوطُ بهم بتحقيق العدل على الأرض هم من يعتنقون الظلم منهجًا وعقيدةً، عبث لا يصدقه عاقل..أعلمُ أنك تتعجب الآن وتتساءل: من أنا؟ وماذا أريد؟ ولماذا أنتَ على وجه التحديد؟ وسأجيبك..ولكن اعلمْ جيدًا أنك لن تحصل على أي إجابات أخرى أكثر مما سأخبرك به..فلا تبحثْ ولا تتوهَّمْ أنك قادر على معرفة أكثر مما أريد..لن يراني غيرك فلا تشرك أحدًا بسِرِّنا هذا..أجيبك الآن: أنا العميد..نادِني بذلك دومًا؛ فأنا أحبُّ ذلك اللقب..عميد أكاديمية العدل..لا تتعجب؛ فأنا موكل بتحقيق العدل على أرضكم، موكل بمكافأة الخيِّرين ومعاقبة الأشرار..أنا المنقذ..المنقذ. لماذا أنتَ؟ أعلمُ تمامًا أنك فاسد..تنهل من بحر دماء المظلومين بشراهة متناهية، ولكني أعطيك الفرصة للتوبة، أفتح لك بابًا ظننته أغلق بوجهك للأبد..باب الرحمة والتوبة لتعود كما ولدتك أمك..كالثوب الأبيض المُنقَّى من الدنس..كما أنك تعلمُ جيدًا أن أقوى طريقة لمحاربة الأشرار هو مهاجمة عُقر دارهم، وأنت بالمنتصف الآن، أنت منهم وتعرف كل شيء؛ ولذلك اصطفيتُك على الآخرين، والآن أخبرك ماذا أريد.

لحظات صمت قاتلة مستفزة بذلك الوجه الباسم..وجه فانديتا..قَطَعَها بهدوءٍ:

-لا تتعجلْ.. ليس الآن..ولكن أُهديك عطية مقابلتنا الأولى، هناك حدثٌ جللٌ سيحدث في تمام الساعة الثامنة مساء، كنتُ أتمنى أن يصبح مفاجأة لك أيضًا، ولكني سأخبرك به، سبقٌ صحفي بالصفحات الأولى بكل الجرائد..تفجير ضخم بمقر وزارة الداخلية بتمام الساعة الثامنة.. هذا هو العدل.. أليس كذلك؟

قالها كمراسل تليفزيوني يعلن كارثة محققة على وشك الحدوث..ضحكاته تتعالى وتعلن انتهاء ذلك الفيديو المُسجَّل بمصيبة مرتقبة..إرهاب مضاعف يلوح بوجهه القذر متخذًا العدل ستارًا لتنفيذ عمليات إجرامية جديدة ضدنا نحن..نظرتُ إلى ساعة الحائط بعصبية شديدة..تقترب من الرابعة عصرًا..لا وقت لديَّ..هُرعت بسيارتي بأقصى سرعة إلى مبنى وزارة الداخلية..أبلغتُهم هاتفيًا بتلك المصيبة..وسرعان ما وصلت سيارات الأمن المركزي إلى مبنى الوزارة..هُرع الجنود بصيحاتهم يرجُّون كل الأرجاء..يحاوطون كل مدخل ومخرج للوزارة..كوردون أمني هائل مستحيل اختراقه..عدد هائل من الجنود يصعب التغلُّب عليهم مهما يحاول ذلك الإرهابي..صيحات تملأ الأرجاء تمتزج بنُباح تلك الكلاب البوليسية المُدرَّبة على مثل هذه الأمور..مُسحت الوزارة كاملًا من الداخل بكل غرفها ودورات مياهِهَا..لم نترك سنتيمترًا واحدًا دون تفتيش..حالة استعداد قصوى تراها بوجوه الجميع..بتلك اللحظات تستطيع مشاهدة كل قيادات الوزارة يتلفتون حول ظهورهم غير آمنين..قلق شديد ينتابهم..كنتُ واقفًا معهم صامتًا مُترقِّبًا بساحة الوزارة حينما وصل مجدي نور الدين مهرولًا ناحيتي باللحظة نفسها التي وصل فيها موكب وزير الداخلية..وقف الجميع مؤدين التحية العسكرية له..رمقنا جميعًا بنظرة حادة..الوزير حمدي زغلول الذي اقترب من الستين عامًا..اشتُهر بيننا كضابط جلَّاد..شرس الطباع، متقلب المزاج، ومَنْ يقع تحت دائرة غضبه ينتهي للأبد..وقد ينتهي به الحال بزنزانة فردية وليس فقط الإقالة..ممنوع الخطأ..ممنوع التراخي..هكذا عرفناه منذ توليه الوزارة منذ أكثر من ثلاثة أشهر مضت..دخل إلى مكتبه ثائرًا وخلفه بعض القيادات وبقيتُ أنا بموقع الحدث..حدثان جللان بأقل من أسبوع..اغتيال خمسة عشر ضابطًا من رجاله المخلصين واليوم تفجير مُرتَقب لعقر دارهم..وزارة الداخلية بذاتها..هناك مَن يتحداه شخصيًا وعليه أن يكتشفه سريعًا ويجعله عبرةً لغيره..كنتُ أرى نفسي دومًا بعيني ذلك الوزير الشرس..أرى به مستقبلي..أراني بحكياتهم وقصصهم عنه..وقفتُ كاتمًا غضبي الشديد ممن يتحدانا جميعًا..كنتُ بانتظاره ميدانيًا بنفسي..لأكشف عن قناعه الزائف بيدي بعدما أقتله وأحوله أشلاء متناثرة..ذلك المجنون المتبجح..أيحاسبنا؟ مَنْ يجرؤ على محاسبتي أنا؟ لا أدري لماذا امتلأت عيناي بالدموع بتلك اللحظة..وكأن هناك من يجيب ذلك السؤال بداخلي..وكأن هناك من يصرخ ويقول: نعم هناك من يحاسبك وسينجح..لستَ كبيرًا على الحساب..لم يكن لديَّ أدنى شك بأنني فاسد ظالم أستحقُّ العذاب..طريق طويل خطوتُ فيه فوق صرخات المظلومين وأنينهم المتعالي طالبًا الرحمة..لم أرحمهم..أدركُ ذلك جيدًا..هكذا دنيانا إما ظالم وإما مظلوم لا ثالث لهما، ولن أصبح مظلومًا مهما يكن..قدري أن أكون ظالمًا..لن أحيد عن طريقي.. لا رجوع..ذلك الطريق اتجاه واحد لا رجعة فيه..لا توبة..التوبة بزمننا هذا جنون حتمي..وكأنني أُسلِّم نفسى للموت مبتسمًا كالمخبول..آملًا أن يربت على كتفيي بحنانٍ وعطف ويتركني لأعيش تائبًا..التوبة موت لا أريده..أنا أرغبُ بالحياة..الحياة وحسب.

اقتربَ مني مجدي وسط صيحات الجنود المستمرة دون توقف ناظرًا بساعته:

- لا أدري ماذا يجري لنا هذه الأيام؟ الساعة الآن السادسة، أتظنُّ أن هناك فعلًا من يجرؤ على تفجير وزارة الداخلية؟ نادر أتسمعني؟

لم أُجِبْهُ كانت عيناي تبحثان كرادار حادٍّ بكل مكان حولنا..فوق أسطح البنايات حولنا بالكامل والشبابيك والشرفات.. قمنا بتفتيشها جميعًا حتى وإن كانت مغلقة لا أحد بداخلها كسرناها لنفتش كل شيء..كوردون أمني مُحكَم لن يستطيع اختراقه..غضب شديد يتملَّكني..أنتظرُ لحظة ظهوره حتى أسحقَه بيدي..ذلك العميد المنقذ سيصرخ بمَنْ ينقذه مِن يدي..صيحات تقترب تختلف عن صيحات الجنود..نظرت ناحية مصدرها..مجموعة من الشباب يهتفون:

- حرية..حرية..حرية.

أحدُهم يهتف:

-حرام ..كفاية..نحن تعبنا من الأسعار.

ويردد الباقون هتافه وراءه:

-حرام..كفاية..نحن تعبنا من الأسعار.

-حرية..حرية..حرية.

-عيش..حرية..عدالة اجتماعية.

-عيش..حرية..عدالة اجتماعية.

كانوا يقتربون بتبجُّح من الكوردون الأمني..حاملين تلك اللافتات المستفزة الحاملة لأفكارهم.. (الحرية للمعتقلين)، (لن نخاف)، (مكملون)، (الثورة مستمرة).

لم أتمالك غضبي ووجدتُ يدي تمتدُّ لمسدسي مستعدًّا لإطلاق الرصاص تجاههم..لاحظني مجدي فهُرع ناحيتي ممسكًا يدي مُحاولًا منعي:

- لا تفعل يا نادر، أرجوك.

-اتركني يا مجدي.

صرختُ فيه:

-أهدأ؟ كفاك مصائب وأزمات يا نادر..كفاك.

لم نُعطِهم الفرصة أكثر من ذلك..التعليمات واضحة..ممنوع الاقتراب من الوزارة ومحيطها مهما يحدث، أُطلقت القنابل المسيلة للدموع لتفرّق جمعهم..كانت عيناي تبحثان بينهم عنه..متسائلًا: هل سيأتي مُترجِّلًا هكذا وسط مجموعة من المتظاهرين..أم سيكون له تكتيك آخر؟ تفرَّقوا بأقل من دقيقة..لا يمكن أن يتحمل أحد تلك القنابل الماهرة..تشعرك بالاختناق إن فكرتَ ووقفت مكانك محاولًا الإصرار على هُتافك العقيم.

خرج صوت أحد الضباط من جهاز اللاسلكي بيدي:

- المبنى خالٍ من أي متفجرات، على جميع الضباط والجنود الاستعداد لأي هجوم انتحاري.

-تمام سيادتك.

نظرتُ لأحد صفِّ الضباط بجواري آمرًا إياه..

-أخلِ هذا الشارع تمامًا.. لا أريد أي سيارة بطول الشارع لنهايته.

-أوامرك مُجابة يا نادر باشا.

وقف إبراهيم محفوظ ينظر لحبيبته فتون الجالسة على طرف سريره مهمومة محاولًا التهوين عليها..أخبرته فتون أنها لن تستطيع العيش بدونه، وأنها أخبرت والدها بذلك فضربها..أخفت عنه الحقيقة..كانت تعلم جيدا أن حقيقتها مخجلة قد تبعده عنها ليس بسببها هي ولكنه سيُهرع لقتله ويضيع مستقبلهما معًا..تناولت فطوره الذي أعدَّه لها بعدما أفاقت من غفوتها..وجدته بجوارها مبتسمًا لها مُهوِّنًا كل الأسى والألم اللذين تعانيهما بداخلها..مضمدًا بعض جراحها النفسية..جاب غرفته الصغيرة وهو يُحدِّثُها بفرحة متزايدة مصطنعة بعض الشيء ليُقلِّل من أحزانها..لم تخبره إلى الآن بوفاة والدتها..لم تَحِن الفرصة لذلك:

- يمكننا بناء حائط صغير هنا..كديكور ونفصل غرفة النوم عن الصالة ونكسر هنا وننشئ حمامًا صغيرًا..و..نختمها بدهان تختارينه أنت..لا تقلقي..لا فارق كبيرًا..كنا سنعيش بغرفة ببيت والدتك أيضًا..ونشتري سريرًا جديدًا وصالونًا صغيرًا.

داعبَ إبراهيم محفوظ ابتسامتها التي شقت وجهها الحزين:

-أنت حالم رائع للغاية يا إبراهيم.

اقترب منها ناظرًا بعينيها ماسكًا يديها مُقبِّلًا إياهما.

-أنا رائع بكِ أنتِ يا فتون، أنتِ أحلى ما جرى لي بحياتي، لا تفكري بأي شيء..ارمي حمولك على كتفي، وانسي كل مشكلاتك وهمومك كل شيء سيكون على ما يُرام..وكما وعدتك سأظلُّ بجوارك حتى آخر العمر وسنتزوج رسميًّا.

كانت عيناه ممتلئتين بالدموع على غير عادته..مدَّت يدها تمسح دموعه متسائلة:

-لِمَ هذه الدموع؟

-فقط أحبُّكِ وأخاف عليكِ.

-سنبقى معًا طوال العمر.. لن نفترق أبدًا.

قالتها فتون بحبٍّ شديد..وكأنها بَرُّ الأمان ترسو على شطآنها مخاوفه وتوجُّساته.

-معك حق..سنقف أمام العالم كله بحبِّنا، وإن كان على أبيك..سأحاولُ إقناعه بزواجنا مهما يكن، هو والدك ويهمه سعادتك.

صرخت فتون فيه فجأةً..قَفَزَ الذعر من عينيها:

-لا..أبي لا..أبي لا يا إبراهيم لا.

احتضنها إبراهيم بقوة..

-حسنًا، حسنًا..اهدئي..آسف..اهدئي، سأتركك بعض الوقت..لديَّ ميعاد عمل لن أستطيع تأجيله وعندما أعود سنذهب للمأذون معًا..اتفقنا؟ هيا استعدي وكفاكِ بكاءً فالليلة ليلةُ زفافنا أيتها العروس الفاتنة.

-أي ميعاد؟

-سأحكي لك حينما أعود.. سلام مؤقت يا عمري.

خرج بعدما قبَّل وجنتها وتركها تستعدُّ لليلتها السعيدة معه محاولة وأد ماضيها المؤلم خلفها لتبدأ من جديد مع حبيبها الأوحد ويتحول زواجهما العرفي السِّري لزواج علني يمنحها القوة بمواجهة العالم بأكمله وعلى رأسهم ذلك الكريه القذر والدها إن حاول الاقتراب سيجد زوجها أول مَنْ يعترضه حينها..إن كان حيًّا على قيد الحياة.

غسلت وجهها الحزين ونظرت بتلك المرآة المتآكلة فوق حوضه الصغير..حاولت الابتسام وخرجت ترتب سريره القديم..وبمكنسة صغيرة أزاحت بعض الأتربة من فوق كليمه الوحيد بأرضية الغرفة..فتحت دولابه فوجدت ملابسه مبعثرة بعضها فوق بعض..بدأت بترتيبها محاولة الرضا بعُشِّهما ذلك الفقير..جلست على سريرهما وفتحت كاميرته الصغيرة مبتسمة..أدارت فيديو بمقدمة ملفات الكاميرا..برقت عيناها قليلًا:

كان فيديو مُسجَّلًا للحظاتٍ حميمية بينهما هنا على نفس السرير..أغلقتها متوعدة إياه حينما يعود..ولكن سرعان ما عادت الابتسامة لوجهها وأدارته مرة أخرى واحمرَّ خداها الجميلان متابعةً لحظاتٍ تتمنى العيش بها طوال عمرها.

سيطر القلق على إبراهيم محفوظ بعدما خرج من غرفته.. يفترس ملامح وجهه بضراوة..ترجَّل سريعًا من شارع إلى شارع متلفتًا خلفه..وكأنه خائف من شيء ما يراقبه..ولكن مما يخاف ذلك المصور الفقير خريج كلية التجارة الباحث عن أي عمل يقتات منه قوت يومه سوى المستقبل البعيد؟ علامَ يتلفت خلفه؟ هل يعقل أن يتتبعه سارق مثلًا؟ كلا..سفيهٌ مَن يحاول سرقته..مخبول..مَن ينظر له للوهلة الأولى يخرج ما في جيبه ويعطيه إياه..وصل لأحد الشوارع..رَنَّ هاتفه المحمول:

- نعم يا باشا. تقريبًا وصلت، حاضر..حاضر.

كان شارعًا هادئًا نسبيًّا..تلفَّت حوله..بعض السيارات المركونة أمامه..بحث بعينيه بينهم..تحرَّك ناحية إحداها وكأنه وجد بُغيته..سيارة موديل حديث (لانسر) سوداء اللون لا تحمل أرقامًا مرورية..مَدَّ يده تحتها فأخرج مفتاحها..كان ملقًى بأسفلها تحت إطارها الأيمن الأمامي..مَدَّ يده وكأنه يعرف مكانه..التفت حوله..لا أحد..فتح السيارة وانطلق بها متوترًا قلقًا..ترى ماذا يحدث لإبراهيم محفوظ؟ ومن هاتفه وماذا يدبر أو يُدبَّر له؟ فتح مصابيح السيارة الأمامية ليشق بإضاءتها ظلمة ليلته تلك..الساعة تقترب من الثامنة مساءً..من شارع إلى شارع..وكأنه يعرف طريقًا يسعى إليه..وقف بمقدمة أحد الشوارع المغلقة بحاجز أسمنتي..اتَّصل بآخر رقمٍ قام بالاتصال به:

- يا باشا أنا بأول الشارع، أرجوك ..كفاية لهذا الحد..، حسنًا، حسنًا سأُنفِّذ المطلوب، اعذرني فأنا مُرتبِك قليلًا، حسنًا، حسنًا في حفظ الله.

أغلق هاتفه ونزل من السيارة مُحدِّثًا نفسه مزيلًا ذلك الحاجز الأسمنتي عن طريقه:

-تبًّا للمال المُذلّ للنفوس!

ظهر له بائع مناديل عجوز:

- الطريق مقفول يا باشا، ارجع للخلف واسلك طريقًا آخر.

-لا أنا ساكن هنا وسأركنها تحت بيتي.

-ممنوع والله.

-ابتعد عن طريقي.

عاد للسيارة وانطلق بها ليكمل مهمته الجبرية..مهمة مريبة.

لحظات ترقُّب تخيم فوق رؤوس الجميع..عيون كالصقر ترصد كل نفسٍ وحركة بشارع الوزارة..تأمين خارق مستحيل اختراقه بسهولة..وقفت بجوار مجدي والجنود من حولنا تتعالى صيحاتهم لترجَّ المكان..تبثُّ الرعب بقلوب أي مقترب للوزارة..لم يتبقَّ سوى احتمال واحد وهو ظهور انتحاري لينفذ تلك المهمة المستحيلة..همس لي مجدي حينها ناظرًا إلى ساعته:

- الساعة الآن الثامنة بالضبط.

انها اللحظة الحاسمة..وقف الوزير حمدي زغلول بشباك مكتبه بالوزارة يتابع الموقف عن كثبٍ..كنتُ متوترًا أنتظر ظهوره بأي لحظة..أو على الأقل ظهور مرساله لنا..طريق فارغ تمامًا..لا صوت غير صيحات الجنود..فجأة ظهرت سيارة تقترب عن بُعد..سيارة وحيدة تقترب رويدًا رويدًا بتردد شديد..وقد هَلَّ مرساله أخيرًا..ظهر بوجهه القبيح ليُلقي سلامه الدامي..توقفت السيارة..كان إبراهيم هو مَن بداخلها..إبراهيم محفوظ بدر..انتابه القلق

الشديد..صيحاتهم وهيئتهم ترعبه..فتح بابه ببطء متوجسًا خائفًا..وطئت قدماه خارج السيارة..صرخت حينها بالجنود عاليًا:

- ماذا تنتظرون؟ اضرررررررررررررررب.

وابل هائل من الرصاص انطلق تجاه هدف واحد..إبراهيم محفوظ..أردته قتيلًا في الحال بعدما حاول الجري بعيدًا عن سيارته مجهولة الأرقام..غرق بدمائه وبدأت النيران تشتعل بسيارته متأثِّرًا بطلقات الرصاص..كنتُ أدرك جيدًا أنه مجرد مرسال..عروس ماريونيت يتحكم بها عن بعد..لعله يراها الآن ودماؤها تخضب الأرض ليعرف أنني فوق المحاسبة..

تعالت النيران بالسيارة وانفجرت بعد لحظات مُحدِثةً كمًّا هائلًا من النيران متطايرة بالهواء فابتعدنا سريعًا بعيدًا عنها.

التقطت أول الخيط للوصول لذلك المعتوه المُقنَّع المتشح برداء هو أبعد ما يكون عنه..العدل..ومَنْ يكون هو ليُرسيَ قواعد العدل ويُعاقِبَ هذا ويقتُل هذا..أشعلتُ سيجارتي متابِعًا عمل رجال المعمل الجنائي والنيابة بمعاينه الجثة وموقع الحادث..عملهم الروتيني بأي جريمة مهما تكن..رجال المطافئ أيضًا يقتربون من إطفاء نيران السيارة المشتعلة..أحد الضباط يقترب مني مناولًا إياي بطاقة هوية لإبراهيم وهاتفه المحمول.

- كانت بجيب الانتحاري يا سيدي.

قرأتُها يبدو أنها كارنيه عضويةٍ بحزب ما..

-إبراهيم محفوظ بدر، عضو الحزب المصري الجديد.

أصدرتُ أوامري لمجدي الواقف بالقرب مني:

-مجدي..اجمعْ كل المعلومات المتاحة عن هذا الإرهابي، وأفرغ كل المكالمات الصادرة والواردة والرسائل على هاتفه سريعًا.

-حاضر.

اقتربَ مني أحد الضباط بموقع الحادث:

-سيدي.. لم يكن هناك أيُّ متفجرات بتلك السيارة.

-ماذا؟

نظرت ناحية جثة إبراهيم محفوظ متعجبًا..عربة فارغة من أي متفجرات وتقتحم كوردونًا أمنيًّا بدون أرقام..لغز من المؤكد أنه وراءه..ظهر اللواء محسن مهران مدير الأمن الجديد الذي حَلَّ محل اللواء شاكر مناديًا عليَّ:

-نادر..سيادة الوزير يرغب برؤيتك.

تحركتُ معه لداخل الوزارة..دخلنا معًا لمكتب الوزير وحييتُه التحية العسكرية بحضور كثير من قيادات الداخلية..أشار ناحيتي اللواء محسن مُحدِّثًا سيادة الوزير..كان ذلك هو لقاءنا الأول..لم نجتمع مِن قبل..

- العقيد نادر رشوان سيادتك.

-كيف حالك أيها العقيد الشاب؟

-نحمد الله سيادتك.

-أصغر عقيد بتاريخ الشرطة على ما أظنُّ يبدو أن كفاءتك فاقت الحدود.

-بتوجيهات جنابك سيدي الوزير.

-أشكرك..أشكرك على كل شيء.

-هذا واجبي.

-أُقدِّر إخلاصك جدًّا..لكن المُعاينة المبدئية تنبئ بأن هذا الشاب لم تحوِ سيارته أي متفجرات.

أجبتُه بثباتٍ شديد:

-لكنه اقتحم الكردون الأمني سيادتك، والسيارة بدون أرقام، وأظنُّ أنها مسروقة.

-في ظنك مَنْ وراء هذا التهديد يا نادر؟

-ليس لديَّ تفسير واضح الآن، ولكنني أظن أن هناك علاقة ما تربط ما حدث اليوم بقضية الاغتيالات الأخيرة أو أنها محاولة لتشتيت انتباهنا عن شيء ما واستنزاف قوانا بأكثر من جهة..معذرة يا سيدي..تعليمات جنابك أن نتوخَّى الحذر، وأن نأخذ كل الاحتياطات الواجبة تجاه أي بلاغ مهما يكن.

-أبلغوني أنك تلقيتَ هذا التهديد من خلال مادة مُصوَّرة على أسطوانة، أين هي؟

فاجأني سؤاله المباغت..استشعرتُ الشكَّ بعينيه.

-موجودة سيادتك..أنا بمجرد استماعي لهذا التهديد هُرعتُ تاركًا كل شيء لأبلغ لسرعة اتخاذ اللازم.

-أحتاجُ إلى مشاهدة تلك الأسطوانة بنفسي يا سيادة اللواء.

قالها موجهًا حديثه للواء محسن مهران مدير الأمن:

-أوامرك مُجابة سيدي الوزير.

نظر ناحيتي بابتسامة خفيفة يكسوها الشَّكُّ والريبة:

-أشكرك للمرة الثانية، وأي تداعيات جديدة عليك إبلاغي شخصيًّا فور حدوثها.

-تمام سعادتك..بعد إذن جنابك.

خرجنا معًا كما دخلنا..اصطحبني اللواء محسن لصومعتي إجباريًّا على الفور..تنفيذًا لأوامر الوزير حمدي زغلول التي لا تُردُّ..صوت ذلك الشخص المقنع يتردد مرارًا وتكرارًا بأذنيَّ..

- تفجير ضخم بمقر وزارة الداخلية في تمام الساعة الثامنة، هذا هو العدل.. أليس كذلك؟

ضحكاته تستفزني للغاية..ضحكاته تلك الساخرة مني..الساخرة منا جميعًا..كنا كدمية صماء تلاعب بها باستهزاء تامٍّ..امتلأتُ بالغضب الشديد..وكأنه يرانا الآن ويضحك لحالنا من خلف قناعه الدميم..رأسي يزدحم بتساؤلات عديدة..مَن ذلك الشخص المُقنَّع؟ وماذا يريد؟ ولماذا فعل ذلك وشغلنا بتفجير وهمي؟ ومَن إبراهيم محفوظ؟ وما علاقته بذلك المُقنَّع؟ ولماذا ظهر بمكان الحادث بالساعة نفسها التي حددها الآخر؟ مؤكد هناك حلقة مفقودة تربط كل ذلك..سأعرفها..وسأعرفه رغمًا عنه.

انشغلت فتون بتنظيف تلك الغرفة الصغيرة التي ستجمعها بحبيبها الوحيد إبراهيم محفوظ..وقفت خارجها شاردة تسترجع حياتها مدمعة العينين..حياة أليمة لا تُحتمل..لا تدري ما كانت ستؤول إليه لو كان إبراهيم محفوظ غائبًا بحياتها..حَمِدَت الله على نعمة وجوده..مسحتْ دموعها مبتسمة..مؤكد أن ليلتها تلك ستمحو قليلًا من ألمها وحزنها..لعلها تبدأ من جديد مع زوجها وحبيبها..تبني مستقبلًا صعبًا معه وليس مستحيلًا..ولكن القدر لم يُتِح لها الفرصة لذلك..وكأنه يصرُّ على جلد أحلامها ووأدها للأبد..صوت سارينة الشرطة يقترب..هُرعت تنظر من أعلى السطوح..مجموعة جنود وضابط يدخلون البيت..تأكدت أنهم يقصدونها.. ظنَّت أن والدها مات نتيجة ضربتها له بعمود السرير وتتبعوها وعرفوا مكانها..عليها أن تهرب مجددًا..ولكن إلى أين؟ ومن أين تفرُّ؟ إنهم يقتربون..تسمع وقْعَ أقدامهم..دخلت الغرفة وأطفأت أنوارها..لاحظت الكاميرا على المنضدة فأخذتها سريعًا معها..نظرت للبيوت حولها..لن تستطيع القفز..ستموت إن حاولت الفرار بتلك الطريقة..لم تجد سوى حظيرة الطيور لتختبئ فيها في آخر لحظة.. وصل مجدي نور الدين ورجال الشرطة واقتحموا غرفة إبراهيم يفتشونها بكل شِبرٍ فيها..كتمت فتون أنفاسها رُعبًا وخوفًا..صعد مجموعة من الجيران للسطوح ليستكشفوا ما يحدث..وقف مجدي بمنتصف السطوح ينتظر جنوده..لحظات عصيبة عليها وهي تهرب من قدرها المحتوم..أشعل مجدي سيجارته ونفث أول أنفاسه منها..خرج له أحد جنوده:

- لم نجد أيَّ شيء سيادتك.

نظر مجدي ناحية هؤلاء المتجمعين من الأهالي وسكان البيت..اتجه ناحيتهم مُوجهًا أسئلته إليهم واحدًا تلو الآخر بعينين تتفحصهم جميعًا:

- أنت.. تعرف إبراهيم محفوظ؟

-نعم يا باشا..شاب ابن حلال ودومًا بحاله لا نسمع له صوتًا.

-خير يا باشا..ماذا جرى؟

-أتعرف أيَّ أحد من أهله؟

-لا نعرف له أهلًا يا باشا..لم نرَ له أيَّ قريبٍ، ولم نسأله، فلكلٍّ خُصوصياته..لكن زفافه كان بين قوسين أو أدنى.

ألقى مجدي سيجارته وأطفأها تحت قدمه ناظرًا إليهم:

-حسنًا..لو ظهر أحد من أهله أخطروه باستلام جثته مِن مشرحة زينهم.

بُهتوا جميعًا من الصدمة، ولكن فتون كتمت بيدها أنفاسها المتعالية محاولةً منع دموعها ونحيبها المفاجئ على حبيبها الراحل.

-لا إله إلا الله.

-إنا لله وإنا إليه راجعون.

نظر مجدي إلى جنوده آمرًا إياهم:

-هيا.

غادر الجميع المكان تاركين إياها بحظيرة الطيور تغرق بدموعها وبقدرها الملعون..وقد رحلَ آخر أمل يربطها بالحياة..رَحَلَ الحبيب والعشيق..رحلَ إبراهيم محفوظ.

وصلنا لصومعتي الصغيرة..كنتُ متوترًا للغاية لا أدري لماذا..ربما لإجباري على اصطحابهم لمكاني البعيد المفضل لي..لمملكتي الخاصة التي أكرهُ أن يعرفها أحد..ولكن الضرورات تُبيح المحظورات..إنها قضية أمن دولة..لم يكن بوسعي مطلقًا الرفض أو منعهم..بحثتُ بكل مكان عن تلك الأسطوانة..كنتُ تاركًا إياها داخل الدي في دي..تعجبتُ، إنه فارغ..أين ذهبت الأسطوانة؟ لاحظ اللواء محسن توتري الشديد وأنا أبحثُ عنها:

-كانت هنا..أين ذهبت؟

-اهدأ يا نادر..ابحث بهدوء.

نثرتُ كل أسطواناتي أرضًا وبحثتُ بينها..أصبحت صومعتي مُباحة يخترقها الجميع..هل دَخَلَ إلى هنا وسرقَها؟ غضبٌ شديدٌ يجتاحُني..وقعت عيناي على أسطوانة مكتوبًا عليها (مهم للغاية).

-وجدتُها سيادتك..وجدتُها.

-أدِرْ تلك الأسطوانة.

وضعتُها بالجهاز ليخرج صوت عبد الوهاب:

-جايين الدنيا ما نعرف ليه ولا رايحين فين ولا عايزين إيه

وكأن شخصًا طعنني من الخلف..رأسي يستشيط غضبًا..عقلي يغلي ببحور بركان جديد انفجر لتوّه..أصبحتُ أضحوكة الجميع..أنا العقيد نادر أمجد رشوان الذي يهابه الجميع سيحيلني ذلك المتخفي وراء قناع قذر إلى قصة تلوكها ألسنتهم..نظر إليَّ الجميع حينها وعينوهم تحمل أسئلة قاتلة ترميني بالشَّكِّ..

-ما تفسير ذلك؟

قالها اللواء محسن منتظرًا أيَّ إجابة مني..ولكنني لا أملك أيَّ إجابة..السؤال نفسه رددته شهرزاد بغرفة الألعاب بغيبوبتي الجبرية..نظرتْ ناحيتي وهي على كرسيها الهزاز تستمع بإنصات شديد لحكايتي العجيبة..قصة ضابط ظالم من الألف إلى الياء..

كنتُ واقفًا أنظر لنفسي بالمرآة الطويلة..

- لم أفهم .. الرؤية منعدمة..ضباب يعلو كل شيء حولي، بتلك اللحظة..عقلي لا يجد أي تفسير مقنع لما يحدث، ولكن كل ما يدور ببالي وقتها أن ذلك مجرد بداية..بداية الحساب.

-بداية النهاية.

قالتها والحيرة بعينيها..أشرتُ إليها بالإيجاب وكأنني مسكين يعلم بموته القريب نظرتُ لنفسي مرةً أخرى.

-بداية النهاية.

ومرت الساعات وعدتُ إلى غرفتي بالقصر أُجرجر أذيال الخيبة..أعترفُ أنها غلطتي..حتمًا كان يجب الاحتفاظ بتلك الأسطوانة بتوّها..استطعتُ بعد عناء إقناع اللواء محسن أن المجرم قد عاد لصومعتي إبان خروجي سريعًا لإبلاغهم واحتواء تلك المصيبة قبل وقوعها..مؤكد أنه سرقها على الرغم من عدم وجود أي آثار للكسر بشقتي تلك..تركتُه وأنا لا أدري هل اقتنع أم لا؟ وهل سيقتنع بذلك الوزير حمدي زغلول أم ستنفتح عليَّ طاقات جهنم وأدخلُ بصراع بغير موعده بيني وبينه؟ نفسيًّا لم أكن على استعداد لصراع جديد قد أُثبِتُ فيه تفوقي، ولكن ليس الآن..ربما سيفكر كثيرًا قبل اتخاذ أي إجراء يكتسب به عدائي..هو يعرف مَنْ أنا ومن

جدي..الباشا يهابه الجميع وبالطبع ما جرى مؤخرًا للواء شاكر يتهامسونه بالخفاء مدركين مَن وراء تلك القضية المُلفَّقة دون أي إثبات إدانة..مَنْ يقوى على الباشا ونفوذه..لا أحد بالتأكيد.

الساعة الآن تقترب من الثانية بعد منتصف الليل..يوم غائم على الجميع، ولكنه مَرَّ بسلام..وتلك التساؤلات المتلاحقة برأسي سأجد لها إجابة حتمًا من الغد..سأتفرغ لذلك المعتوه المقنع..وسأجعله عبرة لمن لا يعتبر..نظرتُ بجواري لأرى نانسي تغطُّ في نومٍ عميق..أغلقتُ ضوء أباجورتي الصغيرة وغِبتُ في سُباتٍ عميق أنا الآخر..ومرَّت الساعات..صوت هاتفي يرنُّ..نهضتُ..الساعة السابعة وثلاثون دقيقة..نانسي ما زالت نائمة..نظرت للهاتف المحمول.. مكتوب على شاشته: (رقم مجهول يتصل بك)..أجبتُه لأستمع للصوت القذر نفسه..صوت ذلك المُقنَّع المجنون:

-ما رأيك؟ بارع؟ أليس كذلك؟ خدعتُك بامتياز.. دعني أخبرك سِرًّا..أعجبت جدًّا بخزانتك السرية ومحتوياتها وتأكَّد لي أكثر صِحَّة اختياري لك، الوقت يمرُّ وباب التوبة قد يُغلق وأنت لا تدري.

صرختُ بأعلى صوتي والغضب يفترسني..مَنْ هذا الذي يُصرُّ على التفتيش بخزائني وبحياتي التي أخفيها عن الجميع.

-مَنْ أنتَ أيها المعتوه؟

نهضتْ نانسي على صرختي تلك..سألتني مُتعجبة:

-ما الأمر يا نادر؟

-وحياة أمك لتتمنين الموت رحمةً من فرط عذابي لك.

بادل صرخاتي بضحكات مستفزة وتابَعَ حديثه:

-معذرة..لم أُحدِّدْ لك موعد الانفجار الثامنة مساء أم الثامنة صباحًا، الساعة الآن السابعة و٣٥ دقيقة وباقي من الزمن ٢٥ دقيقة فقط، ملحوظة أخيرة..القنبلة موضوعة بداخل خزينة مستطيلة الشكل بحمام الدور الأرضي بوزارة الداخلية..أتدري ماذا نُحِتَ عليها؟

نادر أمجد رشوان

-برأيك ما ردود أفعالهم لو رأوا صورك الدامية تلك؟ أو تنفجر القنبلة بموعدها ..حينها سيدلُّهم اسمُك المنحوت عليك..صباحك خير يا سيادة العقيد..

قالها وهو يغالب ضحكاته الهيستيرية وأغلق الخط لتتوالى مصائبي دون توقُّف.

فريد الدمراوي

(السابع عشر من أبريل)

صباح جديد مُلبَّد بالأحزان يطل بوجهه على فتون الصارخ قلبها لموت حبيبها وضياع سندها الأخير بتلك الحياة المليئة بحزن لا ينتهي..أمضت ليلتها تهيم بشوارع القاهرة لا تدري إلى أين تذهب..وأين سيكون مأواها الجديد..صراع شديد بداخلها..قادتها قدماها مرة أخرى ناحية

بيت والدتها..شيء ما همس لها قد يكون والدها فوزي على قيد الحياة..غاب عقلها وتصورت العيش معه بجحيمه المستعر من جديد..وقد يكون غادر الحياة ولم يكتشف جثته أحد إلى الآن..ولكن ماذا ستفعل إذا وجدته ميتًا؟ لم تجد أي إجابة..كانت كالمذبوحة توًّا تنازع بلحظاتها الأخيرة بالحياة..لم تفكر في توابع أيٍّ من أفعالها..وهل يُسأل المذبوح فيمَ فعل؟ بالطبع لا..مسكينة هي فتون....اقتربت من بيت والدتها والدموع تملأ عينيها ولم يتبقَّ من ذكراها مع حبيبها سوى تلك الكاميرا الصغيرة الممسكة بها وكأنها تحتضنها بكل لحظة بحياتها..وقفت فجأة حينما وقعت عيناها على ذلك المقهى القريب من بيتها..إنه الكريه ما زال على قيد الحياة..والدها فوزي جالس ينفث أنفاسه من أرجيلة بجواره ورأسه يحاوطه قليل من الشاش الطبي..اختبأت خلف جدار فاصل بينهما..راقبته عن بُعد..لم تحتمل أن تصبح كذلك الدخان المحترق بعدما مَرَّ على صدره الأسود..تراجعت للخلف..اتخذت قرارها بالهروب على الرغم من ضياعها النفسي، ولكنها لن تحتمل الحياة مع ذلك الحيوان الآدمي..هُرعت تجري بعيدًا بكل قوتها..تبتعد عن ذلك المستنقع الكاتم لأنفاسها..الساعة الآن السابعة وأربعون دقيقة..دقائق تفصلني عن أخطر حادثة إرهابية سيذكرها التاريخ..تفجير ضخم بوزارة الداخلية وقد تودي بالوطن كله إلى منحنى أشد خطورة بعدها لما تحويه تلك الجريمة من رسالة واضحة ومباشرة بانهيار أمني واضح للغاية.

هُرعتُ جريًا أنا الآخر لأحاول منع تلك المصيبة التي ستطولني حتمًا..تبًّا لذلك المقنع الحقير! ركبتُ سيارتي ونانسي تناديني من شرفة غرفتنا متعجبة قلقة فقد خرجت ببيجامتي دون حتى أن أُبدِّلها:

-نادر..نادر..ناااااااااادر.

لا وقت لديَّ لأجيبها أو أفسر أيَّ شيءٍ..انطلقتُ سريعًا حافي القدمين أصارعُ الدقائق المتبقية..أنظر إلى ساعة سيارتي لأجدها السابعة وخمسًا وأربعين دقيقة..تبًّا لتلك العقارب المتسارعة والمتعجلة لمصيبتي الكبرى! تمنيتُ أن أسحقها..زدتُ من سرعتي وحاولت تفادي السيارات الأخرى التي تكثر بذلك الوقت من اليوم صباحًا..فالجميع يتوجَّه لعمله بالتوقيت نفسه..ازدحام شديد..الساعة السابعة وثمانٍ وأربعون دقيقة..لا مفر..صعدتُ بالسيارة مخترقًا الجزيرة الوسطى الفاصلة للطريقين..مضيتُ بالطريق المعاكس بسرعة شديدة..أتفادى السيارات بصعوبة بالغة الخارج نفيرها المتعالي المعلن عن جنوني وشتائم لا تكاد تصل لأذنيَّ من فرط سرعتي..ازدحام آخر يقترب بالطريق المعاكس..سُحقًا لسوء الحظ..توقفتُ بسيارتي..نزلتُ منها وهُرعتُ جريًا كالمجنون..الساعة الآن السابعة وخمسون دقيقة.. كنتُ قريبًا من شارع وزارة الداخلية..جريتُ وجريت وجريت دون توقف..أصارعُ تلك الدقائق اللعينة..أرى وجهه خلف القناع يضحك من حالي..سأحاسبه حتمًا ولكن عليَّ أولًا إيقاف تلك الكارثة..وصلتُ لباب الوزارة..أمرتُ الجندي بفتح بالباب..كان ينظر لي هو وزميله بتعجب شديد..ما هذا الذي أرتديه؟ نظر متعجبًا لقدميَّ الحافيتين وأنا أُهرعُ سريعًا لمرحاض الدور الأرضي..شاركه الدهشة مجموعة من الضباط الناظرين ناحيتي..لم أهتم لنظراتهم مُطلقًا..دخلتُ طرقة الدور الأرضي..ساعة معلقة على الحائط تنبئُ باقتراب الكارثة..الساعة الآن السابعة وثلاث وخمسون دقيقة..دخلتُ المرحاض.

بحثت بكل جوانبه وأركانه..فتحت جميع أبوابه..ووجدتُها أخيرًا..خزنتي المستطيلة المنحوت عليها اسمي بأحد المراحيض..كان مفتاحها ملصقًا خارجها بلاصق محكم..أزلته وفتحتها بحذر شديد ..وكان تهديدًا صحيحًا هذه المرة..قنبلة شديدة الانفجار بداخل الخزينة بين صور ضحاياي..مددتُ يدي وجمعت كل الصور ووضعتها بجيب بيجامتي..أغلقتُ الخزنة..لا وقت لإبلاغهم وانتظار خبير مفرقعات لإبطالها..عليَّ التخلُّص منها بنفسي.. خرجتُ بها سريعًا..والتحدي يملأ عينيَّ، لن تنفجر تلك القنبلة هنا مهما يحدث..لم أدرِ إلى أين أذهبُ بها ولكن عليَّ الابتعاد عن هنا أي كان..لسوء حظي تقترب الساعة من الثامنة إلا خمس دقائق..ميعاد وصول موكب الوزير حمدي زغلول يوميًّا لمكتبه بالوزارة..خرجتُ سريعًا وتقابلنا وجهًا لوجه..نظر لي متعجبًا غير مصدقٍ ما يراه أمامه..تقابلنا تحت ساعة الحائط مباشرة..عيناي معلقتان بعقرب الدقائق.. سألني مُتعجبًا:

- خير يا سيادة العقيد؟

أجبته مُرتبكًا بابتسامة صفراء:

-صباح الخير سيدي..لا أبدًا أنا فقط بتُّ هنا ليلة أمس لمزيد من الاطمئنان.

-بِتَّ هكذا؟

-معذرة سيدي..حالًا سأُبدِّل ملابسي.

-ما هذا الذي بيدك؟

سألني حينها عن الخزينة المستطيلة الحاوية للقنبلة الممسك بها بيديَّ:

-هذه مجموعة من الملفات عن المتهمين والمحكوم عليهم في قضايا إرهابية من قبل لربما نجد مَنْ يهددنا بينهم سيدي.

-حسنا..بَدِّلْ ملابسك وأنتظرك بمكتبي لنتحدث قليلًا.

-أوامرك سيدي الوزير.

يتركني أخيرًا ويتجه ناحية مكتبه هو ومن معه..لم يتبق إلا دقيقتان..هُرعت كالمجنون أجري لا أدري إلى أين..توقف الوزير حمدي زغلول ونظر ناحيتي متعجبًا..شكوك كثيرة تدور حولي لا بد لها من إجابة مقنعة وإلا انتهى أمري..هكذا فكَّر الوزير الحاد الطباع..ولكنني لم أبالِ..أطلقتُ قدميَّ جريًا بشارع الوزارة..وجدتُ شخصًا ما يقود دراجة نارية استوقفته..قذفته بعيدًا عنها وانطلقتُ أنا بها بأقصى سرعة..ومن شارع إلى شارع وعقلي يزأرُ غضبًا..قررتُ إلقاءها في مياه النيل..ظننتُ وقتها أنه حَلٌّ سريع قد يقلل الخسائر..عقارب الثواني تنبئ بقرب الانفجار..أقل من عشرين ثانية وتنفجر..وصلت لطريق الكورنيش..هُرعت لسور الكورنيش سريعًا..المارة ينظرون إليَّ متعجبين..صرختُ فيهم:

-ابتعدوووووووووا..هذه قنبلة.

انتابهم الهلع وجروا يبتعدون عني..تأكدت أنه لا توجد مراكب بالأسفل..حينها قذفتُ الخزينة بأقصى قوة ممكنة بمياه النيل..طارت بالهواء..لحظات لا تُنسى..حلَّقتُ بعينيَّ أنتظر لحظة الانفجار..وقبل أن تلامس الخزينة المياه انفجرت مُحدِثةً صوتًا هائلًا مُخيفًا..واندلعت منها نيرانٌ ضخمة ودخان كثيف.. وانتهت كارثة كانت على وشك الحدوث..نحرتها بمفردي..لأخضب يديَّ بدمائها معلنًا الحرب على فاعلها.

عدتُ إلى مكتبي بعدما بدَّلتُ ملابسي وحظيتُ بدش ساخن لأستعدَّ لذلك التحدي..فلم يتحداني بَشَرٌ قبل الآن..وقفتُ شاردًا بشباك مكتبي أدخن سيجارتي..أرتب ملفات ذاكرتي لأفسح المجال لعصف ذهني جديد يسلم ذلك المجرم المقنع لي..كنتُ أنتظر مجدي ليمُدَّني بهوية الشخص المتصل بي ذلك الصباح..أنتظرُه على أحَرِّ من الجمر..لعلني أتوصَّل للمجرم..لكل مجرم هفوة مهما يكن ذكاؤه ولعل هفوته تلك تُنهيه من بداية الأمر ..ودخل مجدي ملهوفًا ناحيتي:

- نادر.

التفتُّ إليه متلهفًا:

- توصلتَ لأي شيء؟

ناولني ورقة مكتوبًا بها أرقام هاتف محمول:

- الرقم الذي هاتفك صباحًا وهو الرقم نفسه الذي هاتَفَ إبراهيم محفوظ مدة أربع أيام قبل الحادث.

-رصدتَ موقعه؟

-الهاتف مغلق ولكن آخر مكان ظهر فيه اليوم صباحًا وعلى الأغلب وقت اتصاله بك كان تحديدًا بمقابر البساتين.

-لمن هذا الرقم؟

سألته منتظرًا حَلَّ لغز ذلك المقنع السفيه..سينطق مجدي باسمه حالًا ليسلمني رقبتَه.

-مُسجَّل باسم عباس الدمرواي.

ابتسمتُ كالذئب النابش للتَّوِّ مخالبه بجسد ذئبٍ آخر خرجَ عن قوانين اللعبة وهُيِّئ له أنه قد يفترسني.. خرجت متلهفًا لدمائه من مديرية الأمن ومجدي يُلاحِقني:

- أخبرني ماذا ستفعل؟

-الأمر واضح وضوح الشمس يا مجدي، فريد الدمراوي ينتقم لأخيه عباس، ومؤكَّد هو من أرسل إليَّ ذلك التهديد على تلك الأسطوانة اللعينة وهو مَن رتب للانفجار انتقامًا مني ومن وزارة الداخلية بأكملها لأنها كانت سببًا بالحكم على أخيه بالإعدام..أفهمتَ؟

-حسنًا، ولكن كيف ستصل إليه؟ انتظرْ لنُجريَ تحرياتنا قبل أن تتحرك.

-أيُّ تحرياتٍ؟ هذا المكان الذي رصدت فيه هاتفه المحمول هو نفسه المدفون فيه عباس، وأهله يسكنون بالقرب من هناك.. البساتين.. قُضيَ الأمر.

-حسنًا، لا تهاجمهم بمفردك..تحرَّك مع قوة شرطية.

-سأقبضُ عليه بمفردي.

-سآتي معك.

-بمفردي.

قلتُها بنظرة حادة ممتلئة بالانتقام..انطلقتُ بسيارتي نحو فريستي المرتقبة..انتهى أمره سريعًا ذلك الفريد بن الدمراوي..سيلحق بأخيه المخنوق بيدي..وصدر حكمي بالإعدام على كليهما أحدهما غيابيًّا وسأنفذه على الفور..أستمعُ إلى صوت مذيع الأخبار بمذياع سيارتي فقد نسيتُ إغلاقه آخر مرة..
- انفجار ضخم يهزُّ العاصمة أسفل كوبري قصر النيل، وعلى الفور انتقلت قوات الحماية المدنية ورجال الأمن لموقع الحادث وتمشيطه، كما انتقلت النيابة لمعاينة موقع الانفجار ولم يُسجَّل أي وفيات أو إصابات وسنوافيكم بالأخبار أولًا بأول.. إذاعة الشرق الأوسط من القاهرة.

مددتُ يدي وأغلقته..أعلم خبرهم القادم..العثور على جثة الإرهابي فريد الدمراوي مُشوَّهة المَعالِم..فتحتُ تابلوه السيارة..نظرتُ لصوري مع مجرميَّ السابقين وكل من هُيِّئ له أن يتحداني من قبل..آلت بهم نهاية موحدة..صورة لجثثهم معي..مع نادر رشوان الذي لا يقهر أبدًا..ابتسمتُ مُتنهدًا مُتنفسًا الصُّعداء..وأصبح كل شيء واضحًا كالشمس الآن..أرى وجهه القميء خلف القناع..ذلك الوجه المخدوع بالانتصار عليَّ..ولكن سنرى مَنْ سيكون المنتصر؟ مَنْ سيكون الرابح الأوحد؟ مَنْ سيلفُّ حبال ذلك اللغز الذي حاكه بيده حول عنقه كمشنقة قاتلة؟ لم ألْحَظْ حينها أن هناك مَنْ يتبعني..سيارة ورائي بالطريق منذ خروجي من مديرية الأمن..كنتُ مُراقبًا ولكنني مشغول بفريستي لم أرَهم مُطلقًا..أحدُهم يتحدَّث بجهاز لاسلكي:

- تمام سيدي، جارٍ متابعة الهدف بنجاح.

يوم فارق ليس فقط بحياتي ولكن بحياة فتون تلك الفتاة الرقيقة الحزينة الجاني عليها قدرها..الهاربة من شقوق حياتها المليئة بالحزن..جلستْ على الأرض بأحد الشوارع تبكي حالها من شارع إلى شارع عديمة المأوى..عيناها تملؤهما الدموعُ المتعاقبة دون توقُّف..نظرت للكاميرا بيدها..التفتت حولها باحثة عن شيء ما..نهضت مسرعة ممسكة بحجر كبير وانهالت على الكاميرا تهشمها وتهشم المتبقي من ذكرياتها..ودَّت لو هشمت رأسها وتنهي حياتها بدلًا من الكاميرا..نظر لها المارة بتعجُّب..صرختُ بهم كالمجنونة:

- أهناك مَنْ رأى حبيبي؟

حبيبي مجذوب يطرق الأبواب بربابة

يعزف الحب على أوتارها..

يثير العشق بنفس مَن يصل إليهم عزفه..

أغلقوا كل الأبواب بوجهه..

ومع كل باب ينغلق..صرخة..صوت يختنق

دم ينبثق..قلب يزداد وجعًا وحسرة

حبيبي مطرود..فالناس يقضون حياتهم

يهربون.. يضحكون.. ضحكات مزيفة

يبحثون عن حب هم أول طارديه..

الأسى بالقلوب يتنامى لا مفر

ضاحك ببلاد الحزانى

ورغم الفقر ابتسامته كانت حضنًا دائمًا لآلامي

وعلى باب حارتنا

نُصِبَ السيرك

وعلقنا رأسه على المشنقة وصرخنا

قرب قرب قرب قرب

كانت تنادي وكأنها على باب سيرك تجذب له انتباه المارة:

-قرب قرب قرب قرب

كان هنا حب

كان هنا قرب

كان هنا أناس

سمعنا عن حبهم.. راح وانتهى

سكين يذبح.. كأس تدور..حياة كالقبور.

قريتنا مليئة بالكُره والغدر.. مَنْ قتل الحب؟

مَن غدر بقلوبنا؟ مَن طردَ حبيبي؟

قرب قرب قرب

كان هنا حب

كان هنا قرب

كان هنا..حبيبي

أهناك مَن رأى حبيبي؟

أهناك مَن رأى حبيبي؟

جلستْ بمكانها مرة أخرى تغرق بدموعها وسط دهشة المارة..ألمّ يغصُّ قلبها بقوة لن تحتمله..تمنت لو انتزعت ذلك القلب بيدها لتعلن موتها..موت أحزانها..موت حياتها البائسة.

ووصلتُ لمقابر البساتين..وقفت بسيارتي خارجها مستعدًّا لتقفي أثَرَ مجرمي المنشود فريد الدمراوي..ووصلتُ أيضًا سيارة مَنْ يقتفون أثري ووقفتُ عن بُعد حتى لا ألاحظهم..نزلتُ من السيارة باحثًا عن مبتغاي..وجدتُ لافتة مكتوبًا عليها مدفن عائلة الدمراوي..بابها مغلق بجنزير حديد وقفل حاولت إزالته دون جدوى..المكان خالٍ تمامًا، لا مارة فيه بتلك الساعات المبكرة من الصباح..أخرجتُ مسدسي ورجعت للوراء مطلقًا رصاصتين ليُفتح القفل..فتحتُ الباب ودخلتُ مُتحفِّزًا رافعًا مسدسي..أمامي مقبرتان وخلفهما غرفة..توخيتُ الحذر وأنا أقتربُ من تلك الغرفة المغلقة..كسرتُ بابها سريعًا وبحثتُ بأرجائها..غرفة خاوية مهجورة لا تحوي أي شيء..فجأة ظهر خلفي رجلٌ في الخمسين من عمره مرتديًّا جلبابًا أسود اللون ويعلو فمه شارب كثيف غير مهذبٍ..التفتُّ إليه شاهرًا مسدسي بوجهه:

- أي خدمة يا باشا؟

-مكانك لا تتحرك.

-صلِّ على النبي يا باشا، أنا العامل المسئول عن هذه المقابر.

-اسمك

-فتوح المليجي، والله يا باشا أقسم لك ليس معي أي ممنوعات.

-بطاقتك؟

-نسيتها في البيت..لا تؤاخذني يا باشا، زوجتي الله يلعنها غسلت بنطالي ذات مرة وبطاقتي بداخله ومِن وقتها وأنا أخفيها بعيدًا عن يدها، ولذلك تجدني أخرج أحيانًا بدونها و..

- صه..أين فريد؟

-لا تؤاخذني، فريد مَنْ؟

وضعتُ المسدس على رأسه مُهدِّدًا إياه بحدةٍ شديدة:

-استمع لي جيدًا أيها الأخرق..سأدفنك هنا فورًا إن لم تنطق بالحقيقة.

-مهلًا يا باشا..مهلًا أرجوك..أنا لا أفهم شيئًا.

-أين فريد الدمراوي؟ انطق.

قلتُها صارخًا بوجهه مُطلقًا رصاصة بجوار رأسه..أصابته بالهلع الشديد:

-سأنطق يا باشا..سأخبرك، ولكن أرجوك لا تقتلني.

-انطقْ.

-كان هنا صباحًا ..جاء ليقرأ الفاتحة لأخيه وانصرفَ بعد عشر دقائق.

-وأين ذهب؟

-والكعبة الشريفة لا أعرف أكثر من ذلك يا باشا.

-أمعتاد هو المجيء إلى هنا؟

-هذه هي المرة الثانية.

-ومتى كانت المرة الأولى؟

-بعد دفن أخيه بعدة أيام..وكان بصحبته والده وأخوه الصغير مكثوا وقتها النهار بأكمله ودعوني إلى تناول الغداء بهذه الغرفة .. كباب وكفتة..والله يا باشا هذه العائلة مسكينة وغلابة ومظلومون والكعبة الشريفة.

كانت المرة الأولى التي ألاحِظُ فيها أن هناك أخًا أصغر لفريد وعباس الدمراوي.. يبدو أنهما أخفياه خوفًا من بطشي حينما قبضتُ على جميع أهلهما..صرختُ بوجه فتوح:

-حسنًا. طلقة أخرى ولكن هذه المرة بمُخِّك مباشرة لتؤنس عباس الدمراوي بالجحيم وهناك اسأله عني.

ارتجف فتوح مرعوبًا:

-والكعبة والمصحف الشريف هذا كل ما أعرفه ..إن كنت تريدُ مَن يدلُّك عليه..فعليك بأبيه وأخيه مؤكد أنهما يعرفان مكانه..لكن أنا أُقسم لك لا أعرف أكثر مِن ذلك.

-ماذا كان يفعل هنا صباحا؟

-لا أعرف..ذهبتُ لأحضر له كوبًا من الشاي وعندما عدتُ وجدتُه جالسًا بجوار مقبرة أخيه بعدما فتحها وعيناه ممتلئتان بالدموع يقرأ له القرآن.

-يعيش ويفتكر..تعالَ، تعاااااااااااااااااالَ.

جرجرتُه لخارج الغرفة..قذفتُه بقوة أمام المقبرتين:

-مدفون بأي مقبرة؟ انطقْ.

أشار إلى إحداها مرعوبًا:

-هذه.

-افتحها.

-ليس معي مفتاحها.

-حسنا..أفتحُها أنا.

أطلقتُ رصاصة أخرى على قفل المقبرة ففُتِحَ..جذبته ضاربًا إياه بقدمي:

-فلتذهب للجحيم..ابقَ قريبًا مِن هنا..إياك أن تهرب.

-تحت أمرك يا باشا..تحت أمرك.

وخرج فتوح خارج حوش المدفن..وبقيتُ بمفردي..كنتُ متأكدًا أن هناك خيطًا ما سألتقطه هنا..عليَّ البحث عنه جيدًا..فتحتُ باب المقبرة ودخلتُ ماسكًا هاتفي المحمول مُستخدمًا إنارته ليشقَّ الظلام الدامس بالأسفل..هبطتُ سلالمها متوجسًا وممسكًا بمسدسي..حتى الأموات قد يفاجئونك بحيلٍ غير متوقَّعة..الحذر واجب مطلقًا.

قبرٌ يلتهمه الظلام الموحش..بحثت في أرجائه لا شيء سوى رُفات أموات وأكفان متآكلة يكسوها التراب..عبق الموت يرفرف حولي أشتمُّ رائحته جيدًا..تمتزج برائحة عفنة لا تُطاق..ها هو عباس الدمراوي وقد انتفخت جثته..تعفنت..تحوَّل وجهه المكشوف للون الأزرق....اقتربت منه على حذرٍ كاتمًا أنفاسي..فجأة استمعتُ إلى صوت رنين هاتف محمول..إنه ليس هاتفي..الصوت يأتي من ناحية جثته....اقتربتُ أكثر وأكثر..وجدتُ هاتفًا يرنُّ بجواره..مددتُ يدي ناظرًا لشاشته..وجدتُ مكتوبًا عليها: (رقم مجهول يتصل بك).

أجبته وانا أعلم أنه هو..فريد الدمراوي المتخفي خلف قناع فانديتا..جاء صوته الكريه عبر الهاتف بسخرية:

-بماذا تشعر الآن أيها العقيد؟ ألا يرهبك ذلك المكان؟ ستسكنُ مثله عاجلًا أم آجلًا، القبر يناديك في اليوم خمس مرات: يا ابن آدم.. كيف نسيتني؟ ألم تعلم أني بيت الوحدة.. وبيت الغربة

وبيت الوحشة وبيت الدود وبيت الضيق ولن يغنيك مالك أو سلطانك، فسارع إلى التوبة بكل جوارحك ولا تؤخرها ولا تُعانِدْ أكثر من ذلك.

صرختُ فيه بقوة:

-ورحمة أمي لأجعلنك عبرةً يتحاكى عنها الجميع.

جاءت ضحكاته تستفزني بقوة..وأغلق الخط..ثورة عارمة تنتابني..قد فاق تحديه لي كل الحدود الممكنة..صرختُ عاليًا:

-يا بن الكلللللللللللللللللللللب.

خرجتُ سريعًا من ذلك القبر الموحش بعدما اتصلتُ بذلك الهاتف الذي عثرتُ عليه بالمقبرة على هاتفي..فأظهر لي برنامج الكشف عن رقم المتصل اسم عباس الدمراوي فأدركتُ جيدًا أن ذلك الهاتف هو ما استخدمه فريد الدمراوي للاتصال بي ذلك الصباح، أدركتُ أنه الهاتف نفسه الذي استخدمه للاتصال بإبراهيم محفوظ ليكون بمكان الانفجار الزائف بالأمس ليخدعنا جميعًا ويُضلِّلَنا..ولكن ما الرابط بينه وبين إبراهيم محفوظ؟ وإذا كان الأمر كذلك من أين اتصل بي منذ قليل؟ عليَّ الكشف عن جهة الاتصال هذه المرة لعلني أستدلُّ على مكانه.

انطلقتُ بسيارتي سريعًا كالصقر المقترب من فريسته أخيرًا بعد طول مراقبة..فاردًا مخالبه الحادة المشتاقة إلى خرق جسد ضحيتها الجديدة..تلك الضحية التي ظنتْ أنها فوق الحساب..بل تخيَّلتْ أنها مَن تُحاسِب..هُرعت لبيت والد فريد الدمراوي هذه المرة وأنا على أتمِّ الاستعداد لقتلهم جميعًا لأعرف مكانه..مؤكد سيعترفون خوفًا من الموت..هم يعرفون مكانه بالأخص والده وأخوه الصغير..اقتحمتُ البيت وكسرت بابه عليهم..دخلتُ شاهرًا سلاحي والشَّرُّ يتطاير من عينيَّ..صرخاتُ نسائهم المرتديات السواد تتعالى بمجرد رؤيتي..الأطفال مرعوبون..مسكت أحد الأطفال بيدي بقوة ووضعتُ مسدسي فوق رأسه..خرج الأب من الداخل ومعه أخو فريد وعباس الأصغر والتحدي بأعينهما..صرختُ بهما:

- سأقتله إن لم تنطقوا.

تعالت صرخات النساء والأطفال.. نَهَرَهم رجلُهم الكبير (الأبُ) بحدةٍ، فكتموا صرخاتهم واقترب مني:

- اخرسوا..لا أريد أي صوت هنا.. ماذا تريد يا حضرة الضابط مجددًا؟ ألم يكفِك ما جرى لنا إلى الآن؟ أم تريد قتل المزيد منا حتى يرتاح قلبك؟

-أين فريد؟

-لا نعرف عنه شيئًا.

-إن لم تنطق سأقتل ابنك هذا.

صوَّبتُ حينها مسدسي تجاه الأخ الأصغر.

-فليكفِ ما حدث أيها الضابط..كفى.

-أريدُ ملء المدفن الجديد بهذه العائلة الكريمة، ذلك الذي اشتراه لكم فريد..مدفن عائلة الدمراوي.

قلتُها بسخريةٍ شديدةٍ:

-انطقْ، أين فريد؟

-قلتُ لك لا نعرف عنه شيئًا.

أطلقتُ حينها رصاصة بجوار رأس الأخ الأصغر..كنتُ ماهرًا في التصويب..هلعٌ شديد انتاب الجميع..عادت معه صرخات النساء المتعالية اللاتي فتحن الشباك ليستنجدن بأهالي المنطقة بأكملها..

- الغوووووووووووث..الغووووووووووث.

لحظات قليلة ووجدتُ نفسي محاطًا بعدد كبير من الأهالي..قفزتْ إلى ذاكرتي تلك المرة التي انهال أهالي العتبة عليَّ بالضرب المبرح..شعرتُ بالقلق..ابتسم الأب ساخرًا مني:

-أنت هنا بمفردك أيها الضابط؟

والآن أتعرضُ للخطر نفسه مرة أخرى..إن لم أنسحب باختياري فسأتعرض لهجوم عنيف قد يودي بحياتي تلك المرة..لحظات عصيبة تصارعت فيها رغبتي في الوصول لفريد الدمراوي وشعوري بالخطر على حياتي..خفضتُ مسدسي لأسفل ونظرات الشماتة تذبحني بعيني والدهم..ولكن هناك صوت يقترب ليشقَّ تكتلهم ذاك وينقذ هيبتي..صوت سارينة عربة شرطة..ابتسمتُ أنا الآخر ورفعتُ مسدسي مرة أخرى..ها قد وصل المددُ..نظرتُ بعينيه القلقتين:

- لا، لستُ بمفردي.

وظهر مجدي نور الدين بصحبة بعض الضباط والجنود..شَقَّ جمعهم واقترب ناحيتي أحد الضباط المصاحبين له..

- سيادة العقيد نادر رشوان تفضَّل معي لو سمحت.

لم أفهم كلماته..نظرتُ إلى مجدي الناظر لي بعطفٍ وكأنني في أزمة كبيرة..أرى دموعًا مُحتبَسة بعينيه..موقف غائم تملؤه سُحب ممتلئة بالألغاز، وعادت نظرات السخرية مرة أخرى بعيني الأب.

أنهى الطبيب كشفه عليها بعدما استدعته على وجه السرعة زبونته الدائمة..رقدت فتون على سرير فخم بغرفة راقية داخل إحدى الفيلات بعدما صدمتها صاحبة الفيلا بسيارتها بأحد الشوارع..وكأنها قررت الانتحار لتتخلص مما كانت فيه..فَقَدَتِ الوعي ونقلتها صاحبة السيارة لفيلتها..فرغ الطبيب من كشفه ونظر إليها:

- لا تقلقي..كل شيء على ما يُرام، بالأغلب فقدت الوعي مِن أثر الصدمة، وتشخيصهم بالمستشفى صحيح تمامًا.. مِن الجيد أنكِ قُمتِ بعمل أشعة لها لنطمئنَّ، لا كسور ولا نزيف داخلي..سأكتبُ لها بعض المسكنات والفيتامينات وطبعًا عليها بالراحة التامة..ستفيق بعد قليل، لا داعي للقلق.

-أشكرُكَ جدًّا يا دكتور.

خرج الطبيب وخرجتْ معه تاركة إياها ترتاح..وكأن القدر يقربها مني..كانت تلك السيدة صاحبة الفيلا والسيارة التي اختارتها فتون لتلقي بنفسها أمامها هي سلمى عبد الفتاح.. وستفيق فتون لتجد نفسها ما زالت على قيد الحياة المليئة بالأسى والحزن.

وفُتحَ تحقيق على أعلى مستوى يحضره الوزير حمدي زغلول بنفسه..وقف مجدي يتابع التحقيق بينما كنتُ جالسًا على كرسي بمنتصف المكتب أتابع تساؤلات أعينهم متعجبًا..لم يكن هناك مجرم خطر تحاصره نظراتهم..ولكنه كان أنا من يتفحصونه ..وكأنهم يرونني لأول مرة.. أغلب قيادات الداخلية ومحضر رسمي.. لا أُصدِّقُ ما يحدث لي..نظر إليَّ أحدُهم بادئًا التحقيق:

- بناءً على ما ورد في تحريات الأمن الوطني عن واقعة الانفجار التي حدثت صباح اليوم بكوبري قصر النيل، ونتيجة للمعاينة المبدئية لموقع الحادثة وجدنا خزينة نحاسية منحوتًا عليها اسم العقيد نادر أمجد عبد الغني رشوان النصراوي الذي سبق وتلقَّى تهديدًا مُسجَّلًا بالأمس بتفجير وزارة الداخلية وبتفتيش فيلا الضابط المذكور وشقته لم نعثر على أي سي دي وكذلك لا وجود لآثار خدش وكسر بأيٍّ منهما، وبسؤال العقيد نادر بحضور وزير الداخلية بصفته وذاته اللواء حمدي زغلول:

ما أقوالك بوجود تلك الخزينة المنحوت عليها اسمك بموقع الحادث مع وجود شهود بوجودها هنا بمقر الوزارة معك قبل الحادثة بعشر دقائق؟

نظرات الشَّكِّ تُحاصرني..والغضب يجتاحُني..كيف لهم أن يرموني بتلك الاتهامات؟ هل يظنون أنني أنا ذلك الإرهابي المُدبِّر للانفجار؟ تبًّا لذلك! كدتُ أضحي بحياتي لأنقذهم وأنقذ سمعتهم المستقبلية..أذلك هو جزائي؟

تنهَّدتُ باحثًا عن هواء لرئتيَّ..كدتُ أختنقُ..لحظات غِبتُ عن الدنيا وكأنني في غيبوبة وقتية..نظرتُ حولي لأجد نفسي بغرفة القصر القديم المُبتعِد عن زمني ب ٥٠٠٠ عام..ما زال

الظلام سائدًا وشمعة صغيرة بيد شهرزاد تشقُّ طريقا لعينيَّ.. القيود والسلاسل تحاصرني..كانت تنظر لي بشغفٍ كبير وأنا أُكمِلُ لها قصتي البائسة..شهرزاد..سألتني باهتمام بالغ:

-ساورَهم الشَّكُّ، أليس كذلك؟

-كل لحظةٍ بهذا التحقيق كانت تزيد رغبتي بالانتقام..الانتقام من فريد الدمراوي اللعين.

-قد يكون شخصًا آخر..لماذا هو بالتحديد؟

-كل شيء كان يُشير إليه بشدة، أرى ملامحه بوضوح من خلف القناع كأنه أمامي.

-والوزير والتحقيق؟

-حكيتُ لهم كل شيء..بدءًا من قضية اغتيالات الضباط والفيديو الظاهر فيه فريد الدمراوي يغتال العقيد شادي سعد الله، إلى ذلك الهاتف الأخير منه بمقبرة عباس الدمراوي.

-صدقوك؟

-لم يكن لديَّ أيُّ دليلٍ يُبرهنُ على صِدقي حتى هاتفه ضاعَ.

- أيُّ هاتفٍ؟

-الذي عثرتُ عليه بالمقبرة..كان بجيبي بحثتُ عنه كثيرًا ولم أجِدْه، أصابني الجنون والغضب الشديدان، وكأنه يرصدُ تحركاتي كظِلّي ملاصقًا لي يُلاعبني ببراعةٍ شديدةٍ، كيف سرقه من جيبي؟ كيف تمكَّن من ذلك؟

-والتحقيق؟

-أُقْفِلَ التحقيقُ مؤقتًا..الوزير طلب مني أن أرتاحَ وأريح أعصابي بإجازةٍ جبرية، وإن جَدَّ أيُّ جديد أو حاولَ ذلك المجرم التواصُل معي مرةً أخرى عليَّ مهاتفته فورًا.

-صدَّقك؟

-عيناه كانتا ممتلئتين بالشَّكِّ.

-وأنتَ؟

-بركان غضب على وشك الانفجار، عقلي لا يفكر إلا بشيء واحد فقط.. فريد الدمراوي.

كانت عيناي يملؤها الانتقام والتحدي الشديدان..وكأنني أسترجعُ مشاعري تلك وأنا بغيبوبتي الجبرية..ربتتْ على يديَّ بحنانٍ شديد:

-لا شيء بهذه الدنيا يحدُثُ مصادفةً، فَكِّر جيدًا، قد يكون اللهُ يُشير إليك إلى شيءٍ ما، حاول أن تفهم.

نظرتُ لها حائرًا..أكاد أختنقُ..صرخات مكتومة بقلبي أتمنى أن تغادره ولكنها مسجونة بين قضبان همومي وآثامي..وكيف لقلبٍ أسود أن يرتاح؟!

-الغمامة تزداد.

-أخافُ أن تفارق روحك قبل الأوان.

-أرجوكِ أرجعيني لغرفة الألعاب..أخرجيني مِن هنا، أرجوكِ.

-خائف؟

قالتها مبتسمة بسخرية.

الخوف..شعور لا أعرفه.. وكأن الشيطان منحني وسامًا من الثقة طيلة حياتي..تبًّا لي وله! لو أنني كنتُ أخاف قليلا لما فعلتُ أيًّا ممَّا فعلتُه..يا لهذا الكابوس! حزن يعتصر قلبي وأنا على سرير غرفة العمليات..وكأنها أعادتني لمكاني وزمني في أثناء العملية الجراحية الدقيقة..لا أدري كم مَرَّ مِن الوقت وأنا على هذه الحال..ما زال الطبيب يُجري عمليته لنقل كُليتي لسمير..وما زلتُ أصارع قصتي بالسنة الماضية التي أحكيها لشهرزاد..نادر أمجد رشوان الهارب من الجميع..الهارب من الذات..نادر أمجد رشوان اليتيم..نادر أمجد رشوان الغارق بآثام تكفي البشرية بأسرها تذكرة لدخول الجحيم.

وقفت سيارة تاكسي أمام المستشفى حينها ونزل منها غريمي اللدود..فريد الدمراوي..نظر ناحية المستشفى بعينين يملؤهما الشَّر..ألهذا الحد يجرؤ على الاقتراب مني؟! ألهذا الحد يستهزئ بنا؟! هل يفكر في اقتحام مستشفى للشرطة يعالج فيه صفوة المجتمع؟! تبًّا لهذا الحقير!

وكأنني لا أُبْصِرُ

تقدَّم فريد الدمراوي بخطوات تملؤها الثقة، وكأنه أدركَ أنه سيخترق النظام الأمني بمنتهى اليُسر بتلك الساعات المتأخرة من الليل مرتديًا بالطو أبيض يسمح له بالمرور بطرقات المستشفى المخيم عليه السكون باحثًا عن هدفه المنشود..بعض الضباط يقفون بالقرب من غرفة العمليات يتحدثون..كتم فريد أنفاسه ومَرَّ بجوارهم قلقًا مُحاولًا الحفاظ على ثقته..إنه يقترب..غرفة العمليات أمام عينيه يخطو تجاهها وابتسامة النصر تملأ وجهَه..مَدَّ يدَه ليفتح بابها..وفُتح الباب ليمرَّ لداخلها..وكانت المفاجأة..لم تكن الغرفة على حالها..وكأنه دخل للتَّوِّ بساحة كبيرة يتوسطها حلبة لرياضة المصارعة الحرة..ممتلئة بجماهير تُهلِّلُ..انقسموا لفريقين أحدهما يرتدي جلاليب واسعة فضفاضة سوداء اللون رجالًا ونساء، وأغلب الرجال بلحًى طويلة غير مُهذَّبةٍ، والآخرون يرتدون بدلًا أنيقةً وراقيةً وفساتين سواريه أيضًا سوداء اللون..كلاهما يُهلِّل بكل ما لديه من قوة تشجيعًا للمباراة المُرتقَبة..وكنتُ هناك أنتظرُه..أنتظرُ اللاعب العنيد..جالسًا على كرسي صغير يحاوطني مجموعة من الأطباء ممسكين بجهاز الصدمات الكهربائية يحاولون إنعاش قلبي..صدمة وراء أخرى وأنا أهتزُّ على كرسي ناظرًا ناحيته بتَحدٍّ وتوجُّسٍ شديدين..خلع فريد الدمراوي البالطو ليظهر زيُّ المصارعين تحته ويتقدَّم تجاهي ويقف بمنتصف حلبة المصارعة..هُرع إليه أحد الرجال ليضع له تلك القبضتين ليستعدَّ لمصارعتي..كانت هناك فرقة موسيقية بأحد الجوانب..الفرقة نفسها بالكابوس السابق بالصحراء تعزف بقيادة المايسترو الباشا عبد الغني النصراوي بمنتهى الاندماج..الجماهير تُهلِّلُ..نانسي وسما نصير ضمن العازفين بينما نيفين تُهلِّلُ لي وسط الجماهير..كان عزيز شوقي يقف أمامي وكأنه مدربٌ لي يُحفِّزني، ولكنني لا أسمعه..كل ما أستمع إليه هو موسيقى الفرقة العالية المحفزة والمختلطة بصوت الجماهير..وقفتُ بمكاني بعدما توقَّف الأطباء عن صعقي بذلك الجهاز..تقدَّمت ناحيته لمنتصف الحلبة مرتديًا زيَّ المصارعين أنا الآخر..خطوتُ

تجاه غريمي العنيد اللدود..تزداد حِدَّة الموسيقى مع ازدياد التهليل والهتافات..وقفنا وجهًا لوجه..كلانا ينظر للآخر بمنتهى القوة والحِدة بأعيننا..صوت داخلي يتحدث وكأنه صوت عقلي..لا يسمعه سواي..صوت يتعالى على هتافاتهم وموسيقاهم..صوت يصف مشهدًا لا ينتهي..مشهدًا متكررًا عبر الأزمان.

- قاتل ومقتول..معلقان بعرقوب واحد لا يحتمل إلا واحدًا، الذي لا يتسع إلا لواحدٍ ..حاكم ومحكوم يدوران بالدائرة نفسها بدايتها نهاية ونهايتها بداية، والقتل صنعة لا يفقهها الغُشماء أمثالك. كرسي واحد ليس بمقاسك، برج عاجي يستهويك..يغريك..يعميك.. نحن ساكنوه ولن يأتي يوم تبدل الأماكن.. لن تناله، ومهما تحاول لن تقوى على الصمود.. لعبة أبدية مفاتيحها بيدي..وسجونها لكم. أفتحُها وقتما أشاء وأطلقُ سراحكم وأُغلقها وقتما أشاء، وأُفرِّقُ جمعكم، أصليكم نارًا لا تنتهي. قدر واحد لا يتغير..قدر تصمُّ أذنيك عنه. .. قدرك وقدري..واضح وضوح الشمس...خُلقتَ لتقتُل . وخلقتُ أنا لأقتلك لأكون مُعذِّبَك الأبدي..لتعذب....خلقتَ مقتولًا وخلقتُ أنا القاتل.. أنا.. الحاكم.

وكأن الزمن قد توقَّف..ظهرت شهرزاد بخطوات بطيئة تتجه ناحيتنا..همستْ بأذني:

-ستقدر؟

نظرتُ إليها بشَرٍّ شديد..كان بيدها ناقوس حديدي..تحركت ناحية جانب الحلبة لتضرب به جرس البداية لتعلن بدء المباراة.. وأظلمت الدنيا مِن حولي..ظلام دامس وسكون..وكأنني لا أبصرُ شيئًا..

نهضتْ فتون مفزوعة من ذلك السرير الفخم النائمة عليه ساعات قليلة وكأن جسدها يرفض ذلك الثراء الشاعر به جلدُها..نظرتْ حولها متعجبةً مُحاولةً استرجاع ما حدثَ لها ذلك اليوم..السابع عشر من أبريل..يومها المشؤوم..تذكرتْ كل شيء بلحظةٍ واحدة وقفز الهَمُّ والغمُّ لوجهها..يبدو أنها ما زالت على قيد الحياة..يا لتعاستها! ولكن ما هذه الغرفة الطاغية الثراء التي تحتويها تحت غطاء سريرها؟! نفضت غطاءها ووقفت باحثةً عن حذائها الرَّث..وجدْتُه بالقرب من السرير فارتدته ووقفت لحظةً تنظر لنفسها بمرآة فخمة كبيرة..انكمشت داخل زيها الفقير وهُرعت لخارج الغرفة..صوتٌ لأغنية بعيد عنك لأم كلثوم يقترب..خرجت لتجد نفسها بدور علوي بفيلا كبيرة تملؤها الأضواء المتلاعبة..يبدو أنها حفلة على أعلى مستوى..رُوَّادها من الرجال والنساء يُنبئون بذلك بقوة..مجتمع آخر لم تَرَه فتون إلا بالأفلام والمسلسلات..الجميع هنا يلمع وكأنه تمثال من الذهب الخالص لا تملك مثلها أكثر من النظر إليه بعيدًا..تستمع لقرع كؤوسهم من الخمر تتعالى وتمتزج بضحكاتهم..ضحكات خليعة تملأ المكان..النساء يتلألأن بفساتينهن العارية بأجساد كاللؤلؤ تضوي بعيون الرجال..بعض الراقصات يتمايلن بمنتصف ذلك المكان برقصٍ خليعٍ على أنغام أغنية أم كلثوم..بدل الرقص من قطعتين أصغر مما يمكن..وكأنهن عاريات..رائحة شهواتهن تتطاير فتصيب الجميع بالاهتياج الجنسي..برقت عيناها تتعجب من ذلك المكان الذي تقف

بأعلاه..امتلأت بالدموع ناظرة بوجوه هؤلاء القوم..همستْ بكلمات موجعة وكأنها تسطر معاناتها ومعاناة من يماثلها بسطور قليلة:

- دنيا ثانية..الضحكة ملء الوجوه عن آخرها، اضحكوا..قَهقِهوا..دنياكم براح على مدى البصر لا هَمَّ ولا بؤس.. افرحوا واتركوا لنا البكاء يُصاحِبُنا حتى الموت..نحن مَن تشقَّق وجوهُنا إن ضحكنا .. نحن مَن تتوقف قلوبُنا إن لمحت نورًا يقترب .. نورًا يبثُّ أملًا مات ودُفن منذ زمن..يا لحسرتنا! تموت قلوبنا من الفرحة .. تموت دون أن تعرف لماذا خُلقت من الأساس؟ خُلقت للعذاب.. لتجرع أحزان كون هي وافدته رغمًا عنها حتى تموتَ دون وداعٍ. دُنياكم غير دنيانا.. مُحال أن يسعنا مكانٌ واحد، لن ترونا..ولا نحن نستطيع رؤيتكم.

كانت تهمسُ بكلماتها تلك وهي تهبط درجات سلم الفيلا مارة بينهم في طريقها للباب الخارجي..لم يرَها أحدٌ..لم يلحظوها..وكأنها سرابٌ لا تُرى..وصلت لباب الفيلا ولكن استوقفتها سلمى عبد الفتاح بعدما رأتها:

- إلى أين؟

التفت لها فتون..عرفتها..إنها تلك الفتاة التي ارتمت أمام سيارتها..لاحظتها جيدًا قبل أن تُقدِم على ذلك..وتوقَّعت أنها ستموت حتمًا، ولكن القدر اختار لها غير ذلك..أجابتها:

-لحال سبيلي.

-ابقي هنا حتى تتحسن حالتك.

-أشكرك.

همَّت بالخروج..الخروج من هذا العالم الموازي لعالمها..الهروب.. ولكنها استوقفتها مجددًا:

- انتظري. تلك المحفظة كانت بجيبك، آسفة..كنتُ أبحثُ بها عن أي بيانات عنك لأتصل بأيٍّ من أهلِك.

-لا فارق.. بعد إذنك.

قالتها فتون مبتسمةً لها بسخرية ممتلئة بالحزن والأسى..وأيُّ أهلٍ لها وقد رحلَ عنها الجميع..الحبيبُ والأمُّ! خرجتْ مُتناولةً محفظتها لتعود كلٌّ منهما إلى عالمها..تهيمُ بين جنباته وطرقاته..تخطو ناحية مَستقبلٍ مجهول.

جلستُ ليلتي بأكملها ممسكًا بفرشاتي الصغيرة لأنتهي من تلك اللوحة..لم أعُدْ للفيلا وآثرتُ الابتعاد بصومعتي لعلي أُلملِمُ أفكاري وأستعدُّ لذلك العدو جيدًا..كانت اللوحة أمامي بها فريد الدمراوي بملابس المصارعة واقفًا ينظر لي وكلانا يتحدى الآخر..وكأنني التقطتُ تلك اللوحة

من كابوسي الأخير..وكانت شهرزاد تجلس بجواري..تُتابعُ لوحتي بدقة..تبحر بعينيها بتفاصيلها..نظرتْ إليَّ:

- ينقصُها شيءٌ ما.

-بالعكس واضحة للغاية.

-ألمْ تُفكِّر لحظةً أنه يُهيَّأُ لك ذلك..أحيانًا كثيرة نرى الوهم على أنه حقيقة..اصبرْ قليلًا وتأكَّدْ.

-أرى كل شيء بوضوح ..وأعرف مَن هو عدوي اللدود.

-مَنْ؟

سألتني ناظرة بعينيَّ..نظرتُ للوحتي البارعة الناقلة للحدث بكل تفاصيله..هي بالفعل مباراة دامية بيني وبينه..بيني وبين مَنْ يُمثِّله..الإرهاب..لمعت عيناي وأنا أصِفُ لوحتي ببراعة..

-دُمية قذرة..يربطونها بحبال الجهل والعنف والتطرف..تُمسكُ سلاحًا وتُصدِرُ أحكامًا بكُفر الآخرين، تقتُل مَن يستهويها وكأنها قاضٍ لم يُنصِّبه أحدٌ، أقنعوها أنها تُحاكِمُ الفساد وهي أفسدُ خَلْقِ الله، أنها تُجاهِدُ في سبيل الله وهي أبعدُ ما يكون عن ذلك.

-لربما كانت على حَقٍّ.

قاطعتني شهرزاد.

-مَنْ؟

-الدمية.

-أنا لا يُحاسِبُني أحدٌ.. أتسمعين! لا يُحاسِبُني أحدٌ!

قلتُها بعصبيةٍ شديدة.

ربتت على كتفيَّ لتهدئني وبابتسامة خفيفة:

-مَنْ يحمل راية الحكمِ بينكما؟ الظلمُ لم يكن يومًا قاضيًا، الظلم سيَّاف يقطع رِقاب العباد وحُجَّته .. بينكم فساد..بينكم .. قتلة..إرهاب..صراع دائر .. ظالم وأظلم..قُفلت كل الأبواب. الحق والعدل شدًّا الرِّحال بعيدًا إلى أبعد ما يكون.

-لا أفهم ما ترمين إليه؟

حينها استمعتُ لدقاتٍ على باب صومعتي..هناك مَنْ يقف على بابها بتلك الساعة المتأخرة في الليل..وبالابتسامة نفسها همستْ بأذني:

-هيا..فلتفتح الباب، قد تكون الحقيقة تقف هناك.. تدقُّ بابَك، قد تراها وتذهبُ غشاوتك.

نظرتُ إليها لحظاتٍ ثم تحركتُ ناحية باب صومعتي وأنا أعلم أنها ستختفي..بتلك اللحظات هناك تداخل قوي بين كوابيسي وحياتي..فتحتُ الباب فإذا بي أرى صديقيَّ المُقربين..مجدي نور الدين وعزيز شوقي الشيخ..تعجبتُ حين رأيتهما..مؤكَّد أن مجدي هو مَنْ دلَّه على مكاني هنا..أمر سخيف أن تصبح صومعتي معلومة حتى ولو للأقربين.

-هاتفتُك كثيرًا منذ الصباح ولم تُجِبْ..أأنتَ بخير؟

قالها مجدي فلم يجد مني ردًّا سوى التعجُّب برؤية عزيز:

-عزيز؟

-ولا تجبني أنا أيضًا؟

أدرتُ ظهري للاثنين، ودخلتُ، فدخلا ورائي، كنتُ عصبيًّا للغاية:

-اتركاني بمفردي..هاتفتماني ولم أُجِبْ أظنُّها واضحة للأعمى ..أحتاجُ إلى المكوث بمفردي قليلًا دون إزعاج.

-اهدأ يا نادر، اهدأ أرجوك.

حاولَ عزيز تهدئتي دون جدوى..نظرتُ إليهما بحدةٍ وكأنني أطردُهما:

-لا أريد مقابلة أي أحد الآن مهما يكن، ولا أريد أن يأتي أحدٌ هنا بالأخصّ.

-لا سنأتي وسنتحدثُ وغصبًا عنك.

كان مجدي مُحتدًّا هو الآخر بعصبية..نظرتُ له بقوة مستنكرًا وكأننا على وشك العِراك:

-لا أفهمك..ما معنى قولك؟!

-لن نتركك تضيع أكثر من ذلك.

صرختُ فيهما بقوة:

-اتركاني بمفردي ..اتركاني.

اقتربَ مني عزيز ناظرًا بعينيَّ والشفقة تملؤهما:

-نادر ..أرجوك..يجب أن تتفهم حالتك جيدًا وتبدأ بالعلاج على الفور.

واصلتُ عصبيتي المتناهية عليهما صارخًا:

-أيُّ علاج؟ أما زلتما تتحدثان عن هذه المرة اللعينة التي خُيِّلَ لي فيها عباس الدمراوي مكان شخص آخر؟ كُفَّا عن هذا الهُراء واتركاني بمفردي.

صرخ مجدي بوجهي:

-لم تكن مرةً يا نادر..لم تكن مرةً.

نظرتُ له منتظرًا تفسير تلك الجملة..تنهَّد عزيز:

-اهدأ يا نادر واستمع لنا جيدًا ..أنتَ لستَ فقط مريضًا بالفصام.. كلا.. أنتَ أيضًا تعاني حالة ازدواجٍ تزداد سوءًا يومًا بعد يوم.

-ما معنى ازدواج؟

أحاولُ فهمَ ما يرميان إليه..ألم شديد يجتاح مؤخرة رأسي..أحاول التغلب عليه لأفهم..سألني مجدي:

-أيمكنُك إخبارُنا أين ذلك الشخص ذو القناع المُهدِّد لك والسارق لخزينتك ومفجرها؟ أيمكنك إخبارُنا أين الأسطوانة التي أرسلها إليك؟

-قلتُ مئة مرة إنه سرقَّها هي والخزينة بعد خروجي. راجِع التحقيق يا حضرة الضابط.

-كذب.

-أنا لستُ كذابًا..لستُ كذابًا.

-اهدأ يا نادر..اهدأ.

-لن أهدأ ..ماذا تريدان مني؟

اقتربَ مني مجدي حينها مُلقيًا بوجهي قنبلة غير متوقَّعة:

-هذا الشخص ذو القناع..هو أنتَ يا نادر.

سادت لحظاتٌ من الصمت ازداد ألمُ رأسي فيها بقوة..لا أُصدِّقُ ما استمعتُ إليه للتوِّ..دافعتُ عن نفسي بقوة موجهًا كلامي لمجدي:

-وماذا عن المكالمة التي تلقيتُها صباحًا..والمكالمات على هاتف إبراهيم محفوظ قبل اختراقه للكوردون الأمني..من رقمٍ أنتَ بنفسك من كشفتَ عن صاحبه..عباس الدمراوي؟

-ذلك الهاتف خاصٌّ بعباس الدمراوي حقًّا ولكن هناك مَنْ وجدَه بزنزانته واحتفظَ به..أتذكُر يومها؟ يوم قَتلِه هناك، أنتَ مَن احتفظتَ بهاتفه يا نادر..أنتَ.

ارتبكتْ ذاكرتي بشدة..لقطات سريعة تُهاجِمُ رأسي..أراني أخنقُ عباس الدمراوي بيديَّ وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ..أراني ألتقطُ صورة مع جثته بهاتفي المحمول..أراني أُفتِّشُ جيبه لأجد ذلك الهاتف الخاص به..لا أُصدِّقُ تلك اللقطات المهاجمة لعقلي..وضعتُ ذلك الهاتف بجيبي باللحظة نفسها التي دخل فيها مجدي نور الدين علينا الزنزانة مُبرقًا عينيه..صرختُ رافضًا ما أرى ممسكًا رأسي من فرط الألم:

-غير صحيح..غير صحيح.

-بل صحيح ..وهاتفتَ منه أكثر مِن مرة إبراهيم محفوظ.

أصَرَّ مجدي على مواجهتي بكل شيءٍ تلك اللحظات العصيبة..كنتُ أصرخُ كالمجنون وهو يردُّ على صراخي بكلماته القاسية.

-غير صحيح..أنا لا أعرفه من الأساس، كيف لي أن أُهاتِفه؟ ولماذا؟

-ليس ذلك فقط..بل اتصلت بالرقم نفسه على هاتفك مرتين ..مرة قبل الانفجار، ومرةً عند قبر عباس الدمراوي.

-قلتُ لك مستحيل ..لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا. لا يمكن.

-أرجوك يا نادر..دَعنا نُساعَدْكَ، يجب أن تتخذ قرار علاجك بنفسك، يجب أن تقتنع أنك مريض وبحالةٍ خطيرة، وإلا ستحدث مُضاعَفاتٌ أخطر، أرجوك.

قالها عزيز يترجَّاني وتبعه مجدي:

-الوزارة بأكملها لا شاغل لها غير حكايتك، سيادة الوزير وضَعَكَ تحت المراقبة، وطلبَ مني تقريرًا كاملًا ومُفصَّلًا عن هذه القضية.

ما زلتُ أُدافِعُ عن نفسي متلعثمًا وكأن لساني يرفضُ الحديث:

-هذا الهاتف أنا وجدْتُه بجوار جثة عباس الدمراوي بقبره، وبالتحقيق بحثتُ عنه كثيرًا لم أجده بجيبي، وأخوه فريد هو من اتصل بي وأنا بالقبر، صَدِّقاني.. هذه هي الحقيقة.

أخرجَ حينها مجدي الهاتف نفسه من جيبه..برقت عيناي..إنه هو..ما بحثتُ عنه كثيرًا لأُثبِتَ به شهادتي بالتحقيق.

- ها هو الهاتف يا نادر..أنا مَنْ أخذته مِن جيبك بعد ما اكتشفتُ ما حدثَ مِن رصدٍ لأماكن وجود الهاتف، أخذتُه من جيبك قبل أن يكتشفَ غيري الحقيقة ويربط بين الانفجار ووجود الهاتف معك ..أخذتُه لأحميكَ.

-ومَنْ هاتفني وأنا بالقبر؟

-لا أحدْ

-ما معنى ذلك؟

مارسَ عزيز الشيخ مهنته مُحلِّلًا ما يدور ناظرًا إليَّ بنظرة الشفقة نفسها التي يرميني بها منذ دخوله صومعتي عنوةً:

-مرض ازدواج الشخصية هذا.. نادر جدًّا، المريض فيه يمتلك العديد من الشخصيات ويتنقل بينهم بثوانٍ معدودة حينما يتعرَّضُ لأيِّ ضغط نفسي أو اجتماعيٍّ.

صرختُ فيهما رافضًا:

-أنا لستُ مريضًا ..أتسمعانني؟ أنا لستُ مريضًا.

-الأمر لم يتوقف عند ذلك الحد، بل اندمج الازدواج والفصام وأعراضه بالهلاوس والضلالات..فأصبح أشدَّ تعقيدًا وخطورةً، أرجوكَ يا نادر، أعطِنا فرصةً لنساعدَك، أرجوك.

ثورةٌ غاضبةٌ تجتاحني..آلام رأسي تتزايد..ما هذه المؤامرة اللعينة؟ مِن المستحيل أن ينتهي الأمر بي هكذا! أنا لستُ مريضًا..لستُ مريضًا..نظرتُ إليهما بغضبٍ مُتناهٍ..خرجتُ سريعًا من صومعتي لأتأكد..صَرَخَا بآنٍ واحد ..حاولا اللَّحاق بي:

-نادر، نااااااااااادر.

خرجتُ وأنا ألهثُ وراء الحقيقة القاتلة..رأسي يكاد ينفجر من آلام كالمطرقة تُهشِّم عقلي مراتٍ ومرات دون توقف..انطلقتُ بسيارتي أشقُّ ظلام اللحظات الأخيرة قبل أذان الفجر..وانطلق الاثنان خلفي بسيارة مجدي..وكأنهما يطاردانني..كدتُ أصرخُ داخل سيارتي..اتركاني..عليَّ معرفة الحقيقة..عليَّ بالتأكد..لقطات مهزوزة متلاحقة تُهاجِمُ عقلي لا أُصدِّقُ أنها حقيقية..كشريط سينمائي متصل تراه عينايَ..أراني أمُدُّ يدي لألتقط هاتف عباس الدمراوي بعد ما لفظ أنفاسه الأخيرة والشَّرُّ يملأ وجهي وأضعه بجيبي..أراني بصومعتي الصغيرة وأنا أفتحُ خزينتي المستطيلة وأنظر لصوري بها ثم أضعُ قنبلة موقوتة بيديَّ داخلها ونظرات الشَّرِّ والاختلال النفسي تَلتهمُ وجهي..لا لن أُصدِّقَ تلك اللقطات..كفى..صرختُ حتى يتوقَّف عقلي عن متابعة تلك المشاهد الزائفة..مستحيل أن أكون هكذا..صرختُ:

-فليكفِ.

لم يستمع لي عقلي..تابَعَ تلك اللقطات المتتابعة المشوشة..عيناي مبرقتان لا تكادان تصدقان..أراني أقف بالكوردون الأمني حول وزارة الداخلية قُبيل موعد الانفجار الأول الزائف..أنظر بساعتي..أنظر حولي وكأني أتأكد أن أحدًا لا يلاحظني..أخرجتُ هاتف عباس الدمراوي من جيبي..وأجريتُ مكالمة:

- ستجد سيارة (لانسر) سوداء اللون بدون أرقام، ابحثْ عنها أمامك والمفتاح تحتها.

كان إبراهيم محفوظ على الجانب الآخر من المكالمة..يمُدُّ يدَه تحت السيارة ليلتقط مفتاحها وينطلق بها مترددًا..أراني أقِفُ كالذئب تملأ عينيَّ نظراتٌ خفيةٌ تنبئ بشَرٍّ قد دُبِّرَ وأنتظرُ نتيجته..ظهر إبراهيم محفوظ بتلك السيارة..صرختُ بالجنود:

-ماذا تنتظروووون؟ اضررررررررررب.

وانطلقتْ رصاصاتهم لتنهي حياة إبراهيم محفوظ ضحيتي المجهولة..وهل يُعقل هذا؟ لا هذه اللقطات مغلوطة..مُؤكَّد تأثَّرتُ بكلام مجدي وعزيز..تتابعت اللقطات عنوة..أراني بصومعتي ومدير الأمن اللواء محسن معي ورجاله حينما كنَّا نبحثُ عن الأسطوانة المُرسَلَة من ذلك المجرم المُقنَّع دون جدوى..أراني أنظرُ إلى اللواء محسن مُتصنِّعًا الضيق:

- مؤكد سُرقت سيادتك.. مؤكَّد.

-كيف ذلك يا سيادة العقيد ولا يوجد أي آثار لعنفٍ أو كسرٍ بالمكان؟!

-لا أعرف سيادتك.. أمرٌ مُحيِّرٌ حقًّا.

تنهَّد حينها وأشار إلى رجاله وخرجوا جميعًا:

-أراكَ غدًا بالمكتب ..تصبحُ على خير.

-مع ألف سلامة يا سيادة اللواء.

تيقَّنتُ من خروجهم بعدما أُغلق الباب..مددتُ يدي لأفتح ذلك المكان السِّرِّيَّ بالحائط وأُخرجَ خزينتي..فتحتُها لأرى القنبلة الموقوتة بها ونظرتُ بشَرٍّ شديد وبابتسامةٍ خبيثة..تتابَعَ اللَّقطات القاتلة..أراني أخرجُ بخزينتي المستطيلة وأضعُها مكان أحد المساند الخلفية بسيارتي..لها اللون الرمادي نفسه..يصعُبُ على أحد ملاحظتها..انطلقتُ بالسيارة..أراني أصلُ للكوردون الأمني حول الوزارة ليلًا..يستوقفني أحدُ الجنود، فتح لي الطريق بمجرد رؤيتي:

-تفضَّل يا نادر باشا.

-سيادة اللواء محسن بالداخل؟

-تسلَّمتُ ورديتي للتَّوِّ.. سأسألُ لجنابك باللاسلكي.

-لا داعي.. سأدخلُ وأتأكَّدُ.

-تفضَّل يا باشا.

دخلتُ الوزارة، كان يعمُّها حالةٌ من السكون والهدوء الحذر..نظرتُ يمينًا ويسارًا..لا أحد..دخلتُ حينها ممسكًا بخزينتي الموقوتة ودخلت الحمام بالدور الأرضي ووضعتُها بمكانها سريعًا وضغطتُ على صارفِ المياه وخرجتُ..آلام رأسي وعقلي تكاد تقتلني..وكأنني كنتُ فاقدًا بعضًا من ملفات ذاكرتي وتعود الآن مشوشة..الدموع تنسال من عينيَّ لا تتوقف..وصلتُ حينها مع أذان الفجر إلى مقابر البساتين..هُرعت من سيارتي ممسكًا بمسدسي آملًا باقتناص فرصتي الأخيرة لتكذيب كُلِّ هذا..

إثباتٌ أخير قد يَهدِمُ هذه اللقطات المُشوَّشة لتعود إلى مكانها في طي النسيان..دخلتُ مقابر عائلة الدمراوي..ضحكةٌ نسائية خليعة تأتي من غرفة حوش المقبرة..كسرتُ الباب..صُعقت من المفاجأة..غرفة عامرة بها سرير وتلفاز وراديو وغسالة وثلاجة..تلك الغرفة المهجورة

بالصباح أصبحت عامرة في أقل من ٢٤ ساعة..ورجل وامرأة على السرير بملابسهما الداخلية يبدو أنهما كانا على وشك ممارسة الجنس..انتفضَ الرجل وكرشه يسبقه..صرخ بوجهي:

-مَنْ أنتَ أيها الرجل؟ وكيف تقتحِمُ بيتي هكذا بدون استئذانٍ؟

رفعتُ مسدسي بوجهِه والألم يزدادُ برأسي:

-أين فتوح المليجي؟

-فتوح؟ فتوح مَنْ يا باشا؟

-فتوح المليجي عامل تلك المقابر.

-أنا عامل هذه المقابر يا باشا، أنا ووالدي وجدي من قبلي، واسمي عبد المجيد..لا أحد هنا اسمه فتوح ..لربما يا باشا أعطوك عنوانًا خاطئًا ..أين وصفوه لك تحديدًا؟

هجمتُ عليه ودفعته إلى الحائط بجسده الضخم..كنتُ عنيفًا للغاية..صرختُ فيه وامرأتُه تولول خائفةً على رجلها.

-أين فتوح يا روح أمك؟

-والمصحف يا باشا اسمي عبد المجيد.

-سأدفنك هنا يا بن الكلب..سأقتلللللللللللللك.

وصل حينها مجدي وعزيز جريًا يُحاوِلانِ منعي وتخليص الرجل مِن يديَّ..أمسكَ مجدي المسدس من يدي عنوةً:

-نادر..ناااااادر..فليكفِ ما أنتَ فيه. ..فليكففففِ

-اتركاني.

كنتُ أصرخُ فيهما رفضًا تلك الحقيقة المؤلمة..رفضًا لذلك المرض البشع..ازدواجٌ بشخصيتي ممزوج بانفصام..تبًا لتلك الحياة! ألم تجد شخصًا آخر تبتليه بذلك المرض غيري على وجه الأرض؟! شخص آخر تصمه بمرضها النادر..وكأن العالم أظلمَ مِن حولي..عمَّ الظلام وسكنتِ الأصوات..لا صوت غير تلك اللقطات التي تُعادُ مرارًا وتكرارًا لتفترسني..أصبح كل شيء مشكوكًا فيه..أحداث وأماكن قد أُعايشُها بشخصيات أخرى لا أعرف عنها شيئًا..والآن اكتشفتُ إحداها..المجرم ذو القناع هو أنا..شخصية منها اخترعها عقلي المريض لشيءٍ ما مجهول لي..مجرم وهمي يُحاسبني ويضعني بمآزق لا أتخيلها..رأسي يؤلمني بشدة..أتساءل: كَمْ مِن الشخصيات الخفية سأكتشفها الأيام القادمة؟ وكَمْ مِن المصائب التي تنتظرني؟ يا لتعاستي!

مَرَّت ثلاثة أيام وفتون شاردة تهيم على وجهها بشوارع العاصمة..الواحد وعشرون من أبريل..يوم كسابقيه..تمُدُّ يدها للمارة لتأكل..تنام على الأرصفة..جلستْ تنتظره على محطة أتوبيس بمفردها ليلًا..ساعات مرت في انتظاره سئمت عدَّها..بصعوبةٍ تذكَّرت تلك الورقة الموجودة بمحفظتها الصغيرة الحاوية رقمَ هاتفه..اتصلت به لتقابله..فتحي عبد العزيز..وقفت بكشك صغير تتصل به فشدَّ نظرها تلك الجرائد بجوارها المتصدر صفحتها الأولى صورة حبيبها إبراهيم محفوظ ميتًا والمانشيت المُوحَّد بتلك الجرائد: (إحباط محاولة انتحارية لتفجير وزارة الداخلية)..جلست تنتظره تُغالِبُ دموعها وأحزانها دون جدوى ساعاتٍ حتى رأتْهُ على دراجته البخارية..ها هو قد أتى..جلس بجوارها مُتعجبًا من هيئتها وكأنها كأهل الكهف خارجةً من نوم طال عقودًا طويلة..ملابسها المتسخة ووجهها البريء الجميل المُلوَّث بالأوساخ السوداء أثار دهشته:

- البقية بحياتك.

نظرتْ إليه.. تدافع عن حُبِّ عُمرها الراحل:

-إبراهيم مُحال أن يكون إرهابيًّا.

-الحكومة تصفه بذلك.

-إبراهيم مسكين.

-كلنا مساكين..أنصحُكِ بنسيانه، انسي ما فات، واتركيه دون رجعةٍ، لا تفتشي بدفاتر قد تضرُّك.

-تضرُّني؟

-طبعًا..كنتِ خطيبته، أليس كذلك؟ معنى ذلك أنهم سيراقبونك أنتِ وأهلَه.

-إبراهيم مقطوع من شجرة ..لم يكن له غيري.

-هل حققتْ معك الشرطة؟

أشارتْ إليه بالنفي..

-حسنًا، لمصلحتك ابعدي وتناسي.

تنهَّدت فتون مُحاوِلةً تجاوُز محنتها تلك بأي طريقة..وكأنها قررتْ بأيامها القليلة الماضية العدول عن فكرة الانتحار..قرَّرت الحياة ولو بجروحها تنزف لنهاية عمرها.

-هاتفتُك لأنني أبحثُ عن عملٍ.

-ربنا يسهل.

-أرسلتُ إليك ثلاثة مقالات من قبل ولم تهاتِفْني.

-مؤكَّد كانت دون المستوى المطلوب .. أخبريني: ما مؤهلك الأساسي؟

-سياحة وفنادق.

-وماذا رماكِ بدروب الصحافة؟

-قدري.

-حسنًا يا فتون، كل ما أستطيع مساعدتك به الآن أن أَجِدَ لك عملًا بشهادتك تلك بأي فندِقٍ أو مطعمٍ.

-فندق؟

-صدِّقيني هذا الأضمن لك على الأقل هذه الفترة.

ابتسمتْ له فتون بفتور..نظرتْ للأُفق مُتقبلةً أي شيء..لم يعد هناك شيءٌ بحياتها تهتمُّ لأجله..رَحَلَ كل مُحبِّيها وبقيت بمفردها..عليها فقط إيجاد قوت يومها بأي عملٍ أيًّا كان..تعلم أن والدتها الحبيبة وإبراهيم معشوقها في مكان آخر الآن ينعمان تحت ظلال الرحمن..يقين يملأ قلبها أنهما بالجنة..وقد يكونان تقابلا ويتابعانها..ولعل هذه الفكرة هي ما أزاحتها عن الانتحار..فإن فُرِّقَ بينهم في الدنيا فتأمَّل من الله أن يجمعهم بالآخرة..ابتسمتْ فتون لفتحي:

-لا فارق.

ثلاثة أيام من السكون الإجباري..صوت موسيقاه لا يفارق أذنيَّ..تلك المقطوعات التي يعزفها أخي الصغير أحمد أمجد رشوان على البيانو بغرفته ليل نهار..وكأنه يعزف علي أوتار عقلي المصدوم لحقيقتي..خاصة تلك المقطوعة بعنوان (الصمت) لبيتهوفن..وكأنها أُلِّفت خصيصى لتعبر عن حياتي الآن..فراغ قاتل..صحراء جرداء لا تحوي شيئًا..قضيتُ أيامي الثلاثة صامتًا لا أتكلم..أتنقَّلُ بين غرفتي بالقصر وغرفة أحمد كتمثال خاوٍ لا روح فيه..فقط يبكي ليل نهار..تمتلئُ عيناه بالدموع دومًا..حاولتْ نانسي تجنُّبي هذه الأيام بتوصية من عزيز..أخبرها أن عليها تجنُّب الحديث معي وسؤالي عن أي شيء..تناولتُ حبوب الدواء التي أعطاني إياها عزيز بانتظام..لم أشعر بأي نتيجة..فقط هدوءٍ عامٍّ..أخبرني مجدي أنه قد مَدَّ لي إجازتي أسبوعين من العمل لأرتاح بعيدًا عن أنظار القيادات على الرغم أنني ما زلتُ رَهْنَ المراقبة..فهناك مَنْ يُتابعني عن قُربٍ ويرصدُ تحركاتي..وعدني حينها بأن مرضي سيظلُّ سِرًّا بيني وبينه..سِرًّا يشاركنا فيه عزيز ولن يعرف أحدٌ به مهما يكن..لم أخرج من القصر إلا مرة واحدة..ذهبتُ فيها لبيت أختي نيفين..نمتُ بحضنها صامتًا..تعجبت نيفين كثيرًا لحالتي ولكنني أخبرتُها أنني بحاجة فقط إليها.

-أحتاج إلى حنان أمي بأحضانك.

احتضنتني بقوةٍ..وغِبتُ في النوم بأسرع ما يكون..ساورها القلق على حالي..ولكنني طمأنتها وخرجتُ أبحثُ عن الهواء النقي برئتيَّ..أجوبُ شوارع العاصمة مارًّا بين الناس..كانت الشوارع مزدحمة ومع ذلك كنتُ أشعر بالخواء..لا أرى أحدًا حولي على الرغم من كثرتهم..مؤلم أن يُجبر المرء على الوحدة ومهما يحاول الخروج لا يستطيع..سؤال واحد يدور ببالي: هل هناك أمل للخروج من حالتي تلك وأعاود عملي مجددًا؟ كانت الإجابة: نعم، هناك أمل..هكذا أخبرني عزيز..صديقي الحبيب..وجدت قدميَّ تقودانني لعيادته الخاصة بذلك الحي الشعبي المزدحم..فتح عزيز الباب ليجدني أمامه في هذه الساعة المتأخرة من اليوم الثالث..كنتُ على علمٍ أنه دومًا يسهر بعيادته يراجع ملفات مرضاه ويضع لهم خُططًا علاجية ويطورها يوميًّا..احتضنني عزيز؛ فهي المرة الأولى التي أزوره فيها بعيادته تلك..ولكنها ليست زيارة صديق..إنها زيارة مريض يبحث عن أمل للعلاج..جلستُ على الشيزلونج بغرفته وبدأ أولى جلسات علاجه النفسي مُبتسمًا لي:

- أهم مرحلة بعلاجك يا نادر..أن يأتي قرار العلاج منك أنت..أنت فقط..قرار نابع من داخلك وليس ضغطًا ممن حولك.

أشرتُ إليه بالإيجاب:

- أرغبُ في ذلك حقًّا.

استكملَ عزيز:

-المريض النفسي عمومًا يحتاج مَنْ يمُدَّ له يدًا، يَدًا يثق بها لتخرجه مما هو فيه..ولذلك يجب أن تكون الثقة بيننا بدون حدودٍ وتحكي لي عن أي شيء حدث بحياتك..أي شيء مهما يكن حتى ولو كان سِرًّا، أنت فقط مَن تعرفه..وأعدُك أنه سيظلُّ سِرًّا للأبد.

-أثقُ بك كثيرًا يا عزيز.

-توكلنا على الله.

مَدَّ يدَه وضغط على كاسيت صغير بغرفته بعدما اختار شريطًا بجواره وضعه به..خرج صوت عبد الوهاب يشدو بأغنيته المفضلة لديَّ..النهر الخالد..

-أعرف أنك عاشق لصوت عبد الوهاب، أغمضْ عينيك ..استمع للموسيقى بقلبك، اتركها تُحرِّكْ مع أنغامها..تَحمِلْك كريشةٍ يتناقلها الهواء كيفما شاءَ، حَرِّرْ روحك المختنقة داخل جسدِك، امسك يديها وطِرْ معها بأي مكانٍ تحبُّ، روحك بيضاء شفافة كقلبك يوم ولادتِك. اتركها تفرّ..اتركها تتمتعْ بالألوان على طبيعتها: أحمر..أبيض..أزرق. سماء زرقاء صافية..الشمس تغزو بضيائها كل مكانٍ حتى قلبك تدخله شمسٌ دافئة..اشْعُرْ بدفئها بقلبك، مُدَّ يديك والمسْ شعاعَها، شُمَّ رائحة الورود..حياتنا ما هي إلا صور كثيرة مختلفة.. فرح..حزن..مُدَّ يدَك واستحضر أول صورة تخطرُ ببالِك، أول لحظة ببالك الآن..أخبرني..أين ذهبتْ بك رُوحُك؟

وكأنه دخل بمصباح صغير داخل طرقات ذاكرتي..أشعرُ برائحة الورود تجتاح أنفي..أتلمَّسُ شعاع الشمس اللاسع لجلدي..بهجة أشعر بها ..وكأن كلماته قادتني ٢٧ عامًا للوراء..طفل في الثامنة من عمره..بقصر جدي.. أراني ذلك الطفل يركب دراجته يلعب بها بحديقة القصر..أنظر بعينيه..طفل يلعب ولكن هناك حزنٌ دفينٌ بعينيه..أراه بوضوح..أنظر إلى شُرفة الدور الثاني بالقصر، فإذا هي تخرج..أختي نيفين ابنة الخمس سنوات..تقف بالشرفة تتابعُني..أُشيرُ إليها مبتسمًا.. حُفرت تلك اللحظات بذاكرتي وصفتها وأنا مغمض العينين أقصُّ ما أرى على عزيز:

- ضحكتها.. ضحكتها كانت تُنير الدنيا وما فيها، ضحكتها التي أتمنَّى رؤيتها من جديدٍ ولو مرةً واحدةً.

وقفَ عزيز بحديقة الفيلا معي وكأننا نتجول بذكرياتي.. أشرتُ له ناحيتي طفلًا وناحية نيفين بالشرفة..سألني:

-منذ متى؟

-٢٧ عامًا.

-أهذه؟

أشار ناحية طفلةٍ..ابتسمت له لأجيبه:

-نيفين.

-لماذا تذكرتَ هذه اللحظة بالذات؟

كانت اللحظة القادمة كفيلةً بإجابته..أشرتُ له ناحيتها:

-انظر.

لم يُصدِّقْ عزيز ما يراه..نيفين تسقط من الشُّرفة لترتطم بالأرض..نادر الطفل يجري ناحيتها صارخًا:

-نيفييييييييييييييييييين.

وامتلأتْ عيناي بالدموع بعد استعادة تلك اللحظة المؤلمة بحياتي..حاولتُ كثيرًا وأْدها دون جدوى..وها هي تقفز مرة أخرى لتدمي قلبي حُزنًا..على أختي الحبيبة..معشوقتي نيفين.

أسرارٌ دَفينة

الصحراء القاحلة نفسها.. الكابوس اللعين نفسه..رجلاي تغرزان برمال ملتهبة تشعل عقلي وروحي.. شعور قاسٍ لا يتحمله بَشَرٌ..هكذا كنتُ أرى حياتي دومًا..شردتُ قليلًا وأنا بعيادة صديقي عزيز الجالس أمامي يقدح زِناد فكره ليصل لسبب ذلك المرض اللعين..لعله يساعدني..ما زلتُ مُغمضَ العينين ..ساد الصمت بيننا لحظاتٍ..قطع شرودي عزيز مُربتًا على يدي:

- الحياة رحلة منتهية طالت أو قصُرت..نعرف أولها وآخرها، لكن مُحال أن تعرف محتواها ..محال أن تُدرِكَ أحداثها..فلكلِّ رحلةٍ أحداثُها المختلفة، رحلتك أنت فقط مَنْ تصنعها بيدك، لا أحدَ غيرك يُقرِّر مصيرك، كل خطوة تترك أثرًا لا يُمحى ولا يتغير، كل لحظةٍ تمرُّ تترك علامةً بأرواحنا لا تُنسى، الماضي لا يُنسى ولا يُدفن مهما تحاول، الماضي إما نور لطريقك ورحلتك..وإما ظُلمة تعيش بداخلها طوال حياتك، وبيدك أنتَ فقط الاختيار ..الظُّلمة أم النور الموت أم الحياة.

وكأنه يُفتِّشُ بكلماته تلك بدفاتر ذاكرتي المنسية..تبًّا لهذا الطبيب البارع! لم أدرك أن صديقي يمتلك هذه المهارة بالطبِّ النفسي مسبقًا.. جذبَ انتباهي بقوة من صحرائي البعيدة..أجبتُه قبل أن يسألني:

- ليس بيدي..لا أحدَ يختار قَدَرَه، لا أحد يستطيع تغيير مصيره.

-ونيفين؟

ما زال يقتادني ببراعةٍ نحو دروب علاجه المُرتقَبة..قفزتْ بنا ذاكرتي مرةً أخرى للزمن نفسه..منذ ٢٧ عامًا..أجبتُه ونحن نقف بإحدى طرقات القصر..قصر جدي الباشا عبد الغني النصراوي..كنا بالقرب من غرفتها..أختي نيفين ذات الست سنوات.

-كانت تكرهه بشدة..إصرارها على البُعد كان عجيبًا، طفلة بعُمر خمس سنوات ثابتة على موقفها لا تتزعزع، فتح الباشا الباب وخرج يُجرجرها بقوةٍ وعصبيةٍ مُتناهيةٍ..كانت تصرخ

بشدة..لاحَظَ عزيز يدها المربوطة بالجبس..يا لغلظة قلب الباشا! بنظرة واحدة له بهذا الموقف قد تُدرِكُ جزءًا كبيرًا من أسباب معاناتي.

- سأربيكِ يا بنت رضوى..سأربيكِ.

-اتركني..اتركني..لا أريدُ العيشَ هنا..اتركني.

-عبده..يا عبده.

وظَهَرَ عبده الخادم أسمر اللون المقترب من الستين عامًا..هُرع ناحية جدي..ما زلنا نُتابع أنا وعزيز الحدث داخل ذكرياتي المحظور على أحد الاقتراب منها.

-أوامرك يا باشا.

-خُذْ هذه البنت واحبسها بالبدروم..هيا افعل ما أمرتُك.

-حسنًا يا باشا..حسنًا.

حَمَلَها عبده على كتفيه واختفى..كانت تصرخُ بكلِّ ما لديها من صوتٍ..صوتٍ ملائكي رقيق..

-اتركني..اتركني..أنا أكرهُكم..اتركني.

لم تمرَّ تلك الليلة بيُسرٍ..صراع رهيب كان بداخلي حينها..هل أبتعدُ خوفًا من غضب جدي أم أقتربُ خوفًا عليها؟ لم يكن قرارًا هيِّنًا..ولكن بالنهاية فاز حُبي لنيفين..أحضرتُ كوبًا من اللبن وبعض الأرغفة الممتلئة بالجبن وبعضًا من الفاكهة ونزلتُ للبدروم حَذِرًا أتحسَّسُ خطواتي جيدًا..وصلتُ لباب البدروم ووجدتُ قُفلًا كبيرًا مُغلقًا يصعُبُ التعامُل معه لمن في سِني..ناديتُ نيفين طارقًا البابَ بحذرٍ شديدٍ هامسًا:

-نيفين..نيفين.

أجابتني مِن خلف الباب بشغفٍ:

-نادر.

-ألمْ يغلبْكِ النُّعاسُ بعدُ؟

-أنا خائفةٌ هنا..خائفةٌ جدًّا.

-الباب مُغلقٌ بقُفلٍ كبير.

-أريدُ الخروج من هنا..لا أتحمَّل المكوثَ هنا.

-أحضرتُ لك بعض الطعام والفاكهة.

-أريدُ الخروج من هنااااااااااااااااااا.

-لماذا وقعتِ من الشرفة؟

-أريدُ الخروج من هنااااااااااااااااااا.

يبدو أن ذلك المكان بالداخل مرعبٌ للغاية..لم أدخله مطلقاً من قبل..ولكن صوتَها المرتعش ينبئُ بذلك.

-ستخرجين إلى أين يا عبيطة؟ ليس لنا مكان آخر.

-أرجوكَ يا نادر، أخرجني من هنا..ألستَ أخي الكبير؟ أخرجنننننني.

وقفتُ أفكرُ لحظاتٍ..وخطرتُ لي حينها الفكرة المخلصة..أجبتُها:

-سأسرقُ مِفتاح ذلك القفل من جدي وآتي لأفتحَ لكِ، لا تصرخي حتى أعودَ حتى لا يشعرَ بنا أحدٌ.

-أيمكنُكَ ذلك حقًّا؟

-سأحاولُ لأجلِك.

بمجرد التفاتي لأستعدَّ للخروج اصطدمتُ به..كان ذلك جدي الباشا واقفًا يملؤه الغضبُ على أشدِّه..أمسكني بقسوةٍ مُتناهيةٍ صارخًا فيَّ:

-أتريد سرقتي يا بن رضوى..سأعرفُ كيف أربيك أنتَ الآخر، سأربيكما أنتما الاثنين.

صفعات متتالية على وجهي الصغير..مُنتهى الجفاء..صفعات لا تُنسى مهما يمرّ الزمن، وكأنها سياط مسمومة تركتْ آثارها تتسرَّبُ عبر الزمن لتنهيَ حياتي رويدًا رويدًا..صرختْ نيفين من داخل محبسها:

-اتركه ..اتركه لا تضرِبْه.

كنتُ أصرخُ باكيًا بين يديه:

-اتركني والنبي يا جدي..سامحني..لن أفعل ذلك مرةً أخرى.

-يا نادر..يا نادر.

-والنبي يا جدي والنبي.

جرجرني حينها لأعلى.. توسلتُ إليه كثيرًا ليتركني، ولكنه كان قاسي القلب لا يُحرِّكُ قلبَه بكائي ودموعي المنهالة..خرجَ بي لحديقة القصر:

- تريدان الخروج عن طوعي كما فعلَ أبوكما؟ كلا لن أسمح بذلك مرةً أخرى..لن أسمح.

-والنبي يا جدي والنبيييييي. لن أفعل ذلك مرة أخرى..جدي..يا جدي..يا جدي.

حبسني أنا الآخر بغرفة أخرى منزوية بحديقة القصر..أغلقَ الباب من الخارج بقفلٍ مماثل لنصبح سجينين أنا ونيفين بقصر الباشا..أصغر سجينين على وجه الأرض.

بعد لحظات توقفتُ عن الصُّراخ حينما تأكدت أنه لا فائدة..لن يتأثر..لن يرقَّ قلبه مهما أصرخْ أنا ونيفين..نظرتُ حولي..غرفة كئيبة..سأقضي ليالي بها لا يعلم عددها إلا الله.. شباك علوي صغير مغلق بعيدانٍ من الحديد..ضوء القمر يتسلل لتلك الغرفة على استحياء..برقت عيناي وارتعش قلبي خوفًا حينما أدركتُ أين أنا..انتابني رعبٌ لا يوصف..ودَّ قلبي لو يكسِرُ عظام صدري ويهرب بعيدًا عن ذلك الجسد الهزيل مِن هول الخوف.

كان عزيز ممسكًا بورقة يُدوِّن بها بعض الملاحظات وأنا غارق بدروب خُدعتُ بأنها منسية بجلسة علاجي الأولى..ولكنها حاضرة تؤلمُني كمعولٍ صغير يلامس قلبي ليل نهار طوال هذه السنين.. تنهدت مغمضَ العينين:

- كنتُ مرعوبًا أرتجفُ..ثلاثة أشهر منذ دخولي لهذا القصر وأنا أبتعدُ عن هذه الغرفة بالذات..أتحاشاها وأتجنَّب حتى المرور بقُربها مهما يكن..ثلاثة أشهر وأنا أحاول نسيان ما حدثَ، ما عايشتُه كان أبشع ممَّا يتحمله طفلٌ بمثل سِني، ما رأيتُه كان كفيلًا بموتي بوقتِها.

سألني عزيز:

-ماذا رأيتَ؟

فُتِحَ حينها باب آخر داخل ذاكرتي..كنتُ أمسكُ يدَه صاعدًا سُلَّمَ بيتنا القديم..فيلا والدتي رضوى ووالدي..فُتح الباب فقفز ضوءُ القمر أمتارًا بالداخل ليشُقَّ ظلام الفيلا الداخلي.

-تعالَ يا عزيز.. تعالَ.

-إلى أين؟

-هذا بيتُنا..البيتُ الذي عِشتُ فيه أجمل أيام حياتي.

أدخلُ بهدوء..بهدوووووء.

-أنا لا أرى أي شيءٍ؟

-تعالَ لا تخَفْ.

أخرجتُ كشافًا صغيرًا ليرشدنا ضوؤه بذلك الظلام..امتلأت عيناي بالدموع وأنا أشتمُّ رائحة الماضي السعيد بذلك المكان..وأنا أنفض غُبار الزمن عن أجمل مكان عِشتُ فيه..عن جنتي الصغيرة..أرسلتُ ضوء الكشاف على صورة معلقة على الحائط..أشرتُ إلى عزيز ناحيتها كانت لأبي وأمي وإخوتي وأنا..قبل ٢٨ عامًا من الآن..حينما كنا أسرة سعيدة:

- هذه أمي ..رضوى..وهذا أبي أمجد..ونيفين وهذا أحمد، وأنا..كنتُ بالسابعة من عمري.

ابتسم لي عزيز مُربتًا على كتفيَّ..لاحظَ صورة أخرى بجوار تلك الصورة..سألني عنها:

- مَنْ هؤلاء؟

-عائلة عم عبده البستاني..كنتُ أحبَّها جدًّا، ..بنتاه..تقى..وجميلة، وهذا هو عم عبده.. عاش معنا وكأنه واحدٌ منَّا، بهذا البيت كان الحب والعطف ينبضان بكل ركنٍ فيه.

عم عبده المنتقل معنا لبيت جدي الباشا..هكذا لاحظَ عزيز فأشرتُ إليه بالإيجاب قبل أن يسألني..فقد رآه بقصتي قبل قليل..فجأة فتحت كل الأنوار وهرب الظلام بعيدًا..إنها عائلتي الحبيبة..يهللون ويصفقون وأنا طفل أتوسَّطهم..زينة معلقة وبالونات وشموع سبع تتوسط تورتة في منتصف منضدتنا الكبيرة..إنه عيد ميلادي السابع..آخر عيد ميلاد احتفلتُ به بحياتي..رفضتُ بعدها الاحتفال مع أي أحدٍ بل كنتُ أصرخُ غاضبًا إن حاولَ أحدٌ تهنئتي به:

-حبيب أمك..ما رأيك بهذه المفاجأة؟

-جميلة يا أمي.

-كل عامٍ وأنت بخير يا حبيبي.

-وأنتَ بخير يا أبي.

-انظر ماذا أحضرتُ لك؟

-الله..الدراجة التي تمنيتُها.

-كل عام وأنت بخير يا نادر.

ذكرياتٌ تدمي القلوب أسًى وحُزنًا..وقفتُ بجوار عزيز نشاهد لحظات من الفرح انزوتْ مع الزمن وتوارت..قبَّلتني نيفين الصغيرة مادَّةً يدَها بوردة تماثلها:

-كل عام وأنت طيب.

-هيا..لنطفئ الشموع.

خفُتَت الإضاءة مرة أخرى وبدؤوا بالغناء..أغنية عيد الميلاد المتوارثة عبر الأجيال باللغة الإنجليزية. انضممتُ إليهم وغنيتُ معهم..وكأنني أخترق الزمن بعد ٢٨ عامًا لأحتفل بعيد ميلادي مع عائلتي القديمة.

وقفَ عزيز يُتابِعني وامتلأت عيناه بالدموع هو الآخر يتابع اثنين،..طفلًا في السابعة من عمره امتلك الدنيا وما فيها بعائلته وحبِّهم.. وشابًّا في الخامسة والثلاثين خاويَ الوفاض يبحثُ عن حبٍّ مضي ودُفن عبر السنين.

-سنة حلوة يا جميل

سنة حلوة يا جميل

سنة حلوة يا نادر سنة حلوة يا جميل

صفَّق الجميع ونُفِخ في الشموع..وانطفأ ضوء آخر أعيادي..وساد الظلامُ الدامس بحياتي.

ارتميتُ بأحد أركان تلك الغرفة المخيفة وأنا أسترجِع ذكرياتي..أرتعشُ من الخوف والرعب..صوت أذان الفجر يدوي قريبًا معلنًا عن نهارٍ جديدٍ يشقُّ طريقَه بمأساةٍ لن تنتهي..هذه الغرفة المرعبة لم تكن مكانًا اعتياديًّا..هل سُجِنَ أحدُكم من قبل بقبرٍ مُظلِمٍ؟ هل قام أحدكم بالمبيت بأحدها مسبقًا؟ مستحيل..قد أكون أول مَن سُجن بالقرب من رفاتٍ مدفونة..هذه الغرفة ما هي إلا قبر لوالدي رحمة الله عليه..مكتوب عليها قبر المغفور له أمجد عبد الغني رشوان النصراوي..ها هو قبره بالقرب مني مدفون بداخله بمنتصف الغرفة..أحدٌ ما يفتح القفل على الباب..هُرعت ناحية الباب لأستكشفَ..دخلَ عم عبده فارتميتُ بأحضانه:

- عم عبده..أخرجني من هنا والنبي. أخرجني يا عم عبده.

-صه..بهدوء يا بني.. أخفضْ صوتَك ..لا حول ولا قوة إلا بالله.

كان يهمس خائفًا هو الآخر من شيءٍ ما.

-أنا أتعذَّب هنا..لا أستطيع المبيت بهذه الغرفة أبدًا، أخبره أنني لن أفعل أيَّ شيء يضايقه بعد اليوم. أخبره أن يُخرجني من هنا..أرجوك.

أمسكني بقوةٍ ناظرًا بعينيَّ:

-نادر..أأنتَ رجل أم لا؟ أجبني يا بني ..أأنتَ رجل أم لا؟

أشرتُ له بالإيجاب..همسَ لي حينها بحَلٍّ مستحيل:

-اهرب.

-ماذا؟

-انجُ بنفسك مِن هذا الجحيم.

-أهربُ؟

-استمعْ لي جيدًا يا نادر..سأخبرُك سِرًّا احتفظْ به بصدرِك حتى تكبر لربما وقتها تستطيع الأخذ بثأرك..سِرًّا آن أوانه..لن أكتمه أكثر من ذلك.

-أيُّ سِرٍّ؟

اتكأ عم عبده ساندًا ظهره على الحائط ليبدأ هو الآخر قَصَّ سِرِّه على طفل صغير في الثامنة من عمره:

-منذ سنوات بعيدة بعدما تزوجتُ بالأقصر، دارت مشاجرة كبيرة بسبب قطعة من الأرض تنازع عليها عائلتان وبوسط تلك المشاجرة..قتلتُ شخصًا يُدعى قنديل وهربتُ أنا وزوجتي، حُكِمَ عليَّ بالأشغال الشاقة المؤبدة ..حُكِمَ عليَّ حُكمًا غيابيًّا..٢٥ عامًا ..وقابلتُ أباك..أمجد بك كان زائرًا دائمًا هو ووالدتك لنا بالأقصر، هاتفته وأخبرته الحقيقة، وما كان منه إلا أن حماني وطلب مني أن أعمل لديه بستانيًّا، ورحَّب بي بفيلته أنا وزوجتي..٦ سنوات وأنا بنعيم بسببه وكأنني أعيش ببيت أخي..بناتي كأولاده وبيته كبيتي.. حتى حكم الله علينا جميعًا بالعذاب فجأة.

امتلأت عيناه حينها بالدموع..وقفتُ أنا وعزيز بالطابق الثاني بفيلتنا القديمة..ووقف عبده ينظف الطابق بالقرب من غرفة والدتي ووالدي.. صوتهما علا بعض الشيء..كان والدي أمجد متوترًا للغاية يبدو أن عبده كان قاصدًا التنصُّت عليهما:

- لن أذهبَ له يا رضوى..لن أذهب.

أجابته ببعضٍ من الهدوء:

- مهما يكن هو أبوك يا أمجد..لا تُحمِّلني ذنبَ بُعدِك عن والدك طوال حياتي، أرجوك.

-أنسيتِ كل ما جرى؟ أين كان هو منذ ثماني سنوات؟ حينما رماني كالكلب وحرمني كُلَّ شيء لمجرد أنني اخترتُ مَن أحببتُها ورغِبتُ بتكملة حياتي معها، تلك مَنْ كرهها فقط لأنه لم يختَرْها بنفسه، أنسيتِ كم تعذَّبنا وعانينا ولولا ميراث أمي لكنا شحذنا بالشوارع..والآن بعد كل هذه السنوات ننعم بحياتنا معًا وبأولادنا حولنا وهو يعاني بمفرده مرارة الوحدة جراء أفعاله واختياراته.

-ولكنه شعر بالندم وأبدى رغبته بمصالحتك وبرؤية أحفاده.

-لكنه اشترط عدم ذهابك بصحبتنا..أعرف أبي جيدًا..هو فقط يحاولُ مِن جديد إبعادي عنك..بعد ثماني سنوات لم ييأس ويحاول من جديدٍ.

اقتربت منه رضوى مُربتةً على وجهِه بحنانٍ معتادٍ منها:

-لا تُعطِ الموضوع أكبر من حجمه إنها مجرد مقابلة..إن لم تشعر بالارتياح لا تذهبْ مُجددًا، الأولاد ينتظرونك..هيا ارتدِ ملابسك ولا تتأخروا عليَّ سأنتظركم.

ملاك حارس عاشت حياتها تفيض حُبًّا وحنانًا لنا جميعًا..أحبُّك يا أمي مهما يمرّ الزمن..أعشقُ طيبتك وحنانك..

سالت الدموع بعينيّ عم عبده بقبر والدي المخيف..كنتُ أنظر له متعجبًا..ما الذي يُخفيه ذلك الرجل الطيب؟ ما هذا السر المُشير إليه منذ قليل؟ نظر إليَّ متوترًا حينها:

-جدُّك عرف كيف يحكم وثاق عقلي ..ويُخدِّر مشاعري، هدَّدني بذلك الحكم الجنائي القديم..وحوَّلني لمجرد أداة بيديه ينفذ بها جريمته الشنعاء.

-جريمته؟

-باليوم نفسه الذي طلب فيه مقابلة أبيك بصحبتكم، طلبتُ من زوجتي أن تخرج بصحبة بنتينا لخارج الفيلا وتشاركهما اللَّعب بحديقة ألعاب قريبة. وبمجرد أن خرجنَ...

وكأننا قذفنا نحن الثلاثة بذاكرته هو..وقفنا أنا وعزيز وبجوارنا نادر الطفل الصغير ذو الثماني سنوات مخترقين كل الحواجز الزمنية والمكانية نتابع سِرَّه الدفين بذاكرته..كنا بالفيلا والسكون يعمُّ المكان..أتذكَّر ذلك الوقت جيدًا، كنا بطريقنا أنا وإخوتي بصحبة والدي للمقابلة الأولى مع جدي..وقَفَ عم عبده بمنتصف الدور الثاني..لم يتبقَّ أحد غيره وأمي الجالسة بغرفتها تستمع لأغنيتها المفضلة..النهر الخالد لمحمد عبد الوهاب..اطفأت رضوى ضوء الغرفة وخلدت للنوم على أنغام الموسيقى..جرى حينها عم عبده إلى حمام الدور الثاني..وأشعل النيران بستائر الحمام..هُرع بعدها للدور الأرضي وأشعل النيران بستائره هو الآخر..ثم بسرعة خاطفة هُرع إلى المطبخ بمنتصف الفيلا وأزال خرطوم أنبوبة الغاز وفتحَها عن آخرها..كتمَ أنفاسه وخرجَ..جريمة مكتملة الأركان يُنفِّذُها عم عبده الرجل الطيب الذي اكتشفته حينها على حقيقته السوداء مُحطِّمًا كلَّ حياتي..وقفَ عم عبده عن بُعد بحديقة الفيلا منتظرًا الانفجار الحتمي..ستتقابل النيران مع الغاز ليحترق كل شيء..ما هذه الخطة اللعينة؟ وكأن ذلك الباشا جندي من جنود إبليس اللعين على هذه الأرض..انفجار هائل ستحترق معه كل الأدلة..وسينتهي الأمر قضاءً وقدرًا..ولكن القدر يُخفي رأيا آخر..عاد والدي أمجد حينها بسيارته تاركا إيانا بداخلها..أنا وإخوتي:

- لا تتحركوا من السيارة..سأُحضِرُ محفظتي وآتي سريعًا.

ذُهِلَ عم عبده..تغيَّرت الخطة غصبًا عنه..حتمًا سيقتله الباشا لو مات ابنه معها..لن يستمع لتبريراته حينها..ماذا يفعل؟ وقف مشلولًا لا يدري: أيصرخ به ويمنعه من الدخول أم ماذا؟ لم يمنحه القدر فرصة للتفكير..صفعه بمفاجأة أخرى..زوجته التي أرسلها بعيدًا ببنتيه عن الفيلا يراها تخرج من داخل الفيلا..من الباب الخلفي لشرفة غرفة الألعاب..صرخ بزوجته:

- أين البنتان؟

- أتعبتاني للغاية..مرة أخرى عليك الخروج معنا فلن أقوى على تحمُّل مسئوليتهما بمفردي..

-أين البنتان؟

-تلعبان بغرفة الألعاب

-يا ويلي!

وقبل أن يبرح مكانه انفجر كل شيء بالفيلا..كتلة من النيران التهمت جميع من بالداخل..لحظة لا تُنسى..أطفالٌ ثلاثة يفقدون كل عزيز لديهم بلحظه قاسية..أظلمت الدنيا في عيني منذ تلك اللحظة..نيران تلتهم قلبي لا تنطفئ أبدًا..

بكى عبده كثيرًا ونحن بقبر والدي الميت غدرًا..

- خوفي على بنتيَّ من سجني والابتعاد عنهما أضاعهما للأبد..أنا مَن أحرقتهما..حرقًا أمام عينيَّ بيديَّ أنا..ومِن يومها وأنا بجحيم لا ينتهي..مِن يومها وأنا...

لم أمنحه حينها الفرصة لإكمال قصته..ضربته بقوة بحجر كبير على رأسه لأهشمه..طفل في الثامنة من عمره يُقدِم على قتل رجل مثله..أي جحيم عشته ليدفعني لذلك..نيران مشتعلة بقلبي..سقط غارقًا بدمائه وخرجتُ أنا من الغرفة أجري كالمجنون بالشوارع.. عزيز يُدوِّنُ شيئًا بورقته وأنا مغمضُ العينين، مُقطِّبُ الحاجبين، متأثر للغاية.

- جريتُ بكل قوتي، جريتُ لا أدري إلى أين، وكأني بوسط النار التي التهمت أبي وأمي ..أدركتُ وقتها لماذا لم يدفن جدي ما تبقَّى من أمي مع رفات والدي..أدركتُ من أين له بهذه القسوة المتناهية، وكأنه يرى جريمته كل لحظة بوجوهنا الرافضة العيش معه..لو أن إبليس مكانه لكان رَقَّ قلبه لحالنا..لكان رَحِمَنا.

-وماذا بعد؟

قالها عزيز متأثرًا..أجبتُه مغمض العينين:

-وجدني الباشا بسهولة..أصابني انهيارٌ عصبي، سنتين..غائبًا عن الوعي..لم أنطق بأي كلمة وكأني خارج نطاق الدنيا..لا أشعر بأي شيء حولي. ظللتُ صامتًا سنتين لا أرى أمامي سوى بيتنا القديم والنيران تلتهمه، وصراخ مكتوم تسجنه حنجرتي ومهما أحاولْ تحريره لم أقوَ على ذلك قط.

-وبعد السنتين؟

- عاد وعيي لأجد كل شيء قد تغيَّر، وكأن الكون تبدَّل بتلك السنتين.

-كيف؟

-لم أجد تلك الغرفة المدفون فيها والدي، لم يعد لها وجود بحديقة القصر من الأساس، والأكثر من ذلك عم عبده

-ماذا حدث له؟

-حينما سألتُ عنه أخبروني أنه مات يوم الحريق مع بنتيه وزوجته وأبي وأمي. لم ينجُ أحدٌ من الحريق سوانا أنا وأحمد ونيفين مصادفةً؛ لأننا كنا نلعب بحديقة الفيلا، وقتها ساورني الشَّكُّ بكل شيء ..شعرتُ أنني مجنون، وتلك القصة التي حكاها لي عم عبده بقبر والدي غير الموجود بمكانه؟ وامتلأت حياتي بضباب لا ينتهي..التزمتُ الصمت سنواتٍ عديدة. لا أقوى على النطق بما عرفتُه ولا أقوى على نسيانه.

-وقبر أبيك؟

-طلبتُ من جدي زيارته.

-وزرتَه؟

أشرتُ له بالإيجاب.

-ووجدتُ بجواره قبر أمي (رضوى عبد الملك سليمان)، اسمها كان على شاهد القبر بجواره مقابر عائلة النصراوي.

-أصدقتَه؟

-لا..لم أقدر على تصديقِه.

تنهَّد عزيز:

-من الجائز أن ما حدث لك نتيجة المصيبة الكبيرة التي عايشتَها ..موت الأب والأم مصيبة عظمى يا نادر.

-ربما.

-ألم تحكِ لنيفين هذه الشكوك؟

-نيفين كانت بمدرسةٍ داخلية وكنتُ أراها مرةً بالشهر.

-لماذا لم تشاركها عذاباتِك؟

-وماذا أحكي لها؟ وكيف ستصدقني وأنا نفسي لستُ متيقنًا من أي شيء؟

-على الأقل كنتَ ستعرف ماذا حدث يوم الحريق.

-ما فكرتُ فيه وقتها أن الحياة ستستمر..يجب أن تستمر مهما يكن، حاولتُ تناسي ما حدث..حاولتُ العيشَ..ركزتُ بدراستي لأعوض السنتين الماضيتين.

-أتذكَّرُ جيدًا أيام المدرسة.

- كنتَ تعرف هدفك وتجهز له بكل ما لديك من قوة.

-وأصبحتُ ضابطًا، وأول ما فعلتُه هو التيقُّن من حقيقة موت عم عبده، هُرعت أبحثُ عن ملف هذه الحادثة، ووجدته فعلًا مات يوم الحريق..شهادة وفاته بالتاريخ نفسه.

-ألم يخطر ببالك قتله؟

فاجأني عزيز بهذا السؤال.

-مَنْ؟

-جدِّك؟

تحوَّلت ملامحي إلى الغضب والشَّرِّ مُمتزجين..

-قتلتُه كثيرًا.

-كيف؟

-كابوس واحد متكرر إلى الآن، ملامح وجهه والنار تأكلها تملأ عينيَّ، رائحة جسده وهو يتحوَّل إلى رماد.. تلك الرائحة الممتزجة برائحة النار..تملأ رئتيَّ.

صارحته بذلك الكابوس المتكرر..قيود غليظة أوثق بها الباشا على كرسي لأمنعه من الحركة وأقوم بحرقه بنيران تشبه النيران نفسها القابعة بذاكرتي..كابوس لعين أحاول دومًا نسيانه ولكنه يقفز إلى أحلامي ليحتلَّ المركز الأول بين الحين والآخر..غيَّر عزيز مجرى الحديث..

-سأُردِّدُ عليك بعض الكلمات وعليك إجابتي بأول كلمة تخطر ببالك: الشمس.

-لا أرى.

-القمر.

-غائب.

-حيوان.

-ثعلب.

-بالون.

- انفجار.

-لعبك.

-كنتُ أُحطِّمُها.

-الأحمر.

-دم.

-الأسود.

-موت.

-مسدس.

-أمان.

-الحياة.

-جحيم.

-الموت.

-جحيم.

-فليكفِ اليوم يا نادر..أظنُّ أننا وضعنا أيدينا على سبب مرضك الرئيسي، افتح عينيك.

فتحتُ عينيَّ لأنهي رحلتي الأولى بعالم علاجه السحري..سألته:

-وما السبب؟

-الشَّكُّ..الشك المتنامي بداخلك أن جدك هو السبب بموت أبيك وأمك مع عدم قدرتك أن تبوح بذلك لأحد لأنه غالبًا كان مِن نَسْجِ خيالك..أنت نفسك كنتَ تشكُّ بذلك..كل شيء بالنسبة لك كان ضبابيًّا..ولهذا عقلك الباطن كَوَّن شخصية أخرى خفية بالتدريج لها القُدرة على إنجاز ما تتردد أنت فيه وهذا ما حدثَ بكوابيسك جميعها.

-لكن ما علاقة ذلك بما حدث لي الفترة الأخيرة؟

-هذه الشخصية بدأت تتوحَّش.

-تتوحَّش؟

-نعم..بدأت في الخروج من عقلك الباطن للحياة..بدأت محاسبتك..تُعاقِبُك على كل شيء، ضميرك يشعر أنه خطأ ولو لحظة.

-ولهذا وضعت متفجرات بخزينتي وبالوزارة.

-بالضبط..هذه الشخصية الحازمة ترى أنك وعملك مرتعان للخطيئة، ترى أنكما مجرمان يستحقان العقاب الرادع.

-ولكن لماذا هُرعت لأمنع التفجير حينها؟

-لأن الصراع الدائر بينكما ما زال مُحتدًّا على أشدِّه، لم يسيطر أيٌّ منكما على الآخر.

-وبائع سوق العتبة الذي خُيِّل إليَّ أنه عباس الدمراوي؟

-أخبرتُك قبل ذلك أن هذه مجرد أعراض لهلاوس وضلالات بصرية تهيئُها لك تلك الشخصية الأخرى بداخلك.

-وإبراهيم محفوظ؟

-هذا هو السؤال الوحيد الذي لا أجد له إجابة ربما بعد فترة نفهم ما علاقتك به، ولماذا دفعته لاقتحام الكوردون الأمني.

-والحل؟

-انتظمْ على جرعات الدواء وسنجري جلسة كل أسبوع تحكي لي فيها ما بداخلك، وأهم شيء بخطة العلاج أن تكون مُصمِّمًا على الشفاء، عليك مساعدتي ومساعدة نفسك على قهر تلك الشخصية بداخلك، الشخصية الذكية التي ستبذل كل ما في وسعها لتقاومنا، ستحاول إيجاد مبررات قوية لك تقنعك بوجودها، وليس فقط علينا إرجاعها لعقلك الباطن مرة أخرى، لا..علينا كشفها تمامًا أمامك لتختفي للأبد

-أشكركَ جدًّا يا عزيز..أشكرك يا صديقي على دعمِك ويدك تلك الممدودة إليَّ بالخير والعون.

-لا عليكَ يا نادر نحن صديقا عمر.

-أشكرك يا صديقي ..أشكرك.

احتضنتُه.. أشعرُ ببعض الراحة الآن ولو وقتية.. وكأن حملًا ثقيلًا شاركني أحدٌ بتحمله..عزيز من أقرب الأصدقاء إليَّ منذ صغري..صديق عمر..ولكن هل سيستطيع أن يخرجني مِن ذلك المرض اللعين وأعاود حياتي كما كانت قبل هذه المحنة..قبل ٢٧ عامًا؟ أشكُّ في ذلك..أقصى ما يستطيعه هو إرجاعي لحياتي الباهتة قبل عام من الآن..قبل ظهور هذا المرض وتمكنه مني.

وقف مجدي نور الدين بغرفة الاجتماعات الأمنية بوزارة الداخلية بتلك الساعات المتأخرة من الليل تقترب الساعة من الثانية بعد منتصف الليل ..ثلاثة أيام من العمل المتواصل دون راحة على الجميع..يشرح مجدي ما تم التوصل إليه بالفترة الأخيرة على شاشة بروجيكتور بحضور كل القيادات الأمنية وعلى رأسهم الوزير حمدي زغلول..تتوالى بعض الصور للضباط على تلك الشاشة يشير إليها مجدي:

- العقيد أحمد عبد الستار جمعة، كان من ضمن القوات المسئولة عن فض اعتصام رابعة، الرائد عبد المجيد فودة، ضَبَطَ خليةً إرهابية بالفيوم وتمَّ التعامُل مع الإرهابيين وإطلاق النار مباشرةً عليهم بعد محاولة فاشلة للهروب، الرائد شادي سعد الله، كان من ضمن القوات المسئولة عن فض اعتصام رابعة وقام بالقبض على عناصر الشغب المسلحة بالاعتصام، وكان منهم عباس الدمراوي المحكوم عليه بالإعدام مع ٣٠ آخرين قبل اغتيال الرائد شادي سعد الله. ١٥ ضابطًا ..كلهم تمَّ اغتيالهم بالتوقيت نفسه تقريبًا في أماكن مختلفة، وكلهم لهم علاقة بعناصر إخوانية مسلحة إما بالقبض المباشر عليهم وإما تصفيتهم جسديًّا في أثناء المواجهات المسلحة معهم.

-أين فريد الدمراوي؟

سألهم الوزير حمدي زغلول والغضب يقفز من عينيه..فأجابه اللواء محسن مدير الأمن:

-جارٍ البحث عنه سيادتك.

- مجرم كهذا يتحدانا جميعًا ويصور نفسه في أثناء قتل رجل منا ولا نستطيع إمساكه؟ ما هذا التهريج؟

سارع أحد القيادات بتهدئة الوزير..

-سنتوصل إليه بأقرب وقتٍ سعادتك.

-أريدُه حيًّا ..فريد هو الخيط الوحيد الموصل لهذه الخلية الإرهابية، ووقتها سنسحقهم مهما يكنوا..حتى وإن كانوا أقرب الناس إلينا.

التفتَ اللواء محسن له مدركًا ما يرمي إليه..

-سعادتك تقصد...؟

-هناك رجال بيننا بالوزارة تساعدهم..وسرَّبت لهم خطوط سير الضباط، للأسف الوزارة مُختَرَقة.

شاركه اللواء محسن الرأي ناظرًا للجميع..

-وهذا كان رأي العقيد نادر النصراوي أيضًا

-ما أخبار المُراقبة يا سيادة النقيب؟

كان يقصد مراقبتي أنا..التفتَ مجدي ناحية الوزير سريعًا وأجابه:

-مستمرة سيادتك..ولا نلحظُ أيَّ شيءٍ غير مُعتاد.

-غالبًا سيحاول هذا المجرم التواصل معنا مرة أخرى من خلال نادر، وقاحته الفجة تلك التي دفعته للدخول والخروج بكل سهولة لبيت نادر ووضع متفجرات ستدفعه للمزيد لاستفزازنا أكثر وأكثر، هذا إن كان كلام العقيد نادر صحيحًا.

ما زال يساوره الشكُّ الدائم فيَّ..قاطعه اللواء محسن مستفسرًا:

-أنا آسف سعادتك..وما مصلحة العقيد نادر بالكذب علينا أو إخفاء الحقيقة؟

-سأعلمك شيئًا يا سيادة اللواء..مهنتنا هذه ممتلئة بالمفاجآت، حافظْ دومًا على يقظة عينيك وعقلك..ضربة الخنجر قد تأتي من أقرب الناس إليك، وممن لم تتخيل قط خيانتهم لك. الضابط الكفء لا يضع أبدًا ثقته بأحد..لا تقترب..حافظ دومًا على مسافة بينك وبين من حولك..قد يأتي يومٌ ويقتلك أحدُهم، فكُلُّ الاحتمالات واردة بهذه الدنيا.

أمَّن الجميع على كلام الوزير وحكمته:

-تمام سيادتك.

-أيُّ مكانٍ به النقيضان، به الصادق الوفي، وكذلك الخائن المتخفي، ونحن بوسطنا فسدة وخونة علينا تطهير أنفسنا منهم قدر استطاعتنا، مفهوم؟

-تمام جنابك.

-بالمناسبة، هل هناك أيُّ جديد عن المدعو إبراهيم محفوظ؟

أجابه مجدي سريعًا:

-لا شيء سيادتك..لا شيء سوى السيارة التي اخترق بها الكوردون الأمني، إنها مسروقة منذ عشرة أيام..ومالكها حَرَّر محضرًا بقسم العمرانية يوم سرقتها..ولم نعثر على أي متفجراتٍ بها.

-هذا الشابُّ وراءه سِرٌّ خَفي.. يا سيادة اللواء، أرسل بيانًا تنفي فيه ما نُشر بالجرائد عن هذا الشابِّ وأخبرهم أننا ننتظر نتائج التحقيقات، وأنت يا مجدي بَلِّغ رؤساءك أولًا بأول عن أيِّ جديد.

-حاضر جنابك.

-تفضَّلوا.

هَمَّ الجميع بالانصراف..نادى الوزير مجدي فتوقَّف واستدار إليه:

-مجدي.

-أوامرك سيدي.

-أنا أصدرتُ قرارًا بترقيتك لرتبة رائد.

قفزتُ الفرحة بقلب مجدي..لطالما انتظرَ تلك اللحظة.. يبدو أن الفترة القادمة ستحمل له كثيرًا من المفاجآت، فمنذ قدوم اللواء محسن بديلًا للواء شاكر وهو يشعر بأمل بالمستقبل وها هو يتحقق حدسه..ابتسم مجدي للوزير:

-أشكرك سيدي..أشكرك جدًّا.

-أريدك دائمًا عند حُسن ظني.

-أنا تحت أمر معاليك دائمًا.

-تفضَّل.

خرجَ مجدي بعدما حيَّاه التحية العسكرية..خرج ليتلقَّى رتبته الجديدة..الرائد مجدي نور الدين..بداية الطريق..الطريق إلى القمة.

فات الميعاد

(ليلة الثاني والعشرين من أبريل)

هَلَّ موكب الباشا عبد الغني النصراوي منتصرًا وتوقَّف سائقه بسيارته الفارهة أمام مبنى الحزب المصري الجديد..هُرِعُ البودي جارد المصاحب له يفتح باب سيارته..وقفَ يختلس النظر لذلك المكان الذي طالما خطَّط لدخوله مُتوَّجًا، وها هي اللحظة قد حانت..لحظة إعلان الانتصار..دقائق تفصله عنها..جلس جميع قيادات الحزب على غير العادة متعجبين لتلك الدعوة المفاجئة من رئيس الحزب سيف ممدوح ..التفَّ الجميع حول منضدة الاجتماعات الكبرى بالحزب وشرع ممدوح بالحديث متصنعًا الثبات دون جدوى..قتلته تلك النظرات المتطايرة من عيني الباشا الجالس أمامه على الجانب الآخر من المنضدة ترشقُ سِهامُ السخرية والاستهزاء قلبَه..

- الحزب المصري الجديد مِن أهمِّ الأحزاب الآن على الساحة السياسية، وبصفتي رئيسًا للحزب ومن أكثر المحافظين على مصالحه، مهما تكن التضحيات..مهما تكن..فليرحل الأشخاص والحزب باقٍ لا يتأثر..أنا الآن أُعلن لكم استقالتي من رئاسة الحزب بناءً على المُقترح المُقدَّم من عبد الغني بك النصراوي لحَلِّ الأزمة الراهنة على أن يتم ترشيحه رئيسًا للحزب بانتخابات نزيهة.

انتهت كلماته وسط دهشة الحضور وسخرية الباشا..ها قد انتصر سريعًا بجولته الأولى معهم..وقريبًا سيجلس على كرسي رئاسة الحزب ليتحقق الجزء الأول من خُطته..ليس فقط تزاوُج المال بالسُّلطة..بل يصبح هو مُحتكرَها الأول.

وقف أحمد أمجد رشوان أخي الصغير بسيارته على غير عادته أمام فيلا صغيرة خرج له حارسُها..شهور مضتْ ولم يقترب من تلك الفيلا التي طالما قضى بها ساعاتٍ طويلة مع حبيبته الراحلة..فيلا صديقه المُقرَّب معاذ..خرج من عزلته ووحدته لليلة الأولى مُحاولًا الاقتراب من الماضي..سأل حارسها:

-معاذ بالداخل؟

- أهلًا أهلًا يا أحمد بك..مرحبًا بك يا باشا..تفضَّل بالدخول، الجميع بالداخل.

تَرَكَ سيارته له وترجَّل لداخل الفيلا..صوت الآلات الموسيقية المتداخلة تقترب من أذنيه..ذلك الصوت الحبيب..فرقته التي هجرها شهورًا..مجموعة من أنقى الشباب والبنات الذين عرفهم بحياته..يتنفسون الموسيقى..يعيشون على أوتار أغانيهم..ارتعش قلبه كلما اقتربَ من باب الفيلا مُتذكِّرًا تلك الليالي الحافلة بتصفيق الجمهور بحفلاتهم معًا..خطا بقدميه لداخل الفيلا..ها هي فرقته منهمكة بضبط آلاتها الموسيقية عن كثبٍ..انهمرت الدموع من عينيه شوقًا لأيامه الراحلة..شوقًا لحنين لن يعود..التفتَ صديقه معاذ ذو الثلاثين عامًا فرآه..هُرع ناحيته بشوقٍ كبيرٍ مُحتضنًا إياه:

- أحمد. حمدًا لله على سلامتك يا أخي..حمدًا لله على سلامتك.

جرى الباقون ناحيته يرحبون به ويحتضنونه..ذلك الفتى الرقيق الفنان البارع الذي اختفى عن أنظارهم كثيرًا غارقًا بحزن لا ينقطع.

ألقى سيف ممدوح نظراته الأخيرة على مكتبه بالحزب وهو يجمع كل أوراقه بحقيبته..اعترف بهزيمته بتلك الجولة أمام جبروت الباشا، ولكنه يؤمن أن مشهد النهاية لم يُكتب بعد..وقد يكون له يد ببعض سطوره..امتلأ قلبه بالغِلِّ تجاه الباشا، ولكنه أعلى مصلحة الحزب وضحَّى بنفسه قبل أن يوضع الجميع بمأزق قد يضطرهم بإجباره على تلك الخطوة..وقفَ ينظر إلى صورته المعلقة بالمكتب بحزن شديد..مَدَّ يدَه ليأخذها معه..لا مكان لها الآن بذلك المكتب..ستغرب شمسه التي طالما سطعت بذلك المكتب ولا يدري متى ستشرق من جديد..دخل عليه أحدُ القيادات بالحزب مودعًا إياه بعدما ترك اجتماع الرئيس الجديد المرشح لهم بأول اجتماعاته بهم..نظر له بشفقة شديدة:

- لم أتوقَّع قط تصرفك هذا.

-لم يكن أمامي أيَّ حَلِّ آخر.

-بهذه البساطة؟!

تنهَّد سيف ناظرًا إليه مُحاوِلًا التماسُك..عيناه ممتلئتان بالغضب..

-خانة يك..حُبِسْتُ بها ولا مفرّ..إما أن أترك ذلك الكرسي الطامع به وإما أن يستردَّ ماله من أصول الحزب، وأنت تعرف جيدًا أن هذا مستحيل.

-مؤكد كان هناك حَلٌّ آخر..أنت تعجَّلت التصرُّف.

-عبد الغني يعرف جيدًا ما يفعله..يحسب خطواته ببراعة ..يدخل شريكًا بنسبة ٤٠ بالمئة بمشاريع الحزب ويصر أن تُبرم العقود بالمبلغ المُشارِك به بالدولار دون كتابة نسبته..المبلغ فقط.. وها هي ال ٤٠ بالمئة..اقتربت من ال ٧٠ بالمئة.

-مَنْ كان يتخيل تلك الزيادة المُضاعَفة لقيمة الدولار؟

-لا فائدة الآن..أراكَ بخير.

احتضنه بقوةٍ وخرج..غادرَ مكتبه المُغتَصب..من الآن وصاعدًا سينعم الباشا بمقعدِه ومَنْ يدري؟ هل سيعود يومًا ما إلى هنا أم أنها النهاية؟

توقَّفَ فتحي عبد العزيز بدراجته البخارية على مشارف حديقة مهجورة بأطراف القاهرة..ترجَّل لداخلها ورائحة أدخنة حريق متصاعد تملأ أنفه..هناك أكوام من القمامة المحترقة يمُرُّ بجوارها..يبدو أن تلك الحديقة تحوَّلت إلى مَحرقة قِمامة..حتى شجرها تتهدل

أوراقه، فمنها ما احترق مع القمامة ومنها ما ذَبَلَ لقلة الاهتمام..جذوع نخل خاوية الأوراق..مرتع خصب للخارجين عن القانون..كان هناك بانتظاره..يقف وسط أربعة من رجاله..فريد الدمراوي الإرهابي الهارب..ابتسم له فتحي عبد العزيز:

-جديد هذا المكان.

ضحك الدمراوي ضاغطًا على يديه مُرحِّبًا به:

-ليس لنا مكان واحد.. أرض الله واسعة تَسَعُ الجميع.

-أخاف أن ترصدنا عيونٌ تترقَّب ظهورك بأي مكانٍ.

-لا تخف.. المكان آمن.

-مُرني يا شيخ فريد، أنا تحت أمرك.

وَضَعَ يده على كتفه وترجَّلا معًا وسط تلك الحديقة المهجورة وتابع رجاله الأجواء حولهما كنوع من التأمين المعتاد..

- يا أخ فتحي..أنت أثبتَ كفاءة أكثر من مرة، وأنا أرى فيك مِثالًا للشابِّ المكافح المؤمن الهُمام.

ابتسم فتحي مُداعبًا إياه:

-ما الأمر؟ أترغب بضمِّي للجماعة يا شيخ فريد؟

-الجماعة شرفٌ.

-وهل تأخرتُ على الجماعة بأي شيءٍ؟

-أنصتْ لي جيدًا يا فتحي..نحن بمرحلة حرجة وباختبار مِن الله سبحانه وتعالى..يختبر صبرنا وقوة تحمُّلنا للظلم والطغيان مِن ساعة اغتصاب حُكم البلاد منَّا.

-كان الله في عونكم.

-لذلك نحن نحتاج كثيرًا أن يؤمن الناس بقضيتنا، أن يصدقوا أننا مظلومون..عليهم نسيان تلك الصورة البشعة التي تُصدِّرُها لهم وسائل الإعلام والجرائد..نريدهم أن يكفروا بكل شيء ويؤمنوا بنا نحن..نحن فقط؛ لنستطيع النهوض بكم من جديد والوقوف بوجه الظلم والطغيان ونقيم شرع الله ونخرج هذا البلد الكافر من كبوتِه.

-لا أفهمك..أتريد سلاحًا من جديد؟ لا تؤاخذني..أنا لا أفهم بالسياسة ولا بدروبها، أخبرني طلبك مباشرة يا شيخنا.

-فُتحت لك طاقة القدر يا فتحي.

-كيف يا شيخ فريد؟

- وقعَ عليك الاختيار لتكون صوتًا لنا بالجامعات والكليات.

-أنا؟

قالها متعجبًا..تابَعَ فريد الدمراوي حديثَه:

-ألستَ طالبًا بكلية الحقوق؟

-بلى.

-مطلوب منك الاندماج وسط شبابنا بالجامعة والتحدُّث عن أفكارنا وعن الظلم الذي نُعانيه جميعًا ..تحدَّث عن الأسعار والدولار وزيادته اليومية، عن الشقاء الذي يعانيه الجميع، تحدَّث عن المهاجرين غير الشرعيين على مراكب الموت الغارق أغلبهم وحتى من ينجو منهم يحبسونه ..نريد أكبر عددٍ من الشباب الناقمين على البلد..هؤلاء أكثر مَنْ يسمعونك ويحتشدون خلفك، وشبابنا سيساعدك ويدعمك بمهمتك العظيمة تلك.

-ولماذا لم تطلب مِن شبابكم تنفيذ تلك المهمة؟

سأله فتحي مستفسرًا.

-هم يفعلون ذلك أيضًا.. لكن نحن نريد المزيد والمزيد، نريد مَن هم مثلك..شبابًا آخرين غير هؤلاء المُصلين بمساجد الجامعات.. ولمعلوماتك يعمل معنا الكثيرون..لن تكون بمفردك.

-والمقابل؟

-ما ستطلبه من مالٍ ستناله وهذا مبلغ تحت الحساب.

أخرج له حُزمةً من النقود لا تقِلُّ عن عشرة آلاف جنيه..ألقاها إليه..تلقاها فتحي شغوفًا فرحًا..وضعها بجيبه.

-لي طلب آخر.

-ماذا؟

-أرغبُ بكتابة مقالات بأي جريدةٍ كبرى.

-خطأ..أكبر خطأ..مَنْ هُم مثلك يجب أن يبقوا بالظل كالسوس ينخر بالأساس دون أن يلاحظه أحد.. لا يظهر على السطح أبدًا، وإلا انكشفَ ومات. يا بني لا تكن غبيًّا..فبيننا لا مكان لغبي.. الأغبياء هناك بالقبور.

لحظات من الصمت انتظر فيها الدمراوي موافقة فتحي الحتمية..فكل شيء يُشترى بالمال.. فما باله بشابٍّ مثل فتحي تجرَّع الفقر والحرمان منذ صغره ولديه الاستعداد لفعل أي شيء لجني المال..ابتسم الدمراوي مربتًا على كتف فتحي مُدرِكًا أن عرضه لا يُقاوَم.

وانصرف الاثنان، كلٌّ في طريقه لتجمعهما نقطة المصلحة مهما تفترق الطرق..كان الدمراوي ثابت الخُطى مُدركًا خطواته القادمة بكل براعة..شرد وهو بسيارته نصف النقل على الطريق عائدًا لمخبئه بعيدًا عن أعين الشرطة..مفكرًا بخطته في الانتقام مني..ولكن القدر غيَّر خطته بلحظاتها الأولى..سيارة أخرى تتبعه وعليها مجموعة من الملثمين وبثوانٍ معدودة أُطلِقَ عليه ورجاله وابلٌ من الرصاص فانقلبت سيارته على جانب الطريق بعدما دارت في الهواء عدة مرات..فهناك مَنْ يتربص به هو الآخر..استقرت سيارته وأظلمت الدنيا مِن حوله وفارقَ الوعي بغيبوبة لحظية..لا يدري هل يتبعها موت متأثرًا بجراحه أم ما زال في عمره بقية؟

دَقَّ أحمد أمجد رشوان بأصابعه على البيانو وسط فرقته بيدٍ مرتعشة..دفعه صديقه معاذ لمشاركتهم..شرد لحظاتٍ في حوارهما معًا منذ قليل..هل حقًّا سيستطيع أن يخطو قُدُمًا لمستقبل جديد؟ هل سيتخطى محنته تلك؟ هل ستصدُقُ نبوءة معاذ؟

- لن تخرج مما أنت فيه إلا بالموسيقى..عُدْ لعزفك وفرقتك يا صديقي.

سالت دموعه حينها دون توقُّف:

-لا أقوى على فعل أي شيء..أشعرُ بالشَّلل التام وكأن حبالًا خفيَّةً توثق رأسي وعقلي.

نظر معاذ له بقوة بعينيه:

-أنتَ لستَ أحمد صديقي ..ماذا دهاكَ؟ أخبرني..أأنتَ مَن كانت موسيقاه تهزُّ الميادين؟ أأنتَ مَنْ كنَّا نتعلم منه الصبر والعناد؟ ماذا جرى لك؟ أخبرني.

-كُسِرتُ..اكتشفتُ أنني ضعيف، هشٌّ لا أملك سوى بعض الشعارات الزائفة، ومع أول اختبار حقيقي كُسِرتُ..هُشِّمت لشظايا أصابت قلبي أنا قبل أي أحد آخر.

-أحمد..ستشاركنا الحفلة القادمة..أعطني يدَك..هيا أرجوك.

مَدَّ له يدَه ليتشبث بها..دفعه دفعًا تجاه البيانو ليتبوأ مقعده عليه..وبدأ الجميع بالعزف..نظر للنوتة الموسيقية..إنه يعرفها..لطالما غنوا تلك الأغنية بالميدان..منذ المرة الأولى للاستماع لها من فريق آخر (أنا مصري) والجميع يتناقلها بحفلاته وكأنها شرارة لنار تشتعل بالجميع..أمامه ميكروفون ليغني مشاركًا إياهم جميعًا..دموعه لا تتوقف..أغنية (ملعون أبوك يا سكوت)..يغنونها ككورال وهم يعزفون على آلاتهم:

- ملعون أبوك يا سكوت أنا حلمي مش

هيموت

لو سلسلوا خطوتي أنا لسه فيا الصوت

لو كل يوم سحلوني وبظلمهم عروني

لو بالرصاص قتلوني مش هرضى ع المسكوت

تقدَّمهم معاذ ليغني وشاركته إحدى الفتيات:

- ٣٠ سنة وأكتر صابر ومستنظر

وبحايل الأيام علشان في يوم أقدر

-أقدر أقول الحق وأصرخ وأقولها لأ

مسمار في نعشه اندق والشعب خط

أحمر

-قالوا لنا ياما زمان يا بخت اللي بات

مظلوم

-وقالوا اللي يعيش جبان هيموت كريم

مستور

-ملعون أبوك يا ذُل لو كنت يوم الحل

ملعون أبو الظالم واللي يبات مظلوم

كرَّر الجميع الكوبليه الأول وأحمد يغني مُحاوِلًا التغلُّب على مأساته وذِكرياته المؤلمة..

- ملعون أبوك يا سكوت أنا حلمي مش

هيموت

لو سلسلوا خطوتي أنا لسه فيا الصوت

لو كل يوم سحلوني وبظلمهم عروني

لو بالرصاص قتلوني مش هرضى ع

المسكوت

تقدَّمهم أحمد مغنيًا وكأنه يصرخ باحثًا عن طوق للنجاة دون فائدة وشاركه معاذ بالغناء:

-ملعون أبوك يا خوف أنا لسة قادر

أشوف

جايلك في ايدي الضي جايلك معايا

ألوف

-لو عيني صفوها وأحلامي حصروها

لو روحنا سرقوها واقفين لموتنا

صفوف

-آهين يا بلد العجب من ظلم حكامك

هو عليكي انكتب تشدي في حزامك

في أي شرع ودين دمي يسيل ع

الأرض

حبسوني في الزنازين هتكوا الحقوق والعرض

لم يستطع التحمُّل أكثر من ذلك..خرج تاركًا فرقته مستمرة بالغناء..حالة من الانهيار تسيطر عليه، يبدو أنه لن يقوى على الخروج منها مهما يحدث..ألمٌ يعتصر قلبه ليل نهار..انطلقَ بسيارته يجوب شوارع العاصمة يُلاحِقُ دموعه المنهمرة..لاعنًا ضعفه أمام الباشا، لاعنًا خنوعه وصمته..مَدَّ يده ليفتح درج سيارته وأخرج علبة سجائر..فتحها وأمسك ورقةً صغيرة فتحها..استنشق مادة بيضاء بداخلها..هيروين..وسيلته للهروب من آلام قلبه..صديقه الوحيد بعالمه المُظلِم..صَرَخَ بأعلى صوته بعدها:

-جبااااااااااااااااااااااااااااااااااااان.

وكأنه هو القاتل الحقيقي لحبيبته وابنه بشهوره الأولى..يستحق الموت مئات المرات لعله يكفر عن فعلته تلك..سجن أبدي من الحرمان والأسى لا مفرَّ منهما إلا الموت.

أحببتُ لقاءه لليوم التالي على التوالي خرجتُ من القصر باتجاهي لذلك الحي الشعبي المزدحم ليل نهار وكأن سكانه لا يبيتون بمنازلهم مطلقًا..يقضون لياليهم بين دروبه وممراته الضيقة..جلستُ مع صديقي عزيز على قهوة صغيرة قريبة من عيادته بعد منتصف الليل حينما فرغ من عمله..كنتُ أنتظره هناك شاعرًا بالدفء بين تلك الوجوه الطيبة بذلك الحي..صوت أم كلثوم يحتضن الجميع على تلك القهوة..كنتُ آكل بشراهةٍ وكأنني لم أَذُقِ الزاد منذ أعوام..دعاني عزيز لتناوُلِ أرغفةٍ من الكبدة على عربة قريبةٍ رائحتها يسيل لها اللعاب..التهمتُ ما يقرب من عشرة أرغفة..التفتُّ بعيني لأرى ذلك الرجل المراقب

لي..اطمأننتُ على وجوده..وددتُ لو أطلبُ له شيئًا ليأكله هو الآخر..ابتسمتُ ساخرًا..وهل يستطيع أحد مراقبة رجل شرطة مثلي بنجاح؟ أشعر بتحسُّن شديد بعد جلسة الليلة الماضية..يبدو أن هناك أملًا كبيرًا بالشفاء على يد صديقي الطبيب العبقري عزيز..استنشقتُ الهواء وملأت به رئتيَّ ناظرًا إليه:

- أتعرف يا عزيز..لم أشعر براحة كهذه التي أشعر بها الآن منذ وقت طويل.

-لأنني طبيب ماهر!

قالها ضاحكًا.

-لا أقصد جلستنا بالأمس، أقصد ذلك المكان الرائع.

-هذا المقهى أجلسُ عليه كل فترة أتناول عشائي وأشربُ كوبًا من الشاي، وعلى الرغم أنه قريبٌ من عيادتي فإني منذ فترة لم آتِ إلى هنا.

-طقسه مريح للغاية..به شيء عجيب يشعرك بالاطمئنان.

-الناس هنا لا تحمل للدنيا همًّا، انظر بوجوهِهم..ستشعر بدفءٍ عجيبٍ، ستشعر بأنك بمصر الحقيقية..مصر بدفئها وحلاوتها وحب أهلها.

نظرت بوجوههم مُتمنيًا زوال ثروتي..لأول مرة أتمنى أن أصبح فقيرًا لأتقاسَمَ معهم تلك الراحة..تنهَّدتُ:

-أتعلم! تمنيتُ كثيرًا أن أصيرَ فقيرًا مثلهم، أن أصيرَ إنسانًا بسيطًا يقتات قوت يومه بصعوبةٍ ساكنًا ببيتٍ صغير يملؤه دفء لا ينتهي.

-سبحان الله..مع أنك لو سألتَ أيًّا منهم عن حاله سيشكوه لك مُرَّ الشكوى وسيحكي لكَ عن معاناته اليومية وصعوبة الحياة والعيش..وسيتمنى بداخله أن يحلَّ محلك ولو يومًا واحدًا.

-اذن ما سِرُّ هذه الابتسامة الممتلئة بها وجوههم؟

-الرضا يا صديقي..كُلٌّ يرضى بما قُسِمَ له، يشكو ضيق الحال ربما..ولكنه راضٍ..الرضا كنزٌ لا يفنى.

-أمرهم عجيب..إذا كان الأمر هكذا..إذًا مَنْ هؤلاء الذين خرجوا بالثورة؟

-هم الناس أنفسهم..الجوع والذل من أجلِ لقمة العيش يدفعهم لفعل أي شيء. راضون بحالهم حقًّا ولكن هذا لا يمنع ثورتهم لتعديله.

-وكيف حالك أنتَ يا عزيز؟

سألتُه وكأنني أقتربُ منه أكثر وأكثر..تعجَّب عزيز مِن سؤالي فهي المرة الأولى التي أهتمُّ فيها بحياته والسؤال عنها:

-ماذا تعني؟

-ما خُططك لحياتك ..ألن تتزوج؟

-ليس الآن يا نادر..عليَّ بناء مستقبلي أولًا، ولولا بعض المال الذي ورثته عن أهلي لصرتُ طبيبًا فقيرًا أُكمل عشائي نومًا بمستوصفات ريفية.

-أتحتاجُ إلى بعض المال؟

-الله يخليك يا صديقي. الحمد لله..أكسبُ مالًا جيدًا من عيادتي، ألم أقل لك إنني طبيب ماهر؟!

-ألن تعود لوظيفتك بمستشفى العباسية؟

-لا..أظنُّ أن أحلامي أكبر من ذلك كثيرًا.

-تستحقُّ كل الخير يا صديقي.

لحظات من الصمت الدافئ تمرُّ بذلك المكان الجميل..صوت أم كلثوم يملأ أذنيَّ:

-يا أحلي غنوة سمعها قلبي ولا تتنسيش

خد عمرى كله بس النهاردة خلينى أعيش

نظرت لعزيز..

-أيمكنُني المبيت عندك اليوم يا عزيز؟

-تشرفني طبعًا يا حبيبي..تعرف أنني عازب وأعيش بمفردي مرحبًا بك دائمًا.

-لا أريد العودة للبيت هذه الليلة، أشعرُ بارتياح شديد هنا معك.

-فلنحتسِ الشاي معًا..أليس كذلك؟ كوبين من الشاي بالنعناع يا عجمي.

-أوامرك يا دكتور.

علا صوت أم كلثوم أكثر وأكثر وملأ الاطمئنانُ روحي..

-خليني جنبك خليني في حضن قلبك خليني

وسيبني أحلم سيبني..ياريت زماني ميصحنيش

ياريت ياريت ميصحنيش

أغاني أم كلثوم تُمثِّلُ تراثًا نادرًا وحياة ممتلئة بالذكريات لكثير من الناس وما إن يستمعوا لصوتها عبر الراديو حتى تهيم مشاعرهم ويبحرون بذكرياتٍ لا حصر لها..جلستْ فتون بغرفة بسيطة بلوكاندة فقيرة تبيت فيها لليلة الثانية..امتلأت عيناها بالدموع حزنًا على كل شيء..صوت أم كلثوم يؤلمها أكثر وأكثر يعتصر قلبها:

-حبك يا حبيبي ملى قلبي وفكري

بينور ليلي ويطول عمري..

راح الحبيب إلى الأبد وأصبحت يتيمة الأم والحبيب..اغرورقتْ عيناها بالدموع..وقفت تنظر لنفسها بمرآة تلك الغرفة المتهالكة..تستعدُّ للرحيل غدًا بعيدًا..هكذا قال لها فتحي بلقائهما الأخير مناولًا إياها بعض المال وورقة كتبها حينها:

- خذي هذه النقود ورُدِّيها إليَّ مِن أول راتبٍ لكِ، ويومين وتتوكلين على الله على ذلك العنوان وتقابلين هذا الرجل المكتوب اسمه بتلك الورقة.

نظرت بالورقة وقرأتها ثم التفتتْ إليه:

-إسكندرية؟

-معذرة..إنه الوحيد الذي أستطيع توصيته بك.

-حسنًا..لا مشكلة..أنا أريد الابتعاد.

نظرت لعينيها بالمرآة وحالتها المزرية التي وصلت لها..يدٌ ما تمسك كتفها..التفتت خلفها..إنه حبيبها الراحل إبراهيم..ينظر لها بشفقة ماسحًا دموعها..نظرت بعينيه بشوقٍ شديد:

- هكذا يا إبراهيم؟ تتركني وترحل.

-رغمًا عني.

-كيف سأعيش مِنْ بعدك؟

-أترين ماذا جلبتُ لكِ؟

أخرجَ من جيبه كتابًا صغيرًا وشريط كاسيت..ناولها إياهما..شعر نزار قباني..شاعر حبهما..لطالما حفظ أبياتًا ليصف به عشقه لها..كان يعرف جيدًا أنها تحبه وتحب شعره..كان حبيبها الذي لن يعوض..أمسك منها الشريط ووضعه بكاسيت صغير بالغرفة بعدما أغلق الراديو وغاب صوت أم كلثوم..سالت دموعها أكثر وأكثر:

- مَنْ سيُهوِّن عليَّ بُعدك يا إبراهيم؟

خرج صوت كاظم الساهر قارئًا شعر نزار قباني على أنغام موسيقى شاعرية يرقُّ لها القلب..ليكتمل حُزنها..يعرف أنها العاشقة الأولى لكاظم الساهر:

- أحبُّكِ جدًّا

وأعرف أن الطريق إلى المستحيل

طويل وأعرف أنكِ ستُّ النساء

وليس لديَّ بديل وأعرف أن زمان

الحنين انتهى ومات الكلام الجميل

لستِّ النساء ماذا نقول

أحبُّك جدًّا..

ابتسم لها إبراهيم محفوظ.. تناول الكتاب مِن يدها وفتحَه..بدأ يقرأ منه بصوتِه وطغى صوته على صوت كاظم الساهر..

- أحبُّك جدًّا وأعرف أني أعيش بمنفى

وأنتِ بمنفى

وبيني وبينك

ريحٌ وغيمٌ وبرقٌ ورعدٌ وثلجٌ ونـار

وأعرف أن الوصول لعينيك وهمٌ

وأعرف أن الوصول إليكِ

انتحـار

ويسعدني أن أُمزِّقُ نفسي لأجلك أيتها

الغالية ولو خيَّروني

لكررتُ حبَّك للمرة الثانية

يا مَنْ غزلت قميصك من ورقات

الشجر

يا مَنْ حميتُك بالصبر من قطرات

المطر

حينها ترك الكتاب مِنْ يده وبدأ كاظم الساهر بغناء الأغنية التي يتراقص لها العاشقون دومًا..نظر لها ومَدَّ يده ناحيتها..أمسك يدَها براحتيه الدافئتين..وبدأ بالرقص معها على أنغامه الساحرة..كانت تبكي دون توقُّف..صوت داخلها يهمسُ لها بأذنيها:

-كنتُ أعرف أنه وهم لا وجود له

مَن يموت لا يعود أبدًا ..

قلبي المبارز لكل الدنيا لأجله يصرخ بعد رحيله

بكل لحظة تمرُّ..وجع يزداد..فوق كل احتمال

وكأن هناك مَنْ مَدَّ يده ليمسك قلبي بين قبضته

لا يحكمها بقوة ليريحني من الحياة بأسرها ولا يتركه فتهدأ أوجاعي

آه لحسرتي! آه لآلامي التي لا تنتهي!

موجوعة أنا..موجوعة.

فجأة يتسرب صوت أم كلثوم لأذنيها..كل شيء كما كان..لا وجود لإبراهيم ولا لصوت كاظم الساهر ولا لكتاب نزار قباني..كل شيء ينذر بموت إكلينكي لقلبها..أتعس مخلوقة على وجه الأرض..فتون فوزي.

-وتفيد بأيه يا ندم وتعمل إيه يا عتاب

طالت ليالي الألم واتفرقوا الأحباب

وكفاية بقى تعذيب وشقى.. وكفاية بقى تعذيب وشقى..

ودموع في فراق ودموع في لقاء

وقفتُ ببيت صديقي عزيز أمام صورة تجمعنا منذ عشر سنوات..كان يشاركنا فيها مجدي ونيفين..صوت أم كلثوم يُداعِبُ أذنيَّ ..انشغل عزيز بوضع مرتبة على الأرض..مراجع طبية مُلقاة هنا وهناك يحاول تنظيمها دون جدوى..لاحظ شرودي بالصورة..اقترب مني..التفتُّ إليه مبتسمًا..سألني:

- أتتذكر هذه الصورة؟

-نعم..من عشر سنوات بعد تخرُّجي مباشرةً، كنت أنا ومجدي بزيِّنا العسكري برتبة ملازم للمرة الأولى، يومها جريتُ أنا ومجدي لنيفين وأبلغناها بنجاحنا، وذهبنا نحن الثلاثة لكَ بكلية الطب.

-كانت أحلى الأيام ..

-انظر جيدًا.. مجدي ينظر وكأنه لواء بهذه الصورة. طوال عمره محدث للنعمة..

قلتُها ضاحكًا، فشاركني ضحكاتي..ضحكات من القلب افتقدتُها كثيرًا.

-تخيَّل لو يأتي أحدٌ من ورائه ويصفعه بكفِّه.

-نعم..كما كنا نفعل معه بالمدرسة.

-أتتذكَّر نجيب ذلك التلميذ الضخم حينما صفع مجدي بأرض الطابور بالمدرسة، وعندما نظر خلفه ورآه قال له: آسف يبدو أن مؤخرة رأسي صفعتْ يَدَك بالخطأ.

انهمكا بضحك هيستيري..أشرتُ إليه على نيفين أختي الحبيبة بالصورة:

-ونيفين تلك الملاك..أترى حُمرة خديها وهي تقف بجوارك؟ أتذكر حينما كتبتَ لها قصائد الشعر وجاءت ترميها بوجهِك وتشتكي لي؟

ضَحِكَ عزيز مُتندرًا على تلك الأيام.

-كنا مراهقين..أيامًا جميلة.

-يا ليتها تعود من جديد يا عزيز! يا ليتها!

-تصبح على كل الخير يا صديقي.

استعدَّ كل منا للنوم..نام عزيز على الأرض ونمتُ أنا بسريره..شردتُ بذلك الماضي الجميل..حينما كانت السعادة كنز لا ندرك قيمته..أطفأ عزيز أنوار الغرفة وخلدَ للنوم..

ما زلتُ أستمعُ لصوت أم كلثوم الدافئ..سألته:

-لماذا لم تغلق الراديو؟

-عيب..أعرف أنك تحب النوم على صوتها.

-كان ذلك منذ زمن ..منذ زمن بعيد.

وراح عزيز بنومه سريعًا وأغمضتُ أنا عينيَّ مستمتعًا بذلك الدفء والهدوء النفسي..تمنيتُ كثيرًا أن يتوقف الزمن عند تلك الليلة..

شردتُ بصوت أم كلثوم وكلماتها الممتلئة بالشجن:

-الليل ودقة الساعات تصحي الليل

الليل وحرقة الآهات في عز الليل

وقسوة التنهيد والوحدة والتسهيد

لسه مهومش بعيد

أغلقت عينيَّ لأغرق في سُباتٍ عميق..وكأنني لم أنم منذ سنوات بهذه الراحة..وطل صباح جديد ..دخل ضوؤه لغرفة عزيز ليداعب وجهي..فتحتُ عينيَّ بصعوبةٍ.كان عزيز يصلي بالقرب من السرير مستعدًّا للخروج ليمارس أعماله اليومية..ما زال صوت أم كلثوم يخرج من الراديو:

-يا صباح الخير ياللي معانا

وضعت الغطاء على رأسي وأكملتُ نومي.

- حديثنا اليوم عن الفِراق..كل منا يملك استعدادًا للبعاد، كلٌّ منا يحمل وراء ظهره سكينًا لغيره مستعدًّا لطعن أي أحد يختلف معه في الرأي، جميل أن يكون لك رأي تُدافِع عنه، لكن لا تدع ذلك الصراع يُنهي كل شيء بحياتنا، هناك الكثير والكثير بيننا يستحقُّ الدفاع عن ترابطنا. مَنْ بثَّ روح الفِراق بيننا؟ مَنْ فرَّق الكبار عن الشباب.. الأب عن ابنه..الأم عن ابنتها؟ مؤكَّد هناك حَلٌّ..مؤكد هناك نقطة للتلاقي يجب أن يعود الحب بيننا من جديد، أنتظر اتصالاتكم وحلولكم لمشكلاتنا، ابقوا معنا وتذكرة الحب ..ونيفين أمجد.

كانت تلك هي المقدمة الصباحية لبرنامجها الشهير..دعوة للحب بين الجميع بالساعات الأولى بالصباح..استمعت لها فتون وهي بمحطة القطار تنتظر رحيلها للإسكندرية..لفت نظرها بائع جرائد يضع كتبًا للشعر....اقتربت منه ورأت كتابًا لنزار قباني..اشترته على الفور واحتضنته ليكون رفيقها برحلتها البعيدة.. دقائق ويصل القطار في تمام التاسعة..عقارب الساعة تقترب..لتعلن التاسعة صباحًا بكل مكان.

فَتَحَ فريد الدمراوي عينيه متوجعًا بآلام شديدة بجسده..تعجَّب كثيرًا..وجد نفسه مُكبَّل اليدين والرجلين على كرسي بمخزن قديم مهجور..هكذا يبدو من نظراته الأولى للمكان..ما زال على قيد الحياة..ولكن مَنْ يجرؤ أن يفعل به ذلك؟ صَرَخَ:

- مَنْ أنتم؟ مَنْ بهذا المكان؟ مَنْ هنا؟

ظَهَرَ أحدُهم..شخصٌ ضخم الجثة يبدو على وجهه الإجرام الشديد..على الأقل خمس علامات متقطعة لمطواة تبدو بوجهه بوضوح..

-كُفَّ عن هذا الضجيج..ماذا تريد؟

-مَنْ أنت؟ وما الذي أتى بي إلى هنا؟

-من الأحسن لك أن تخرسَ وإلا قطعتُ لك لسانك.

تركه وانصرف..حاول الدمراوي فَكَّ قيوده دون جدوى..صرخ مراتٍ ومرات:

-مَنْ أنتم؟ أنت يا رجل؟ يا..

غموض شديد يتزايد..مَن يفعل به ذلك؟ سؤال يحتاج لإجابة على الفور..آلام شديدة تجتاح جسده..في اللحظات نفسها يرنُّ هاتفي المحمول بجواري..كنتُ غارقا بالنوم فلم أجب..ولكن هناك إصرار عجيب من المتصل..أمسكتُ الهاتف المحمول فاتحًا عينيَّ بصعوبةٍ..مكتوب على شاشته الصغيرة (رقم مجهول يتصل بك).

ناصر العربي

(الثالث والعشرون من أبريل)

رنين قاتل يُمزِّق عقلي.. لا يتوقف مطلقًا وكأنه يطاردني بصوته الحاد..عاد بعد غياب يومين..أرى تلك الشخصية تصرُّ على ملاحقتي والنيل مني .. تصرُّ على محاسبتي والصراع معي كما قال لي عزيز..تبًّا لعقلي الباطن! لو أني أقتله وأنجو! عاد ذلك المُقنَّع المتخفي داخل دروب خيالي إلى الهجوم مجددًا..ولكني مستعدٌّ له هذه المرة، لن أنهزم..غسلتُ وجهي بحمام بيت عزيز، وتناولتُ قرصًا من دوائي لعلي أهدأُ قليلًا.. الرنين لا يتوقف..خرجتُ منطلقًا بسيارتي متوترًا..حاولتُ تجاهله وكأنه لم يكن دون جدوى..لن أجيبه ولن أستمع لحيل جديدة تربكني من جديد..وصلتُ لصومعتي بتلك الساعات الأولى من الصباح..فتحتُ جميع الشبابيك..أدرتُ موسيقاي المفضلة عاليًا..وقفتُ بمنتصفها آملًا باختفاء ذلك الرنين، ولكنه لم يتوقف..وكأن أحدهم كتم أنفاسي بقوة متناهية وتكاد روحي تلفظ أنفاسها الأخيرة..مددتُ يدي مترددًا بالمواجهة..ضغطتُ على زر الإجابة وأنا أعلمُ تمامًا أن المتصل هو أنا..وكأن خيالي يجسد لي ذلك ببراعة..لا أدري كيف يتم ذلك؟ وهل يدرك المريض تداعيات مرضه؟ لا أنكر أن هناك هاجسًا يُكذِّبُ ذلك كله داخلي ولو كان ضئيلًا..ما زال حسي البوليسي ينكر مرضي وينذر بعدو خفي..تبًّا لعذابي! جاء صوت ذلك المُقنَّع المُلقَّب بالعميد المنقذ على الجانب الآخر..ذلك الصوت الكريه يضحك بهيستريا مستفزة..صرختُ فيه بأعلى صوتي:

-أنتَ لست حقيقيًّا، لست حقيقيًّا.

أنهيتُ تلك المكالمة السريعة اللعينة وقذفتُ الهاتف أرضًا..جلستُ أُغالِبُ صراعاتي.. داخلي صوتان يصرخان..أحدهما يؤكد مرضي..صوت صديقي عزيز أتذكَّر كلماته جيدًا:

- هذه الشخصية بدأت تتوحَّش.. ..بدأت الخروج من عقلك الباطن للحياة..بدأت محاسبتك..عقابك على كل شيء، ضميرك يشعر بأنها خطأ ولو لحظة. وصوت آخر يكذب ذلك..ينشب بأظفاره الضعيفة دفاتر تلك القضايا الأخيرة التي حققتُ بها..صوت ينبئ بمؤامرة خفية..ولكنه هين ضعيف يوشك على التلاشي..العقل يُرجِّح الصوت الأول..ذلك المرض اللعين.

رنَّ الهاتف مرةً أخرى..نظرتُ ناحيته بتحدٍّ شديد..أجبته بعصبيةٍ صارخًا:

-كفففففففففى.

جاء صوته هادئًا واثقًا على الجانب الآخر من المكالمة.

- أقنعوكَ بأنني غير حقيقي ولا وجود لي، لكنك لا تقوى على تصديقهم، أتعرف لماذا؟ لأنهم كذابون، مَنْ وضع القنبلة وسط خزينتك الخاصة؟ مَن وضعها بيده خُفيةً بمرحاض وزارة الداخلية؟ مَن أحضر إبراهيم محفوظ بلحظة الانفجار المرتقبة نفسها أمام الوزارة؟ مَن هاتفك وأبلغك بموعد الانفجار حتى تمنعه بآخر لحظة؟

كنتُ أنظر لنفسي بمرآة صومعتي الطويلة..صامتًا لا أملك أيَّ ردٍّ..تابَعَ كلماته بثقةٍ شديدة:

-الهلاوس يستحيل تجسيدها على أرض الواقع، وإن وُجِدَتْ لا تخرج عن خيالك أنت فقط لن تخرج ليراها كل مَن حولك رأي العين، ألم تصدق بعد؟ سأعطيك دليلًا واحدًا على وجودي، دليلًا واحدًا سيؤكد لك أنني حقيقي، لكن..لنتفقْ أولًا على شيء مهمٍّ للغاية، لا تحاول مرةً أخرى إخبارهم عني..لا تحاول إثبات وجودي لأحد..لن يصدقوك مهما تحاول، وفي المرة القادمة ستُعرِّض حياتك كلها للخطر، اللهم بلغت..اللهم فاشهد..نادر أمجد رشوان.. أنت المختار..أنت رسول الحق والعدل من الآن شئتَ أم أبيتَ ..ولتعلم..الأنبياء لم يصدقهم أحدٌ بالبداية..والآن اخرج حالًا، واتَّجه لمكتبك بمديرية الأمن ستجدُ ظرفًا خاصًّا باسمك..به دليل وجودي..مهمٌّ وسِرِّيٌّ للغاية.

وانتهت المكالمة..تركني في صراع لا ينتهي..حقيقة أم خيال..مرض أم عدو..يكاد رأسي ينفجر من تلك الألغاز المهاجمة لها..هُرعتُ منطلقًا بسيارتي متجهًا لمكتبي بمديرية الأمن..الصوت الرافض لمرضي تزداد حِدَّته..دخلتُ جريًا لمكتبي..بحثتُ بعينيَّ بكل مكان فيه عن ذلك الظرف..فتشتُ كل الأدراج والأوراق على المكتب..فلم أجد شيئًا..تمنيتُ لحظاتٍ لو أنه حقيقة، ولكن يبدو أنها خُدعة جديدة من عقلي الباطن المريض..خابت آمالي وجلستُ على كرسي مكتبي مُشعِلًا سيجارة شاردًا..لم ألحظْ ذلك الأمين الواقف مُبتسمًا لي:

- حمد لله على سلامتك يا باشا.

نظرتُ إليه بحدة:

-وهل كنتُ على سفر؟

- مجدي باشا أبلغنا أن جنابك بإجازة أسبوعين.

-أحضرْ لي فنجانًا من القهوة، هيَّا.

-أوامرك يا باشا..سعادتك كنتَ تبحثُ عن شيءٍ ما.

-ليس لك شأنٌ بذلك ..اغربْ عن وجهي، هيَّا.

-حاضر.

وقفتُ مُحمَّلًا بهموم عظيمة بشباك المكتب..اختناق عام يعاود السيطرة على أنفاسي..لا أعلم متى ينتهي هذا الكابوس الكريه..دقائق ودخل أمين الشرطة جالبًا لي فنجان القهوة ووضعه على المكتب:

- قهوة جنابك يا نادر باشا. هذا الظرف أُرسِلَ إلى جنابك منذ قليل.

كان بيده..التفتُّ سريعًا إليه ناظرًا إلى ذلك الظرف..مكتوب عليه مهمٌّ وسِريٌّ للغاية..إلى العقيد نادر أمجد رشوان..تبًّا لمأساتي..برقت عيناي غير مصدقٍ..تسمَّرتُ مكاني..نظر لي الأمين قلقًا..

-أأتركه لجنابك على المكتب؟ نادر باشا؟ إن رغبت بأي شيء أنا بجوار باب مكتب جنابك.

تركه على المكتب مرتبكًا وخرج..إنه حقيقة إذًا..مددتُ يدي ممسكًا له ..ترى ماذا يحوي هذا الظرف؟ أهناك دليل قوي على وجود ذلك العدو المُقنَّع؟ ولماذا يرغب بإثبات وجوده لي هكذا؟ فتحته..بداخله أسطوانة جديدة..هُرعت سريعًا لجهاز مشغل الأسطوانات بمكتبي ووضعته به..ظهر على الشاشة صورة لتسجيل صوتي..رنين هاتف ورجل يجيب..صوت لا أعرفه مطلقًا:

- نعم..أرسلتُ إليك خطوط سير هؤلاء الضباط، يجب عليك التنفيذ غدًا لأن خطوط السير تتغير دائمًا، وأنا أصل لهذه المعلومات بصعوبةٍ بالغة، ولا أضمن كيف سأحصل عليها مجددًا ومتى إن لم يتم التنفيذ غدًا، وعليك بإيداع ما اتفقنا عليه برقم حسابي البنكي المرسل إليك على الأسطوانة، أتسمعني؟ حسنًا، حسنًا، اتفقنا.

لا أصدق ما تسمعه أذناي..قضية اغتيال الضباط..ذاك دليل جديد قد يقلب الدنيا..صوت رنين جديد ومكالمة أخرى مسجلّة..

- السلام عليكم جنابك..البقاء لله، مؤكد سعادتك سأكون أول الحاضرين بالجنازة، هذا واجب وطني..رحم الله شهداءنا الأبرار.

أعتصرُ عقلي لأصل لصاحب ذلك الصوت..لم أستمع له من قبل..رنين آخر يعطيني الإجابة:

- مساء الأنوار..أيمكنني طلب وجبة لو سمحت، حسنًا..باسم اللواء ناصر العربي.. ٨ شارع جامعة الدول العربية، الدور الثالث..رقم الهاتف المحمول ٠١٠٠٠٣٣٢٢٠٠

خرجتُ حينها بأسرع ما يمكن لمكتب الوزير حمدي زغلول..استمعَ معي مرة أخرى للتسجيل نفسه بحضور اللواء محسن..نظرتُ إليه بعد انتهائه فرمقني بقوة:

- ماذا تنتظر يا حضرة الضابط؟

-أوامر جنابك.

أديتُ له التحية العسكرية وخرجتُ أدرك هدفي..هُرعت على رأس قوة من الشرطة باتجاه عنوان ذلك اللواء ممسكًا بيدي أكبر خيط للقضية..يتردد بداخلي صوت واحد..صوت ينفي كل ما مررتُ به الأيام الماضية..لغز كبير متداخل..أسئلة كثيرة تحتاج لإجابة..وعلى رأسها سؤال جذري: مَن ذلك العدو المُقنَّع؟ مَن ذلك العميد المنقذ الكريه؟ هل هو فريد الدمراوي أم هناك عدو آخر لا أراه؟ ولو كان فريد..مِن أين له الحصول على تسجيل خطير كهذا؟ وإن كان شريكًا له بجريمة الاغتيالات لماذا يكشفُ حلفاءَه والآن بالتحديد؟ أسئلة لا تنتهي وهو فقط من يمتلك إجاباتها..فريد الدمراوي.. سألاحقه حتى النهاية..لن يفلت مني مهما تمر الأيام..وحينها لن أرحمه..سأصليه نارًا على ما سقاني مُرَّ الأيام الماضية..سيتمنى الموت آلاف المرات هربًا من عذابي.

وصلتُ القوة إلى ٨ شارع جامعة الدول العربية..صعدنا سريعًا للدور الثالث..أمرتُهم بكسر الباب..دخلتُ حاملًا مسدسي مستعدًّا لأي غدر مُحتمَل..بحثنا بكل مكان فلم نجده..كانت صورته معلقة بمنتصف صالة شقته مرتديًا بدلته العسكرية..وقفتُ أنظر لصورته شزرًا..التفتُّ لأرى رجلًا بالخمسينيات من عمره يرتدي جلبابًا وعِمَّة يدخل بصحبة أميني شرطة..نظر لي مرتبكًا قَلِقًا.

- ما الأمر يا باشا؟

-مَنْ أنتَ؟

-أنا بواب هذه البِناية

-أين اللواء ناصر؟

-لم يظهر منذ يومين

-أيعيشُ بمفرده؟

-ولداه الاثنان مهاجران منذ سنواتٍ، ومنذ وفاة المرحومة زوجته وهو يعيش بمفرده، وأنا مَن أخدمه وأرعَى طلباته.

اقتربتُ منه نافثًا دخان سيجارتي بوجهه:

-نريدُك معنا قليلًا.

-لماذا يا باشا؟ لَمْ أفعل أي شيء.

أشرتُ للجميع بالنزول سريعًا..أجريتُ مكالمة سريعة:

- ارصدْ لي مكان هذا الرقم حالًا ٠١٠٠٠٣٣٢٢٠٠

لم يتأخر الردُّ كثيرًا..جاءت الإجابة بعد أقل من خمس دقائق..نظرتُ إلى الجندي بجواري ببوكس الشرطة:

- إلى المعادي، نعم جنابك ..الهدف عوامة فريدة على كورنيش المعادي.

حادثني حينها الوزير حمدي زغلول على اللاسلكي:

- إياك أن يهرب منك.

-لا تقلق جنابك..لن يفلت.

كان تحديًا أخيرًا..أكون أو لا أكون..ذلك اللواء الفاسد يملك كثيرًا من الخيوط التي ستلتفُّ حول عنق المجرم الحقيقي..صاحب القناع..صرختُ بالجندي سائق البوكس:

-زِدْ سرعتك. أطفئ هذا الصوت.

لا أملكُ أي احتمال لهروبه..ولا أستعرضُ صوت سيارة الشرطة بموقف كهذا..وصلت القوة للعنوان المُحدَّد..واقتحمنا العوامة بأسرع ما يمكن..كان بداخلها..نائمًا على أريكة بمنتصفها..لم يكن بمفرده..هناك فتاة في العشرين من عمرها شبة عارية كانت بجواره..يبدو أننا قطعنا خلوتهما السعيدة..

ابتسمتُ منتصرًا ناظرًا له باستهزاء:

- كيف حالك يا سيادة اللواء..أزعجناك..أليس كذلك؟

وبدأ فتحي عبد العزيز خطته المرسومة باقتدار..جلس بكافيتريا كليته واجتمع حوله مجموعة من زملائه الطلبة يستمعون لحديثه:

- أتعرفون ما مشكلتنا؟ نحن مخدوعون..علمونا أن نتسابق لنحرز أعلى الدرجات بالثانوية العامة لندخل أفضل الكليات وبعدها نتسابق ونتعلم علومًا لا تنفع..دوامة مستمرة نحن وأهالينا بضغط لا ينتهي وسهر وامتحانات ومال يُستنزَف، واهمون ببر الأمان كما زعموا لنا بعد التخرج، وحينما نصل له نكتشف أنه سراب..وهم نكتشف أننا مغفلون..ضحكوا علينا أكلوا كل الكعكة ولم ننل منها إلا رائحتها من بعيد ووقتها لا يبقى أمامك سوى حلين: إما أن ترتمي بجوار سابقيك تنتظر الفُتات وإما أن تهرب بأي طريقة وأنت تعرف أن هروبك قد يؤدي لموتك غرقًا أو تعود مُسلسَلًا وتُرمَى بالسجون بتهمة الهروب بدون تصريح، وكيف لك أن تُفكِّر بالهروب من الجحيم؟! الهروب من الظلم؟! يا لك من آثمٍ تستحقُّ العقاب بقوانينهم! إلى متى سنظل مخدوعين..صامتين..إلى متى سنظل بهذه الحال؟

امتلأت عيناه بدموع زائفة انخدع بها الجميع..دموع قد يخدعك بها عدوك شفقةً على حالك ولكنه جزء من مخطط لهدم كل شيء وليس للإصلاح..مؤامرة تتكرَّر وتحقق خطوات ناجحة بالعديد من المرات، ولكنها تفشل بلحظاتها الأخيرة..لعلها تنجح هذه المرة..فهناك إصرار على الهدم مهما يذوقوا مرارة الفشل.

ابتعدتْ فتون عن كل شيء..لم تعد تملك من حطام الحياة سوى روحها.. ستقضي المُتبقي من أيامها وحيدة على أمل اللقاء بحبيبها وأمها بالدار الآخرة..جلست على شاطئ البحر بذلك الفندق المنزوي بإحدى القرى السياحية بالساحل الشمالي..بعدما تسلَّمت عملها عاملة نظافة لليوم الأول..وقفت تنظر لمياه البحر وتأكل من رغيف صغير بيدها شاردة بحالها..تقترب الشمس من الغروب كما غربت شمس حياتها للأبد..حتى ذلك الهواء النقي حولها لا تتمكن من استنشاقه..مجرد وقت ستقضيه بين جنبات هذه الدنيا لترحل بعيدًا بميعاد حتمي..إنها راحلة لا محالة وتنتظر تلك اللحظة بشغفٍ كبير..اقتربَ منها العجوز حامد ذلك المستقبل لها بالفندق..مَنْ أرسلها فتحي إليه ليجد لها عملًا مناسبًا..ابتسم لها:

-ما بالك يا ابنتي تجلسين بمفردك هكذا؟

-معذرة..أحبُّ أن أبقى وحيدة.

-على راحتك..لكن الأيام هنا طويلة وصعبة، والإنسان دومًا يحتاج إلى الاندماج مع مَن حوله حتى لا يشعر بالوحدة، لا تتركي نفسك للوحدة يا ابنتي..الوحدة هنا قاتلة.

-أشكرك..لا تشغل بالك بأمري.

-حسنًا..إن احتجتِ إلى أي شيء لا تترددي بالطلب مني.

-أشكرك.

ربت على كتفها وانصرف للداخل..تركها غارقة بأنينها المستمر دون انقطاع..اغرورقت عيناها بالدموع هامسة..وكأنها تشكو للبحر همَّها لعل أمواجه تحتضن حزنها يومًا ما..

-وحيدة؟ وما الجديد! حتى حبيبي..مَن كنت أتوقُ لحمايته والعيش بظلاله أنا وأمي مات..وماتت هي قبله..وبقيتُ أنا وحيدة كعادتي، الوحدة سجن مُحكَم قضبانه نار.. إن..اقتربت ستحرقك نيرانها، ستصير رمادًا تذروك الرياح بأي مكان..بحرًا كان أو بركانًا..لا فرق.. مكتوب عليَّ الوجع..مكتوب عليَّ الوحدة..مكتوب عليَّ السجن.

وغابت الشمس..وطلَّ القمر على استحياء بالسماء..قضمتْ باقي رغيفها وغرقت بسكونها..سكون دائم لا مفر منه.

وانقلبت الدنيا بمديرية أمن القاهرة..حالة من التوتر العام تسيطر على الجميع.. دخل مجدي نور الدين مكتبه المشترك مع النقيب رامي الفولي المنشغل بترتيب بعض الملفات على مكتبه..

- مساء الخير يا رامي.

-أهلًا يا مجدي..أم لنقل يا سيادة الرائد مجدي.

-قل أي شيء .. كيف الحال؟

-المديرية مقلوبة رأسًا على عقب..أين كنت؟

-أبدًا كنت بحملة لإزالة إشغالاتٍ. خيرًا؟ ماذا جرى؟

قاطعهما أمين شرطة دخل المكتب وحيَّاهما التحية العسكرية وناوله كشفًا بيده:

-تمام يا رامي باشا هذا تفريغ بكل المكالمات وأسماء أصحابها.

-حسنًا..اذهب أنت لعملك.

خرج الأمين..نظر مجدي لرامي منتظرًا بشغف..

-قضية اغتيال الضباط يا عزيزي.

-أهناك شيء جديد؟

لم يكن هناك وقت للإجابة..انعقد التحقيق على أشُدِّه بالغرفة المجاورة..أدخن سيجارتي بعصبية شديدة محاولًا تمالُك أعصابي..رغبة جامحة بداخلي تدفعني لإنهاء حياته على الفور ولكن المعلومات الخفية التي يحملها بطيات عقله تمنعني عن ذلك..نظرتُ له قاطعًا السكون بادئًا التحقيق وبجواري أمين شرطة يُدوِّن أقواله بمحضر رسمي:

-اللواء ناصر سعيد العربي ٥٨ عامًا..خرجتُ من الخدمة منذ ٨ سنوات..ملف خدمتك نظيف دون جزاءٍ واحد، وزملاؤك يشهدون لك بالكفاءة..أخبرني يا سيادة اللواء: ما الدافع وراء تورطك بجريمة شنعاء كهذه؟

نظر لي بعينين زائغتين:

-لن أتحدث إلا أمام النيابة

ضحكتُ بسخرية:

-لا لا لا أنت هكذا تضيع وقتك ووقتنا وتبدأ بداية خاطئة.

-ليس لديَّ أي شيء آخر لقوله..هذا ما عندي..لن أتحدث إلا أمام النيابة.

-أنصتْ..أنت ستخبرني ما أبتغيه منك وإلا قتلتُك..أتفهم؟

قلتُها صارخًا فيه بقوة متناهية..نهضتُ من كرسي المكتب وجلستُ بالكرسي المواجه له متسائلًا بهدوء مُصطنَع:

-ما الخلية الإرهابية التي سرَّبت إليهم خطوط سير الضباط؟ مَن قام بمساعدتك؟

-لن أتحدث..قلتُ لك ذلك.

-يا سيادة اللواء..صمتك لن يفعل لك أي شيء، أنت الآن متهم بقضية اغتيال ١٥ ضابطًا وستُعلَّق بحبل المشنقة لا محالة..فعلى الأقل لا تذهب للإعدام بمفردك.

-هذه التسجيلات مزيفة.

ضحكتُ كثيرًا ناظرًا له بسخرية متعمَّدة..

-قديمة..فكِّر بحيلةٍ أخرى يا باشا.

-هذه التسجيلات مزيفة وحتى إن كانت صحيحة.. أين إذن النيابة بمراقبة هاتفي والتسجيل لي؟

-إذن النيابة! يا باشا..يا باشا..أنتَ كنتَ واحدًا منا وتعرفنا جيدًا..هل مَنْ المعقول أن تقتل لنا ١٥ ضابطًا ونقف مكتوفي الأيدي بإذن النيابة؟

دخل النقيب رامي حينها قاطعًا التحقيق وأعطاني ورقة تكشف كل المكالمات الصادرة والواردة على هاتف ذلك اللواء المتهم ناصر العربي.

-نادر باشا..هذا كشف بالمكالمات على هاتف المتهم خلال شهر مضى.

-حسنًا..اذهبْ أنت الآن يا رامي.

وما إن وقعت عيناي على ذلك الكشف حتى استشاط غضبي..نظرت له بعصبية شديدة:

-أين فريد الدمراوي؟

-مَن فريد الدمراوي؟

لم أتمالكْ نفسي أكثر من ذلك..أمسكته بعنف شديد من عنقه ودفعته إلى الحائط..كادت روحه تخرج هربًا مني.

-اسمعني يا روح أمك..سأنفِّذ فيك حُكم الإعدام الآن، ولن يقوى أحد على مُعاتبتي ..لأنك ببساطة ستصبح حينها كلبًا وراح، من الأفضل لك أن تخبرني بمكان فريد الدمراوي؟ انطق..

-مَن فريد؟ والله لا أعرفه..صدقني.

-لا تعرفه ورقم عباس الدمراوي اتصل بك عدة مرات على هاتفك؟

-أنا لا أعرف عباس ولا فريد؟

-سأقتلللللللللللللللللك.

ضغطتُ على أنفاسه أكثر وأكثر.. همسَ بصوته المرتعش أخيرًا:

-سأتكلم..سأعترف.

-تحدَّث.

تركتُه لأستمع لاعترافه المُنتظَر..

-منذ شهرين تقريبًا خسرتُ كل أموالي بالبورصة، أرسلتُ لأولادي بالخارج لمساعدتي..تنصلوا من الوقوف بجواري وتحججوا بمشاغلهم..تخلَّى عني كل أصدقائي..لم يكن أمامي سوى بيع بيتي والعيش بثمنه ما تبقى لي من العمر..

-وبعد؟

جلس حينها على الأرض مهمومًا..

-أعلنتُ بجريدة ما عن بيع شقتي ووضعتُ مواصفاتها بالإعلان ورقم هاتفي..وبدأت الاتصالات والمعاينات والفِصال بثمن الشقة..ولكن لم يشترِ أحد..إلى أن رنَّ جرس الباب ذات يوم..فتحتُ..لم أجدْ أحدًا..ولكن وجدتُ حقيبة أمام الشقة..تعجبتُ كثيرًا حينما فتحتها..ربع مليون جنيه بداخلها..حينها تلقيتُ مكالمة على هاتفي من رقم مجهول لصوتٍ أسمعه لأول مرة..طلبَ مني التعاون معه مقابل مليون جنيه ثمن شقتي الذي حددته بالإعلان بالإضافة لشقتي..تظلُّ ملكًا لي دون بيع..أخبرني أن مبلغ الربع مليون جنيه هذا عربون للاتفاق..

نظرتُ له بحدة لأستكمل قصته بدلًا منه..

-وطلب منك خطوط سير الضباط ال١٥.

أشار بالإيجاب برأسه.

-ألم تَرَه ولو مرةً؟

-مطلقًا.

-ألم تحاول معرفة مصدر هذه المكالمات؟

-نعم..

-وكيف سلَّمته هذه المعلومات؟

-تسلَّمتُ ربع مليون آخر وسلَّمتُ المعلومات على أسطوانة بطريق مصر إسكندرية الصحراوي بعد البوابة ب ٢٠ كيلومترًا.

-مَن تسلَّمها منك؟

-شخصٌ ملثَّم على دراجة بخارية..تسلَّم مني الأسطوانة وسلمني المال..وانصرف.

-ولماذا لم ترسل هذه المعلومات برسالةٍ على هاتفٍ أو بالإيميل مثلًا؟

-وكيف أحصلُ على مالي؟

-بالطريقة الأولى..يرسلها لشقتك.

-لا أدري..ربما كان يُخفي كل طريق يرشد إليه، أو كان قلقًا أن أُبلِغَ عنه الشرطة.

-فأرسلَ إليك كارتًا محروقًا بالنسبة له، لو افْتُرِضَ وأمسكته الشرطة يصير هو بأمانٍ.

-أظنُّ ذلك.

-وباقي المليون؟

-وضعه بعد التنفيذ بحسابي البنكين نص مليون جنيه.

..اقتربت منه ممسكًا إياه من ملابسه ليقف مواجهًا لي على الحائط..نظرتُ بعينيه بقوةٍ وحِدَّة.

-حياة ١٥ ضابطًا بمليون جنيه..أهذا ثمننا لديك؟

-حينما تكتشف بلحظةٍ أن كل ما بنيته بحياتك هواء..سراب..كل شيء يختفي بلحظة..المال..الجاه..الأصحاب ..حتى أولادي.

صرختُ بوجهِه:

-ألم تفكر في لحظةٍ ببيع شقتك والعيش بكرامة، ألم يؤلمك ضميرك لتتركهم أحياء ينعمون بحياتِهم..يربون أولادهم.. أي صراع نفسي.

-ربما موتهم خير لهم من المُضي بحياةٍ يكتشفون حقيقتها بعد فوات الأوان..بعد الخروج على المعاش.

مددتُ يدي شاهرًا مسدسي على رأسه:

-من أين لك بالمعلومات؟ كيف حصلت عليها؟

صرختُ بوجهه..للحقِّ كنتُ على استعداد حقيقي لقتله بتلك اللحظة:

-لن تستطيع قتلي ..القانون يمنعُك.

رجعتُ قليلًا للوراء..وخرجتْ طلقة فوق رأسه مباشرة أصابته بالفزع الشديد..

-الطلقة الثانية بقلبك.

اقتربتُ منه واضعًا المسدس قريبًا من قلبه.. همسَ بأذني متوترًا مرتعشًا:

-أعرفُ رقم الدراجة البخارية التي سلَّمتْ صاحبها المعلومات.

وصل حينها موكبُ وزير الداخلية حمدي زغلول لمديرية الأمن..دخل بصحبة بعض قيادات الداخلية واستقبله اللواء محسن..في اللحظات نفسها انتهى التحقيق مع اللواء السابق ناصر العربي وخرج مُكبَّلًا بالقيود ليلقى مكانه بحجز انفرادي بالمديرية تمهيدًا لترحيله للنيابة بالغد.. والتقى الاثنان وجهًا لوجه..الوزير وناصر العربي..كانت نظرات التحدي تملأ وجهه..ودَّ لو يقتله للتوِّ كما شعرتُ أنا..أشار إلى أمناء الشرطة حينها ليجرجروه ناحية محبسه المؤقت.. ودخلت مع الجميع بصحبة الوزير لمكتب اللواء محسن..لفتَ انتباهي مجدي الواقف بالخارج متوترًا..كنتُ أدركُ جيدًا ما يفكر فيه..تجاهلتُه ودخلتُ..سألني الوزير:

- ما الأخبار يا سيادة العقيد؟

-اعترفَ بكل شيء جنابك.

-مَنْ قام بتسريب المعلومات إليه؟

-أسماؤهم بالمحضر سعادتك.

-استصِدرْ أمرًا من النيابة فورًا بالقبض عليهم.

-حصل سعادتك.

-أعرفُ جيدًا أن الوزارة مُخترَقة وعلينا جميعًا تطهيرها..على الجميع أن يعرف أن المُخطئ يُحاسَب مهما يكن..لا أحد فوق الحساب، مهمتنا حماية الشعب..الشعب الكاره لنا بسبب هؤلاء الخائنين وسطنا.

-كل شيء تحت وأوامر سعادتك وقيادتك.

أمَّن اللواء محسن على حديثه..نظر ناحيتي وسألني مجددًا:

-وهذه المعلومات إلى مَن سُرِّبت؟

-فريد الدمراوي.

-فريد الدمراوي..نادر..مهمتك القبض على فريد حيًّا..أتفهمني؟ حيًّا.

-أوامر سيادتك.

-هذا الكلب ..يجب أن يُصبح عِبرة لأي أحد يُفكر بأذيتنا أو أذية الشعب.

-تمام جنابك.

ابتسم لي حينها مُحييًا إياي.

-أشكرُك جدًّا يا نادر.

-العفو جنابك هذا واجبي.

-كيف وصلت لهذه التسجيلات؟

-مصادري الخاصة سعادتك.

ضحكَ حينها وشاركه الجميع بضحكاته تلك..

-حسنًا، يا حضرة الضابط أُهنِّئك على عملك وجهدك وأعتذر لك مرةً ثانية عن شَكِّنا بك.

-العفو سعادتك..بعد إذن جنابك.

حيَّيتُه التحية العسكرية وخرجتُ مغلقًا خلفي عهدًا بائدًا كان ممتلئًا بالشَّكِّ..ومن الآن فصاعدًا سأحظى بثقة متناهية..سأخطو نحو القمة بلا منازع..ولكن عليَّ أولًا الانتهاء من ذلك العدو الساذج الذي خطر بباله يومًا محاسبتي ومحاسبتنا جميعًا..سأجعله عِبرةً لمن لا يعتبر..أدركُ

جيدًا أنني أقتربُ منه ببراعةٍ شديدة..ولكن ما يُثير تساؤلاتي أنه هو مَن يعطيني تلك الخيوط التي تُشير إليه..ما زالت هناك حلقة مفقودة.

ناداني مجدي نور الدين وأنا باتجاهي لهدفي الجديد..استوقفني على باب المديرية:

- نادر..نادر.

التفتُّ إليه.

-نعم يا مجدي..ماذا تريد؟

-أريدُ التحدث معك قليلًا.

-ليس الآن يا مجدي..ليس الآن.

تركتُه وهممتُ بالانصراف ولكنه استوقفني مجددًا ممسكًا ذراعي بقوة:

-نادر..لا تُورِّط نفسك أكثر من ذلك.

نظرتُ له بحدة شديدة:

-اسمع يا سيادة الرائد ..اذهب وتابع عملك بعيدًا عني.

-يا نادر أرجوك.

-هذا أمرٌ يا حضرة الضابط.

-أخبرني إلى أين أنتَ ذاهب؟

لم أُجِبْهُ..تركته غارقًا بتخيُّلات لا وجود لها الآن..كان مجدي متوجسًا أن كل ما يحدث من أعراض مرضي البائد..ابتسمتُ بسخرية..انتهت تلك الفترة..أنا لستُ مريضًا.. انصرفتُ على رأس قوة من الشرطة باتجاه صاحب الدراجة البخارية التي اعترف بها اللواء ناصر العربي..حفظت أرقامها جيدًا وكتبتُها بيدي بالمحضر..٤٤٧٥ جيزة..مسجلة باسم فتحي عبد العزيز..هدف لن أُخْطِئَه أبدًا.

صِراعٌ لا ينتهي

(ليل الثالث والعشرين من أبريل)

واقترب فتحي عبد العزيز بدراجته البخارية من مصير مجهول ينتظره.. مَرَّ بشوارع القاهرة التي يعشقها خاصة بلياليها الدافئة..لم يكن فتحي خائنًا بوجهة نظره، بل كان شابًّا طموحًا يحاول الهروب من قدرٍ وظُلمٍ ينتشر حوله بكل مكان..أظنُّ أن خيانة الظلم شرف..الفساد عقيدة فيمن حوله وعلى كل المستويات، فإن لم يعتنقه هو الآخر دُهِسَ بالأقدام..عليه جمع أكبر قدر من المال لينجو بنفسه وأسرته من بحور فساد لا تنتهي..وفي سبيل ذلك يفعل أي شيء حتى لو اضطرته الظروف للقتل، فبالحرب لا تسأل الجندي لِمَ قتل عدوه..النجاة..النجاة.

رنَّ هاتفه المحمول..وجد اسمها على شاشته..فتون إبراهيم..هكذا سجلها على هاتفه..أجابها وهو منطلق بدراجته البخارية دون توقُّف:

-مساء الجمال.

-هل هاتفتني؟

-نعم..كنتُ أطمئنُّ عليكِ.

-أنا بخير.

قالتها متنهدةً وصدرها ممتلئ بالأسى.

-إن احتجتِ لأي شيءٍ فلا تترددي بطلبه مني.

-حسنًا..أشكرك..طابت ليلتُك.

وأغلقتُ الهاتف سريعًا..كان عليها أن تشكره على مساعدته لها حتى وإن كانت تكرهُ ما آلت إليه أحوالها..ضغطت بعدها على كاسيت صغير بغرفتها الجديدة الصغيرة بالقرية السياحية..وخرج صوت معشوقها كاظم الساهر ليعزف على أوتار حزنها:

- ممنوعة أنتِ من الدخول يا حبيبتي عليَّ

ممنوعة أن تجلسي أو تهمسي

أو تتركي يديكِ في يديَّ

سالت دموعها وأغلقت عينيها لتنهي ليلتها تلك على سريرها الجديد.

أغلق بعدها هاتفه تمامًا..كان عليه اللحاق بشيء خطير..قبل تنفيذ ما يدور بباله..وضعه بجيبه ومضى بشوارع القاهرة المزدحمة..كان متوترًا للغاية..هَلَّ بدراجته البخارية بأول شارعه..أجواء مضطربة استشعرها بمجرد دخوله للشارع..كانوا أسرع منه..سيارة شرطة تقف بالقرب من بيتهم..اختبأ سريعًا خلف أحد البيوت وتابَعَ ما يحدث عن كثبٍ..وكنتُ أنا ورجالي ببيته..بغرفته..نُفتِّشُ كل شبرٍ فيه وفيها..ووقفت الأطفال خائفين وراء أمهاتهم..حاول والد فتحي تهدئة والدته واقترب مني مُحاولًا استجداء عطفي:

- أرجوك يا باشا دعْ فتحي لنا..إنه الولد الوحيد على سبع بنات وكما تراني العجز تمكَّن مني وأحتاج لمن يقف بجواري ويساعدني بشيبتي..وهو وعدني جنابك أنه لن يفعل أي شيء مخالف للقانون مرة ثانية..أرجوك.

اقتربت منه بعصبيةٍ وأمسكته من قميصه بحدةٍ:

-وما الذي فعله ابنك..انطقْ؟

-سأختنقُ..سأموتُ

كنتُ أخنقُه بقوةٍ دون أن أدري..كادت روحه تفارق جسده..صرخت بناتُه وزوجتُه العجوز:

-الغوث..الغوووووووووووووووث.

صرختُ فيهم تاركًا إياه وشاهرًا مسدسي برأسه:

-اخرسن..اكتمن أصواتكنَّ..تكلَّم وإلا قتلتُك في الحال.

-أقسم لك أن فتحي ابني لم يعد يبيعه..وتركَ ذلك الأمر إلى الأبد.

-ما هو؟

-الحشيش..مخدر الحشيش.

-أهلًا..جريمة أخرى..ليلتكم سوداء.

اقترب مني حينها أمين شرطة مُحييًا إياي التحية العسكرية:

-لم نجد أي شيء غير عادي يا باشا..بعض الرسائل الإلكترونية على حاسوبه الشخصي وبعض المقالات..ولا شيء آخر.

رن هاتفي بتلك اللحظة..وجاء الصوت من الجهة الأخرى:

-هاتفه مغلق يا سيادة العقيد. وآخر مكان ظهر به كان كوبري قصر النيل منذ حوالي عشر دقائق.

أغلقتُ هاتفي والغضب يجتاحني..وضعتُ مسدسي جانبًا ونظرتُ لرجالي مُشيرًا إلى والده العجوز ووالدته المنهمرة بالبكاء.

-اقبضوا على هذا العجوز..وهذه أيضًا.. اقبضوا عليها.

بكاء وعويل كل مَن بالبيت يتعالى ليستجدي أي عطفٍ بقلبي دون جدوى..كان معي النقيب رامي ونفَّذ أوامري على الفور..وخرجتُ من بيت فتحي بغنيمة أظنُّ أنها ستجعلُه رهن إشارتي في أقل من ٢٤ ساعة..وإلا مات أبوه وأمه بين يديَّ دون أن أتحمل وزرهما..فهو المسؤول عما يجري لهما..وانطلقنا بسيارة الشرطة باتجاه المديرية..على مرأى ومسمع من فتحي المختبئ..ملأ الانتقام نفسه..لم يتحمل رؤية والده ووالدته يركبان سيارة الشرطة كالمجرمين معتادي الإجرام..كان يدرك تمامًا أنني سأعذبهما أشدَّ عذاب حتى يحلَّ هو محلهما..أقسمَ بقرارة نفسه على محاسبتي أشد محاسبة..وانطلقَ هو الآخر بدراجته البخارية بعيدًا عن الأنظار.

واشتدَّ الصِّراع عن آخره..وكأنني أُسابِقُ الزمن لأصل لفريد الدمراوي ومَن وراءه..لأصِلَ لصاحب القناع والتيقُّن من شخصيته إن كان فريد أم غيره..دوامة تحتدُّ كل لحظة عن سابقتها

وأنا أقاوم الغرق بكل قوتي..أستخدمُ كل أسلحتي لأصل لبرِّ الأمان..وبر الأمان بالنسبة لي هو كشف الحقيقة..مَنْ صاحِب ذلك القناع؟

جلس مجدي نور الدين مهمومًا بمكتبه بالمديرية يفكر في تلك الأزمات التي أتعرَّض لها..ويفكر في مرضي المقتنع به تمامًا..لا يدرك ماذا يفعل ليحميني من نفسي..كان متيقنًا بشكل عجيب من ذلك التفسير الذي توصَّل له صديقنا الثالث عزيز شوقي بأنه لا وجود لصاحب القناع وما هو إلا أنا..كان مقتنعًا تمام الاقتناع أنني مريض والأمر يزداد خطورة..دخل عليه أمين شرطة مُهرولًا بالمكتب:

-مجدي باشا.

-خيرًا.

-لا خير هذه الليلة.

-انطق..ماذا جرى؟

-اللواء ناصر العربي يا باشا.

نَهَضَ حينها سريعًا متجها لزنزانته الفردية دون أن يستمع لأي كلمة من الأمين..هُرع ناحيته ليفتح باب الزنزانة بيده فيرى ما توقَّعه للتو..اللواء ناصر العربي معلقًا من رقبته بمنديل بشباك الزنزانة العلوي مشنوقًا وقد فارقَ الحياة منتحرًا..وراوَدَهُ سؤالٌ واحد بهذه اللحظات:

-هل انتحرَ اللواء ناصر العربي حقًّا؟ أم هناك يدٌ تعبث بالخفاء؟

فور وصولي للمديرية هُرعَ مجدي لتبليغي..دخلتُ إلى مكتبي واتصلتُ بسيادة الوزير على الفور..على هاتفه الخاص:

-سيادة الوزير..اللواء ناصر العربي انتحر.. حالًا جنابك..الرائد مجدي أبلغني حالًا، أوامر سعادتك..أوامرك سيادة الوزير. تفضَّل.

وأغلق الهاتف بعدما تلقيتُ أوامره..نظرتُ للنقيب رامي لأُلقيَ عليه أوامري أنا الآخر:

-رامي.. صورة فتحي تُوزَّع على كل الأقسام واللجان الشرطية..أريدُه الليلة هنا أمامي..مفهوم؟ الليلة.

-أوامر جنابك.

وخرج رامي بينما ظَلَّ مجدي جالسًا أمامي ينظر إليَّ..يُراقبني..كنتُ شاردًا أفكِّر..أهمسُ لعقلي بشيء لاحظتُه الآن..غريمي ليس بهذا الغباء..فريد الدمراوي يُلاعِبُني ببراعة..هو مَن سَرَّب إليَّ هذا التسجيل الصوتي المدين لناصر العربي..هو مَن أشار إليَّ عليه، ومن ثم هو أيضًا مَن

أشار إليَّ ناحية فتحي عبد العزيز..كان هناك مليون طريقة أخرى ليتمم بها صفقته المَشبوهة تلك..أولها محو أرقام الدراجة البخارية قبل مقابلة ناصر العربي لفتحي..هو يعلم جيدًا أنني سأصل لفتحي..ماذا يقصد مِن وراء ذلك؟ أهو كارت محروق يريد التخلُّص منه؟ بكل لحظة تمرُّ تزداد رغبتي في الانتقام منه وحرق ذلك القناع بوجهه..سيأتي يومٌ وأقتله بيدي..وبأقرب ما يمكن..قطع تفكيري مجدي..ناداني عِدة مرات:

-نادر..نادر..نادر..أتسمعني؟

-نعم يا مجدي، ماذا تريد؟

-ما أوامر سيادة الوزير بخصوص ناصر العربي؟

- لا جديد يا مجدي..افعل المفترض بهذه الحالات..حوِّله للمشرحة وبلِّغ النيابة.

-نادر..أخافُ عليك كثيرًا.

-سأخبرك إياها مرة أخرى يا مجدي..تابِع عملك ولا تتدخل فيما لا يعنيك.

-يا نادر أنت صديقي وأراك تغرق أمام عينيَّ، كيف لي أن أتركك؟! كيف لي أن أصمتَ وأنت تُدمِّر نفسك؟!

-أنتَ مخطئ..كل ما يحدث بسبب مجرم.

اقتربتُ منه للغاية:

-مَنْ هو يا نادر..مَن؟

-فريد الدمراوي.

-سأسألك سؤالًا واحدًا فقط: أأنت تبحث عن فريد لأنه متهمٌ أساسيٌّ بقضية اغتيال الضباط؟ أم لأنك مقتنع أنه يرسل إليك تهديدات وتسجيلات؟

-ليس من حقك التدخُّل ..لن أجيبك.

-لا من حقي..من حقي أن أمنعك حينما أراكَ تُدمِّرُ كل شيء، أنت مريض وعليك الاقتناع بذلك قبل فوات الأوان.

-أنا لستُ مريضًا..لستُ مريضًا. فليكفِ..أنا سئمتُك وسئمتُ تدخلاتك..

قلتُها صارخًا بوجهه بعصبيةٍ شديدة..رنَّ هاتفي فقطع حديثنا السَّمج..وكان صوته بالناحية الأخرى..فتحي عبد العزيز وبهذه السرعة:

- يا سيادة العقيد..لا تبحث عني كثيرًا

- مَن المتصل؟

-أنا فتحي يا باشا..لا تُتعب نفسك وتبحث عن مصدر المكالمة، خلاصة القول ..أبي وأمي..تُطلقُ سراحهما الآن وإلا لن ترى أختك نيفين مرةً أخرى..وإن جرؤتَ على فعل أي شيء خارج هذا الاتفاق سأرسلها إليكَ بجوال مُقطَّعة مئة قطعة..سأُهاتِفُك مجددًا لأعلمك كيف وأين تتسلَّم أختَك، هذا إن نفذتَ ما طلبتُه منك..وتأتي بمفردك يا باشا..بمفردك..والا...

وأغلق المكالمة ودمائي تفور ورأسي ينفجر من ذلك التحدي السافر..صرختُ:

-يا ابن الكلللللللللللللللب.

هُرعتُ لسيارتي أمام المديرية ومجدي يُلاحِقُني:

-ما الأمر يا نادر؟ أرجوكَ، ما الذي يجري؟

-لا شيء..عُدْ لعملِك.

لم أخبره بأي شيء..فقد كتبَ فتحي بهذه اللحظة شهادة وفاته بيده..لن يكفيني موتُه وخروج روحه بيدي..سأحرق جسده وألقي رماده ببركة عفنة تتبرز بها البهائم ليل نهار..حاولتُ الاتصال بهاتف نيفين عدة مرات..كان مُغلقًا..أمرتُ النقيب رامي بإطلاق سراح أبيه وأمه..كنتُ كالمجنون، لا أدري إلى أين أذهب..أأذهب لبيتها؟ أم لعملها بمدينة الإنتاج الإعلامي؟ نظرتُ إلى ساعتي..تقترب من العاشرة مساء..فقدتُ أي إحساس بالزمن..بهذه الساعة نيفين تستعدُّ للنوم لتستيقظ لعملها مبكرًا..اتصلتُ بهاتف بيتها لا أحد يُجيب..انحرفتُ بسيارتي للطريق المجاور..قررتُ الذهاب لبيتها لعلي أجدُها نائمةً وينتفي خطفه لها ويصبح مجرد تهديد سخيف..زدتُ من سرعة سيارتي..كنتُ غاضبًا بشدة..أصبحتُ مرتعًا للمجرمين يتحدوني كيفما شاؤوا..رنَّ هاتفي المحمول أجبْتُه سريعًا..كان صوته الكريه..فتحي عبد العزيز مُتسائلًا:

-أطلقتَ سراحَهما؟

-أبوك وأمُّك بفراشهما الآن.

-أعرفُ يا باشا..تيقنتُ من ذلك..تعالَ لتتسلَّم أختَك. ولكن حذارِ أن تأتي بصُبحة رجالك..أنتظرُك بمفردِك، خُذ العنوان.

وتزيَّن الحزب المصري الجديد بحُلة جديدة ذلك اليوم..ورفعَ الجميعُ لافتات ترحيب برئيس الحزب المُرتَقب الباشا عبد الغني النصراوي..اكتظت قاعة الحزب الرئيسية بالأعضاء والمرحبين بالباشا..رفعوا لافتاتهم عاليًا بهذا الوقت المتأخر من اليوم، فقد قرَّر الباشا عقد ذلك المؤتمر الأول له بالحزب الساعة العاشرة ليلًا بعدما ينتهي من أعماله اليومية بمجموعته الاقتصادية..امتلأت القاعة بكاميرات المصورين ومندوبي الجرائد من الصحفيين ومُراسلي بعض قنوات التليفزيون..حدثٌ مهم تمرُّ به الدولة وعليهم تغطيته كما يجبُّ..وقف الباشا على منصة عالية وسط تصفيقهم الحادِّ ينظر لعباراتهم المُدوَّنة على عشرات اللافتات.

-عبد الغني النصراوي أفضل المرشحين.

-عبد الغني النصراوي نصير الشباب.

-مرحبًا برجل الأعمال الوطني عبد الغني النصراوي.

ملأت الابتسامة وجهه وهتافهم ترقص له نفسه..ها قد نجح بما خطَّط له منذ فترة..متحركًا نحو هدفه دون هوادة.

-يحيا عبد الغني بك نصير الشباب.

أشار بيده لتتوقَّف هتافاتُهم ليبدأ بحديثه الأول إليهم:

- بسم الله الرحمن الرحيم، الزميلات والزملاء، أعضاء الهيئة الحزبية الذين جاؤوا جميعًا من أقصى صعيد مصر ومن مرسى مطروح، ومن كل محافظات الدلتا..اسمحوا جميعًا أن أوجِّه باسمكم كل التحية وكل الشُّكر وكل العرفان لكبير العائلة المصرية السيد رئيس جمهورية مصر العربية، وعاود الجميع وصلة التصفيق الحادة..قطعها الباشا بعد دقيقةٍ كاملة:

-بالبداية..أنتم تعلمون جيدًا توجهاتي وتَطلُّعاتي لمستقبل باهر لنا جميعًا بالشباب..سأظلُّ طوال عمرى أُصرِّح بذلك كلما أُتيحت الفرصة ..الشباب هم الأمل..هم المستقبل..نحن القادة عمرنا المار خلف ظهورنا يهمس بآذاننا دومًا أن الشباب هم القادمون..علينا بمدِّ أيادينا لهم وتوفير حياة كريمة تناسب تطلعاتهم..وأنا أعِدُكم أنهم بأولوياتي بأي قرار سأتخذه بعد نجاحي رئيسًا لهذا الحزب العريق..هذا الحزب الذي أعتبره بيتي الثاني..ومَن يعرفني منكم يعرفُ جيدًا أن وعودي سيفٌ على رقبتي..وأقولها بكل ثقةٍ..الشباب هم الوطن.

تصفيق حادٌّ يرجُّ تلك القاعة..وعلى الرغم أن أغلبهم يعلمون جيدًا أن هذه الوعود ستتبخر بمجرد جلوسه على الكرسي ولكن لا مفر من التصفيق..التصفيق لأي أحد يعتلي أو يوشك أن يعتلي رئاستهم..هكذا هم..يصفقون لفراعينهم..يهللون لمن يعتلي رقابهم مهما يفعل ومهما يكن.

مَرَّ يوم كامل وفريد الدمراوي الباحث عنه الجميع مُكبل بمخزن قديم..بُحَّ صوته صراخًا ليسمعه أحد ويجيبه عمَّا يريدون منه ولماذا يفعلون به ذلك..أصابه التعب والإجهاد الشديدان ولكنه لم يَكُفّ عن صراخه ليجيبه أي أحد..يبدو أنه بمنقطة لا تطؤها الأقدام والا لاستمع له أحد المارة.

-أنتم يا مَن هنااااااااااك..أغيثوني..ماذا تريدون مني؟ من أنتم؟ أنتم يا من هنااااااااااااااااااااااااااااااااااااك.

فُتح الباب حينها..الإضاءة خافتة..لا يرى ملامح مَن دخل:

-أنت..أخبرني أين أنا أرجوك وماذا تريدون مني؟

-أنت هنا تُحاكَم بتهمة الغباء الفاحش.

كان يعرف ذلك الصوت جيدًا..برقت عيناه وهو يقترب ليرى وجهه..كان ذلك الشخص هو صاحب القناع..قناع فانديتا..ذا الابتسامة المستفزة بالنسبة له..تعجَّب كثيرًا حينما رآه..

-أنت؟ أنت مَن تفعل بي ذلك؟ لماذا؟

-قلتُ لك بتهمة الغباء الفاحش.

قالها مِن وراء قناعه..ما زال حريصًا ألا يتعرف أحد إلى شخصيته الحقيقية:

-فلتفُكَّ قيودي على الفور وكفاكَ هُراءً.

-ستُفك قيودك لا تقلق..ولكن ليس أنا..هناك شخص آخر سيفعل ذلك، أترغب بالتعرف إليه؟

-مَن؟

-ادخل.

قالها الشخص ذو القناع بصوت عالٍ ناظرًا ناحية الباب..دخل حينها فتحي عبد العزيز ووقف بجواره..بُهت فريد الدمراوي حين رأى ذلك..تلعثمت الكلمات بين أحباله الصوتية:

-فتحي؟ أأنت تعرف فتحي؟ منذ متى؟

-ألم أقل لك إنك غبي..هكذا أنتم تظنون أنكم أذكى البشر، وما أنتم سوى ثلة من أغبى الأغبياء..فُكَّ قيوده يا فتحي.

ناوله حينها مسدسًا وما هي إلا لحظة واحدة وأطلق فتحي عبد العزيز رصاصتين بقلب فريد الصارخ:

-لا يا فتحي..لاااااااااا.

ومات فريد الدمراوي..مات دون أن يعرف مَنْ هو صاحب ذلك القناع.وستُفك قيوده ليغيب جثمانه تحت الثرى ويُخلِّف وراءه الكثير والكثير من الألغاز.

دقاتٌ على باب غرفة أحمد أمجد رشوان أخي الغارق ببحر من عذاب الضمير ليس له نهاية..فُتح الباب ليجد صديقه معاذ أمامه..إنها المرة الأولى التي يزوره فيها هنا..بعد مرات ومرات من الاتصال دون جدوى..أحمد لا يُجيب أحد..نظر له أحمد بعينين ذابلتين وابتسم له ابتسامة باهتة وعاد لمكانه على كرسي منزوٍ بجانب الغرفة يحترق كسجارته المشتعلة..رائحة الغرفة عَطِنَة وزجاجات الخمر بكل مكان..اقترب معاذ منه مبتسمًا:

- لأول مرة أدخل غرفتك.

-وماذا تغيَّر؟

-هاتفتُك كثيرًا ولم تُجِب.

-وما الجديد بذلك؟

-أحمد كلنا نخاف عليك كثيرًا..وبالأخص بعدما شاهدناك آخر مرة.. أعرف أن التجربة كانت قاسية، لكنك أقوى من أي شيء بهذه الدنيا، لماذا أراكَ مُستسلمًا لهذا الحد؟ لماذا ترفض وقوفنا بجوارك وتبعدنا بكل قوتك؟

- البعد عني مريح..لن تتحملوني..صدِّقني.

-أنتَ مُخطئ..كلنا نحبك ونريدك بجوارنا كما كنتَ صديقًا لنا جميعًا.

-أنا صديق منتهي الصلاحية..ضعيف، جبان.. ولا أريد القُرب من أحد.

-أتعرف يا صديقي..حالتك تلك تُذكِّرُني بالوضع الحالي ببلدنا، حالة من الضعف والهوان..حالة من الخضوع المُخزي والخرس..وكأن هناك مَنْ يُمارس الذل والقهر ضدها ولا تقوى على النطق بكلمة واحدة..لا تقوى على الاعتراض، تحتاج لمن يقف بجوارها ويُجابِه ذلك الظلم بصلابةٍ، تحتاج لمن يلقنها الرفض دون خوف..لا..لا وألف لا، سيأتي يومٌ ستخرج من كبوتها مهما تكن، وأنت أيضًا..ستنتهي كبوتك وعلينا جميعا أن نساعدك لتجاوُزِها.

-تعبتُ..لم أعد كما عهدتموني.

وانهارَ أحمد بالبكاء..مأساة لا حَلَّ لها..لن يسامح نفسه أبدًا..فوِزْرُ موتهما مُعلَّق برقبته مهما يحاول نسيان ذلك..كحبل مشنقة تلتفُّ رويدًا رويدًا حول رقبته لتنهي حياته ببطء وعذاب لا مثيل له..قيود لا مثيل لها.

هناك قيود أخرى تنتظر منقذها بمكان آخر..أعلى هضبة المقطم بمنطقة خالية تقريبًا من الناس..رُبِطَتْ سيارة نيفين بحبل سميك بجذع شجرة خاوية من أوراقها..السيارة على وشك الانزلاق والسقوط من أعلى هضبة المقطم ولا يمنعها سوى ذلك الحبل وبمنتصف المسافة بين السيارة وجذع الشجرة نيران مشتعلة تتصاعد أبخرتها عاليًا وتقترب من الحبل..تلك النيران قد تزداد بأي لحظة ويشتعل الحبل ليعلن سقوط السيارة..وهناك..أسفل السيارة تلك الرقيقة نيفين المذعورة بهذا المكان..مربوطة بصخرة صغيرة أمام السيارة..إن سقطت سقطت معها وتموت على الفور..خطة بشعة..حاولتْ نيفين الصراخ ولكن تلك الكمامة على فمها منعتها..ذُعرٌ ينتابها وهي تتابع النيران تزداد وتقترب من الحبل لتوشك على إعلان وفاتها..حاولت فَكَّ قيودها دون جدوى..كتمت أنفاسها يأسًا وكأنها أيقنت أنها ستموت لا مَفرَّ..وبتلك اللحظة وصلتُ أنا بسيارتي..كان ذلك هو العنوان الذي أخبرني إياه ذلك الملعون

فتحي..أشهرتُ مسدسي وبحذرٍ شديد بحثتُ عنها وعنه..رأيتُها أمام السيارة..وصلت النيران للحبل وبدأ بالتآكل..هُرعتُ ناحيتها وأزلتُ الكمامة عن فمها..صرختْ بقوة:

-أسرع يا نادر..سأموووووووت.

حاولتُ بكل قوتي فَكَّ قيودها..لم أستطع..بدأت سيارتها بالتحرك نحونا رويدًا رويدًا..واقتربَ الحبل من أن يُقطع بفعل النيران..لحظات لن أنساها أبدًا..تلك النظرات بعيني نيفين..نظرات وداع ممتزجة بحبٍّ واشتياق..وكأنها تعلن لي عن اشتياقها إليَّ مقدمًا قبل موتها..صرختْ فيَّ:

-ابتعد أنت واتركني.

-لا.

-قلتُ لك ابتعد.

-لا.

كنتُ أحاول وأحاول والحبل ينقطع..وفي اللحظة الأخيرة استطعتُ فيها فكَّ قيودها واحتضانها والانبطاح أرضًا بعيدًا عن طريق السيارة التي سقطت بجوارنا وانفجرت أسفل هضبة المقطم..نجونا باللحظة الأخيرة..وانهمرت نيفين ببكاء لا ينقطع..حاولتُ تهدئتها واحتضانها دون جدوى..بكت حتى غابت عن الوعي.

فتحتْ عينيها بصعوبةٍ ونظرتْ حولها..إنها بغرفتها ببيتها..وكنتُ جالسًا أمامها يمزقني ما عايشتُه تلك الليلة..الساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل..لم يعد مجدي من عمله..ربتُّ بيدي على وجهها بحنان شديدٍ:

-كيف حالك الآن يا حبيبتي؟

-لستُ بخير.

قالتها وبدأت البكاء من جديد..مسحت دموعها واحتضنتها هامسًا بأذنها:

-لا تخافي..لا تخافي يا حبيبتي..أعدك أن ما حدث لن يتكرر، سننساه..أليس كذلك؟

أشارتْ إليَّ بالنفي.

-نيفين..هكذا الحياة نتعثر ونقف..نقاوم وننجح..أنت تعرفين مهنتي أنا وزوجك وهناك شخص يريد الانتقام منا بك..لا تعطيه الفرصة أبدًا.

-أنا لم أفعل شيئًا.

-انهيارك هذا نجاح منقطع النظير له، فلتبقي صلبة كأخيكِ.

-سأحاول.

-أخبريني..كيف استطاع خطفك؟

-كنتُ بمدينة الإنتاج أتابع الإعداد لحلقة الغد، وبعد أن خرجتُ لاحظتُ دراجة بخارية تتبعني، حاولتُ الفرار منه لم أستطع..وقفَ أمامي وهُرع ناحيتي وخبطني على رأسي وعندما أفقتُ وجدت نفسي مُقيَّدةً بذلك المكان الذي أنقذتني منه.

-فلننسَ..وكما قلتُ لك لن تتكرر مرة أخرى مهما يحدث، هيا..نامي وارتاحي.

قبَّلت وجنتها ونهضتُ باتجاه باب غرفتها..توقفتُ وكأنني تذكرتُ شيئًا مهمًّا:

-نيفين..لا تحكي لمجدي عن أي شيء مما حدث الليلة.

-لماذا؟

-لا داعي لإزعاجه..ولأنني أريد التعامل مع هذا المجرم بمفردي حتى لا يتعرض هو للخطر.

-أخافُ عليك.

-لا تخافي.

-والسيارة؟

-أخبريه أنها سُرقت منكِ بالطريق من شخصٍ مُلثَّم وأنك أبلغتِني بذلك.

-حسنًا.

-تصبحين على خير.

أغلقتُ ضوء غرفتها وخرجتُ..تركتها تعاني كوابيس تتصارع عليها تلك الليلة..أعرف ذلك جيدًا..ما عايشته تلك الليلة كفيل بفَزَعِها لليالٍ كثيرة، ولكن لا مفر من النسيان..لا طريق آخر.

تحركتُ بسيارتي أبحثُ عن هواء نقي لرئتيَّ..كنتُ كالثور الهائج..أتوعَّد ذلك الوغد المدعو فتحي عبد العزيز بنهاية غير مسبوقة..لا يهمني الآن الوصول لفريد أكثر منه..كل ما أريده هو قتله آلاف المرات لتنطفئَ تلك النيران المشتعلة بصدري.

وقفتُ أعلى هضبة المقطم بمفردي..أسترجعُ ما حدث بالأيام القليلة السابقة..أسترجعُ ذلك السيناريو المحبوك للإيقاع بي..تذكرتُ كلمات مجدي لي هذه الليلة:

- مِن حقِّي..من حقي أن أمنعك حينما أراك تُدمِّر كل شيء، أنت مريض وعليك الاقتناع بذلك قبل فوات الأوان.

ترددت كلمات عزيز بعقلي وكأنها تطاردني:

- التوهُّم بأن هناك شخصًا ما يرغب بإيذائك ورؤيتك أشخاصًا أو أحداثًا غير حقيقية يؤكد ذلك، العقل الباطن حينها يدخل رويدًا رويدًا، حالة من التضخم والسيطرة على العقل الواعي دون إرادته وبالتدريج يعيش المريض عالمًا من الأوهام والهلاوس والشكوك متوهمًا أن هناك مؤامرة للقضاء عليه ممَّن حوله.

-هذا الشخص ذو القناع..هو أنت يا نادر.

وامتزج صوت مجدي يطعنني بتلك الجملة التي لا أصدقها..ما زلتُ أشكُّ بكل شيء..أأنا مريض حقًّا؟ هناك دلائل عدة على وجود ذلك الشخص..مستحيل..أنا لستُ مريضًا..لماذا يشعر قلبي دومًا بصدق هذه الجملة؟

-هذا الشخص ذو القناع..هو أنت يا نادر.

مُحال..عقلي يكاد يقسم بوجوده وقلبي ينفي..وأنا أتمزَّقُ بين هذا وذاك..أتمزَّقُ من صوته المتكرر بعقلي:

- أنت المختار..أنت رسول الحق والعدل من الآن، شئتَ أم أبيتَ ..ولتعلم..الأنبياء لم يصدقهم أحد بالبداية.

رنينُ هاتفي قَطَعَ شرودي..جاء صوتٌ ينبئ بأن هذه الليلة لن تمرَّ إلا بنهاية ذلك الوغد فتحي عبد العزيز..

-سيادة العقيد..هاتف الهدف فُتِحَ جنابك.

-أين هو؟

قلتُها بشغفٍ كبير.

-موقعه الحالي..وزارة الداخلية سعادتك.

-ماذا؟

-وزارة الداخلية جنابك.

-وزارة الداخلية؟

انطلقتُ بسيارتي متعجبًا..لن يفلت مني هذه المرة..ولكن ما الذي أتى به إلى هناك؟ أهو بالقرب منها أم بداخلها مقبوض عليه؟ سنرى..ما هي سوى عشرين دقيقة وسأنقضُّ عليه لا محالة.

الساعة تقترب من الثانية بعد منتصف الليل..موسيقى صاخبة راقصة بفيلا سلمى عبد الفتاح الساهرة..تتلاعب إضاءتها وتتمايل مع ضيوفها المخمورين..ضحكات نسائية خليعة تمتزج

بتلك الموسيقى وتُضفي على المكان حالةً من الشهوة المُعلَنة لمن يخطو بقدميه داخله..نساء شبه عاريات بفساتينهن السواريه اللامعة..تتلألأ نهودهن المشكوف أغلبها ليسيل لعاب كل الرجال بهذا الحفل الساهر..وكأنك بأكبر ملهى ليلي خاص لا يدخله إلا عِليةُ القوم من صفوة المجتمع..فهناك تجد رجال الأعمال وأصحاب المناصب يتسللون إلى هناك لينفضوا عن أكتافهم تراب العمل وتلك الهيبة التي يفرضها المجتمع عليهم.

وقف معاذ مُتعجبًا من ذلك المكان الذي دعاه إليه صديقه أحمد أمجد رشوان..نظر لأحمد الشارد متسائلًا:

-ما هذا المكان يا أحمد؟

-مكاني.. إنه قبري الليلي..أُدفنُ فيه كل ليلة من وقتها.

ظهرت حينها سلمى تُرحّب بأحمد وتُقبِّل خديه:

-أهلًا أهلًا يا أحمد بك..شرفتنا..تأخرتَ هذه الليلة قليلًا..أليس كذلك؟

-كيف حالك يا سلمى؟

-بخير..مَن معك؟ وجه جديد؟

قالتْها هامسةً له ناظرةً لمعاذ.

-معاذ صديقي.

-أهلَا..أهلًا..المكان ومَن فيه مِلكٌ لكما..تفضَّلا.

تركتْهما وتحرَّكتْ تُرحِّبُ بباقي الموجودين وتسامِرُهم..نظر لي معاذ بحدة:

-أحمد..هذا ليس مكانك.

ابتسمَ له ساخرًا وأشار إليه نحو هؤلاء الضاحكين والمخمورين حولهما:

-انظر لكل هؤلاء..أترى ضحكاتهم؟ أتسمعها؟ ذاك مكاني الوحيد..أرتمي بأحضان ضحكاتهم وكؤوسهم ..هؤلاء أحبُّ مصاحبتهم.

-ضحكات زائفة..هذا ليس مكانك ولا هؤلاء أصحابك.

-أما زالت الغمامة تملأ عينيك؟ أنا لم أعد كما عهدتني. انظرْ بوجوه مَنْ حولك ستعرف أنني تغيَّرت.. أصبحتُ واحدًا منهم..قلتُ لك البُعد عني راحة..أنا انتهيتُ..وذاك ما تبقَّى مني، أترى؟

تركه وابتعدَ..ذابَ وسط مجونهم..تجرَّع كؤوس خمرهم بشراهة وتراقصَ مع نسائهن ذوات الضحكات الخليعة..كانت عيناه ممتلئتين بالدموع..ولكنه يخفيها عن صديقه معاذ..تراقصَ وتراقص وتراقص كالمذبوح..وقف معاذ مكتوف اليدين لا يدري ماذا يفعل..ما الحَلُّ ليُخْرِجَ

صديقه مِن كبوته؟ أهذا هو أحمد رشوان ذلك الشاب الشجاع..الذي راهن بمستقبله ووقف بصدره مكشوفًا لرصاص مجهول بثورة فائتة؟ أهذا هو أحمد رشوان زميل الميدان وجندي الحق الصارخ بأعلى صوته:

-حرية..حرية..حرية.

لطالما التفُّوا حوله يغنون معه ويهتفون..كيف لشابٍّ مثله أن يتيه بدروب تلك الحياة؟ هل سيأتي يوم يصل لبر الأمان؟

وقف فتحي عبد العزيز قلقًا بمكتب الوزير حمدي زغلول شخصيًّا..أخبرهم أن لديه معلومات مهمة تخص قضية قتل الضباط وأنه لن ينطق بها إلا أمام الوزير..وما إن اتصلوا به بمنزله حتى أتى على الفور..دخل مكتبه ووجد فتحي واقفًا واثنين من ضباطه ينتظرانه..نظر ناحيته متسائلًا:

-مَن أنت؟ وما المعلومات المهمة لديك عن قضية اغتيال الضباط؟

-سيادة الوزير قبل أن أنطقَ بأي شيء أنا أطلبُ حِمايتك أولًا.

-حمايتي؟ ممَّن؟ اجلسْ.

جلس حينها فتحي على استحياء..وجلس الوزير على كرسيه مُشعلًا سيجارة ناظرًا إلى فتحي:

-تكلَّم لا تخفْ..سأحميك.

وبدأ فتحي سرد معلوماته المهمة:

-اسمي فتحي عبد العزيز فواز، صحفي ببداية الطريق، وطالب بالسنة النهائية بكلية الحقوق، ولديَّ دراجة بخارية رقم ...

-فلتخبرنا بالمعلومات المهمة أولًا.

-الحكاية بدأت منذ حوالي شهر ونصف، تعرفتُ إلى مصور شابٍّ اسمه إبراهيم محفوظ.

-إبراهيم محفوظ؟

قاطعه الوزير متعجبًا فهو يعرف صاحب ذلك الاسم..فأكَّد له فتحي معلوماته قبل أن ينطق بها.

-مَن اقتحم الكوردون الأمني حول الوزارة هنا، إبراهيم كان إنسانًا بسيطًا فقيرًا يبحث عن قوت يومه مهما تكن المتاعب والمعاناة..أصبحنا صديقين بفترة وجيزة، وفي يوم أتى إليَّ إبراهيم فرحًا وأخبرني بأن طاقة القدر فُتحت لنا، وحكى لي أنه وقعت بيديه مجموعة من الصور الفوتوغرافية لمسئول كبير بالداخلية تثبت تورطه بتجارة الآثار واستغلاله منصبه لتسهيل تلك التجارة الممنوعة، حذَّرته كثيرًا من تلك المخاطرة، وطلبتُ منه الابتعاد عن عُشِّ

الدبابير هذا، حاولتُ كثيرًا ووقفتُ أمامه لدرجة أنني تعاركتُ معه يومًا ما ولم أتركه إلا حينما وعدني أنه سيتناسى ذلك الأمر، وأن عليه التخلُّص من هذه الصور ..لكنني لم أطمئنَّ لكلامه..أصابني الشَّكُّ الشديد، خوفي عليه جعلني أراقبه عن بُعدٍ، وصَحَّتْ شكوكي، ففي اليوم التالي ليلًا خرج إبراهيم لمنطقة المقطم وتبعتُه عن بُعدٍ، وهناك كان ينتظره..ذلك الشخص المسئول..توقعتُ ذلك مِن سيارته الفارهة ذات الأرقام المنبئة بعلو شأن صاحبها..تنصَّتُّ على حديثهما، إبراهيم كان مضطربًا للغاية، حاول التماسُك والتظاهُر بأنه شخص قوي، ناول ذلك الشخص تلك الصور..نظر إليها وتيقَّن من صحتها..ثم نظر لإبراهيم بشَرٍّ مكتوم..سأله عن طلباته..حينها أخبره أنه يريد مليوني جنيه..وهدَّده بوصول هذه الصور للصحافة أو على الأقل لمكتب وزير الداخلية إن لم يدفع له أو فكر بخيانته.

تساءل الوزير حمدي زغلول بشغف شديد:

-مَن ذلك المسئول؟

نظر فتحي إلى الجميع متوترًا وكأنه يخاف حتى من نُطق اسمه:

-العقيد نادر أمجد رشوان عبد الغني النصراوي.

كانت هذه الصور حقيقية..التُقطت لي بتلك المرة التي أشرفتُ فيها على بيع رُبعِ المقبرة بالفيوم ببيت الحاج سلامة الدفاس وصحبني فيها مجدي نور الدين..أتذكرُها جيدًا..ولكن من يستطيع خيانتي لهذا الحد ويكشف أمري؟ مَن التقط هذه الصور؟ أهناك شخص خفيٌّ يدبر لي ذلك الأمر منذ فترة؟ أهذا الذي يحدث لي مدبر من وقتها؟

تابَعَ فتحي قصته:

-ووافقَ على إعطائه المال بشرطٍ واحد.

-أيُّ شرطٍ؟

-أن ينقل سيارة من مكان لمكان آخر به سيارة بالموديل والشكل نفسهما ويبدلهما ويعود بالأخرى.

-لا أفهم.

-اتفق معه أن يأخذ سيارة من مكانٍ ما ترك له مفتاحها أسفلها وأفهمه أن هذه السيارة بها ممنوعات ومطلوب منه نقلها للمكان الآخر واستبدال السيارة الأخرى بها.. بالشكل نفسه..وعليه ترك أصل هذه الصور الفوتوغرافية بالسيارة الأولى..وسيجد حقيبة بها المليونا جنيه بالسيارة الثانية..وبهذا تم الاتفاق، أتعرف جنابك أين كان هذا المكان الثاني المفروض تبديل السيارتين به؟

-أين؟

-هنا..أمام الوزارة بالتحديد..والميعاد الساعة الثامنة ليلًا بيوم اتفقا عليه، زارني إبراهيم قبلها ولم أخبره بأنني عارف كلَّ شيء، كان متوترًا للغاية وخائفًا..وكأنه جاء ليُودِّعني.

-وطبعًا احترقت هذه الصور بالسيارة بعد إطلاق الرصاص عليها.

مَدَّ يده بجيبه حينها وأخرج ظرفًا ناول الوزير إياه:

-هذه هي الصور يا باشا..تركها لي إبراهيم قبلها بعدما أخبرني أنه خائف أن يضعف ويتصل بنادر باشا ويبتزه بها، وأن عليَّ الاحتفاظ بها بعيدًا عن يده، عرفتُ حينها ما يفكر به، ولكنني لم أصرح له بأي شيء ممَّا بداخلي، كان خائفًا من خيانة سيادة العقيد..فكَّر بضمان الحصول على المال أولًا، ومؤكَّد كان سيرسل إليه الصور فيما بعد. ..كانت عيناه ممتلئين بالشَّكِّ والخوف.

-ومات إبراهيم.

-بأبشع طريقة..وكأن إبليس بنفسه مَن رتَّب لها، أصابني الخوف الشديد..شعرتُ بأن هذه الصور تحمل كفني..فكرتُ كثيرًا أن أحرقها وأتخلَّصَ منها.

-ولماذا لم تتخلَّص منها؟

-إبراهيم محفوظ..صديقي المسكين المغدور به شابٌّ بمقتبل حياته حُكِمَ عليه بالموت لمجرد أن شخصًا فاسدًا أراد له ذلك، شخصًا قاتلًا وسيقتل الكثيرين بعده..كنتُ أتعذَّبُ..قضيتُ ليالي أُفكِّر بالانتقام له..إلى أن خطرت لي فكرة أن أنْصِبَ له شَرَكًا مُحكمًا لا ينجو منه.

-كيف؟

-اتصلتُ به وقابلته ..أخبرته أن الصور معي، وأني أريد مبلغ ١٠ ملايين جنيه ثمن سكوتي، وأني أعرفُ ما فعله بإبراهيم، وقلتُ له ألا يفكر بتكراره معي، وقررتُ أن أبلغكم بوقت التسليم ليُقبضَ عليه مُتلبِّسًا، لكنه كان أسرع مني ..هَجَمَ على بيت أهلي، وقَبَضَ على أبي وأمي وعذَّبهما عذابًا شديدًا، وعرفتُ أنه يحيك لي قضية خطيرة..وأن هناك مَن اعترف عليَّ بأنني استلمتُ منه خطوط سير الضباط بقضية اغتيالهم، وأبلغَ عن رقم دراجتي البخارية.

-ومِن أين لك بهذه المعلومة؟

-من أهالي الحيِّ الشعبي الذي أسكنُ به، أنا لم أعُدْ خائفًا على نفسي..أرجوك يا سيادة الوزير، أبي وأمي لن يحتملا هذا التعذيب الوحشي، أرجوك أنقذهما من تحت يدِه.

وانهار فتحي ببكاء لا يتوقف..حاول الوزير تهدئته:

-لا تخف يا فتحي..اطمئنَّ..البلد بها قانون، والقانون فوق الجميع.

نظر حينها لأحد الضباط أمرًا إياه:

-اتصل بمدير الأمن فورًا.

وبهذه اللحظات وصلتُ بسيارتي لوزارة الداخلية..هُرعت للداخل وأنا أبحثُ عن بُغيتي..وما إن دخلتُ لبداية الطُّرقة حتى رأيتُ الوزير حمدي زغلول يخرج من مكتبه بصحبة مجموعة من الضباط ويتوسطهم فتحي عبد العزيز..رفعتُ مسدسي وجريتُ تجاهه..لن أتركه يفلت من يديَّ..سأقتله أولًا ثم أتساءل عن سبب وجوده هنا..وقفتُ أمامه بلحظة أنظر بعينيه قبل أن أضغط على زناد مسدسي..كانت عيناه ممتلئتين بالتحدي والسخرية..تبًّا للنظرة نفسها التي قتلتُ بسببها عباس الدمراوي! والآن ستلحق به أيها الوغد..لم ألحظ هؤلاء الضباط الهارعين ناحيتي والممسكين بي..وما إن شعرت بهم حتى حاولتُ بكل قوتي الانفلات منهم لأقضي عليه وعلى نظرته تلك المستفزة..

-اتركوووووووووووني.

ضَرَبَني أحدُهم بجسمٍ صلب على رأسي..غِبتُ عن الوعي حينها وآخر ما وقعتْ عليه عيناي هذه النظرة بعينيه..نظرة الانتصار.

المُختار

(قبل ٥٠٠٠ عام)

فتحتُ عينيَّ ناظرًا حولي لذلك المكان العجيب والبرد يفترس عظامي..تبًّا لذلك الكابوس المستمر! تبًّا لذلك الطبيب! ألم ينتهِ بعد من عمليته الجراحية حتى أفيق وينتهي هذا الكابوس المزعج؟ كنتُ مُكبَّلًا على جسد خشبي..وقيود حديدية تمنع حركتي تمامًا مهما أحاول..الظلام شديد..ظلمة لا تنتهي..ألن يأتي الصباح أبدًا بهذا الكابوس؟ نُباح الكلاب يتعالى..ويمتزج مع سهوج الريح المثيرة للرعب..وكانت هي أمامي تنظر لي ومعها تلك الشمعة التي لا تنتهي..كل شيء هنا مثير للدهشة....اقتربتْ مني ممسكة بشمعتها :

-ألم تفكر بالاعتراف بكل جرائمك والبدء من جديد؟

شعرتُ بالاختناق الشديد..حاولتُ نزع تلك القيود لم أستطع.

-انزعي هذه القيود عني.

-لا أملكُ ذلك.

-كلا..أنت تملكين كل شيء هنا..أرجوكِ..انزعيها.

-ستعترف؟

-لم تنتهِ حكايتي بعد.

-أأنت مريض حقًّا؟

-لا يمكنني الجزمُ بأي شيء.

-أتقتنع بوجود ذلك الشخص ذي القناع؟

-لا تحكمي الآن..ما زال لقصتي بقية.

-أخبرني إذًا.

-انزعي تلك القيود.

-قلتُ لك لا أملكُ ذلك.

صرختُ عاليًا وكأنني على وشك الغرق:

-أفيقوووووووووووووووووووني، أيها الطبيب..ألم تنتهِ بعد؟

ضحكت شهرزاد حينها كثيرًا..نظرتْ لي وهي تُغالِب ضحكاتها:

-مسكين أنت..أتظن أن بإمكانك الهروب؟

-تنزعي تلك القيود؟

اقتربتْ مني وهمستْ بأذني وكأنها تخاف أن يسمعها أحدٌ:

-إنها فرصتك الأخيرة..قبل أن يشُقَّ الصباحُ بضيائه ظُلمة الليل وحينها سينفذ فيك حكم الإعدام لا محالة.

-أنت مجنونة..أفيقووووووووني.

-مهما تصرخ لن يصدقك أحد هنا..أنت مُتسلِّل لقصر مهجور، ومؤكَّد لك علاقة باختفاء ملكهم السابق.

-فليذهب ملكهم إلى الجحيم..ما شأني أنا بكل ذلك؟

-شأنك آثامك التي أتتْ بك إلى هنا.

-أنا لا أفهم شيئًا.

-لن تفهم الآن.

-ألم تعديني بالحماية إن قصصتُ عليك كل شيء، وأنني سأقابل أمي وأرتمي بأحضانها؟

-وهل حقًّا قصصتَ كل شيء؟

-أقسمُ بذلك.

-أما زال هناك بقية؟

-نعم أعطيني الفرصة لأُكمِلَ.

-هيا كُلي آذان مصغية.

نظرتُ لها وهي تراقبُني..تنظر بعينيَّ..تستكشف صدقهما..تنهدتُ لأكمل قصتي اللعينة..أغمضتُ عينيَّ وكأنني أمسك يدها لنطير معًا بفُلْكِ خيالي يخترق الزمان..نبحر بعد ٥٠٠٠ آلاف عام لترسو سفينتنا بمكتب الوزير حمدي زغلول..كنتُ هناك يحاوطني أغلب قيادات الداخلية..رأسي يؤلمني بشدة..صداع يفترس عقلي..عيونهم تتفحصني وكأنهم ذئاب يستعدون للانقضاض على فريستهم..كان الوزير غائبًا عن هذا التحقيق..اقتربَ مني حينها اللواء محسن مدير الأمن بعينين يملؤهما الغضب:

-لم يتوقَّع أي واحد فينا أنك أنت المجرم الباحثين عنه، خدعتنا جميعًا بامتياز..نجحتَ بالتقرب منا وعرفتَ كل أسرارنا، وبعتها لمن دَفَعَ لك.

نظرتُ له بحيرة..حينها لم أفهم ما يعنيه..سألتُه:

-ما الذي يجري هنا؟ أنا لا أفهم أيَّ شيء.

-أصغِ إليَّ يا حضرة الضابط..سأقصُّ عليك الحكاية مِن بدايتها مع أنها مكشوفة ومعروفة بالنسبة إليك.. أنتَ مَن ألَّفها..ضابط فاسد يرتدي ثوب الشَّرف..يبيع أي شيء بالمال حتى وإن كان أرواح زملائه الخمسة عشر ضابطًا. باعَهم بدمٍ باردٍ..وحينما كُشِفَ شريكُه وأصبح معروفًا لدينا..بحث عنه وقتلَه.

-مَنْ تقصد؟

-أنتَ..أنت أيها الضابط الخائن.

-أنا لم أقتلْ أحدًا..لم أخُنْ.. لم أقتل أحدًا.

صرخ بوجهي:

-كفاكَ كذبًا..فريد الدمراوي عثروا عليه مقتولًا بالرصاص من نصف ساعة.

برقت عيناي من هول الصدمة..تابَع اللواء محسن هجومه:

-ليس ذلك فقط..ما زال بالقصة بقية..هذا الضابط كان يُتاجر بالآثار..آثار بلده..من أمَّنَتْهُ حارسًا عليها هو أول سارقيها، مال من هنا وهناك..وسلطة تحميك..تخفيك عن أعيننا..لكن لسوء حظك..أرادَ الله للحقيقة أن تخرج من مخبئها..جاءك مَن صوَّرك خُفية بإحدى عملياتك الخارجة عن القانون وأنت تبيع آثار البلد بأبخس الأثمان..وهدَّدك إبراهيم محفوظ..أتتذكره؟ مأزق غير متوقَّع وقع فيه الضابط الخائن..ماذا يفعل؟ أهناك مَخْرج؟ نعم..يخترع شخصية وهمية ترتدي قناعًا ترسلُ إليه تهديدات بتفجير وزارة الداخلية بتمام الثامنة مساء ويُصدِّرُ لنا جميعًا ذلك الوهم، وبالوقت نفسه تُخطِّطُ للشاب المسكين إبراهيم محفوظ أن يحضر بالتوقيت نفسه أمام الوزارة مخترقًا الكوردون الأمني داخل سيارة مسروقة متخيلًا أن جريمتك ستحترق داخلها، كنتَ متأكدًا أن تلك الصور ستتفحم..فأنتَ مَن أصدرتَ أمر إطلاق النيران على تلك السيارة دون أن يشك أحدٌ منا بك بأي لحظة، لكن إرادة الله فوق كل شيء..أرادَ لك الفضيحة وترك إبراهيم محفوظ صور جريمتك مع صديقه فتحي عبد العزيز، وجاءك وطلب منك ١٠ ملايين جنيه ثمنًا لها وهدَّدك بعدم تكرار ما فعلته بصديقه..هُرعت لتورطه بقضية قتل الضباط وكتبت رقم دراجته البخارية باعترافات اللواء ناصر العربي..شريكك الثاني..مَنْ سلمته لنا بتسجيلاتٍ أنت من سجَّلها له..لتُقفَل القضية بكل سهولة بعد أن تقتله بزنزانته الفردية ونعتقد جميعًا أنه انتحر..خطة بمنتهى الذكاء..لكن اعذرنا جميعًا، فصاحب الدراجة البخارية سبقك واعترف بكل شيء..والآن تخسر يا نادر باشا..تلك هي الدنيا..لا أحد يربح على طول الخط.

كنتُ مصعوقًا لما أستمع له..محال أن أُصدِّق أي شيء مما يقول..صرختُ فيه بقوة متناهية وبغضبٍ شديد:

-كيف تصدقون مجرمًا مثله متهمًا بقضية اغتيال وتكذبونني؟

حينها قَذَفَ مجموعة الصور الظاهر بها بالفيوم أمام عينيَّ على المكتب..شُلَّ لساني..لم أستطع النطق بأي كلمة حينها..الصداع يتزايد برأسي..أتمنى الصراخ بأعلى صوتي..تبًّا لمعاناتي! وقعتُ بلغزٍ يلتهمني..إن صَحَّ ما استمعتُ له للتوّ فهذا يؤكِّد مرضي..والنافي الوحيد له مات..قُتل الليلة..فَريد الدمراوي مات ودُفنت معه حياتي..سأعيشُ والحيرة تقاتلني ليل نهار دون أن أعرف هل صاحب القناع حقيقي أم أنه أنا كما قال لي عزيز ومجدي؟

تنهدتْ شهرزاد مشفقةً على حالي..كنا بالغرفة نفسها بذلك القصر المهجور..الصقيع يزداد..أكاد أتجمَّد....اقتربت مني وربتت على وجهي بحنان شديد..مدَّت يدها ونزعت تلك القيود عني..سالت الدموع من عينيَّ حينها ناظرًا إليها..ابتسمتْ لي:

-فليكفِ ما تشعر به.

-مَنْ أنتِ؟

-قلتُ لك لا أسئلة هنا.

-فلتساعديني على الهروب إذًا.

ضحكت.

-تهرب؟ أتعتقد حقًّا أنك تستطيع الهروب؟

-سأخرجُ كما دخلتُ.

قلتُها مُتجهًا ناحية الشباك فوقفتْ بطريقي:

-إن خرجت من هنا..ستنهشك تلك الوحوش.

كانت أصوات الكلاب الموحشة تتعالى مثيرةً الرعب بنفسي أكثر وأكثر.

-لا مانع من المحاولة.

-استمع لي جيدًا..إن مت هنا ستموت هناك على طاولة العمليات بالمستشفى.

- أنا خائف.

-الخوف بداية للتوبة..والتوبة حلم بعيد للعاصي.

نظرتُ إليها والدموع بعينيَّ:

-لم أقتل الضباط ولم أشترك بقتلهم.

-أمتيقنٌ من ذلك؟

- لم أعد مُتيقنًا من أي شيء..هل أنا مريض حقًّا أم لا؟ لا فرق بيني وبين ذلك المقتول فريد الدمراوي..كلانا ميت إكلينكيًّا..أتنفس حقًّا لكن دون حياة..صرتُ ضعيفًا مكسورًا..أضعف ما بالكون، ريشة يتقاذفها الهواء لا تملك أيَّ شيء، لا تستطيع الهروب ولا ترى لطريقها نهاية، قليل من المطر يغرزها بالطين، وقليل من الهواء يحملها من مكان لآخر دون إرادتها..دون إرادتي.

-أنتَ قتلتَ هؤلاء الضباط.

وكأنها تحاصرني بأسئلتها..صرختُ:

-لا لم أقتلْهُم.

-لكنك غير متأكد.

-لا لم أفعل ذلك.

-وما يدريك؟

-أنا لستُ خائنًا.

-ولكنك قتلتَ غيرهم بظُلمك.

-كنتُ أمارِسُ عملي.

-عملك القتل؟

-فليكفِ.

-لكُلِّ ظالمٍ نهاية بيد الأظلم منه وهكذا هي..دائرة لا تنتهي.

-مَن الأظلم؟ مَن؟ فريد الدمراوي المقتول؟ أم فتحي عبد العزيز أم من؟ من؟ مَن صاحب ذلك القناع؟ مَن المسئول عن كل ما يحدث لي؟

-ربما صاحب القناع هو أنتَ فعلًا.

صرختُ بوجهها:

-لا..لا يمكن ..وتلك التسجيلات الدليل على وجوده.

-ربما أرسلْتَها لنفسك.

من الجائز أن تكون أنت المجرم الخفي ذا القناع..تنتقم من نفسك، تنتقم من طغيانك..قاضٍ صنعته بخيالك ليُحاكمك.

-أنا لا يُحاكمني أحد.

كنتُ عصبيًّا للغاية....اقتربتْ مني ونظرت بعينيَّ:

-أما زالت الغمامة قوية لهذا الحد؟

-أي غمامة؟

-تلك التي تغطي عينيك؟ إنذارات عدة وأنت لا تسمع، صفعات متتالية وأنت لا تفهم، تعدو بأسرع ما لديك بطريق الشَّرِّ دون أن تحيد عنه لحظةً..قِفْ لحظة، اسمع تلك الإشارات..افهم..حاول قبل فوات الأوان.

-لا أفهم ما ترمين إليه؟

-إن كان عقلك لا يفهم فاستفتِ قلبك، لا تكن أعمى القلب والبصر، ألم تفكر يومًا ماذا ستقول لربك؟ بماذا ستدافع عن آثامك؟

-سأخبره أنني لستُ بمفردي..لستُ فريدًا بنوعي، سأقول له أنت خلقتنا هكذا..قاتل ومقتول..هابيل وقابيل، وهابيل اختار الموت وأنا لن أموت..لن أموت، كُثُر بالدنيا لهم مبادئي نفسها..لا أختلف عنهم شيئًا.

-لا تظلم الدنيا معك.

-أنا لستُ ملاكًا أو نبيًّا..أنا إنسان أعيشُ بغابةٍ مَن يغفلُ فيها لحظة تنهشه الذئابُ دون رحمة، لا رحمة بالغابة..لا رحمة.

-أنت مخطئ..مَن علَّمك هذا؟

-الدنيا.

-قلتُ لك لا تظلم الدنيا معك.

قالتْها صارخةً بوجهي..لحظات من الصمت بيننا..لا صوت حولنا سوى صوت الرياح المستمر الممتزج بنباح تلك الوحوش بالأسفل..تنهدتْ شهرزاد واقتربت مني:

-أخبرني..أتلك كانت النهاية؟

-لا، ما زال للقصة بقية.

-كيف خرجت منها؟

ابتسمتُ ساخرًا:

-كما خرجتُ قبل ذلك..كلمة السر..جدي عبد الغني..الباشا. أثبتَ أن الصور مفبركة أو بمعنى أصح استطاع تبديل صور أخرى مفبركة بحِرز الصور..وخرجتُ منها بسهولة بعد يومين.

-وقضية الضباط؟

-لم يكن هناك أي دليل سوى اعتراف فتحي عبد العزيز المختفي باليوم نفسه بعدما أمر الوزير بإخلاء سبيله ووضعه تحت المراقبة وطبعًا هرب من مراقبتهم تمامًا..ومن ثم يعدُّ اعترافه باطلًا أمام محضر القضية الوارد اسمه فيه كونه عنصرًا ضالعًا بالقضية.

-أبهذا اليُسر انتهى الأمر؟

-لا..بإقالة وزير الداخلية بعد اتهامه بمحاولة تلفيق تلك التهم لي..هذا ما نُشر بكل وسائل الإعلام تحت إشراف الباشا ..وبتحويل ملف القضية للقضاء العسكري، وانتهت علاقتنا بالقضية للأبد.

ابتسمت شهرزاد ساخرةً:

-مثل كل مرة..ظُلم يتبعه ظلم..ولا عِقاب لجرائمك.

نظرتُ إليها:

-كانت المرة الأخيرة.

-كيف؟

اغرورقت عيناي بالدموع وأنا أتذكَّر تلك اللحظات القاسية المطبوعة بذاكرتي..وبلحظة تغيَّر كل شيء من حولنا وسافرنا عبر الزمن مرة أخرى..كنا بمكتب جدي بالقصر..كان ينتظرني بعدما حصلتُ على الإفراج وفور وصولي طلب الانفراد بي..دخلتُ لمكتبه ووقفتُ أنتظر حديثه غير المتوقَّع..نظر ناحيتي بعينين ممتلئتين بالغضب الشديد:

- مجدي أخبرني كل شيء.

اقتربَ مني وأمسك كتفيَّ بقسوة شديدةٍ:

-لن أسمح لك بهدم ما بنيتُه طوال عمري، غدًا في الصباح تتقدَّمُ باستقالتك دون نقاش، ولتعلم..حمايتي لك ستتوقف باللحظة التي أشعرُ بها بأنك تؤذيني، بل على العكس سأكون أول أعدائك، مفهوم؟

-أهذا كل ما يهمُّك؟

-أي فضائح منك مرة أخرى سأرميك بالسجن.

-ألم يقل لك مجدي إنني مريض وأحتاج للعلاج.

قلتُها ساخرًا.

- أنت حُرٌّ..تُعالج..تظلُّ مريضًا..أنت حُرٌّ، لكن لا تهدم ما أبنيه..لن أسمح لك يا ابن رضوى.

-منذ زمن لم تقل لي هذه الكلمة.

كان ثائرًا للغاية..عصبيًّا..ذكَّرني بتلك المرة التي حبسني فيها بغرفة القصر المدفون فيها والدي..تلك الغرفة الوهمية كما أفهمني هو وأقنعني بعد ذلك..أجابني بحدةٍ:

-لأنك كنت بطوعي..لم تخرج منه قط.

-يا ليتني خرجتُ مِن وقتها!

حينها دفعني بقوة فوقعتُ على الأرض تحت قدميه..نظرات الشَّرِّ بعينيه لا أنساها مطلقًا:

-اسمع..إياك وغضبي..هو ليس ببعيد عنك، يُمكنني نسفك من الدنيا بأكملها..اعقلْ وابتعدْ عن طريقي..مفهوم يا نادر؟ مفهوم؟

كانت شهرزاد تُتابِعُ ذلك متأثرة..نظرتُ إليها وأنا تحت قدميه..تلاقت أعيننا..عين ترتوي من الذل والهوان بتلك اللحظة وعين تملؤها الشفقة..نهضتْ شهرزاد واقتربت مني بمكتب الباشا..مدَّت يدها لي..مددتُ يدي لها على استحياء..وما إن تلامست أيدينا حتى تغير المكان من حولنا..كنا بالغرفة نفسها بالقصر القديم..كنتُ مرتميًا على الأرض..نهضتُ وأنا أصِفُ لها ما أشعر به بتلك اللحظة:

-قطار لا يتوقف، مَن يقف أمامه يموت..وفجأة سائق القطار يتركه ويقفز بمنتصف الطريق، يُقرِّر رفع يده عني، وبقيتُ أنا بمفردي..محكوم عليَّ بالعذاب..بالحيرة وكأنني أمشي على حبال بالهواء..طريق طويل دون نهاية، لا أقوى على الوقوف بمكاني، ولا أستطيع العودة، محكوم عليَّ أن أكمل للنهاية المجهولة..الهاوية. وتقدَّمت باستقالتي..وغاب عني كل شيء اعتدته: السلطة والجاه والعقل..نعم غاب عقلي، جسد بلا روح..قلب بلا حياة..أنفاس مكتومة تحت الماء، ويأس من الخروج..الخروج من المأزق..وكأنني أنتظر الموت بأي لحظةٍ.

مدَّت شهرزاد يديها وربتت على وجهي بحنان..كنتُ أرى بعينيها شفقة تدفئني..بكيتُ وسالت دموعي ناظرًا إليها:

-أحتاجُ لحضن أمي.

حينها جذبتني لحضنها..يا لهذا الدفء العجيب بذلك المكان الشديد البرودة! غِبتُ في حضنها كثيرًا دون كلمةٍ واحدة..دون أن أفكر بها أو بمن تكون..لحظة دفء نادرة بهذا الكابوس المخيف..تمنيتُ لو بقيت هكذا حتى ينتهي مفعول المخدر.

رنين هاتف يجذب انتباهي..نظرتُ لها متعجبًا..ابتسمتْ لي:

-أكمل قصتك.

-فلأبقَ بحضنِك قليلًا، أرجوكِ.

-أكمِلْ قصتَك.

وابتعدتْ عني وعاد الصقيع فجأة..رنين الهاتف مستمر..مددتُ يدي بجيبي وأخرجتُ هاتفي وأنا لا أفهمُ شيئًا..أنظرُ لشاشته، مكتوب عليها رقم مجهول..نظرتُ إليها:

-أجبْ.

-كيف ذلك؟

- الآن أعرفك جيدًا..أستطيعُ توقُّع ما تفكر به، أنت تنتظره وتنتظر الخطوة القادمة. تُريدُ أن تعرف النهاية..ستترك نفسك للتيار، لن تقاوم ولن تفكر بالتغيير..أنتَ الآن أرض خصبة لأوامره ورغباته لحين إشعار آخر..وسيبقى سؤال واحد يُحيِّرك: ذلك الشخص ذو القناع..هو أنت أم شخص آخر؟ الأيام كفيلة بتلك الإجابة..أجِبْ اتصاله..أجِبْ.

مَدَدْتُ أصبعي وضغطتْ على زر الإجابة..بلحظتها تغيرت الإضاءة من حولي..كنتُ بالغرفة نفسها ولكن وسط إضاءة شديدة تملأ المكان..برقت عيناي حينما رأيتُ مجموعة من الأشخاص يقفون بنصف دائرة على طول الغرفة..أعدادهم كبيرة ويرتدون جلاليب بيضاء اللون..لا أدري هل هم مصدر الإضاءة أم شيء آخر؟ كانت بأيديهم دفوفٌ يقرعونها بإيقاع ثابت..ويهتزون برؤوسهم وكأنهم بحلقة ذِكْرٍ..ينطقون بكلمة واحدة:

-الله..الله..الله.

كانت وجوههم بيضاء، وجميعهم من ذوي الذقون البيضاء الكثيفة..يتوسطهم رجلٌ عجوز ينشد:

-الصلاة والسلام عليك يا سيدنا يا رسول الله..الله..الله..يا رسول الله.

وباللحظة نفسها بالجهة المقابلة بالغرفة أرى زاوية بصومعتي..شقتي الصغيرة تداخلت..وكأن الزمان والمكان هنا يتداخل بكل شيء..جاء صوت الشخص ذي القناع عبر الهاتف وشهرزاد تتابعني بعينيها:

-مرحبًا بك أيها المختار..خطوتُ الآن أولى خطواتك نحو التوبة، تبقى لك خطوة أخرى وتصبح نقيًّا كالثوب الأبيض المُنقَّى من الدنس، تخلَّصتَ مِن هؤلاء الظلمة الكافرين بتقديمك تلك الاستقالة..أنتَ الآن تستقبل نورًا يحارب لدخول قلبك..فساعِدْه ليتملك قلبك..اذهبْ إلى شقتك الصغيرة..صومعتك كما تحب أن تناديها..وشاهد ذلك الشريط المُسجَّل على جهازك وسأعاود الاتصال بك حينها.

وانتهت المكالمة، ولكن ما زال من حولي ينشدون ويتمايلون..ما زالت دفوفهم تدقُّ ضرباتها وتُدخِلُ الرهبة لقلبي..شهرزاد تتابع..خطوتُ مترددًا ناحية صومعتى بالجانب الآخر بالغرفة..مددتُ يدي لأرى ما بداخل الشريط المسجل..أدرتُه..لقطات متتالية لي وأنا أُعذِّبُ متهمين كُثُرًا..مَنْ كان يصورني؟ برقت عيناي..أأنا مُختَرَق لهذا الحد؟ تبعه بعض اللقطات وأنا بالفيوم في أثناء تجارة الآثار..فيديو مسجل لن يطعن فيه أبدًا كالصور..وتبعه صور الطِّبِّ الشرعي تثبت أنني كنتُ مخمورًا بتلك القضية القديمة لقتل بائع سوق العتبة..هذا الشريط المسجل ما هو إلا شهادة وفاتي..لن يُطعن فيه أبدًا وبالأخص بظروفي الآن وقد رفع الباشا جدي كل حمايته عني..أصبحتُ شجرة ساقطًا أوراقها يقتلعها الريح ويقذفها أينما يُرِد..نظرتُ لشهرزاد ورأيتُ الدموع بعينيها..الإنشاد حولي يزداد:

-الله..الله..الله.

--الصلاة والسلام عليك يا سيدنا يا رسول الله. الله..الله..يا رسول الله.

رنَّ هاتفي مرة أخرى..رقم مجهول..جاء صوته عبر الهاتف مجددًا..ذلك الحاكم سيطرته علي الآن:

-لا تفكر في الارتداد..فإما تكون معنا أو محكوم عليك بالإعدام قُضي الأمر..والآن عليك التطهُّر والاستعداد لعمليات تكتب اسمك بحروف من نور بتلك الدنيا الظالم حكامها ٧ ليالي..تبيتُ بمسجد أعطيك عنوانه..لا تخرجُ منه مطلقًا إلا بعد السبع ليالي..ودِّع حياتك الراهنة..فأنتَ على مشارف الخلود، فلتعتكفْ هناك وتخلَّص من هاتفك الآن ودنياك السابقة.. انسَ كل شيء..أنتَ تُولَد من جديد، وباليوم الثامن ادخل أول مرحاض بالمسجد بعد أذان الفجر مباشرةً، ومُدَّ يدَك بخزان المياه، ونفذ ما ستقرأ بالحرف الواحد..أهلًا بك في دنيانا أيها المختار..

وأغلقَ الهاتف..أخرجتُ الأسطوانة المُسجَّلة من الجهاز ومزَّقتُها..مزقتُ هاتفي تحت قدميَّ..شهرزاد تنظر لي مشفقةً على حالي..لا اختيار لي..عليَّ مطاوعته للنهاية..عليَّ مواجهة قدري لآخر لحظة..نظرتُ تجاه هؤلاء المتمايلين بذكر الله....اقتربتُ منهم..نظرتُ بوجوههم البيضاء..كم أتمنى أن أصبح مثلهم! يا ليتني ولدتُ فقيرًا! يا ليتني ما كنتُ! سالت دموعي بحورًا من الدموع لا تنتهي..يا ليت دموعي تغسل تلك الذنوب والآثام! مِلتُ برأسي معهم واقفًا بينهم..أُداري جبالًا من الذنوب بضياء وجوهِهم..غِبتُ في سَكرات حُبِّهم لله.

-الله..الله..الله..الله.

ومرَّت الليالي السبع..أسعدُ سبع ليالٍ بحياتي..استشعرتُ بهذا المكان عشقًا كان غائبًا عني..بصرف النظر عن مأساتي، ولكن هؤلاء العاشقين لله يكفي أن تقترب منهم لتشعر بدفءٍ عجيبٍ يتسلل لنفسك..تعلمتُ بهذا المكان كيف أصلي لأول مرة بحياتي..سجدتُ بين يدي الله ودموعي أنهارًا..فتحتُ كتاب الله وقرأتُ منه آيات لأول مرة..أدركتُ كم كنتُ تائهًا بعيدًا عن طريقه المستقيم! حينها لم يعد يهمني: أأنا ذلك الشخص ذو القناع أم آخر؟ النتيجة واحدة..هو إرشادي لطريق الله..ولدتُ حقًّا من جديد.

شهرزاد تقفُ بالجانب الآخر تُتابِعُني..أتمايلُ مع المنشدين أحيانًا..وأصلي أحيانًا..وأقرأ القرآن أحيانًا..وكأنني بذات المسجد مخترق الزمن..وتوحدتْ شخصية الراوي مع مَن يروي عنه..صوت أذان الفجر:

-الله أكبر ، الله أكبر

الله أكبر ، الله أكبر

أشهد ألا إله إلا الله

أشهد ألا إله إلا الله

أشهد أن محمدًا رسول الله

أشهد أن محمدًا رسول الله

حي على الصلاة، حي على الصلاة

حي على الفلاح، حي على الفلاح

الصلاة خير من النوم..الصلاة خير من النوم

الله أكبر، الله أكبر

لا إله إلا الله.

أذان فجر اليوم الثامن..أغلقتُ مصحفي ونهضتُ مُتوجِّهًا للمرحاض الأول بالمسجد..مددتُ يدي بخزان المياه..حقيبة محكمة الغلق..أخرجتُها وفتحتُها بها هاتف صغير مشحون لآخره وورقة مكتوب بها أسماء وعناوين ومواعيد..ورزمة من المال حوالي عشرة آلاف جنيه..وسترة مضادة للرصاص..وساعة يد..رنَّ الهاتف حينها..رقم مجهول..أجبْتُه:

-هنيئًا لكَ..أنت الآن كفَّرتَ عن كل ذنوبك وعليك تنفيذ أوامرنا بالحرف الواحد لتنشر العدل بهذا البلد الكافر..فميزان العدل مائل، ولن يُعيدَه لأصله سوى مَن هم مثلك..وتذكَّر إن ارتَدَدْتَ عنا فمصيرُك الموت بسجونهم هم وليس بأيدينا.

-سأفعلُ ما تأمرني به.

-رائع..اخرج الآن مِن المسجد واشترِ بدلةً أنيقة، وكُن حليق الذقن، واحتفظْ بتلك الورقة التي معك جيدًا، ونَفِّذ أول أمرٍ بها على الفور.

-ما هذه الورقة؟

-تلك عملياتك لتحقيق بعض العدل وقتل الظلم بعُقر داره، لا تخفْ نحن نحميك جيدًا، ولن تقع بشِرَاكِهم ما دمتَ تُنفِّذ ما آمرك به بالحرف.

نظرتُ بالورقة مرة أخرى بتركيز:

-ما هذه الأسماء؟

-قائمة اغتيالات مطلوبة.

-قتل؟

-تطهير..ليس كل قتل جريمة. هكذا فهم النبي موسى بعد فوات الأوان، وتعلَّم درسَه من الخضر، فعليك تَعلُّم الدرس قبل فوات الأوان أيها المختار..خِفتَ؟

كنتُ صامتًا لا أردُّ..أستمعُ إليه دون أي ردِّ فعلٍ:

-لا تخفْ، عليك شراء قناع يُشبه ذلك القناع الذي أرتديه، قناع فانديتا..نَفِّذ به عملياتك حتى لا يكشفك أحدٌ، ما عدا أول عملية.

-وما أول عملية؟

-اقرأ الاسم جيدًا.

قرأتُ الاسم وبرقت عيناي..للتَّوِّ عرفتُ من هو..اللواء أركان حرب عبد الوهاب الضو..مدير المخابرات الحربية.

واستمر الضاربون بدفوفهم يقرعونها بالإيقاع نفسه..وما زال المتمايلون برؤوسهم ينشدون..وشهرزاد تتابع عن كثب تلك الأحداث المثيرة بقصتي:

-الله..الله..الله..الله.

اغتيال

(الرابع من مايو –القاهرة)

يوم ينتظره الجميع..منذ أكثر من ثلاثة شهور يخططون لهذا اليوم الحافل..اجتمع مجموعة من الفنانين الشباب، وقرروا إقامة حفل على أعلى مستوى تحت عنوان مصر ضد الإرهاب..حفل يصدر صمودهم وقوتهم ضد أي شخص يفكر بكسرهم إضعافهم..صوت فناني مصر الشباب لا بد أن يصل للعالم أجمع..لا للإرهاب..ومهما تحاول الأيدي الخربة الهدم فلن يخافوا ما حيوا..سيظلون يدًا واحدة بكل ما يملكون.

لاقت فكرتهم إعجاب الجميع وتم اختيار الرابع من مايو موعدًا لحفلهم الضخم بدار الأوبرا المصرية أمام كاميرات العالم أجمع، ليكون حفلهم بحضور كل قيادات الدولة وعلى رأسهم رئيس الجمهورية..استعدادات ضخمة لهذا اليوم وتدريبات شاقة..وأصبح كل شيء جاهزًا للعرض..استعراض فني رائع بعنوان مصر ضد الإرهاب..ساعتان من الاستعراض المبهر والغناء بحب بلدهم على وشك الخروج للنور..سيراهم العالم بأسره..استعداد أمني مهيب بمحيط دار الأوبرا..تنتشر قوات الشرطة والحرس الجمهوري بشكل مُوسَّع..فكرتُ كثيرًا قبل التوجُّه إلى هناك..تردَّد ذلك السؤال بعقلي مرارًا وتكرارًا:

-هل هناك مَفرٌّ من ذلك؟

للأسف لا مفرَّ ممَّا أنا فيه سوى حبل المشنقة..وُضِعتُ باختيار صعب بين الموت والحياة..الحياة فوق دماء الآخرين أو الموت رافضًا قتلهم..واخترتُ الأولى..اخترتُ أن أصير مصاصًا لدمائهم لأمنح الحياة مهما تكن مؤلمة..فأنا لا أرِيد الموت أبدًا..ولكن هل حقًّا كل هذه الأسماء تستحق الموت؟ هل استشرى الظلم بنفوسهم حقًّا؟ رأسي سينفجر من التفكير..بقايا ضمير حي يلح داخلي بالرفض، ولكن لا محالة سأقتل بيديَّ ما تبقَّى من ضميري..سأنجو بنفسي مهما يكن..أنا ومن بعدي الطوفان..نفذتُ ما طلبه مني ذو القناع بالحرف الواحد..وهأنا أقفُ على بوابة دار الأوبرا المصرية ببدلة راقية حليق الذقن..أخرجتُ بطاقتي الشخصية لتُدوَّن بياناتُها على البوابة ووجود مكثف للأمن..ابتسم لي الضابط المشرف على أمن البوابة:

-تفضَّل يا سيادة العقيد.

ما زالت مهنتي كما هي ببطاقتي الشخصية..دخلتُ كأي شابٍّ سيحضر الاحتفال الفني الضخم..خطوتُ بقدميَّ تجاه المسرح الكبير وأنا أُتابِعُ أفراد الأمن بكل مكانٍ، وصوت الشخص ذي القناع يتردَّد بأذني وكأنني إنسان آلي يُحرِّكُه هو عن بُعدٍ:

-ستدخل من الباب كأي شابٍّ يريد حضور الحفل، ومهنتك المسجلة ببطاقتك ستسهل عليك ذلك، تحرَّك بثقة شديدة..وادخُلْ إلى قاعة الحفل بعد خضوعك للتفتيش، تذكَّر جيدًا أن كل شيء هناك مرصودٌ بكاميرات بكل مكانٍ، تصرَّفْ على طبيعتك.

وصلتُ لكرسي بالمسرح يبتعد عن مقدمته بمسافة كبيرة، ولكنه بالمكان نفسه المُخصَّص للشخصيات المهمة، فمهنتي تحتمُ عليهم ذلك..نظرتُ بساعتي..الساعة الحادية عشرة صباحًا..ما زال هناك ساعة لبدء الحفل..لم يصل بعد أيٌّ من قيادات الدولة..مكثتُ بمكاني صامتًا هادئًا نصف ساعة بأكملها..وبدأتْ بعدها القيادات بالوصول واحدًا تلو الآخر..كنتُ أراهم من مكاني..وأرى حراستهم المُشدَّدة..المسرح به عدد كبير من الضباط بكل جوانبه للتأمين..مهمة تكاد تكون مستحيلة..سأقتنص رجلًا من رجال الدولة بحضور الرئيس وسط كل هذا التجمُّع الأمني..وكأنني سأقتلُ الأسد بغابته.

سريعًا مرت الدقائق..وقف الجميع يستقبلون شخصًا ما..إنه رئيس الجمهورية..دخل بصحبة عدد كبير من حُرَّاسه والابتسامة على وجهه..أشار إلى من بالقاعة وهلَّلوا له كثيرًا، وكأنه نجم سينمائي يحبونه بشدة..كان بصحبته الهدف المنشود..اللواء أركان حرب عبد الوهاب الضو..جلس بجواره..تبًّا لهذه المهمة المستحيلة! المسرح ممتلئ عن آخره بالشباب..نظرتُ بساعتي..باقي خمس دقائق على بدء الحفل..حان الوقت الآن..نهضتُ باتجاه دورة المياه بالجهة اليُسرى..أوقفني أحدُ الضباط وأنا بالطريق:

-إلى أين؟

-دورة المياه.

-تفضَّل.

-شكرًا.

صوتُه يتردَّد بأذني يُحرِّكُني:

-قبل الحفل بخمس دقائق تحرَّك لدورة المياه بالجهة اليُسرى..ستجد ساحة بمنتصفها تلك الدورة، وبآخرها باب آخر يقف عليه ضابط حراسة..هذا الباب هو باب كواليس المسرح للدخول والخروج لدورة المياه نفسها..لا تنسَ كل شيء هنا مُسجَّل بكاميرات مباشرة، ادخل أول مرحاض على يمينك..ستجد بخزان المياه شيئًا يخصُّك.

مددتُ يدي أبحثُ فوجدتُ حقيبة بلاستيكية مُحكمة الغلق..فتحتُها ووجدتُ بداخلها مسدسًا ناريًّا كامل الطلقات، ومعه كاتم للصوت..كنتُ متعجبًا للغاية من بداية تنفيذي لتلك العملية

المستحيلة عن كيفية دخول هذا السلاح لهذا المكان بحفلٍ كهذا..هذا يعني أنهم لو أرادوا زرع قنبلة هنا لن يمنعهم شيء..ابتسمتُ ساخرًا هامسًا لنفسي:

-وكيف لا؟ ومؤكد هناك مَنْ هم مثلي يسيطرون عليهم وقد يكون بعضهم ما زالوا بالخدمة..هذه هي الحقيقة القاسية..لا ثقة بأي شيء حولي..من الآن كل الناس خونة ينقصهم فقط فرصة لذلك..نظرتُ بساعتي وكلماته بأذني:

-أَخْفِ ذلك السلاح جيدًا ببدلتك..تأكَّد أن لا أحد يتابعك..اخرجْ واثق الخطوة من دورة المياه في تمام الساعة الثانية عشرة إلا دقيقة واحدة..التزمَ جيدًا بالتوقيت فلا مجال للخطأ، توجَّه للخارج فهذه الساحة بها باب للخروج..وبتلك اللحظة سينقطع التيار الكهربائي..إنها لحظات قليلة للغاية بين انقطاعها وعودتها مرة أخرى بالمولد الكهربائي الضخم بالمسرح.

كنتُ أدركُ حينها أنه لا مجال للفشل..وانقطع التيار عن كل كاميرات المراقبة..وسيعرف الجميع بعد تفريغها بوجودي، ولكنني خرجتُ، هكذا سيظهر لهم بالكاميرا..خرجتُ قبل بدء الحفل..هُرعت للخلف بسرعة خاطفة باتجاه باب الكواليس..لم أعطِ ضابط الحراسة فرصةً..خبطة قوية على رأسه أفقدَتْهُ الوعي وحملته للداخل وأغلقتُ الباب بلحظة عودة الكهرباء ذاتها مرة أخرى.

-بعد دخولك للكواليس اليسرى..ستجد الظلام يعمُّ المكان هناك.. فالاستعدادات على أشُدِّها لبدء العرض بعد أقل من دقيقة واحدة..ستستمع حينها لموسيقى السلام الوطني..أُطفئت الأنوار ووقف الجميع تحية للسلام الوطني..جميع المؤدين بالعرض يقفون على الجانب الأيمن يستعدون للدخول..أمامك غرفة على يسارك..ارتدِ قفازك سريعًا، فعليكَ ألا تتركَ بصماتك هنا..افتح الغرفة، وادخل وجَرِّجر ذلك الضابط للداخل، ستجد أمامك زيَّ جنود الأمن المركزي وحذاءً واسعًا..لا تخلع ثيابك، ارتدِه فوقها، فهذه الأزياء مُصمَّمةً لسرعة تبديلها، وأغلق السَّحاب الأمامي..اخلع حذاءك وارتدِ الآخر..هيَّا سريعًا ارتدِ الخوذة..الآن اختفتْ شخصيتك تمامًا..زيادة في الأمان. ارتدِ لثامًا تحت الخوذة..لا تَخَفْ..لن يلحظوه ما دامت مهمتك خاطفة..أسرع من عقولهم..والآن تبقَّى شيء واحد لا تنسَهُ.

وقفتُ ممسكًا المسدس وصوَّبته لرأس ذلك الضابط وقتلتُه دون رجعةٍ..ماحيًا أيَّ احتمال للخطأ..حينها استمعت لبدء الاحتفال..أستمعُ لصيحات الأمن المركزي على موسيقى حماسية..يبدو أن الاستعراض بدأ..خرجتُ ممسكًا سلاحي ونظرتُ مُتلصصًا من خلف الستار..مجموعات كبيرة من الجنود تتحرَّك بشكل استعراضي مِن يمين المسرح لناحيتي..هذه هي اللحظة الحاسمة..يلتفون وصيحاتهم تتعالى..انضممتُ إليهم..عيناي ترصدان هدفي بدقة..قلبي يكاد يتوقف..وبلحظة واحدة وأنا بوسطهم بمنتصف المسرح أتحرَّك مثلهم رفعت يدي وأطلقتُ رصاصتين برأسه..واغتيلَ مديرُ المخابرات الحربية الجالس بجوار رئيس الجمهورية..حالة من الهياج الشديد.

كانت الإضاءة تتلاعب مع الاستعراض..العقول لا تُصدِّق ما حدث..هرج ومرج بكل المسرح..الجميع يجري، والحراس يُهرعون لحِمايةِ الرئيس والتيقن من نجاته..ومحاولة

إسعاف يائسة لمدير المخابرات..دقيقة واحدة كانت كفيلة بخروجي من هذا المكان..عدتُ سريعًا من الغرفة نفسها المقتول فيها الضابط، وخلعتُ سُترتي وخوذتي ولثامي، وارتديتُ حذائي..وتركتُ المسدس بجوار جثته..وقفزتُ من شباك تلك الغرفة إلى خلف المسرح..لا أحد هناك..خلعتُ القفاز ورميته..أشعلتُ سيجارتي..صوت الإسعاف وهياج الأمن وخروج الناس مرعوبين..وسريعًا انضممتُ إليهم وكأنني كنتُ بالخارج..ورسمتُ ملامح الصدمة على وجهي..لم يستطع الأمن منع الناس المرعوبين..حاول منع بعضهم من الخروج دون جدوى..لحظات أعرفها جيدًا..حالة من الهلع الشديد لن تستطيع التحكم فيها وبالأخص حينما تدرك أن المقتول رمز من رموز الدولة..ينفرط منك عقد الأمان ولو دقائق..كانت كفيلة بخروجي..خرجتُ كما دخلتُ ولكن مع فارق كبير..نفذتُ أول عملية بنجاح منقطع النظير..أصبحتُ قاتلًا مأجورًا.

صوتُهم ما زال يُطاردُني..وجوههم البيضاء تذبح عتمتي..هؤلاء المتمايلون برؤوسهم ذِكرًا لله:

-الله..الله..الله.

-الصلاة والسلام عليك يا سيدنا يا رسول الله.

شهرزاد تنظر لي بعينين يملؤهما الكره والاتهام..ما زلتُ بتلك الغرفة..ما زلتُ بهذا الكابوس المستمر..نظرتُ إليها مدافعًا عن نفسي:

-لم يكن أمامي خيار آخر.

-توبة زائفة.

-أعرف ذلك.

-يا لخسارتك!

-لا تعذبيني أكثر مما أنا فيه.

-ستتحمَّل وزر كل هذه الدماء.

-فليكفِ..أرجوكِ.

كنتُ أصرخ بها وبهم..توجهتُ ناحيتهم وهم لا يسمعونني..فقط هم مستمرُّون بإنشادهم:

-أنا لستُ منكم..وأنتم لستُم منهم، هناك فرق بين معتنقي الدين ومدعيه، هؤلاء قتلة..لماذا تصمُّون آذانكم عنهم؟ دافعوا عن أنفسكم..اخرجوا للناس وأخبروهم الحقيقة، هؤلاء ليسوا منكم.

لا يجيبون..مستمرون بالتمايل برؤوسهم دون جدوى..صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فهم لا يفقهون. خطرٌ يتزايد وهم صامتون..يذكرون الله بمعزل عن الجميع..ويتركون المحاربين للدين والمدعين

كذبًا بإعلاء رايته يتصدرون المشهد ليفرَّ الجميع مِن الدين..دين الدم على حدِّ قولهم..ألا يفقهون؟ تلك حرب ضروس عليهم التصدي لها ولهم.

-الله..الله..الله.

--الصلاة والسلام عليك يا سيدنا يا رسول الله.

صرخت فيهم:

-سينقرض الدين الإسلامي بهذه الطريقة، الناس يحسبونهم عليكم..أفيقوا.

اقتربت مني حينها شهرزاد وهمستُ بأذني:

-سيعود الإسلام غريبًا كما بدأ.

نظرتُ إليها مُتعجبًا صارخًا:

-مَنْ أنتِ؟

-مَنْ مِثلك لا يحقُّ لهم طرحُ أي أسئلة..ولا يحق لهم الانتقاد.. فقط ابحثْ عن التوبة قبل فوات الأوان.

-كيف؟

-أنت تعرف كيف.

-لم تنتهِ قصتي بعد.

-فلتُنْهِهَا إذًا لقد سئمتُ.

-أرجوكِ، اصبري حتى نهايتها.

-حسنًا..أخبرني إذًا..مَن كان بباقي تلك القائمة؟

-قائمة الاغتيالات؟

-نعم.

-سياسيين وصحفيين ورجال أعمال، كلهم يجمعهم شيءٌ واحد.

-ما هو؟

-التعاون مع السلطة الحاكمة ووصف الإخوان بالإرهابيين.

-كل شيء باتَ واضحًا الآن.

-صراع على السلطة.

-نعم..هو كذلك..صراع تحت عباءة الدين.

-وكنتُ أنا يدَهم التي تبطش وتقتل.

-بالقناع نفسه.

-نعم قناع فانديتا..اشتريته ونفَّذتُ به باقي العمليات.

-أتعرف المغزى مِن ذلك؟

-تسجيلات عدة للحظات قتلهم نُشرت على وسائل التواصل الاجتماعي، وتداولها الإعلام عن صاحب القناع القاتل لهم.

-مَن كان يُسجِّلُها؟

-لا أدري، مِن الممكن أن تكون كاميرات مراقبة معتادة فهم شخصيات عامة، كل ما كنتُ أفعله هو تنفيذ أوامره بالحرف مرتديًا ذلك القناع.

-وأصبح فانديتا رمزًا لرعبهم.

-نعم..بحثوا عن صاحبه بكل مكان دون جدوى.

-أنتَ كنتَ مع الطرفين..هذه حقيقتك.

-ماذا تقصدين؟

-بطشتَ وقتلتَ حينما كنتَ مع السلطة الحاكمة، وبطشتَ وقتلتَ أيضًا ضدهم حينما استخدمك أعداؤهم، هل هناك نهاية لتلك القصة؟

سألتني بحدةٍ شديدة..فأجبتُها متوترًا:

-نفَّذتُ كل القائمة بنجاحٍ منقطع النظير، وجاءني آخر اتصالٍ منه، أتذكَّره جيدًا بكل كلماته:

-"هنيئًا لك أيها المختار..لقد نفَّذتَ كل المطلوب بنجاحٍ شديدٍ، أُقرِئُكَ السلام، وأتمنَّى لك حياة هادئةً سعيدة..فلتبدأْ مِن جديد، وأعدُك ألا أظهرَ بحياتِكَ مجددًا".

-وانتهتْ تلك التجربة القاسية..تركني ممزقًا..عشرة أيام من الغربة بداخل دوامة قاسية..ألهثُ بدروبها قاتلًا محترفًا.

-عدتَ؟

-نعم، عدتُ لقصر جدي..كل شيء كما كان، نظرات القلق بعيني زوجتي نانسي والغضب المكتوم بعيني الباشا..أخبرتُهم أنني كنتُ مُحتاجًا للابتعاد قليلًا للاستجمام.

-وجريمتك الأولى؟

-تقصدين مقتل مدير المخابرات الحربية؟

-نعم..ألَمْ يستدعوك للتحقيق؟

-وهل سيحققون مع كل من كان بالحفل؟

-أنتَ لك وضعٌ خاص..ولك صِلة بقضية اغتيال الضباط.

-أنتِ مخطئة..صِلتي هي التحقيق والبحث، ولستُ محلًّا للاتهام، إن كنتِ تقصدين اعترافات فتحي عبد العزيز فلا قيمة لها بالنسبة، لهم..وعلى أي حال أُقْفِلت القضية بموت فريد الدمراوي، وبمحاولات فاشلة للقبض عن فتحي عبد العزيز الهارب، وأصبح المتهم الرئيسي بالنسبة لهم هو تنظيم القناع كما أطلقوا عليه بكل الجرائد ووسائل الإعلام.

-ألم تفكر لحظةً بالبحث عن صاحب هذا القناع؟

-لا فرق..النتيجة واحدة..تأكدتُ أنني لستُ مريضًا..تيقَّنتُ من وجود صاحب ذلك القناع..هو ومَن وراءه..ولكن انتهى الأمر عند هذا الحد..هو وَعَدَ بالاختفاء، فتلتُ ذلك الحِسَّ البوليسيَّ بداخلي..حاولتُ البدء من جديد..حياة جديدة دون سلطة..حياة هادئة..هكذا نصحني صديقي عزيز شوقي، وكذلك مجدي نور الدين.

-وبعد؟

-حاولتُ التقرُّبَ من زوجتي..كنتُ أرى الحب بعينيها مختنقًا، لطالما حاولتْ معي وأنا أصُدُّ مشاعرها..لربما هذه الأيام فتحتُ لها بابًا جديدًا تهرب منه مشاعرها وتحاول إحياء قلبي من غيبوبتِه .. قلبي الباحث عن الحب منذ رحيل أمي..لعلها تنجح هذه المرة.

-ونجحتْ؟

-ليستْ هيَ.

-مَنْ إذًا؟

لاحظتُ وقتَها أن صوت الإنشاد اختفى..نظرتُ حولي..لا يوجد أحد..فقط إضاءة ساطعة..هدوء تامٌّ يعكس ما شعرتُ به بتلك الفترة..صوتٌ بعيد يقترب..إنه صوتها، أعرفُه جيدًا..صوت حبيبتي فتون..صوتُ آتٍ من الأعماق يُداعِبُ أوتار قلبي..يُعطيه قُبلة النجاة من حياةٍ كالموت..

نظرتُ بآخر الغرفة فرأيتُها..جالسة على كرسي من الذهب الخالص..تشعُّ نورًا لم أرَ مِثله من قبل..كملاكٍ يمُدُّ يدَه لشيطانٍ ليمنحه فرصةً لبداية جديدة....اقتربتُ منها مبتسمًا هائمًا بعينيها..كانتْ تقرأ مِن كتابٍ مُغلَّفٍ بالذهب قصيدةً لنزار قباني بصوتها الساحر:

-علمني حبك أن أحزن

وأنا محتاج منذ عصور لامرأة تجعلني أحزن

لامرأة أبكي فوق ذراعيها مثل العصفور

لامرأة تجمع أجزائي

كشظايا البلور المكسور

علمني حبك سيدتي أسوأ عاداتي

علمني أفتح فنجاني

في الليلة آلاف المرات

وأُجرِّب طِبَّ العطارين

وأطرقُ باب العرافات

علمني أخرج من بيتي

لأمشِّط أرصفة الطرقات

وأطارد وجهك

في الأمطار وفي أضواء السيارات

وألملم من عينيك ملايين النجمات

يا امرأة دوَّخت الدنيا يا وجعي يا وجع النايات

كانت شهرزاد تتابعنا عن كثبٍ..تتابع حبيبين التقيا بعد طول عذاب..كل منا قَتَلَتْهُ الدنيا على طريقتها، وآن لنا أن نعيش..نظرتْ فتون لي حينها..استمعتُ حينها لصوت كاظم الساهر يُغني تلك القصيدة بكابوسي..لحظات دافئة مرة أخرى بهذا الكابوس..ابتسمتْ لي..مددتُ يدي ناحيتها..نزلتْ من كرسيها الذهبي وكأنني أطلبها للرقص..وبدأنا بالرقص معًا على صوته..كنتُ أعرف أنها تحبُّ صوته..تعشقه..نظرتُ لها..أنهلُ من بحر عينيها الزرقاوين..أشتمُّ عبقها عن قُربٍ..أنعمُ بدفئها..كنا نهمس لبعضنا البعض بصوتين يرقصان من الحبِّ:

-أين كنتَ؟

-كنتُ ميتًا وحييتُ على يدك.

-كنتُ ضائعةً من قبلِك.

-بحثتُ عنك بأحلامي كثيرًا..لم أعرف قط أنني سأجِدُك في تلك القرية السياحية البعيدة.

-وزوجتُك؟

-لا تخافي لن تشعر بأي شيء..فأنا ألقاكِ فجرًا، وهي تصحو بالعاشرة.

-لا أدري كيف سلبتَ كل اهتمامي.

-منذ تلاقت أعيننا لأول مرة وأنتِ على شاطئ البحر وأنا أعرف أنك حبيبتي المفقودة..شيء عجيب جذبني إليكِ، بالأخص حينما لاحظتُ أنك تنظرين لي كثيرًا وتديرين رأسَك حينما أُشاهِدُك.

-وأنا لا أدري ماذا جذبني ناحيتك، كنتُ أبني أسوارًا عالية حولي لأنفصل بها عن كل العالم، وأتيتَ أنت بلحظة وهدمتها.

-أتعرفين أنني أحببتُك دون أن أدري حينما أنقذتُك، ممن كانوا سيخطفونك..أتتذكرين ذلك؟

-حينها هربتُ منكَ.

-لماذا؟

-خِفتُ..أخاف دخول قسم الشرطة منذ صغري

-وأنا لم أعد ضابطًا الآن..أنا إنسان عادي، وسأحقق لك كل أحلامك..من الآن سأعيش لأجلك وما عانيتِه قبلي انسيه..أنا حبيبك..أنا منقذك وعائلتك الجديدة..أنا حِضنك بتلك الدنيا بعد والدتك.

-أحبُّك.

-أعشقُك.

رقصَ قلبي حينها من الفرح..قبَّلتُ يديها..ونظرت تجاه شهرزاد التي تقترب ناحيتنا..كانت تسألني وأنا بأحضانها:

-أتلك هي حبيبتك؟

-نعم..مَن حرَّكت قلبي وأغرقته بالعِشق.

-أتعرف حقيقتك؟

-بدأتُ من جديد..ودفنتُ الماضي معها..لا داعي لنبشه دون جدوى، لطالما عانت بحياتها قبلي..موت أمها وحبيبها السابق بحادثة سير ذبحتها..أقسمتُ أن أعيش لها ولراحتها ولقلبها المانح لي حبًّا لا ينتهي.

-أهذه هي النهاية؟

-طلب مني عزيز وقتها الزواج بسما، ووافقت هي وتزوجا بأسرع وقت..وعاشا معنا بقصر جدي تلبيةً لطلبها بعدم فراق أختها..كنتُ أشعر أن السعادة تدقُّ باب حياتي من جديد..تبدَّلت

بأسرع ما يمكن بعد عودتي من مهمتي السرية السابقة..ثلاثة أسابيع تغيَّر فيها كل شيء..وُلدتُ من جديد على يد حبيبتي فتون، تزوجتُها بالسِّرِّ وعاشتْ معي بشقة صغيرة جمعتنا معًا ..جمعتْ عشقنا بكلِ لحظة ..بكل ركن فيها.. وبدأت علاقتي بالتحسُّن مع نانسي زوجتي..على الأقل لم أعد جافًّا معها..وتغيَّرت كل حياتي..أصبحتُ أنهلُ من العِشق ليل نهار..وقررتُ البحث عن مشروع تجاري للبدء من جديد بمجالٍ مخالف لما عِشتُ عليه طوال عمري السابق..نظَّمت أيامي يومًا بالقصر مع نانسي ويومًا مع حبيبتي فتون، أرتمي بأحضانها وأرتوي من عَطَشٍ طال عمرًا بأكمله.

-وهي؟

-مَن؟

-فتون.

-كل ما كانت تحلم به هو أنا..وحلم آخر كنتُ أُخطِّط لتحقيقه لها.

-أيُّ حلم؟

-أن تصير صحفية بأي جريدةٍ مرموقة.

-وما منعك من ذلك؟

-ماذا؟

-ما منعك من ذلك؟

رنين هاتفي يعود من جديد..حالة من التوتر تعاودني..صوت الأغنية يتلاشى..الأضواء تنعدم..الظلام يعود رويدًا رويدًا..فتون تختفي وكأنها سرابٌ يبتعد..وأنا أصرخ بصوتٍ مكتوم لا يقوى على الخروج من بين أحبالي الصوتية:

-ماذا دهاك؟ مَن يتصل بك؟

-لا أحد.

كنتُ عصبيًّا ودموعي تتساقط ورنين الهاتف مستمر..نظرتْ شهرزاد بشاشة الهاتف..مكتوب عليه نانسي..نظرتْ لي:

-إنها نانسي زوجتك، لماذا لا تُجيبُها؟

-قلتُ لك لا أحد.

أمسكتُ الهاتف وضغطتُ على زِرِّ الإجابة ووضعتُه على أذني..رعشات مُتتاليه تُصيبني..بكاء نانسي بالجانب الآخر يخنقني..أتذكر تلك اللحظات بحياتي كأنها تحدثُ للتوِّ..جملة واحدة نطقتْ بها نانسي وهي تُغالِبُ دموعها ذَبَحَتْني:

-أحمد مات يا نادر..أحمد مات.

وكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَك

(الرابع من يونيو-القاهرة)

طعنة مباغتة بقلبي لن تطيب أبدًا ما حييت..وكأن أحدَهم يطرق بمعوله الضخم قلبي ليل نهار..ومهما أصرخ وأبكِ فلن يرحل الحزن أبدًا..يا لحسرتي! يا لمصيبتي! ماتت الابتسامة..مات ذو العينين الدافئتين..مات العازف الماهر.مات أخي.

دخلتُ قصر جدي وقلبي يتمزَّق..هُرعت لغرفته..كانوا هناك خارجها..الجميع يبكي..نظرت لهم..انتظرتْ أن يكذب عليَّ أحدهم ويخبرني أنه ما زال حيًّا يُرزق..لم ينطق أحد..نظرتُ لغرفته وتحركت ناحيتها ورجليَّ لا تكادان تحملانني..كان هناك..ممددًا على سريره..ساكنًا لا روح فيه..نائمًا للأبد..نوم بلا رجعة..أهذا جزاء أفعالي؟ أيعاقِبُني الله فيمن أحب؟

جلستُ بجواره ودموعي لا تتوقف..قلبي يعتصره الألم الشديد..مددتُ يديَّ أربتُ على وجهه..يا حبيبي..يا ليتني ما ابتعدت عنك! يا ليتني ظللتُ بجوارك بمحنتك! يد تربت على كتفي..نظرت ناحيتها..كانت هي شهرزاد..والشفقة تملأ عينيها..نظرتْ بعينيَّ الباكيتين تضُمِّدها بكلمات تخترق بها الزمان..كلمات موجعة قالها عليُّ بن أبي طالب منذ القدم وجاءت هي تُسمعني إياها بمصيبتي..

- النفس تبكي على الدنيا وقد علمت

أن السعادة فيها..ترك ما فيها

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها

إلا التي كان قبل الموت بانيها

فإن بناها بخير طاب مسكنه

وإن بناها بشَرٍّ خاب بانيها

أموالنا لذوي الميراث نجمعها

ودورنا لخراب الدهر نبنيها

أين الملوك التي كانت مُسلطنة

حتى سقاها بكأس الموت ساقيها

فكم مدائن في الآفاق قد بُنيت

أمست خرابًا وأفنى الموت أهليها

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها

فالموت لا شك يُفنينا ويفنيها

لكل نفس وإن كانت على وجل

من المنية آمال تقويها

المرء يبسطها والدهر يقبضها

والنفس تنشرها والموت يطويها

انهمرتُ بالبكاء وكأن عينيَّ نهرٌ لا يجفُّ..موت فجائي..جرعة زائدة من مخدر الهيروين..هكذا أخبرهم الطبيب..مات مذبوحًا بضعفه أمام جبروت جدي..الباشا الآمر للطبيب بكتابة شهادة وفاة طبيعية منعًا للفضائح.

ورجل يفتح الباب بغرفته ويدخل مع رجلين آخرين..جردوه من ملابسه وبدؤوا غسله..أصررتُ على البقاء بجواره، ولُفَّ أخي بكفن أبيض يخفيه..سلامًا يا أخي..فلتُقرئ أمي وأبي السلام..ولتطلب منهما الدعاء لي ليل نهار..فأنا غارق بذنوب لن تُغتفر..وانعموا بجنة الله واطلبوا لي الرحمة..فقد لا أراكم مجددًا..فأنا للجحيم هارع لا محالة..يا لخسارتي! يا لحسرتي!

حملوه وخرجوا لمقابر عائلة النصراوي..كانوا جميعًا حولي..مجدي وعزيز والباشا..وزوجتي نانسي وأختها سما..الكل يرتسم الحزن والقهر على وجوههم..ولكن مَن غيري يحترق بنار الفراق؟ مَن يكتوي بذنوب هي سبب لموته؟ يا ليتني متُّ مكانه! وفُتح القبر نفسه المدفون به والدي.. القبر نفسه الذي زرتُه بصغري..أتذكره جيدًا..حينما أفقتُ من غيبوبة طالت سنتين..وجاء بي جدي إلى هنا..وضعوا جثمانه بالداخل..ودخل أخي قبره وحيدًا..وشاهد جديد يعلقونه على القبر بجوار الشاهد القديم لأبي..الأب وابنه مدفونان بالمكان نفسه..تبًّا لهذه الدنيا! تبًّا لهذا العذاب! أحمد أمجد عبد الغني رشوان النصراوي..المغفور له..يكاد البكاء يخنقني..أتنفس بصعوبة بالغة..التفتُّ للقبر المجاور المدفونة به أمي..لأقرأ اسمها وأترحَّم عليها..كم أحتاجها بهذه الدنيا القاسية! لو أنها معي الآن لكان تغيَّر كل شيء..هناك شاهد آخر موضوع بجوار شاهدها الرخامي..لم أصدق ما تقرؤه عينايَ.. شاهد مكتوب عليه..المغفور لها نيفين أمجد عبد الغني رشوان النصراوي..تاريخ الوفاة الرابع من مايو ٢٠١٥..ما هذا الهراء؟

اقتربتُ من ذلك الشاهد مبرق العينين..قرأتُها مرارًا وتكرارًا..لا أصدِّق ما تراه عيناي..عقلي لا يحتمل ذلك على الإطلاق..نظرتُ ناحيتهم صارخًا باحثًا بوجوههم بعدما أغلقوا القبر على أخي الحبيب:

-أين نيفين؟

اقترب مني عزيز والدموع بعينيه:

-اهدأ يا نادر.

-أين نيفين؟ لماذا لم تأتِ لتُودِّع أخانا؟

لم يكن بالمقابر سوى عائلتي..ورجال الحرس الخاص بالباشا..اقترب ناحيتي بحدةٍ:

-اهدأ..تحمَّل كالرجال..وكُفَّ عن هذا البكاء.

-أين نيفين يا جدي؟ أين هي؟

كلهم يبكون ما عدا الباشا..صامد كالأسد الحزين..ملامحه جامدة، ولكن الحزن يطلُّ من عينيه رغمًا عنه..لا أحد يجيب..صرختُ بهم:

-فليخبرني أحدكم الحقيقة.. ما هذا الشاهد المكتوب عليه اسمها؟ أين نيفين؟

أمسكني حينها الباشا بقوةٍ من كتفي ناظرا بعينيَّ:

-نيفين ماتت يا نادر..نيفين ماتت من سنة..

-اصمت..أنت كاذب..كلكم كاذبون.

وتركتُهم وخرجتُ ألهثُ لأعرف الحقيقة..عقلي لا يقبل ذلك الهراء أبدًا..ركبتُ سيارتي وانطلقتُ بها سريعًا..وهُرع مجدي وعزيز خلفي بسيارة مجدي..أمسكتُ هاتفي وطلبتُها.

-الرقم الذي طلبته غير موجود بالخدمة.

زدتُ من سرعتي..أراهم خلفي..لماذا يُصرُّون على كذبهم؟ نيفين حية..أقسمُ بذلك..وصلتُ لبيتها هي ومجدي..نزلتُ من سيارتي جريًا وهم خلفي..وقفتُ على باب شقتها أكاد أكسره..كنتُ أصرخ عاليًا:

-نيفين..افتحي الباب..نيفين افتحي وأخبريهم أنك بخير..نيفييييييييييين.

خرجَ جيرانها والتعجُّب يملأ وجوههم..حاولَ مجدي وعزيز تهدئتي دون جدوى..شعرتُ باختناق يتزايد وكأن دموعي تقتلني..سقطتُ أمام بيتها مغشيًّا عليَّ..وكأنني بغيبوبة لا نهاية لها..أسمع وأرى كل شيء حولي وكأنهم ببرٍّ آخر بعيد عني..وكأنني بزمان آخر غير زمانهم..كنتُ بغرفتي بالقصر..هذا ما أتذكَّره..وعزيز يدبُّ حقنة مخدرة بوريدي..ويهمس لمجدي والباشا ونانسي:

-اطمئنوا..ستمرُّ تلك الأزمة كما مرَّت سابقتها

فتحتُ عينيَّ لأجد نفسي ما زلتُ بالغرفة نفسها بذلك الكابوس اللعين بقصر الملك القديم، كانت الدموع تنساب بعينيَّ بكثافة.

-وخاب ظنه وظنهم.. وانفلت زمام عقلي حينها..وما إن راح مفعول مخدره حتى نهضتُ مُصرًّا على رفض واقعهم المرير..ناسيًا كل شيء..خرجتُ مُتسلِّلًا من القصر مُقرِّرًا الابتعاد..الزهد بدروب الحياة..أبحثُ عن أخي وأختي..أبحثُ عن ذاتي..ذاتي الملوَّثة بآثام لا تُغتفر..بحثوا عني كثيرًا ولكنني كنتُ مصممًا على الابتعاد..لن أعود..حكمتُ على نفسي بالتيه بعيدًا مشردًا..ستة أشهر وأنا بدُنيا ثانية..صاحَبَني فيها ذلك الطفلُ الجميل سمير..طفلٌ يتيم حَكَمَ عليه القَدَرُ بالوحدة..وكل ما أفكِّر فيه بحياتي هو إنقاذه من موت سافل..لا أدري لماذا يحصد الموت كل الأنقياء..ويتركني أنا أعاني لوعة فِراقهم؟ وبعد انتهاء عمليته الجراحية..سأصاحبه خارجَ البلاد إن كتبَ لي الله عمرًا جديدًا..سأبدأ معه حياة زاهدة..و..

نظرتُ حولي..أين شهرزاد؟ لا وجود لها..لاحظت ضوء الصباح يهلُّ بشباك تلك الغرفة..صوت هتافات بالخارج استمعتُ له فجأة..أفاق عقلي بصوتهم:

-يسقط الملك "سيسنار الرابع".

يسقط الملك "سيسنار الرابع".

يسقط الملك "سيسنار الرابع".

حاولتُ النظر من الشباك، ولكنَّ قيودًا غليظة تمنع حركتي..كانت أصواتهم عالية يبدو أنهم حشود كبيرة أصواتهم وهتافاتهم ترجُّ المكان..نظرتُ حولي بكل الغرفة باحثًا عن شهرزاد..لا وجود لها..حاولتُ الإفلات من هذه القيود دون جدوى..الهتاف مستمر ومتزايد..استرقتُ السمع لهم متوترًا وخائفًا..لماذا تركتني؟ اعتدتُ وجودها بذلك الكابوس..صوتٌ آخر يشقُّ هتافهم..صوت خيول تقترب ومعه تنخفض هتافاتهم..

واحدٌ يُنادي

-مولانا الملك "سيسنار الرابع".

ودخلَ الملكُ بنفسه ساحة القصر القديم المحتشد به الهاتفون بسقوطه..وصلته أخبار بأزمة كبرى تشيع بالمدينة القديمة وأهلها..عَقَدَ العزم على السفر لهم وها هو يصل على رأس حراسه وجيشه الكبير المنتشر بالقصر بأكمله ليحكم زمام الأمور، أحدهم يهمس للملك فور وصوله..إنه كبير العسس الملكي:

-مولاي..بحثنا عنها بكل مكان ولا وجود لها.

-ما هذه المؤامرة اللعينة؟ أنتَ ورجالك تتحملون المسؤولية كاملة؟ أريد هذه المسماة بشهرزاد فور انتهائي من خطابي فورًا.

-أمر مولاي.

أتعجَّب بشدة..كيف استمع من تلك الغرفة لهمسهما معًا؟ وكأنني أقِفُ بجوارهم..صمت شديد خيم على رؤوس الجميع..صَعَدَ الملكُ منصةً عالية وبدأ بخطاب تاريخي:

-ما بالكم أيها الشعب الحبيب! أتنادون بسقوط مَنْ أراد لكم العدل والقسط؟ أتهاجمون مَنْ خَطَّط للمساواة بينكم ولنعيم يجتاحكم بالدنيا؟ لم أُخطِّط يومًا لاعتلائكم..ولا للجلوس على ذلك العرش الزائل. أخبروني؟ ماذا دهاكم؟ انطقوا..أريد الاستماع لشكواكم.

نظروا لبعضهم البعض وبدؤوا بسرد شكواهم بشكل عشوائي مُتداخِل:

-لا نريد الانتقال للمدينة الجديدة.

-لا نريد التورُّط بحرب ضروس مع بلاد أخرى لها الحقُّ بأصول هذه المملكة.

-نعم لا نريد الحرب.

هَتَفَ الجميع:

-لا نريد الحرب..نريد العيش بسلام.

قاطَعَهم الملكُ:

-وإن كان العدل لن يتحقق إلا بالحرب..أتخفضون ظهوركم لأعدائكم يركبونكم كالبعير..أم تدافعون عن حقِّكم وحقِّ أبنائكم؟

-لا نريد الحرب..نريد العيش بسلام..فليسقط الملك "سيسنار الرابع"، يسقط الملك "سيسنار الرابع"..يسقط الملك "سيسنار الرابع".

أصواتهم تتعالى..هرج ومرج يزداد بالأسفل..هناك شخص ما يفتح الغرفة..دققتُ النظر، إنهم حراس كُثُر..يتجهون ناحيتي..همس أحدهم لآخر:

-هيا..فُكَّ قيوده.

-ماذا ستفعلون بي؟

-صَهٍ..لا تنطق.

صرختُ خائفًا:

-أيها الطبيب..أفيقونننننننننني. أبطل مفعول ذلك المخدر اللعين..فليكفِ، فليكفففففففففففففففففففففففففففففِ

جرجروني لخارج الغرفة بقوة..كنتُ أصرخ بأعلى صوتي..أنتظر أن أفيق بأي لحظة لينتهي ذلك الكابوس..أخاف حقًّا أن يعدموني ويتحقق حدس شهرزاد المختفية..لماذا تركتني بمفردي؟ قالت إن حمايتي مسئوليتها..كاذبة هي أيضًا..الجميع كاذبون..هبطوا سُلَّم القصر

الحجري ووصلنا لبابه المفتوح..اغرورقتْ عيناي بالدموع حينما لاحظت وجود أمي تجلس بأحد الأركان قريبة من الباب..ويجلس حولها إخوتي ينصتون لها وكأنها تقصُّ عليهم قصة ما..رأسي يكاد ينفجر من ألمٍ يراوده من حين لآخر..صرختُ:

-أمممممممممممي.

صرخاتي تضيع هباء..تسربت بعض كلماتها وهم يدفعونني للخارج إلى أذنيَّ:

-واختفى الملك الفاسد ووجد "سيسنار الرابع"نفسه مَلِكًا مَتوَّجًا بالمصادفة.

-أممممممي..اتركوووووووني.

وصلنا خارج القصر..وقعت عيناي على تلك الوجوه بالخارج..أعداد مهولة من البشر لا نهاية لها..وكأنهم يجلسون بمسرح روماني لا نهاية له..كنا بأعلاه..يجرجروني لأسفله..نظرتُ خلفي فلم أجد القصر..وكأنني نُقلتُ إلى مكان آخر..لم أعد أفهم أي شيء مما يحدث لي..تبًّا لهذا الكابوس! الجميع يُهلِّلُ ويصفر وكأنهم جمهور بمباراة شائقة..كنتُ مذهولًا..وبوسط المسرح بالأسفل ساحة تُشبِهُ خشبة المسرح..أرى منصة عالية بمنتصفها تقترب..ورجل أعلاها مُكبَّل الوثاق وعلى عينيه غمامة تحجب بصره..رجل بملابس مرصعة بالذهب..ويداه موثقتان لأعلى بمقصلة خشبية تُشبِه ميزان العدل..جانبها الآخر فارغ لا شيء فيه..وكأنه ينتظر شخصًا آخر يوثق بجواره على الطرف الآخر..اقتربنا أكثر وأكثر ورأيتها..شهرزاد تقف كمدربة أسود تحيي جمهورها الهاتفين والفرحين بما يشاهدونه..صرختُ بها:

-شهرزاد..أنقذيني..ألم تعديني بالنجاة؟

لم تعطني أيَّ اهتمام..وصلوا بي لتلك المنصة وأحكموا وثاقي أنا الآخر بالجانب الآخر من ذلك الرجل الصامت بجواري..حينها أشارتْ شهرزاد إلى الجميع بالصمت، فسادَ الصمتُ فوق رؤوس الجميع والتفتتْ ناحيتنا لتبدأ فقرتها الأخيرة:

- في أراضٍ مشتعلة حاكمٌ عادل رغب في تطبيق قانون الربِّ منذ أيامه الأولى لجلوسه على العرش فانطفأت نيران ثورة باتت على الأبواب، وهدأت الأحوال وعمَّ الأمان..وباتت عيون تُدبِّر أمرًا بالخفاء يحاربون العدل منذ قديم الأزل.

كانت تُشير إلى الرجل الموثق بجواري..فهمتُ حينها أنه الملك "سيسنار الرابع"، ولكن عقلي لا يستوعب ما يجري..أكملتْ شهرزاد:

-وفي ليلة اكتمل بها القمر بالسماء.. سحرته فتاةٌ تُدعى شهرزاد بحكايتها الأولى.. قصة رأت بها مستقبل الأزمان..رأتها بعد خمسة آلاف عام وحدها فقط تعرف نهايتها..ونهايته..وضابط شرطة موغل في الفساد .. نادر أمجد رشوان.

أشارت حينها تجاهي..

-تسابَقَ لنيل كل أوسمة الخِسَّة والنذالة فهابَه العامَّةُ وسبَّحوا بحمده بكل مكان.. بات مِثالًا يتكرَّرُ يَشيب له الولدان..وتواترت ثورةٌ أخرى على الأبواب بالزمانين..هنا وهناك، فالعدل لا يتحقق إلا بالحرب ضد محتكري الظلم..والظلم وحده يَهُبُّ الناس ضده، وصرختِ الأوجاعُ بصدور الصامتين ذُلًّا وأوشك أنينهم بين الضلوع هربًا؛ فتفجَّرت بحور الدماء أنهارًا وبلحظة دون ميعاد، حُبس نادر رشوان بكابوس عجيبٍ بقصر مهجور يبعد عن زمنه ب ٥٠٠٠ عام، وبات مُهددًا بحكم الإعدام دون سببٍ واضح..كابوس جبري..حبس الظالم بسجون العادل، وبين هذا وذاك تتصارع الأزمان، وتتبدَّل الوجوه والأذهان..لعل أيًّا منهما يتعلم من الآخر، فيحيد العادل قليلًا عن عدلِه المنشود بعدما رأى وسمع حكاية ظالم مَلَكَ كلَّ شيءٍ، أو يعود الظالم ويعترف بذنوبه، ويعيش الباقي من عمره بقليلٍ من العدل بين هذا وذاك..حارَ الناسُ..قصة العدل والظلم..قصة الإنسان منذ قديم الزمان.

أشارت حينها لرجال الحرس الملكي فأزالوا تلك الغمامة عن عيني الملك..نظر ناحيتها بشموخٍ كبير..ثم التفتَ ناحيتي مُتعجبًا..وكأننا أخوان توأمان..استكملتْ قِصتها:

-حتى تقابَلَ الاثنان، وجهان لا يختلفان..وكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد، توأمان فرَّقتهما الأزمان ٥٠٠٠ عام.. ليعلم كلاهما الآخر، رجلٌ انتهجَ العدلَ طريقًا، ورجلٌ عَشِقَ الظلم كحبيبين، والسؤال: هل تتبدَّل الأحوال؟ هل يتغير أحدهما؟ هل يسافر العدل عبر الأزمان؟ والآن مع قرارهما الأخير..قبل صدور الحكم النهائي دون رجعةٍ.

صَرَخَ المَلِكُ بها:

-مَن أنتِ؟ لن أنطق بأي شيء حتى أعرف مَن أنتِ؟

-أنا رسولُ المستقبل..أنا الشاهدة على كل شيء منذ خُلِقَ الإنسان..أنا الدنيا..دنياكم ودنيا كل هؤلاء.

أشارت إلى الجمهور..فهلَّلوا وصفيرهم يتعالى..أشارت إليهم بالصمت واستكملتْ:

-أنا الدنيا..أبحثُ منذ بدءِ الخليقة عن حبيبٍ واحد أعيشُ معه أيامه سعيدًا أُبادِلُه الحبَّ ويُبادلني، والناس صِنفان..إما عادل زاهد بحبي يلفظني، وإما ظالم يحبني ولكنه مُعذَّب بآثامه وذنوبه فيعيش تعيسًا، أريدُ حبيبًا واحدًا..مَن منكم يصلح أن يكون حبيبي؟ مَنْ منكم؟

قالتها صارخة بنا وبالجمهور..الجميع ينظر بعضه إلى بعضٍ..صمتٌ يُخيِّمُ على رؤوسهم..كانت عيناها ممتلئتين بالدموع..قَطَعَ ذلك الصمتَ الملكُ بإيمان شديد:

-لن أتخلى عن مبادئي مهما يكن..حتى وإن كان الثمن حياتي.

حينها أشارت شهرزاد إلى رئيس العسس الملكي فأمسك شعلة من النيران واقتربَ مِن الملك الواقف بشموخ عجيب..وأشعل به النيران..كان الجميع ينظرون ناحيته دون أن يعترضوا..وكأن ذلك مُوافَقةٌ ضمنية على حرق ملكهم أمام أعينهم..ماتَ ثابتًا على

مبدئه..مُستقبِلًا خيانتهم بصدر رحب..لم يصرخ والنيران تلتهمه..تحوَّل إلى رمادٍ بجواري وأنا مبرق العينين لا أصدق ما أعايشه بذلك الكابوس..نظرتْ شهرزاد بعدها تجاهي:

-وأنت؟

-أنا ماذا؟

-التوبة؟

-نعم، نعم، أريدُ التوبة.

قلتُها خائفًا مُرتجِفًا..

-لا توبة لكَ إلا بالاعتراف بجرائمك.

-اعترفتُ بها لك.

-ليس لي.

-لمَن إذًا؟

-للشرطة.

-سيعدمونني.

اقتربت مني حينها والحيرة بعينيها:

-تلك هي الأزمة..راغبٌ بالتوبة وثمنُها يعني موتك.

-لا أريدُ الموت.

-لم تأتِ نهايتُك بعد.

-لا أريدُ الموت.

-مشكلةٌ أزلية لا أجد لها حلًّا..تلك هي المشكلة، تلك هي المشكلة.

كانت تُردِّدُها وتبتعد..هلَّل الجالسون بتلك المدرجات..وكأنهم البشر أجمعهم منذ بدء الخليقة..كلٌّ له يوم كهذا..يومٌ لحسابه بالدنيا..يومٌ تحاسبه شهرزاد..هرج ومرج يزداد..وتختفي شهرزاد..أصواتهم تتعالى وتتداخل لا تكاد تفسر منها شيئًا..لتنهي قصة حَكَتْها لنا أمي يومًا ما وغابت بين شوارع ذاكرتي الضالة..قصة الملك العادل..وتترقَّب نهاية أخرى لقصة لم تنتهِ بعد..قصتي..وبقيتُ موثقًا هكذا أصرخ بها متعلقًا بالحياة..متعلقًا بشهرزاد:

-لا تذهبي..ابقي معي..ابقي معي. فُكَّ وثاقي..أيها الطبيب..أفيقووووووووووني.

فجأة رأيتُ جنودًا بأعداد مهولة من الأمن المركزي..يحاولون السيطرة على تلك الحشود..وانطلقت الغازات المسيلة للدموع..وعمَّ الضباب..أكادُ أختنقُ..أصرخُ عاليًا:

-أفيقوووووووووووووووووووووووني.

روحي تكاد تَفِرُّ من بين جسدي..عذابٌ منقطع النظير..لا أرى شيئًا..أصواتهم تصمُّ أذنيَّ..صراخ وعويل يتعالى..وكأنها لحظاتي الأخيرة بالدنيا.

العائد

(السادس عشر من ديسمبر-القاهرة)

فتحت عينيَّ بصعوبةٍ..وكأنني كنتُ بسُباتٍ عميق استمرَّ أيامًا..كنتُ بغرفتي بالقصر..الستائر تتطاير وضوء الشمس يتسلَّل للمكان هاربًا مِن سُحُبٍ كثيفة تملأ السماء المحتقنة، وكأنها على وشك البكاء لحالي..كنتُ ممددًا على سريري ومحلول معلق بجواري..نظرتُ حولي..لا أحد..قليل من الأدوية أراها بجوار سريري..جلستُ وأنا أحاول تذكُّر أيَّ شيء..جسدي يؤلمني وكأنني خرجتُ للتوِّ من معركة كبيرة تكسرت بها عظامي..نظرتُ بساعة الحائط..إنها العاشرة صباحًا..نهضتُ متعجبًا..أهذا جزء من الكابوس أم ماذا؟ أما زال ذلك الطبيب اللعين يُجري تلك العملية الجراحية طوال هذا الوقت؟ لقد سئمتُ الانتظار بكابوس لا ينتهي..نهضتُ بعدما أزلتُ ذلك المحلول المُعلَّق بعيدًا عني..لم أستطع نزع تلك الكانيولا بيدي..نظرتُ بمرآتي مذهولًا..لحيتي طويلة للغاية، وشعري أشعث..آلام مبرحة برأسي..صداع يتزايد..مددتُ خطوتي لخارج غرفتي لأستكشفَ أحداث ذلك الكابوس الجديد..صوت يقترب..أستمعُ لصوت مجدي وعزيز ونانسي وسما..كانوا يتجاذبون أطراف الحديث..لم أُميِّز حديثهم..فقط بصعوبةٍ عرفتُ أنها أصواتهم هم....اقتربتُ واقفًا أعلى السُّلم..أعرفُ أنهم لن يروني..اعتدتُ ذلك بهذا الكابوس..وقفتُ أنظر إليهم والألم يزداد..التفتَ عزيز تجاهي ورآني..تعجبتُ كثيرًا لذلك..صرخ هارعًا تجاهي:

-نادر.

حينها انتصرت آلامي عليَّ وسقطتُ مغشيًا عليَّ.

لا أدري كم مَرَّ من الوقت حتى استعدتُ وعيي من جديد..فتحتُ عينيَّ مرةً أخرى ولكن هذه المرة لم أكن وحيدًا..كان الجميع حولي..مجدي وعزيز ونانسي وسما وجدي الباشا..ابتسامة وقلق على وجوه الجميع..نظرتُ إليهم حائرًا لا أفهم شيئًا..لم يمرّ هذا المشهد بذاكرتي من قبل..أدركتُ حينها أنني لستُ بالكابوس..أنا بالحقيقة وهم يرونني ويتفاعلون معي..ما أراه الآن ليس جزءًا من حكايتي التي قصصتُها على شهرزاد..ما أراه أحداث جديدة أُعايِشُها للتَّوِّ..ربت عزيز على كتفي مبتمسًا:

-حمدًا لله على سلامتك يا نادر.

احتضنتني نانسي بحنان غريبٍ هامسةً:

-الحمد لله..مرَّت الأزمة بسلام.

-قلتُ لكم إن نادر قوي وسيجتاز أزمته بنجاحٍ باهر.

قالها الباشا سعيدًا.

-عندك حقٌّ فعلًا يا عبد الغني باشا.

قالها مجدي. أيُّ أزمة يتحدثون عنها؟

أكملوا حديثهم ولكنني كنتُ بعالم آخر لا أستمع لأغلب كلامهم..عالمٌ الصَّممُ عنوانه..وكأنني أنتزعُ عقلي من مجهولٍ يُصرُّ على الاستئثار به لنفسه..حاولتُ كثيرًا فهم ما يدور ولكنني كنتُ كالمخمور بصعوبةٍ أفتحُ عينيَّ. لم أنطق بكلمةٍ واحدةٍ للآن..نظرتُ ناحيتهم والحيرة تفترس رأسي..لاحظَ عزيز ذلك فنظر إليهم:

-نادر يحتاج للراحة..فلنترُكْه ليرتاحَ قليلًا.

وهَمَّ الجميع بالخروج..ناديتُ حينها عزيز:

-عزيز.

-نعم.

-ابقَ بجواري قليلًا.

نظرتْ نانسي له بغيرة مُستترة خلف ابتسامة مصطنعة..وخرجوا جميعًا وبقيَ عزيز..صديقي المُقرَّب..جلس بجواري مبتسمًا:

-ارتَحْ يا صديقي.

-عزيز..ماذا يجري هنا؟

-لا شيء..فقط نطمئنُّ عليكَ.

-وكيف أتيتُ إلى هنا؟

-ماذا تعني؟

-السؤال واضحٌ..كيف أتيتُ إلى هنا؟

-لا تشغل بالَك الآن..ارتَحْ وسنتحدث فيما بعد.

-عزيز أرجوكَ أجبني.. هل انتهت العملية؟

-أيُّ عملية؟

-أين سمير يا عزيز؟

كنتُ كالغارق أبحثُ عن طوق للنجاة، شاعرًا بقرب خروج روحي..زاد توتري وقلقي على سمير..هل فشلت العملية الجراحية؟ حاوَلَ عزيز تهدئتي دون جدوًى:

-اهدأ يا نادر..اهدأ وستفهم كُلَّ شيء.

-ما الأمر؟ وما تلك الأزمة التي تتحدثون عنها؟

-سأخبرك، ولكن اهدأ أولًا.

-هيا..أخبرني.

تنهَّد عزيز حينها لا يعرف من أين يبدأ حديثه..نظر إلى عينيَّ بعطفٍ شديد:

-أنتَ مريض نفسي بأخطر مراحل المرض، تُعاني فصامًا وازدواجًا بآن واحد.

-حاولتَ إقناعي بهذا من قبل وأنا أقول لك الآن: كلا، لستُ مريضًا..لستُ مريضًا، أنا متيقِّنٌ من ذلك.

-اهدأ حتى أُكمِلَ كلامي.

كنتُ غاضبًا عصبيًّا..وكان هو يبحث عن كلامٍ مُنمَّقٍ يُخبرني به الحقيقة:

-نادر..أنتَ مررتَ بمصيبةٍ كبيرة منذ حوالي سنة ونصف.

-أيُّ مصيبة؟

لم يجد عزيز طريقة ليخبرني بها مجددًا تلك الحقيقة التي تناسيتُها كثيرًا..نظرتُ إلى عينيه والدموع تملؤهما..شيء ما يغصُّ بحلقي، يعوقُ رئتيَّ عن التنفس. وبلحظة واحدة انسابت دموعي وكأنني بدأتُ بالتذكُّر..قلبي يعتصره الألم:

-نيفين.

قالها مُتردِّدًا هاربًا من عينيَّ....بكيتُ وبكى معي..احتضنني وسادَ الصمتُ بيننا.. نظر إليَّ ومسح دموعي..نهضَ بعيدًا ووقف ينظر للأفق بشباك غرفتي.. تنهَّد وبدأ يُذكِّرني بكل شيء.

-موت نيفين بحادث سيارة أدخلَكَ بحالةٍ نفسيةٍ سيئة للغاية، حاوَلْنا جميعًا إخراجك من تلك الحالة..بكاء مستمر، وعُزلة عن العالم أجمع..حالة اكتئاب شديدة، ولكن بمرور الوقت استطعنا إقناعك أن الدنيا ما زالت أمامك، وأقنعك جدُّك الباشا بالزواج.

-وتزوجتُ نانسي.

-نعم..كانت خطيبتك من قبل موت نيفين وتأجَّل زواجكما شهورًا بسبب ذلك..تزوجتَها..وللحقِّ كانت تُراعي مشاعرك وأزمتَك كثيرًا ..نانسي تحبُّك جدًّا..احتملتْكَ وحاولتْ احتواءك.. ورفضت الاستغناء عنك أو الملل منك، وبمرور الوقت أصبحتَ لا تتحدَّث مُطلقًا عن نيفين، وكأنك تناسيتَها، ونحن أيضًا كنا نهرب من سيرتها أمامك، توقَّعنا أن حالتك تتحسَّن، ولكن بدأتْ أعراضٌ خطيرة تظهر عليك.

-أيُّ أعراض؟

-هلاوس وضلالات بصرية، بائع سوق العتبة الذي قتلته مُتخيِّلًا أنه مجرم آخر، يُدعى عباس الدمراوي وأنت قتلته بنفسك قبلها بأيام بزنزانته، أدركتُ حينها أن الاكتئاب تحوَّل إلى مرض الفصام..حاولتُ علاجَكَ ولكنك رفضت بالبداية..حتى جاء لي مجدي يومًا ما وأخبرني أنك بمصيبة كبيرة، وذلك الشخص ذو القناع الذي تزعُمُ أنه يُهدِّدُك ويُخطِّطُ لتفجير وزارة الداخلية وهُرعنا لك وواجهناك بالحقيقة وبمرضك بالفصام والازدواج..واجهناكَ بأن ذلك الشخص ذا القناع ما هو إلا أنت، تحاسب نفسك بقسوة متناهية..رفضتَ بالبداية، ولكن سرعان ما جئتني وبدأنا العلاج النفسي وبدأتَ تشعر بتحسُّن بسيط..ولكنك لم تُكمِل علاجك معي..وقتها قرَّر مجدي أن يبلغ جدَّك بحقيقة مرضك، وأجبرك حينها على تقديم استقالتك..واختفيتَ بعدها أسبوعين..بحثنا عنك كثيرًا ولم نجدك..وبيوم جاءني مجدي ليخبرني أنك كنتَ حاضرًا لذلك الحفل بدار الأوبرا المصرية الذي اغتيل فيهاً مدير المخابرات الحربية، وأنه يخاف أن يكون لك دَخْلٌ بذلك..ولكن لم يستطع أحد توجيه أي اتهامٍ لك لأنك خرجتَ من قاعة الحفل قبل الحادثة بدقائق..هكذا ظهر بكاميرات المراقبة..وحينها طمأنتُ مجدي وأخبرتُه أنك بخير وربما قررتَ الابتعاد قليلا لتهدأ وتتحسن حالتك وتحقَّق حدسي..وعدتَ شخصًا آخر..وكأنك وُلِدْتَ من جديد..شخصًا مُقبِلًا على الحياة.. ولكن سرعان ما انقلبَ كلُّ شيءٍ..وحدثَ ما لم يتوقَّعْه أحد..ومات أحمد إثر جرعة هيروين زائدة..وبالمقابر كنتَ تصرخ غير مُصدِّقٍ لموته..والأكثر من ذلك..رفضك وصراخك حينما رأيت شاهد قبر نيفين أمام عينيك..وكأنها ماتت حينها بالنسبة لك..وانهرتَ عصبيًّا..واختفيت بعدها مرةً أخرى..بحثنا عنك بكل مكان ممكن..لم نجد لك أي أثر ستة أشهر لم نفقد الأمل بالبحث عنك..حتى عَثَرَ عليك مجدي بمسجد بمدينة طنطا على حالتك هذه..كنتَ مُقيمًا هناك طوال هذه المدة لم تخرج قط..هكذا قال إمام المسجد لمجدي..ولولا المصادفة لما وجدناك أبدًا.

-أي مصادفة؟

-غِبْتَ في غيبوبةٍ تُشبه الموت..أصابكَ هُبوطٌ بالدورة الدموية ..تخيَّلَ رُوَّاد المسجد أنك متَّ، وأبلغوا الشرطة..وهكذا عثرنا عليك.

-غير حقيقي..كاذبون. كاذبووووووووووووون.

كنتُ أصرخ فيه غير مصدقٍ..وأين تلك العملية الجراحية التي أُجريت لسمير؟

-اهدأ أرجوك يا نادر..أرجوك.

-أنا كنتُ بمستشفى الشرطة بمدينة نصر، أنا وسمير..سمير..أين سمير؟ هل نجحت العملية؟

-أي عملية؟ اهدأ..أرجوك.

-أين سمير؟

-سمير ماتَ.

قالها قاذفًا بها كقنبلة بوجهي..زادتْ دموعي..يا لحسرتي! كلُّ مَن أتعلَّق بهم بهذه الحياة يموتون وكأنني عزرائيل..كُلُّ مَن يقترب مني يرحل بعيدًا.

-ماتَ؟

-سمير أمجد عبد الغني رشوان النصراوي.

قالها وبرقت عيناي مِن تلك المفاجأة الجديدة.

-ماذا؟

-سمير أخوكم الرابع يا نادر..طفل في السادسة من عمره، كان الأخ الأوسط بينك وبين نيفين..مات يوم الحريق الهائل ببيتكم القديم..ماتَ مع والدتك ووالدك.

-صَهٍ يا عزيز..لا أريدُ الاستماع لأكثر من ذلك.

-لا..عليك معرفة كل شيء..عليك مواجهة مرضكَ.

-صَهٍ..صصصصصصصصصصصصصه.

كنتُ أصرخُ فيه ماسكًا رأسي مُتعذِّبًا ممَّا حاولتُ نسيانه طوال عمري:

-لا..سمير كان الأخ المُقرَّب لك لقُرب سِنِّكما..أقرب إخوتك لقلبك..مات وحُرق أمام عينيك بذلك الحريق..صُدمتَ حينها صدمةً عصبيةً هائلة، غِبْتَ عن الوعي والحياة عامين كاملين. وبعد إفاقتِك كنتَ ناسيًا له تمامًا..تذكَّرتَ والدك ووالدتك ولكن لم تتذكَّره هو، ولم يخبرك جدُّك بأيِّ شيء..نَصَحَه الطبيب آنذاك بتلاشي ذلك الأمر تمامًا..حتى اسمه على مقابركم أمره الطبيب بإزالته حينما زُرتها بصغرك..ويكفي حُزنك على أبيك وأمك..هذا ما حكاهُ لي جدُّك عبد الغني بك..و..وما دفعني لسؤاله..إنك كنتَ تُنازع الليلتين الماضيتين وأنت فاقد للوعي ناطقًا باسمه..

-يا ليتني متُّ معه!

قلتُها متذكِّرا كلَّ شيءٍ..وكأن صورته قفزت بذاكرتي بعد طول غياب..الآن فقط أقِفُ أمام مأساتي الحقيقية..موت الأحباء..وكأنه قد كُتِبَ على إخوتي الموت واحدًا تلو لآخر لأبقى وحيدًا مُعذَّبًا..أمعقول هذا؟ أخدعني عقلي الباطن لهذه الدرجة؟ يُصوِّر لي أحداثًا متتالية وعملية جراحية لا وجود لها وصديقًا يُعاني الفشل الكلوي مات منذ ٢٧ عامًا..وكأنه كان يمنحني فرصة جديدة لإنقاذه..ولكن مُحال..مَن مات لا يُبعث بحياتنا من جديد..ومَن رَحَلَ لا يعود..قَفَزَ بعقلي حينها أسئلةٌ مُتلاحقة تفترس رأسي:

إن كان لا وجود لسمير..فهل كُلُّ ما عايشته الفترة السابقة كان حقيقيًّا حقًّا؟ هل قتلتُ سلمى عبد الفتاح؟ هل قتلتُ فتحي ببيت فتون؟ وجدي الباشا؟ نظرتُ لعزيز المُشفِق عليَّ مُتسائلًا:

-عزيز؟ هل رُشِّحَ جدي الباشا لرئاسة الوزراء؟

-نعم منذ أربعة أيامٍ تقريبًا.

-وكيف عرفتُ ذلك وأنا لم أخرج من المسجد على حَدِّ قولِك؟

كنتُ أبحثُ عن أي تكذيبٍ لروايته..أعلمُ حقًّا أن لا وجود لسمير..ولكن باقي الأحداث..أريدُ التيقُّنَ منها بأي طريقة..أجابني:

- وجدوا بجوارك بالمسجد مجموعةً من الجرائد، يبدو أنك كنتَ تُتابِعُ ما يحدث بالخارج من خلالِها، وأظنُّ أنك قرأتَ خبرَ ترشيح جَدِّك بها.

-واغتياله أيضًا.

قلتُها يائسًا من تصديق حقيقته.

-أيُّ اغتيال؟

-محاولة اغتيال الباشا؟

-لم يحدثْ ذلك على الإطلاق.

نذيرٌ آخر للهلاوس والضلالات..لم يُغتَلْ جدي..عقلي الباطن هو من قرَّر اغتياله وفَشِلَ بذلك..شعوري القديم أنه كان سببًا بموت أهلي حرقًا صوَّر لي ذلك الانتقام..لم أعُدْ أُدرِكُ الآن أيَّ شيء..واختلط الوهم بالحقيقة..تبًّا لمرضي اللعين! نظرتُ إلى عزيز:

-أرجوك اتركني الآن بمفردي.

-حسنًا، فلترتَحْ قليلًا، ولا تُفكِّر بأي شيءٍ. وكما قلتُ لك من قبل: أنتَ فقط مَنْ تُقرِّر عِلاجَك، ولا تَخفْ، أنا بجوارك..لن أتركَكَ أبدًا.

وخرجَ عزيز من الغرفة..انتظرتُ قليلًا..نفضتُ الغطاء عني..عليَّ التَّيقُّن من بعض الأشياء قبل اتخاذ قرار العلاج هذا..تسللتُ بصعوبةٍ من شباك غرفتي للخارج..قفزتُ مُنهكًا وهُرعتُ لسيارتي..أدرتُها..لاحظَ الجميع خروجي..جروا ناحيتي مناديين:

-نادر..نادر..نادر.

وانطلقتُ سريعًا..أُقتل بصراعٍ على أشُدِّه بين عقلي الواعي والباطن..أعرفُ وجهتي تلك المرة..رجل بلحيةٍ طويلة يقتاد سيارة فارهة وبملابس النوم وبيده كانيولا..مادة مغرية لأي كمين شرطة..ولكنني لم أخفْ..سأتيقَّنُ ممَّا أريدُ مهما يكلفني ذلك..ووصلتُ للمكان الأول..فيلا سلمى عبد الفتاح..اقتحمتُ بابها بسيارتي..ونزلتُ سريعًا أجري للداخل..مُترنِّحًا مُنهكًا من مرض لعين أقوى من السرطان..كهِرَّةٍ تُنازِع من أجل الحياة بعدما أنشبَ ذئبٌ شرسٌ مَخالبَه بجسدها..طرقات مُتتالية على بابها، وفتحتْ لي فتاةٌ مثيرةٌ شِبه عارية..نظرتْ إليَّ مُتعجبةً:

-الله يسهل لك.

-أين سلمى؟

خافت وهمَّت بإغلاق الباب بوجهي..ولكني هجمتُ عليها بقوةٍ وأمسكتُها من رقبتها أخنقُها:

-أين سلمى؟

-سيدتي ماتت..ماتت.

-كيف ماتت؟ انطقي.

-ماتت مذبوحة بسيارتها.

-قولي الحقيقة وإلا قتلتُك.

-مَن أنتَ؟ النجدة..النجدة.

-لن ينجدك أحدٌ من يديَّ..قولي الحقيقة.

-قلتُ لك ماتت مذبوحةً بسيارتها..هكذا وجدَتْها الشرطة.

برقت عيناي وقتها تاركًا إياها..يبدو أن هذا أيضًا كان خبرًا قرأتُه بجريدة ما وأنا بالمسجد..وهيَّأ لي عقلي الباطن ما حدث كذبًا..تركتُها وهُرعت لسيارتي منطلقًا بها سريعًا وهي تصرخُ:

-النجدددددددددددددددة.

ومِن شارع إلى شارع وأنا كالمسعور أبكي على حياة فائتة وعذاب لا ينتهي..وصلتُ لحارة عبيد قنديل..تركت سيارتي بالخارج ودخلتُ جريًا لبيت فتحي..صعدتُ سُلم البيت وكدتُ أقتلعُ باب بيته بيدي..فتحت السيدة العجوز والدته..اقتحمتُ البيت:

-أين فتحي؟

-مَنْ أنت؟

هجمتُ على رقبتها هي الأخرى أخنقُها..صرخت أخواتُه البنات عاليًا وأمهنَّ بين يدي:

-النجددددددددددة..أمي..يا أهل الحارة أغيثونا.

-أين فتحي؟

-فتحي مسافر بالخارج.

-مُسافر أم قُتل؟

-بعد الشر..ابني بالخارج واتَّصل بي بعد وصوله.

-أين هو؟

-لن أخبرك..لن أخبرك.

استمعتُ حينها لصوت الأهالي يقتربون..سيقتلونني إن استطاعوا الإمساك بي..وقفتُ حائرًا ماذا أفعل..وجدتُ أمامي سكينًا على طاولة بمنتصف صالتهم..تركتُ رقبتها ومسكتُها..وخرجتُ شاهرًا لها بوجه مَن يقترب..فررتُ لسيارتي بأعجوبةٍ مُنطلقًا بها..والآن لا وجود لجريمة قتل فتحي على يديَّ..ولم تُقتل سلمى بجواري..ولم يُغْتَلْ جدي الباشا..ولا وجود لسمير..ماذا أيضًا؟ أيحمل عقلي الباطن مزيدًا من المفاجآت لي؟ وصلتُ بسيارتي لمكان بيت فتون..حبيبتي ومعشوقتي الوحيدة بتلك الحياة..سأسافرُ معها بعيدًا عن كل شيء..سأفقد الذاكرة اللعينة رغمًا عني..سأعيشُ حياة جديدة معها هي فقط..وقفتُ بسيارتي ونزلتُ منها ناظرًا لمكان بيتها..لا وجود للبيت..مجرد حُطام لبيتٍ سقطَ وبعض الأنقاض..شُلَّ عقلي حينها..هل ماتت فتون؟ وأين سأجدُها؟ سألتُ أحد المارة:

-مِن فضلك.

-أؤمر.

-هذا البيت...

-تقصد هذه الأنقاض.

-نعم نعم..متى هُدمَ ذلك البيت؟

-منذ سبعة أشهر تقريبًا.

-أأنتَ متأكد؟

-نعم..أنا صاحب ذلك المحل هناك، ومِن سكان هذه المنطقة، وأعرفها ومن بها واحدًا واحدًا..هذا البيت كان آيلًا للسقوط، وهُدِمَ منذ سبعة أشهر.

-أتعرف ساكنيه؟

-مَن تريد؟

-فتون..فتون فوزي.

-لم تسكن سيدة بهذا الاسم هنا.

-إنها فتاة..تذكَّر جيدًا أرجوك.

-يا سيدي..الدور الأول كان به الحاج شفيق السيد وعائلته، والدور الثاني كانت تسكنه فتاة وحيدة اسمها عزة.

هالني ما سمعتُ، ولكنه يؤكِّد شيئًا واحدًا..مرضي اللعين..أحداث وهمية عايشتُها وغرقتُ بتفاصيلها بعيدًا عن أرض الواقع..تركتُ ذلك الشخص متعجبًا بعدما تيقَّنتُ من كل شيء..بقيَ مكان واحد..بيتي أنا وفتون..ذلك البيت الذي قضيتُ معها به أجمل أيام حياتي وإن كانت قليلة فهي كفيلة بإنقاذي..انطلقتُ ناحيته وأنا لا أعرف لماذا لم أذهب إلى هناك أولًا..ربما كنتُ راغبًا بالتأكُّد من جريمة قتلي لفتحي..صداع يفترس رأسي..آه لآلامي.

تساءلتُ كثيرًا: إن كان ذلك البيت المهدوم كانت به فتاة اسمها عزة..فكيف وصفته لي فتون أنه بيتها؟ لعلها سكنته بعد فتون..كل شيء جائز..وصلتُ لشقتنا..فتحتُ بابها..دخلتُ لذلك المكان الدافئ..بحثتُ عنها بكل مكان..لا أثرَ لها..حتى صورتنا الكبيرة المعلقة بوسط الصالة لا وجود لها..لا وجود لملابسها بدولابها..فقط ملابسي أنا..زجاجات خمر فارغة وممتلئة..ولوحات رسم ملقاة هنا وهناك..وكأنني دخلتُ صومعتي المهجورة..مَن أحضر هذه الأشياء إلى هنا؟ برقت عيناي وانسابت دموعي..يكاد قلبي يُحتضر..خطر لي حينها فكرةٌ تقتلني:

-قد تكون فتون لا وجود لها هي الأخرى. قد تصير وهمًا صَنَعَه عقلي الباطن الباحث عن حُبٍّ مفقود منذ صغري..عقلي سينفجر..بحور من الدموع لا تجفُّ بعينيَّ..جلستُ بمكاني على كرسي كالمشلول..صوت موسيقى يخترق أذنيَّ..تغير المكان من حولي وكأنني مجرد من الزمان والمكان بتلك الحياة العجيبة..فرقة موسيقية تعزف مقطوعة ألف ليلة وليلة..وأنا جالس على كرسي حليق الذقن لا أتحرك وقد مَرَّ يومان على تلك الحقيقة المؤلمة التي اكتشفتُها..وتيقَّنتُ تمامًا من مرضي، وطلبتُ من عزيز البدء بعلاجي من جديد..وجهَّز الباشا لهذا الاحتفال الكبير بالقصر احتفالًا بي وبعودتي سالمًا بعد طول اختفاء..وكأنني أراه لأول مرة بحياتي..ذلك العجوز الشرس أراه الآن بملامح طيبةٍ حنونٍ..خاصة بعدما حكى لي عزيز عن لوعته وحزنه لفقداني بالفترة السابقة، وأنه بكى كثيرًا على إخوتي بعد موتهم..لدرجة أنه انعزل عن الجميع تاركًا كُلَّ أشغاله مدة تقترب من الشهر، وكأنه كان مكتئبًا هو الآخر..ذلك العجوز الذي مات له ابن وثلاثة أحفاد وقارب الرابع على الموت..كان ينظر لي بحُبٍّ شديد بذلك الحفل..وللحقِّ هناك حقيقة واحدة الآن عليَّ تصديقها..هذا الرجل العجوز جدي هو الوحيد المتبقي من تلك العائلة..هو الحضن الجبري لي مهما يكن..ذلك العجوز الذي سيحلف اليمين غدًا ليصير رئيسا للوزراء..ابتسمتُ له وغِبتُ بشرود استثنائي..الموسيقى مستمرة حولي..تجربة قاسية لا يتحملها بشرٌ مررتُ بها..وحساب بالدنيا عن كل آثامي قبل الآخرة..كل مَنْ حولي يتراقصون بهذا القصر المهيب..ما زالت تلك الأوهام تدور أمام عينيَّ..أرى شهرزاد بفستان يتلألأ تتراقص مع أحد المدعوين وتبتسم لي عن بُعد..ونيفين تقف ناظرة لي عن بُعد وابتسامتها الساحرة تخطف قلبي..وأرى أحمد أخي يتراقص مع فتون مبتسمين لي..فتون سأنساكِ..أنتِ وهمٌ لا محالة ولا وجود لك..سأبحثُ عنك بأحضان زوجتي نانسي..ابتسمتُ لها عن بُعد..من الآن عليَّ تعوُّد تلك الهلاوس حتى أُشفى تمامًا..قد يأتي يومٌ أجلس فيه أحكي ذلك لأولادي..دمعت عيناي ناظرًا لنانسي المتألقة هي الأخرى أمامي تتراقص مع مجدي..تذكرت أشياء تناسيتها وسط تلك الأوهام..مجدي ذلك الصديق الشريف الممزق القلب..الرافض بالبداية لتسلُّم ميراثه عن أختي الحبيبة..وبعد إلحاحٍ من جدي تسلَّمه ووزعه بالكامل صدقة

جارية على روحها الطاهرة..كم أحبُك يا صديقي! وتلك الرقيقة نانسي..التي تحمَّلت كل شيء لأجلي..تحمَّلت رجلًا مُهدَّدًا بالعُقم..نعم..عرفتُ ذلك بعد زواجنا بعدة أشهر..أخبرني طبيبي الخاص بصعوبة حملها لقلة حيوناتي المنوية..وحينما علمتْ ذلك أصرت على الاستمرار بحياتها معي وعلاجي..يا لها من أحداث مهمة طُويت بذاكرتي أمام أوهام لا وجود لها! عليَّ العلاج من الغد..قد تتغير حياتي إن رأيتُ لي ولدًا يحمل اسمي..وإن حدث ذلك سأسميه سمير..سمير نادر أمجد رشوان عبد الغني النصراوي..وذلك الطفل القابع ببطن سما أخت زوجتي..الحامل بشهرها السادس..سيصيران أخوين علينا توفير الحياة الكريمة لهما..أدعو الله من كل قلبي أن تنتهي تلك الأزمة وليكفِ ما حدث لي..وليكفِ ذلك الحساب..لعل الله يغفر لي آثامي..تردد صوت شهرزاد بأذنيَّ تلك اللحظات بذلك الكابوس الجبري الوهمي:

--تلك هي الأزمة..راغب بالتوبة وثمنها يعني موتك، مشكلة أزلية لا أجد لها حَلًّا، تلك هي المشكلة. تلك هي الأزمة.

أيًّا كان فاعترافي بذنوبي سيُلحق الضرر بكل من حولي..لا ذنب لهم..لو كنتُ سألقَى حتفي جراء جرائمي لكنتُ اعترفتُ..ولكن هؤلاء مَن يحملون كل الحُبِّ تجاهي..لن أُلْحِقَ بهم أيَّ ضررٍ مهما يكن..تتعالى الموسيقى بأذنيَّ..موسيقى حالمة بواقع يُشبه كابوسًا آن له الرحيل..أغمضتُ عينيَّ أُحلِّقُ معها عاليًا..تاركًا روحي تبلغ عنان السماء..ورحتُ بسُبات عميق..وكأنني لم أنم طوال حياتي..غدًا ستشرق الشمس..أكادُ أجزمُ بذلك..هؤلاء المحبون لي سأرى مستقبلي بعيونهم هم..سأعيشُ لهم وليس لي..يتلاشى صوت الموسيقى رويدًا رويدًا..شيء ما يوقظني..فتحت عينيَّ غير مُدركٍ أين أنا بهذه اللحظات..كانت صورة زفاف سما وعزيز أمام عينيَّ..يبدو أنني بغرفتهما..شيء لَزِجٌ بيدي..ورجال يقفون حولي..نهضتُ جالسًا أُحاوِلُ رؤيتهم وإدراكهم..بُهِتُّ مبرق العينين..سما مقتولة بسكين بجواري ودماؤها بكل مكان..ورجال الشرطة حولي وبينهم مجدي ينظر لي والدموع بعينيه..لا أفهم شيئًا..وعزيز يصرخُ عاليًا ويحاولون منعه بعيدًا عني..غضبٌ مُتصاعِد بعينيه..وكأن الله لا يريد لي أبدًا الحياة..وكأن كابوسي يعودُ من جديد.

ذو القناع

(صباح التاسع عشر من ديسمبر-القاهرة)

وقف سيف ممدوح رجل الأعمال المُبتعد عن الأضواء منذ فترةٍ ليست بالبسيطة، فمنذ تنازُلِه عن رئاسته للحزب المصري الجديد لصالح الباشا وقد اختفى بعيدًا بفيلته بالسليمانية وحيدًا

بعدما سافر أولاده وزوجته للخارج هربًا من الفضيحة..وقف مدمع العينين أمام صورته مع أخيه الراحل عن الحياة..المغدور به شاكر ممدوح..اللواء شاكر ممدوح مدير الأمن الأسبق..المقتول غدرًا والمُلفَّق له تهمة قذرة اضطرته للابتعاد كُليًا عن الساحة السياسية..لم يكن له خيار آخر..فمن جانبٍ ضغوط الباشا وأزمته المُفتعَلة لاسترداد أصول ماله من الحزب، ومن جانبٍ آخر تلك القضية المُلفَّقة لأخيه..لم يجد أيَّ دليل يثبت به براءتَه..حاوَلَ مِرارًا وتكرارًا دون جدوى..ولكنه أخيرًا سيخرج للدنيا كلها..سيستعيد مكانه..سيجلس على كرسيه من جديد..ومَن يدري، لعل القادم أفضل بكثير ممَّا سبق..نظر لصورة أخيه بفرحةٍ ممتزجة بدموع تنساب بعينيه:

-الآن فقط..أُثبِتُ براءتَك يا أخي. نَمْ وارتَحْ بقبرك..فاليوم سيُدفع ثمنُ الغَدْرِ بك، وقريبًا سيلحق بك، ولكنك لن تراه يا أخي؛ فالجحيم ينتظره، أما أنتَ فهنيئًا لك الجنة.

كان بجواره جريدة صباحية بطبعتها الأولى..وبصفحتها الأولى فضيحة كبيرة هزَّت الوسط السياسي..صورة الباشا عبد الغني النصراوي وصورتي أنا نادر أمجد رشوان تتصدَّر أخبار كل الصحف تحت عناوين: "حينما يصبح الفساد عقيدةً ودينًا"، "حاميها حراميها"، "نجحت السلطات الأمنية بكشف لغز مقتل مدير المخابرات الحربية".

وانقلبت الدنيا رأسًا على عقب منذ الساعات الأولى للصباح..قوات كثيفة من الشرطة قبضت عليَّ بتوقيت القبض نفسه على جدي الباشا..تبًّا لذلك! مَن سيخرجني من هذه المحنة تلك المرة؟ ومَن قَتَلَ سما نصير؟ ذهول شديد سيطرَ عليَّ..لا أفهم أيَّ شيء..خرجنا مُكبَّلين بالحديد بأيدينا كمجرمين عتيدي الإجرام..ملأ جدي الدنيا صياحًا وغضبًا دون جدوى..لا حياة لمن تنادي..الطوفان شديدٌ هذه المرة.

اقتادونا كالأغنام..ووصلنا لمديرية الأمن..وخضعنا للتحقيق منفردين..كُلٌّ بتحقيق مُنفصل..كان جدي الباشا يصرخ بهم غاضبًا:

-أجُنِنتُم؟ أنا عبد الغني النصراوي رئيس الوزراء..ما هذا الهُراء؟ ستُحاسَبون أشدَّ حسابٍ.

نظر إليه اللواء محسن بمنتهى الجدية، فهو مَن يُدير هذا التحقيق..كان بالغرفة عدد من قيادات الداخلية، فالقضية حساسة للغاية:

-اهدأ يا عبد الغني بك..لم تُنصَّب رئيسًا للوزراء بعد، أنتَ مجرد مواطن عادي ومتهم بقضية كبرى..ومِن حقِّك الدفاع عن نفسك، وحتى إن كنتَ رئيسًا للوزراء فلن يرفعك ذلك فوق القانون..القانون فوق الجميع.

-مُتَّهم؟ عبد الغني النصراوي مُتَّهم؟ بماذا؟

أشار اللواء محسن حينها إلى ضابط آخر فقام بإدارة تسجيلٍ صوتيٍّ على جهاز بجواره..خرج صوت عبد الغني منه:

-سلمى.

-باشا الباشاوات.

-ساعة وتجيلي.

-عيوني يا باشا.

كان ذلك صوت سلمى عبد الفتاح على الجانب الآخر وانتهت المكالمة سريعًا..وبدأ تسجيل آخر..صوت سيارة تقف وبابٌ يُفتح..وكأنه تسجيل تمَّ بالهواء الطلق للباشا دون عِلمه:

-بنفسك يا باشا؟

-الأمر خطير لا يحتمل التأجيل أو الترتيب.

-كنتَ أرسلتَ أيًّا مِن رجالك إليَّ.

-كُفِّي عن الحديث..لا وقت لدينا.

-كلي آذان مصغية.

-شاكر ممدوح.

-مدير الأمن؟

-الليلة على سرير أيٍّ من بناتك؟

-كيف؟

-مقتولًا.

-وهي؟

-مثله تمامًا؟

-ولماذا؟

-نفِّذي الأمر دون نقاشٍ.

-والثمن؟

-لك ما تطلبين.

-أوامرك مُجابة يا باشا.

-خذي..ضعي هذه الحقيبة بجوارهما.

صوتُ فَتْحِ الحقيبة.

-دولارات!

-مزيفة.

-تصبح على خير يا باشا.

- أريدُ أن أفتح عينيَّ بالصباح على خبر فضيحته.

ضحكتْ بخلاعةٍ شديدة:

-أحلامك أوامر يا باشا.

وانصرفت..وهنا انتهى التسجيل..كانت عينا الباشا مبرقتين..غَضِبَ غضبًا شديدًا:

-التسجيل ده مزيف..ستُحاسَبون أشدَّ حسابٍ. مَن حرَّضكم ضدي؟ أعدائي ينصبون لي شَرَكًا مُزيفًا لن أسكت..ستندمون كلكم..ستندمون.

لم تكن تلك هي التهمة الوحيدة..ما زال بجراب الحاوي كثيرًا من المفاجآت..ابتسم اللواء محسن مستهزئًا به..وباللحظة نفسها كنتُ بغرفة التحقيق المجاورة..أُشاهِدُ ما يشاهده الباشا..مقاطع مسجلة الواحد تلو الآخر..كُلٌّ منها يُنهي حياتي شنقًا على أحسن تقدير..وليس بمفردي..ومعي جدي الباشا أيضًا..أدار الضابط المسئول عن هذا الجهاز اللعين شريطه المُسجَّل..أعرفه جيدًا..أرسله إليَّ الشخص ذو القناع من قبل..والآن أدركتُ كل شيء..كُتِبَتْ شهادةُ وفاتي..وخانني ذلك المُقنَّع.

لقطات متتالية لي وأنا أُعذِّب متهمين كُثرًا..تَبِعَه بعض اللقطات وأنا بالفيوم في أثناء تجارة الآثار..فيديو مسجل لن يُطعن فيه أبدًا كالصور..وتبعه صور الطب الشرعي تثبت أنني كنتُ مخمورًا بتلك القضية القديمة لقتل بائع سوق العتبة..لم ينتهِ الشريط المسجل عند هذا الحد..هناك ما هو أخطر من ذلك..لقطات لي وأنا أرتدي ذلك القناع..قناع فانديتا خلال قتل تلك القائمة من السياسيين والصحفيين ورجال الأعمال أصحاب المواقف المعادية للتيار الديني..تَبِعَها لقطات لي وأنا أدخل أحد المحال بوسط البلد وأشتري القناع..هأنا أضعه على وجهي..تَبًّا لذلك! ولكنني سأنكر..لن يثبت أبدًا أن صاحب القناع القاتل هؤلاء هو أنا..وليس معنى شرائي للقناع أن أكون قاتلًا ومجرمًا..هناك العديد من الأقنعة المعروضة للبيع..ولكن الشريط المُسجَّل لم يعطني فرصة للإنكار..ما زال هناك ما هو أخطر من ذلك..لقطات لي وأنا بدورة مياه دار الأوبرا المصرية أمُدُّ يدي بخزان المياه وأُخرِجُ تلك الحقيبة المحتوية على المسدس الناري..ولقطات أخرى وأنا أقْتُلُ ذلك الضابط برأسه بغرفة تبديل الملابس بالكواليس مرتديًا زيَّ الأمن المركزي والقناع..ولقطة أخرى وأنا أرتدي تلك الملابس والقناع..ضاعَ كُلُّ شيء..لن أنطق ببنت شفة..الجريمة مثبتة لا محالة..واختُتِمت اللقطات بتسجيلٍ جنسي وأوضاع حميمية مع حبيبتي الغائبة فتون..برقت عيناي حينها..أهي حقيقة عايشتها؟ سالت دموعي..الآن تأكدت أنها حقيقة بعد فوات الأوان..الآن عرفت أن عشقي لها ليس دربًا من

دروب الاختلال النفسي وذلك المرض اللعين..الآن تأكدت أن هناك شخصًا آخر يقبع بالظلام يملك مشنقتي..شخصًا يرتدي قناع فانديتا..يخترق حياتي ويحدد مصيري..ألهذا الحد اخترقني؟ لدرجة تسجيله لحياتي الجنسية مع حبيبتي وزوجتي بالسِّرِّ؟ إن كنتُ أستحقُّ ذلك العقاب..ما ذنب تلك الرقيقة فتون؟ لا أدري، هل يطهرني أم يتخلَّص مني؟ ولكن كل ما أعرفه الآن أنني سأدفع ثمن آثامي دفعة واحدة..سأُشنق حتمًا لا محالة..سأصير مِثالًا قذرًا لرجل ظالم استغلَّ سلطته وماله بفساد لا نهاية له..ظالم استغلَّه أعداؤه..وكأن هناك مَن دعا الله واستجاب له..اللهم اضرب الظالمين بالظالمين وأخرجنا من بينهم سالمين..لم يتوقف الأمر عند هذا الحد..انتشر ذلك الفيديو على مواقع التواصل الاجتماعي بكل تفاصيله..فضيحة كبرى..لا مخرج منها..ودفعتُ فاتورة الأعمال الإرهابية كلها بالفترة الأخيرة.

لم يجد الباشا مَفرًّا من تلك الأزمة الضخمة..لم ينطق بأي كلمة بالتحقيق بعدما شاهَدَ ذلك الفيديو المُسجَّل..تصارعت الدنيا بقلبه..وانتهى كل شيء..تحطَّم..ذلك العجوز الشرس سيقتلونه عن قريب..سيُعدم معُلَّقًا بمشنقة تزهق روحه للجحيم..وبدلًا من جلوسه على كرسي رئيس الوزراء سيدخل قبره بفضيحة لن تُنسى..وحتى إن نجح المحامون بالادعاء ببطلان ذلك التسجيل والتشكيك بصحته فماذا سيفعل بتزوير أوراق رسمية ليخرجني من قضية قتل بائع العتبة؟ وماذا سيفعل بتلك الفضائح؟ الآن فقط تم اغتياله معنويًّا..لن يصدقه أحد بعد الآن..وحفيده القاتل رأسًا من رؤوس الدولة وبشكل واضح لا تشكيك به..لن يتركوه..سيعتبرونه شريكًا له..وكل مَن كان يساعده بالخفاء ستمتدُّ أيديهم هذه المرة لإسكاته للأبد قبل النطق بأي شيء..سيقتلونه بأي لحظة..قرَّر الباشا حينها أن يسبقهم..لن يعطيهم الفرصة لذلك..ولن يعطي أعداءه الفرصة للانتقام..لن ينكسر حتى بموته..غافَلَ الباشا أحدَ الضباط وهَجَمَ عليه، وسريعًا استلَّ سلاحه الناري منه خُفيةً..وجَّه المسدس ناحية رأسه..وبلحظة واحدة خرجت رصاصة لتنهي كل شيء..وانفجرَ عقله الذي طالما دبَّر وخطَّط به للوصول لأعلى المراكز..الباشا الذي خطَّط كثيرًا للوصول لكرسي رئاسة الدولة ذاته..تلك كانت خطته..ولكن ضاع الحلم بلحظاته الأخيرة..ومات الباشا..رَحَلَ الظالم لعالمٍ جديدٍ ليتبوأ مقعده بالجحيم..مات جدي.

ومَرَّت الساعاتُ وأنا كالجثة الناشب الجميع مخالبهم بها..ولكن روحي تجزع من الخروج..تخاف عذابًا أبديًّا بجحيم منتظر لا محالة..ما زلتُ أتمسَّك بالحياة ليس حبًّا بها..ولكن رعبًا من مصير مُستعرِ..يا ليتني ما حييتُ! يا ليت عمري انتهى بذلك الحريق القديم! يا ليتني متُّ مع أبي وأمي! يا لَحسرتي! يا لعذابي! سأُلقَى بسعير لا نهاية له..ومهما أصرخ بالغوث..فلا مُغيث لأمثالي..يومئذٍ لا ينفع الندم.

سبقني جدي إلى هناك وأنا بالطريق إليه..انتابني شعور دفين بالسعادة لموته بتلك الطريقة..شعور يلوح من بعيد وسط كل هذه الأحزان والفضائح..وكأنني لم أقتنعْ يومًا أنه بريء من دم أبي وأمي وأخي سمير..

جلستُ بزنزانة فردية تلك الليلة مستسلمًا منتظرًا حُكم الإعدام وكأنني أتمنى أن أُحاسب جراء أفعالي وجرائمي لعل الله يرحمني..تساءلتُ والدموع تنساب من عينيَّ: هل تجوز الرحمة لمثلي بعد كل ما فعلتُ؟ أبعد كل هذا الظلم والطغيان يرحمني الله؟ كم مِن بكاءٍ لا ينفع بعد فوات الأوان! وكم مِن مجرم نادى بالتوبة بلحظات حياتِه الأخيرة..جفَّت الأقلام ورُفعت الصحف..لا توبة بعد اليوم.

مؤكَّد نشرت الجرائد كل تفاصيل القضية..وسلسلة الجرائم المتهم بها..وكذلك ذلك الفيديو الذي شاهَدَه الجميع على مواقع التواصل الاجتماعي..وانتحار الباشا..أشفقتُ على نانسي وفتون..ما ذنبهما في فضيحة لن تُغتفر؟! وحتى إن استطاعت نانسي تخطي ذلك بمالها فماذا ستفعل فتون الوحيدة الفقيرة؟ كاد قلبي يتمزق ألمًا عليها..أراها تقرأ سلسلة الجرائم المتهم بها والدموع بعينيها.

-قتلٌ مع سبق الإصرار والترصُّد لمدير المخابرات الحربية عبد الوهاب الضو.

-الاتجار بالآثار.

-قتل عمد لبائع سوق العتبة.

-قتل عمد لقائمة طويلة من السياسيين والصحفيين ورجال الأعمال.

-الاشتراك مع جهات إرهابية وتسريب معلومات ساهمت باغتيال خمسة عشر ضابطًا.

-قتل عمد لسما نصير.

الغريب أنني لا أتذكر شيئًا ليلتها..شربت كؤوسًا من الخمر غاب بها عقلي بذلك الحفل الأخير..ولماذا أقتلُ سما ومَن ببطنها؟ تساءلتُ كثيرًا دون جدوى عن هوية ذلك الشخص ذي القناع..وإن كنتُ مقتنعًا أنني مريض بالفصام والازدواج..فهل يعني ذلك أن ذلك الشخص هو أنا؟ أنا مَنْ قتلتُ كل هؤلاء..أنا مَن حاسبتني حسابًا عسيرًا..وإن كنتُ كذلك بالفعل..لماذا قتلتُ سما نصير؟ ولماذا صوَّرتُ لحظاتي الحميمية مع فتون؟ أيُّ جحيمٍ هذا؟ رأسي ينصهر رويدًا رويدًا..آه لآلامي!

باب زنزانتي يُفتح..دخل أمين الشرطة مناديًا إيايَ:

-نادر أمجد رشوان..زيارة.

تعجَّبتُ كثيرًا..مَنْ يريد زيارتي؟ أهناك مَنْ يريد رؤيتي بهذه الدنيا بعد انكشاف جرائمي؟ فعزيز أصبح يكرهني، ومؤكَّد أنه يُريد قتلي، فقد قضيتُ على حياتِه وأضعتُ زوجته وابنه المستقبلي..ونانسي أيضًا لن تراني إلا لتبصق بوجهي إمَّا لكل هذه الفضائح والجرائم المؤكدة وإمَّا لذلك الشريط الجنسي..لم يتبقَّ سوى مجدي أو فتون..أحدهما يريد مقابلتي..تمنيتُ من كل قلبي أن تكون فتون بانتظاري..أرتمي بأحضانها مرةً أخيرة أُودِّعُها فيها..وصَدَقَ حدسي..كانت هي..فتون فوزي..تنتظرني بغرفة الزيارة..عيناها ممتلئتان بالدموع..وما إن

رأيتها حتى امتزجت دموعنا بحضن أخير..نظرَ إلينا الضابط الموجود بالغرفة متأثرًا..كان ذلك هو النقيب شريف النجار..لاحظتُه..نظرتُ إليه أنا الآخر مُحاوِلًا تذكُّرَه..وجهه يتداعى أمام عينيَّ..إنه الضابط نفسه الذي هربت منه بكابوسي وأوهامي..حينما كنتُ أتخيل قتل سلمى عبد العزيز وبصحبتي سمير..برقت عيناي....اقتربتُ ناحيته:

-أتقابلنا مِن قبل؟

-نعم..مرةً واحدة.

-أين؟

-هنا بالمديرية..كنتُ منقولًا حديثًا من الصعيد، وتقابلنا هنا بمكتبك.

-متى بالتحديد؟

-وقت انتحار اللواء ناصر العربي..ولكنك تقدَّمت بعدها باستقالتك.

ابتسمتُ ساخرًا..عقلي الباطن أستخدمه بهلاوسي لمجرد أن رآه مرةً واحدة..تبًّا له! نظر ناحيتنا مُتأثِّرًا:

-فلأترككما قليلًا.

خَرَجَ وتركني مع فتون..حبيبتي الوحيدة بهذه الدنيا..دموع عينيها لا تتوقف..قبَّلت يدها بحرارة شديدة:

-آسف يا حبيبتي..فلتسامحيني.

-علامَ أسامحك؟

-على كُلِّ جرائمي..على كُلِّ فضائحي.

-لن أحاسبك يا نادر..لن أحاسبك.

-كنتُ أتمنى أن أعيش باقي عمري معكِ ولكن...

كانت مضطربة..تخفي عينيها عني..أدارتْ ظهرها..

-لم أمنحك أي شيء..لا مال ولا حبًّا دائمًا..فقط وجعًا وذكرى وفضيحة لا حَلَّ لها..فتون..اهربي بعيدًا..سافري لبلد لا يعرفك بها أحدٌ.

نظرتْ تجاهي:

-نادر..اجلس واستمع لي جيدًا.

-ما الأمر؟

-هناك حقيقة عليك معرفتها..لن أخفيها عنكَ أكثر من ذلك.

زاد توترها واضطرابها..جلستُ ناظرًا إليها متعجبًا..تحركت بالغرفة، تتلاشى أن تتلاقى أعيننا:

-اسمي ليس فتون.

-ماذا؟

-اسمي عزة..عزة فواز التهامي، لا تتعجَّبْ فهناك كثير من الأسرار عليك الاطلاع عليها الآن.

-أي أسرار؟

-أسرار الرجل ذي القناع.

برقت عينايَ، لا أصدق ما استمعت له أذناي..نهضتُ ناحيتها:

-ماذا؟

-الرجل ذو القناع يا نادر. اهدأ واسمعني جيدًا، فلا وقت للتساؤلات.

-أنا لا أفهمُ أيَّ شيءٍ.

-أنا لستُ تلك الفتاة المظلومة الميِّت حبيبها وأمها والكارهة والدها..أنا لستُ تلك المُعذَّبة بحياتِها كما ادعيتُ..وكل ما حكيتُه لك كذبٌ وبُهتان.

-مَن أنتِ؟

-أنا عزة فواز..فتاة عاهرة أبيع جسدي لمَن يدفع أكثر.

-لا أُصدِّقُ ما تسمعه أذناي.

-اسمعني للنهاية..والدتي حاولتْ دومًا إبعادي عمَّا يدفعني أبي له..أبٌ فاسد لا يفيق من الخمر..ينتهك حرماته على مرأًى ومسمعٍ من أمي التي لا حِيلةَ لها..أحكمَ الفقرُ واليُتمُ وثاقهما منذ زمن على تلك الأسرة..تلك الفتاة المُنتَهَكة ترعرعتْ على نجاسةِ والدها فتحوَّلت إلى عاهرة..وبيومٍ ما عرَّفني أحدُ زبائني إلى صاحبة فيلا راقية تُدار للدعارة الفاخرة، طلبت مني العمل لديها بكثير من المال لجمالي الأخَّاذ على حَدِّ قولها، كانت تلك هي سلمى عبد الفتاح..وزاد المال بيدي ولكن أبي كان ينهب كل ما أكسبه، فابتعدت عنه خاصة بعد موت والدتي ومرَّت الأيام أنهلُ فيها من مالٍ مغموسٍ بعرق جسدي على أسِرَّة عُشاقي..كنتُ فاكهة الفيلا لأعلى سعر..وهناك كان الحضن الجامع لكل الفاسدين والمرتشين وكبار القوم..لطالما دارت صفقات مشبوهة أمام عينيَّ بمباركة سلمى وزبائنها..سلمى التي كان يحميها جدُّك ..بتلك الفترة أحببتُ شابًّا فقيرًا لا يعرف عني أي شيء سوى عزة الفتاة الفقيرة التي لا تعمل

وتبحث عن عملٍ، أخفيتُ عنه كل شيء..كان جارنا القديم إبراهيم محفوظ، ونشأت بيننا قِصَّة حُبٍّ شديدة..فكرتُ كثيرًا أن أترُكَ ما أنا فيه وأن أعيشَ معه حياةً طاهرةً، ولكن منعني ذلك المالُ الذي أنهلُ منه ليل نهار وماذا سأخبره عنه..الاختيار كان مستحيلًا..إما هو وإما المال..صراع استمرَّ كثيرًا دون حسمٍ..إلى أن جاءت تلك الصفقة اللعينة.

-أي صفقة؟

-سلسلة من جرائم القتل والاغتيالات ومطلوب مَن يُنفِّذها بمقابل ماديٍّ ضخم للغاية..مئة مليون دولار.

-وهل تُدار مثل هذه الصفقات بتلك الطريقة؟

-رجل أجنبي يهودي الجنسية كان زبوني الدائم..وبيومٍ ما وهو بأحضاني بعدما أفضى شهوته إليَّ طلب مني ذلك الطلب بسِرِّيَّةٍ تامَّة..هُرعت بعدها وحكيتُ تلك الصفقة لسلمى وطلبتُ منها مساعدتي لإيجاد الشخص المناسب لتنفيذ صفقة العمر.

-وكنتُ أنا ذلك الشخص.

-لا.

-من إذًا؟

-شخص طموح..كانت سلمى تسهر معه كل ليلة، يختلي بها كثيرًا وكأنه حبيبها الوحيد..غامض..كثيرًا سألتها عنه، وكانت إجابتها لا شأن لك به، أخبرتني سلمى أن أموالنا تلك الضخمة لا بد لها مِن غطاء شرعي، وذلك الشخص هو الوحيد القادر، على حِمايتها، وكشفت لي خُطة مُحكمة..خُطة تَحيكُها معه.

-أنا لا أفهمُ.

-انتظرْ..ذلك الشخص هو..عزيز شوقي.

-عزيز؟

-نعم..طبيب فقير..لا مانع لديه من التخلي عن أيِّ شيء ليصبح من الأثرياء.

-مُحال..عزيز؟

طبيب يَدَّعي الشرف والأمانة وينتظر الفرصة..أيَّ فرصةٍ لاقتناصها.

-وكيف يُصبح غطاءً شرعيًّا لتلك الأموال وهو فقير؟

-عزيز كان يُخطِّط لامتلاك كل ثروتك وثروة زوجتِك.

كانت كلماتها تصفعني..لا أصدّق ما تسمعه أذناي..هذا هو الجحيم بعينه.

-قصةُ حُبٍّ من طرفٍ واحد..عزيز أحبَّ نيفين أختَك وحاولَ مِرارًا وتكرارًا التقرُّب إليها دون جدوى..وبعدها بسنين رأى نانسي نصير بنت الحسب والنسب وتكرَّرت معها المأساة نفسها..أحبها وقبل أن يخبرها بأي شيء.. جئتَ أنتَ وخطبتها..أضعتَ عليه فرصته للفوز بها..وبالوقت نفسه تزوجتْ نيفين بمجدي، زادت غيرته منك ومن عائلتك..أقسمَ أن يُفرِّقَ جَمْعَكم، ويفوز بنانسي..خَطَّط لحادثة سيارة ماتت به أختُك وقُيِّدت ضد مجهول..كان ذكيًّا لا يترك أيَّ دليلٍ خلفه..تخطيتَ أنتَ تلك الأزمة وتزوجتَ نانسي..كانت خُطته أن يُصوِّرَك بأوضاع جنسية مع أي فتاة ويرسلها لنانسي ويُفرِّق بينكما ثم يظهر هو.. الصديق الوفي القاطع علاقته بك لخيانتك إياها، ويتقرَّب إليها ليفوز بها بنهاية الأمر، وكانت سلمى تحاول إيقاعك وممارسة الجنس معك، ولكنك لم تقترب منها قط..لم تمارس معها الجنس..وبكل مرة تعود سلمى فيها تَجرُّ أذيال الخيبة بكاميرا فارغة من علاقة جنسية يهدم بها علاقتك بزوجتك..وطلب مني التدخُّل لمحاولة إيقاعك بالحب. وبالفعل ظهرتُ لك أمام المديرية وتظاهرتُ أن مجموعةً قامت بخطفي وأنتَ أنقذتني منهم، ثم اختفيتُ وكان مُخطَّطًا أن أظْهَرَ لك مرةً أخرى وأوقِعَكَ بحبي حتى ننال المُرادَ، ولكن تلك الصفقة أوقفتْ خُطَّته.

-إبليس.

-صفقة ثلاثية..أنا وسلمى وعزيز..واجتمعنا وبدأنا التخطيط، كان يرسم كل شيء ببراعةٍ شديدة..وكانت الظروف تساعِدُه بشدةٍ، أُصِبْتَ أنت بمرض الفصام..وبدلًا من علاجك كان يُعطيك دواءً يزيد من عصبيتك وهلاوسك..حبوبًا للهلوسة مُخصَّصة موضوعة بعلبة المُهدِّئ..كان يعلم أنك لن تُدرِكَ ذلك أبدًا..لن تكتشفه مُطلقًا..واخترع حينها شخصية الرجل ذي القناع..وتواصَل بها مع اللواء ناصر العربي وفريد الدمراوي استعدادًا لتنفيذ أولى تلك العمليات ..ولكن فريد كان غَبيًّا وكشف نفسه مُصوَّرًا مُتباهيًا بجريمته باغتيال شادي سعد الله..وانقلبت الدنيا، وخاف عزيز أن يصلوا له يومًا ما ولكننا طمأنَّاه، فكل ما سيعلن عنه فريد حينها أنه قابَلَ الرجل ذا القناع ليس إلا..وبدأ يلاعبك بعدها بتلك الشخصية ليُجرِّدَك مِن كل أسلحتك..وشاركتُه أنا بتسجيل شريط جنسي لإبراهيم معي..وهدَّده هو به بالشخصية ذات القناع نفسها، وخطَّط لعملية وزارة الداخلية ليُوهِمَك ويُشتِّت بحثَك، كان يُدرِكُ تمامًا أن البحث وراء إبراهيم محفوظ لن يصل لشيء..وبِعْتُه أنا مقابل المال..واخترتُ الثروة لا الحب، وبعدها حصل عزيز مصادفةً على تلك الصور المدينة لك بالفيوم بتجارة الآثار من أحد رواد فيلا سلمى..واشتراها ولاعَبَك بها بعدما تخلَّص من فريد مقتولًا ليُبعِدَ الشرطة تمامًا عنه..فريد الغبي الذي أخطأ للمرة الثانية بإرساله لفتحي عبد العزيز بدراجته البخارية ليتسلَّم خَطَّ سير الضباط كان مِن المفترض أن يقوم بذلك بنفسه ..وهنا تعرَّف عزيز إلى فتحي مُخترِقًا تحقيقاتك بالقضية أولًا بأول..ووصل له قبلك وأعطاه تلك الصور المدينة لك..ولقَّنه شهادة اعترف بها لوزير الداخلية ووضعَك بوضعٍ مُحرِجٍ للغاية وكالعادة أنقذك جدُّك ..عزيز كان مُصرًّا أن تكون تلك الشخصية ذات القناع شخصيةً وهمية لكُلِّ مَن حولك..حتى لا يظنَّ أحدٌ أنه حقيقي، أنتَ فقط مَن تراه وتحكي عنه..ليتيقَّنوا أكثر من مرضك..حتى فريد كان ضامنًا لصمته..وأصبحتَ مُجرَّدًا من سلطتك ونفوذ جدك وحمايته..وفريسة لمرض يزداد بيديه بعلاج

خاطئ..واستخدمك لتنفيذ كل الجرائم المطلوبة من الاغتيالات، وخطَّط جيدًا لها..وكانت أصعب جريمة هي اغتيال مدير المخابرات الحربية، ولكنه استطاع رشوة أحد الضباط المخصصين للحراسة يومها بوضع مسدس بدورة المياه المتفق عليها، وفصل التيار الكهربائي باللحظة المناسبة مقابل مليون جنيه..وتمت العملية بنجاح..وغيرها..ووعدك بالابتعاد. وعُدتَ أنت لحياتك وقابلتُك أنا في مُصادفةٍ مُرتبةٍ، وأحببتني وتزوجنا..وبالتوقيت نفسه طلب عزيز الزواج بسما أخت نانسي..ليستعدَّ لرسم الجزء الأخير من خطته..أولًا لاكتساب غطاء شرعي لأمواله مبدئيًا..ثانيًا قتلها بالوقت المناسب واتهامك بقتلها، وكَشْفِ كل شيء وشريطك الجنسي معي، وبهذا لن يتبقَّى أحدٌ سواه ونانسي..الرجل المقتولة زوجته والسيدة المغدور بها من زوجها..وثروة طائلة وحب بحث عنه كثيرًا.

-وأخي أحمد؟

-كان يرتِّب لأمره وأرشَدَه عن بُعد لطريق فيلا سلمى عن طريق أحد أصدقائه..وهناك عرفَ الهيروين، وهو يُدبِّر له اللحظة المناسبة ليشمَّ جرعة زائدة ويموت..لكنك اختفيتَ وأخَّرتَ خطوته الأخيرة، كان عليه قتل سما واتهامك بقتلِها..ولكن أين كنتَ؟ بحثنا عنك كثيرًا ولم نَجِدْكَ..ستة أشهر..إلى أن لعبت المصادفةُ دورًا ووجدك مجدي بذلك المسجد، وعُدتَ واستردتَ عافيتك، ولم يبقَّ أمامه سوى التنفيذ..وقد كان.

كانت عيناي حمراوين كالدم..غضب يجتاحني بكل ضراوة..هجمتُ عليها أخنقُها..

-يا أولاد الكلللللللللللللللللللللللللللللللللللب.

كادت روحها تخرج..صرختْ مكتومًا صوتها:

-انتظر..انتظر لا تقتلني..سأساعِدُك على الهروب والانتقام منه.

تركتُها..التقطتْ أنفاسَها..سألتُها:

-وما مصلحتُك؟

-أخافُ على حياتي..عزيز قتلَ سلمى..ذَبَحَها، أكاد أجزم بذلك..وناصر العربي..وفريد الدمراوي، ولم يتبقَّ سواي..مَن يُدريني لعله يقتلني أنا أيضًا ليحصل على المال كله؟ أشعرُ به بكل مكانٍ، ومالي بحسابه البنكي.يرفض تسليمي إياه.

-وما استفادَتُكِ إن قُتِلَ؟

-أنتَ..عشرة ملايين جنيه..ستكتبُ لي شيكًا بتاريخ قديم يستحقُّ الصرف..وشهادة زواج رسمية عند مأذون يوم هروبك، وأيضًا بتاريخ قديم..وبعد انتقامك منه سأهرِّبُك للخارج وسأهربُ معك.

-لتربحي بالحالتين..إن نجحتُ فعشرة ملايين..وإن فشلتُ فميراثٌ بعد إعدامي.

-لا وقت لديك..سأُهرِّبُكَ بالغد في أثناء ترحيلِك إلى النيابة.. لا تقلق.

دخلَ وقتها أمين الشرطة:

-الزيارةُ انتهتْ.

وتلاقَتْ أعيننا لحظةً أخيرة..وقد بات كل شيء واضحًا الآن..وعرفتُ مَن هو ذو القناع المُدمِّر لحياتي..عرفت عزيز شوقي..الصديق المُزيَّف..العدو اللَّدود.

بكالوريوس إعدام

(العشرون من ديسمبر-القاهرة)

صباح جديد يطلُّ من شباك زنزانتي مُعلنًا عن قُرب موعد انتقامي الأخير..أنا نادر أمجد رشوان..مَن كان اسمه كفيلًا ببثِّ الرعب والهلع بقلوب كثيرين يُتلاعَبُ بي إلى هذا الحد؟ ألهذه الدرجة كان ماكرًا ذكيًّا؟ كيف خدعني؟ وأنا كالأبله أحكي له كل شيء عن ماضٍ لا يعرفه أحد..يا ويلك يا عزيز! ستلقى حتفك اليوم لا محالة..مهما يكلفني ذلك..لن تهنأ بنهايتي..سأنتزع عقلك هذا وأُمزِّقُهُ بأنيابي أيها الصديق المزيف.

..اقتربت الساعة من الثامنة صباحًا..فُتح باب الزنزانة..واقترب الميعاد..موعد عرض المتهم على النيابة..صَحِبَني النقيب شريف النجار ومجموعة من أمناء الشرطة والجنود بسيارة شرطة كتلك التي ينتقل بها المساجين مكتظين بالخلف..جلستُ على أرضيتها منتظرًا اللحظة الحاسمة..أنظر بوجوه هؤلاء المساجين والمتهمين حولي بالسيارة متوترًا..وبأحد الكباري..شعرتُ بالسيارة تنحرف قليلًا..واستمعتُ لطلقات نارية متلاحقة توقَّفت بعدها السيارة تمامًا..وفُتح باب السيارة الخلفي..مجموعة من الملثمين المُدجَّجين بالسلاح..وقُتِلَ شريف النجار ورجاله..بهذه البساطة قُتِلَ ما لا يقلُّ عن ثمانية أفراد من الشرطة..وسيارة بالجهة المقابلة تنتظرني.. هُرعتُ تجاهها..ركبتُ وكانت فتون تقودها أو لنقل عزة فواز..وانطلقتْ سريعًا تاركةً هؤلاء الملثمين يَفرُّون أيضًا تاركين خلفنا بحرًا من الدماء المُتعلِّقة برقبتي هي الأخرى. لم أتحدث معها كلمة واحدة..وهي أيضًا لازمت الصمت تمامًا..كلانا يشتهي الانتقام..كلانا ينتظر لحظة موت عزيز بفارغ الصبر..

وصلنا لقصر جدي..ذلك القصر الذي طالما خططَّ عزيز للجلوس على عرشه بمفرده والتخلُّص منا جميعًا دون نانسي لينهل مِن بحر حُبِّها بمفرده..مدَّت فتون يدها وفتحت تابلوه السيارة وناولتني سلاحًا ناريًّا:

-خُذْ حقَّك.

-أهو بالداخل؟

-بكل تأكيد.

نزلتُ مُتوجِّهًا للداخل وكل ما جرى لي يتداعى إلى رأسي يُمزِّقُني..أحداثٌ لا يتحملها بَشَرٌ عايشتُها بمفردي بسببه هو فقط حتى وإن كان ذلك جزاءً لآثامي فليس من حقِّه مُحاكمتي..فأنا لا يحاكمني أحدٌ..لا يستغلني أحدٌ ليصل لمراده..تبًّا لك أيها الماكر الدنيء! دخلتُ القصر باحثًا عنه..حتى وجدتُه..رأيتُه وجهًا لوجه..كان جالسًا بغرفته شاردًا..وما إن رآني حتى وقف مُندهشًا:

-نادر!

-ألم تتوقَّع رؤيتي مرة أخرى؟

تحوَّلت نظراته إلى الحدة والانتقام هو الآخر..ظهر على حقيقته..رفعتُ مسدسي دون تردُّد ناحية رأسه وقبل أن ينطق بأي كلمة..اخترقت رصاصتي رأسه ووقع صريعًا ينازع..برقت عيناه..مؤكد رأى مقعده بالنار.

-هنيئًا لك الجحيم يا صديقي.

قلتُها ساخرًا منه باصقًا تجاهه..رنين هاتف يتعالى..إنه هاتفه..ابتسمتُ مُستهزئًا:

-عفوًا الرقم الذي طلبته ربما يكون مقتولًا، حاوِل الاتصال بوقتٍ آخر.

جلستُ هادئًا مفكرًا في الخطوة القادمة..تلك العاهرة التي أحببتُها مِن كُلِّ قلبي وتريد الزواج بي رسميًّا..عليَّ قتلها هي الأخرى..نعم تستحقُّ ذلك لخِداعها إيايَ..سأقتلها وأفِرُّ بعيدًا..لن تنالني الشرطة من جديد..كُتب عليَّ الهروب طوال عمري..ونانسي ماذا أفعل معها؟ فكرتُ كثيرًا..لا مَفرَّ من الابتعاد..لاحظتُ أنه لا أحد بالقصر..صوت الرصاص كان كفيلًا بإصابة من يستمع له بالهلع..أين نانسي إذًا؟

رنين الهاتف يعود من جديد....اقتربتُ منه ساخرًا..نظرتُ على شاشته..برقت عيناي ممَّا رأيته..مكتوب عليها..رقم مجهول يتصل بك..ما هذا الهراء؟ رقم مجهول يتصل على هاتف عزيز..مددتُ يدي متوجسًا ضاغطًا على زِرِّ قبول الاتصال واستمعتُ للصوت بالجهة الأخرى..يا إلهي..أنه هو..الشخص ذو القناع يضحك بهيستريا:

-رائع..نفَّذتَ كل ما أريدُ، ألم تتساءل: كيف لطبيبٍ فقيرٍ أن يفعل كُلَّ ذلك؟ غبيّ.

وعادت ضحكاته تقتُلني..نظرت لعزيز..انسالت الدموع من عينيَّ..لقد خدعني..قتلتُ أعزَّ أصدقائي..صرختُ فيه:

-مَنْ أنت بحق الجحيييييييييييييييييييم؟

-قد حان الآن موعد الفقرة الأخيرة من مسرحية نادر أمجد رشوان، وقبل إسدال الستار من حقِّك، ومِن حَقِّ الجمهور أن يعرف مَن أنا، مَن هو صاحب القناع..قناع فانديتا..أنتظرك الآن بصومعتك، أتتذكرها؟ تعالَ.

وانتهت المكالمة..نيران مشتعلة بصدري..أخفيتُ المسدس بملابسي، وخرجتُ جريًا..يا لك من وغدٍ أثيم! سأقتلع جذورك من الدنيا بأكملها..لن تهرب مني هذه المرة..خرجتُ باحثًا عن عزة وسيارتها..لا وجود لها..خرجتُ من باب القصر..أبحثُ عن أي شيء يُقلُّني لصومعتي القديمة..شخص ما على دراجة نارية يقترب..أوقفته بالقوة..شاهرًا مسدسي بوجهه..وتحركتُ بها مُنطلقًا بسرعة كبيرة..إنها لحظاتي الأخيرة بعالم الألغاز..سأنهي كل شيء بعد دقائق معدودة..ولكن أين تلك العاهرة؟ ألم تطلب مبلغًا من المال وزواجًا رسميًّا؟ فهمتُ الآن..إنها مؤامرة وهي ضلع مهمٌّ فيها..خططتْ معه لكي أقتُلَ عزيز بدلًا منه..ولكن لماذا؟ ما دخل عزيز بكل هذا؟ يكاد رأسي ينفجر من تلك التساؤلات القاتلة..ألغاز لا حصر لها ستنتهي بمجرد أن أعرفُه..أعرفُ صاحب قناع فانديتا.

وها قد وصلتُ..دخلتُ لصومعتي جريًا..الباب مغلق..فتحتُ الباب بحذر شديد..خطوتُ للداخل متوجِّسًا شاهرًا مسدسي..كان هناك..جالسًا على كرسي بنهاية الصومعة..مرتديًا قِناعه اللَّعين..وقف حين رآني شاهرًا مسدسه بوجهي عن بُعد..وكانت هي أيضًا هناك بجواره..عزة فواز..وعلى وجهها ابتسامة عاهرة..كانت تعدُّ نقودًا بحقيبة كبيرة يبدو أنها ثمن ما فُعِلَ بي ونصيبها بتلك الصفقة اللعينة..نطقتُ بحدةٍ شديدةٍ:

-مَنْ أنتَ؟

-أنا المُنقذ..عميد أكاديمية العدل على هذه الأرض.

قالها ضاحكًا بهيستريا.

صرختُ فيه:

-كُفَّ عن هذا الهُراء.

-أنتَ الآن ستتخرج من أكاديميتي حاصلًا على بكالوريوس إعدام بجدارة.

-اكشفْ عن وجهِك الحقيقيّ.

-مِن حقِّك..المحكوم عليه بالإعدام له الحقُّ بأمنيةٍ واحدة.

-وأنتَ أمنيتي.

-ولكَ ما طلبتَ.

مَدَّ يدَه حينها ليكشف عن وجهه..لحظة فاصلة صدمتني..آخر ما تصوَّرتُ..برقت عيناي من هول المفاجأة..ذلك الرجل ذو القناع..قناع فانديتا الذي دمَّرَ حياتي..واستغلني بجرائم لا مثيل لها..هو..الرائد..مجدي نور الدين..تلاحقت أنفاسي لا أُصدِّقُ ما تراهُ عيناي..كان يضحك بهيستريا..اقتربَ مني قليلًا شاهرًا سِلاحَه:

-أنا يا نادر..مجدي..صديقك مَن سلبتَ منه كل شيءٍ بالحياة..صديقان أحدهما يقفز لأعلى المناصب والآخر يُعاني، أحدهما يَنْعمُ بالمال والثروة والآخر فقير، أحدهما يَنْعمُ بالحُبِّ من الجميع والآخر يُنزع منه أيُّ حُبٍّ مُرتَقب، نانسي..منذ وقعت عيناي عليها ووقعتُ بحُبِّها..عشقتُها، عَشِقْتُ لفتاتِها..نظراتِها..همساتِها..وأنتَ خطفتَها مني، وهي..رفضتني..حينما صرَّحتُ لها بحبي رفضتني، قالت لي مَن تكون حتى تُناسِبَ عائلة كعائلتي؟ أقسمتُ يومها أن أصيرَ ملكًا تتمنى الارتباط به..وتزوجتُ أختَك ورتَّبتُ لموتها..وقُيِّدت قضيتُها ضد مجهول..كنتُ حَذِرًا للغاية..مُحال أن يشكَّ فيَّ أحدٌ..ورفضتُ ورثي منها حتى أرتفعَ بعيني نانسي..تلك التي لا ترى غيرَك..وأصرَّتْ على الزواج بك..والوقوف بجوارك..وجاءت الخطوة الثانية..تدميرك..بتسجيل جنسي تُشاهِدُه لتكرهك وأحاول معها من جديد، ولكنك كنتَ رافضًا لخيانتها..لطالما حاولتْ سلمى معك وأنت لا تُبالي..حتى جاءت الفرصةُ لامتلاكِ كل شيءٍ..الصفقة..وظَهَرَ قِناع فانديتا..فكرةٌ جهنمية، ونفَّذْتُ كُلَّ شيءٍ بحرفيةٍ لا مثيل لها..كنتُ معكَ كظِلِّك..أعرفُ عنك كل شيءٍ، وأُلاعِبُك..وناصر العربي..من يحتاج للمال..سجلتُ له اتفاقه معي واستخدمتُه بالوقت المناسب..وقتلتُه بزنزانته..وفريد الدمراوي ذلك الغبي قتلتُه أيضًا بالوقت المناسب بعدما وصلتَ لفتحي عبد العزيز..تلك الثغرة التي كنتَ تقتربُ منها..للحقِّ كنتَ ضابطًا ذكيًّا..أتعبتني كثيرًا حتى أُجْبِرَك على الاستقالة..كنتُ أراهِنُ على ذلك..وساعدتُ فتحي على السفر هربًا للخارج..ألم تسأل نفسك قط: مَن قام بتصويرك بالفيوم في أثناء تجارتك بالآثار؟

-لم أكن أعلم أنني أُصادِقُ أفعًى تترقَّب الفرصة لسحقي.

-وجدُّك..الذئب العجوز..مَن يحميك..وَقَعَ تحت براثني بالمصادفة حينما قرَّرتُ قَتْلَ سلمى..فهي شاهدة على كل جرائمي يا صديقي.

التفتَتْ عزة هنا ناحيته بخوفٍ مُرتبكةً:

-ليلتها بعد ذبحها تسللتُ لفيلتها باحثًا على حاسوبها الإلكتروني عن أي ملفات مُحتملة لإدانتي..كنتُ أعرفُها جيدًا..كانتْ كالأفعى تُؤمِّن نفسها، وبالفعل وجدتُ تسجيلاتٍ عدة..لي ولأشخاصٍ عديدين بمراكز مهمة بالدولة..ومنهم جدك..ذلك التسجيل الصوتي المدين له بالاتفاق لقتل اللواء شاكر ممدوح..أخفيتُه للوقت المناسب وقبل الإعلان عنه بِعثُه لأخيه سيف ممدوح طالبًا حِمايته، كان عليَّ أن أجِدَ لنفسي ظهيرًا يحميني مثل جَدِّك.

-ألم أكن مَريضًا؟

-لا، كنتَ مريضًا وأنا قمتُ باستغلال ذلك على أكملِ وجهٍ.

-كلب.

-تلك هي الدنيا يا صديقي..وأنتَ أخذتَ كُلَّ شيءٍ وتمتَّعتَ به، وحان الوقت لتتركَ لي تلك الدنيا لأتمتَّعَ بها أنا.

-ولماذا لم تُتِمَّ خُطتك بعد توريطي بهذه الجرائم؟

-لأنك اختفيتَ قبل تكملة خُطتي..قَتْل سما نصير واتهامك بقتلها..وقَتْل عزيز شوقي..بالمناسبة قَتْلُك إياه مُصوَّرٌ بكاميرا صغيرة.

ضَحِكَ بهيستريا.

-الكاميرا الخفية.. والآن وقد تحقَّقت أمنيتُك..أخبركَ بأُمنيتي قبل مفارقتِك الحياة، نانسي ستصبحُ زوجتي، أَعِدُك بذلك..لقد حجزتُ لها بفندقٍ بعيدٍ عن ذلك القصر الحزين..أنا وهي وثروة طائلة..لم يتبقَّ من تلك العائلة سوانا.

ضغطتُ على زناد مسدسي عدة مرات..لا طلقات به..سُحقًّا لهما..تلك العاهرة المشغولة بإحصاء غنيمتها متوترة وذلك القذر..استمرَّ بضحكاتِه المُستفِزَّة:

-أتظنُّ أن أمرًا كهذا يفلتُ مني؟ مسدسُك لا يحوي سوى طلقةٍ واحدة. آن الأوان..ولكن قبل ذلك سأمحو بيدي آخر شخصٍ شاهدٍ على جرائمي.

وبلحظةٍ واحدة أطلقَ رصاصًا من مسدسه بصدر عزة فواز..وقعتْ تلفظ أنفاسها الأخيرة على تلك الحقيبة المملوءة بالمال..صوَّب بعدها مسدسه تجاهي:

-والآن جاء دورُك..لا وقتَ لديَّ، فالشرطة على وشك الوصول لتجد جثتك وجثتها..مع السلامة يا صديقي..في رعاية الله.

حينها مدَّت عزة يدها تحت بنطالها، وأخرجتْ مُسدسًا كانتْ تُخفيه بصعوبةٍ، وأطلقتْ عليه الرصاص غدرًا..برقت عيناه بتلك اللحظة..وفسدت خُطته بلحظتها الأخيرة..وكأنها كانت تشُكُّ بغدره كما قالت لي بالزنزانة..وَقَعَ المسدس مِن يده وهو ينظر لي بعينين يملؤهما الغدر والخِسَّة والنذالة..وقعَ صريعًا..فارقا الحياة بآنٍ واحد....اقتربتُ ناحيته..وعيناي ممتلئتان بالدموع..أبكي على حالي..أتذكَّر كلمات شهرزاد بذلك الكابوس الوهمي:

-نهايتُك لم تأتِ بعد..تلك هي الأزمة..راغبٌ بالتوبة وثمنُها يعني موتك.

وكُتِبَتْ نهايتي..وحيدًا شريدًا هاربًا..صوت سارينة عربات الشرطة يقترب..ليعلن النهاية.

صوتُ مذيعٍ يخرج من مِذياع قديم بغرفة صغيرة بإحدى اللوكاندات القديمة بأطراف المدينة:

-احتفالات ببعض الميادين بذكرى ثورة الخامس والعشرين من يناير، وأنباء عن ترشيح السياسي سيف ممدوح الرئيس الأسبق للحزب المصري الجديد رئيسًا للوزراء بالحكومة الجديدة، وما زال البحثُ جاريًا عن الإرهابي الهارب نادر أمجد عبد الغني النصراوي، وقد رُصِدَت مكافأة مئة ألف جنيه لمن يُرشِد عن مكانه.

مددتُ يدي لأُغْلِقَ ذلك الصوت الكريه..وأدرتُ كاميرا مُعلقة على حامل أمامي..وجلستُ على كرسي أمامها..أُسجِّلُ تلك اللحظات..كان على وجهي ذلك القِناع..قناع فانديتا:

-سيدي الرئيس..كيف حالُك؟ أُهنِّئك بذكرى الخامس والعشرين من يناير، وأُعرِّفُكَ بنفسي..أنا المُنقِذ..عميد أكاديمية العدلِ على هذه الأرض..سيدي الرئيس، أأنتَ مُستعدٌّ الآن..مُستعدٌّ للاحتفال؟

-تمت بحمد الله-

بكالوريوس إعدام

د عمرو البدالي

١٢-٥-٢٠١٧